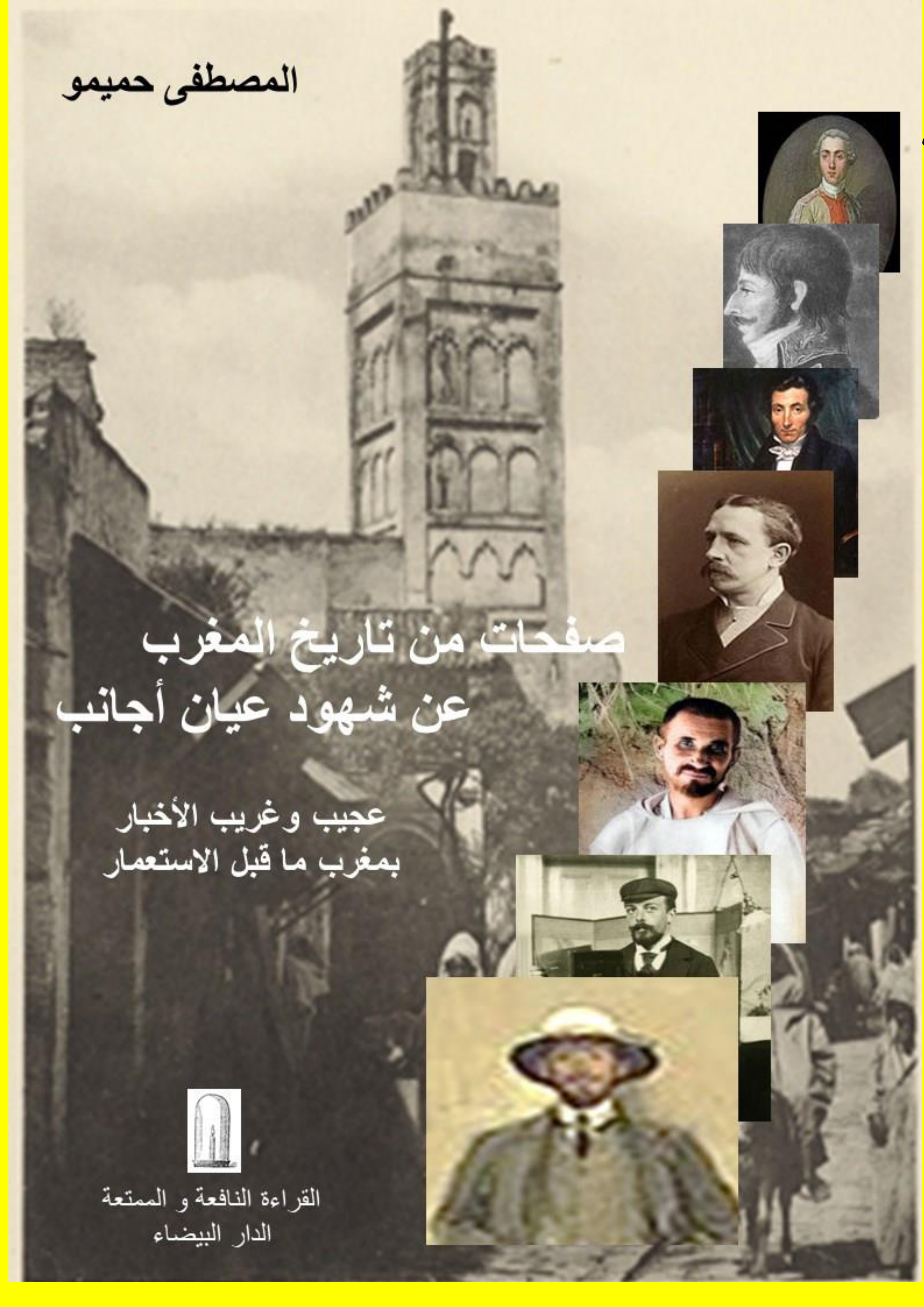

المصطفى حميمو
صفحات من تاريخ المغرب
عن شهود عيان أجانب
عجيب وغريب الأخبار
بمغرب ما قبل الاستعمار
القراءة النافعة و الممتعة
الدار البيضاء

صفحات من تاريخ المغرب
عن شهود عيان أجانب

عجيب وغريب الأخبار
بمغرب ما قبل الاستعمار

رقم الإيداع القانوني
978-9920-34-026-7

ردمك
2021MO3191

تأليف
ذ. المصطفى حميمو

فهرس الكتاب

لماذا هذا الكتاب ؟

وأنا أقرأ كتاب "المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إنولتان 1850-1912)" لمؤلفه الأستاذ أحمد التوفيق، وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية، حتى يومنا هذا من سنة 2023، تذكرت حقيقة وطبيعة المقررات المدرسية في مادة التاريخ التي جاء في حقها بكتاب "البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم" عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط ما يلي : "إن القوى السياسية، سواء كانت في الحكم أو خارجه، حرصت أشد الحرص على ترسيخ الهوية الوطنية بُعيد الاستقلال، فاستعملت التاريخ لإذكاء الحس الوطني وتوحيد أمة حاول الاستعمار أن يشتتها بكل الوسائل، وطبيعي أن يكون ذلك التاريخ موجها نحو تخليد الأمجاد والتركيز على كل المظاهر التي تدعم وحدة الأمة وتقوي الدولة الوطنية. وهذا التاريخ لم يكن بالضرورة هو التاريخ الذي تتوق إليه همم المؤرخين الشباب والذين كان اهتمامهم يتعدى الوجه الزاهي والمشرق من الماضي".

فتأكد لي أن مضمون مادة التاريخ المدرّسة ظل ولا يزال مقتصرا عمدا على ذكر ما جاء في أحداث الماضي من أمجاد وعلى إظهار وجهها الزاهي والمشرق من دون غيره. واكتشفت من خلال نفس النص مبررات تلك السياسة وتفهّمتها.

لكنها في نظري سياسة صارت لا تخلو من مخاطر منذ الثورة الإيرانية سنة 1979. سياسة جعلت منذ ذلك الحين ولا تزال تجعل المتلقي يقارن أحواله اليوم بأحوال أسلافه المقتصرة في تدريس مادة التاريخ على حُلوها من دون مُرّها. فيتوهّم أنهم عاشوا في بحبحة دائمة من الأمن والاستقرار والرخاء. ولما يستغني بما تلقاه في المدرسة عن قراءة تاريخ أمته بكتب المؤرخين المسلمين الوافرة، بحُلوها ومُرّها، ولا يقرأ عوض ذلك من تراث المسلمين سوى كتب التفسير والحديث والفقه، يتوهّم أن ذلك الماضي الزاهي والمشرق قد ساد بفضل اتباع تعاليم الإسلام النبيلة، فيسخط على حاضره ويعزو ما فيه من فساد، متوهما دائما، للابتعاد عن تعاليم الدين الحنيف في هذا العصر من دون غيره. ومن ذلك الوهم المركب يــــتــــغـــــذى، في نظري، التطرف المطالب بالعودة إلى ماضي يُـــــتــــوّهــــــم أنه كان كله مجيدا.

فلا بد، في نظري مرة أخرى، للأجيال الصاعدة من أن تعرف حقيقة تاريخ عيش أسلافها، حُكاما ومحكومين، كما وردت، بحُلوها ومُرها، في كتب المؤرخين المسلمين أنفسهم. وعلى ضوئها فقط تتمكن من تقييم أحوالها في حاضرها التقييم الصحيح، فتنظر بالمقارنة، وبمعيار مقاصد الشريعة، من حفظ النفس والدين والعرض والمال، هل تــــــقــــــدم بلدها في ظل الدولة الحديثة أم تــــقـــهــــقــــــر. وكان ذلك مطلب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، لكن من حيث البحث العلمي الصرف في التعليم العالي، وليس من أجل توعية الأجيال الصاعدة منذ الصغر.

سياسة جامعية تمخضت عن البحث في التاريخ الاجتماعي وعن وضع الأسس لتاريخ علمي شمولي، وذلك منذ سنة 1976. ومن نتائجها في نفس الكتاب "البحث في تاريخ المغرب حصيلة وتقويم" الصادر عن نفس الكلية، أن البحث الجامعي خلال هذه المرحلة قد ركز على التاريخ الاجتماعي بدل التاريخ السياسي كما كان الشأن عند المؤرخين التقليديين، وترسخ الاعتقاد لدى المؤرخين الجدد بأن التاريخ الحقيقي يوجد على مستوى القاعدة وأن دراسة تاريخ المجتمعات من خلال مشاغلها اليومية أخصب وأفيد من دراسة التاريخ السياسي وحده. وذلك هو بالضبط كنت أتشوق إلى اكتشافه وما ينبغي أن يكتشفه كل المغاربة عبر المقررات الدراسية وعبر مختلف وسائل الإعلام حتى لا يشمتوا في الدولة العتيقة البائدة ويحسبوها أفضل من الدولة الحديثة.

فكان من ثمرات تلك البحوث على يد باحثين مغاربة كتاب "المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إنولتان 1850-1912)" للأستاذ أحمد التوفيق وزير الأوقاف حاليا. من بعد المقدمة وبعض الفصول التمهيدية يأتي المؤلف انطلاقا من الصفحة 141 بنموذج من نماذج واقع المجتمع بالبلاد، حُكاما ومحكومين، في القرن التاسع عشر. نموذج من قرية إنولتان بمنطقة دمنات. بحثٌ موثق من مصادر ومراجع مغربية، من طرف باحث مغربي غيور على وطنه، وليس من أجنبي مُغرض. كتاب يستحق تدريسه على الأقل في نفس المنطقة. وبفضل الاطلاع على كل ما جاء فيه من حُلو ومُر يتحصن حتما الشباب من كل تطرف، فلا يبغي معه بديلا عن الدولة الحديثة.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما جاء مفصلا في هذا الكتاب عن هذه المنطقة في ذلك العصر وجدته قد جاء مجملا في مضمون كتب الدبلوماسيين والرحالة والزوار الأجانب بمختلف مناطق المغرب، من القرن الثامن عشر حتى بداية القرن العشرين. صحيح أن كل أولئك الأجانب كانوا، بشكل أو بآخر، جواسيس. لكنهم نقلوا في كتبهم صور المغرب كما شاهدوها بالفعل أو سمعوا عنها من طرف مغاربة مسلمين ويهود. والأستاذ أحمد التوفيق كغيره من الجيل الجديد للمؤرخين المغاربة يستشهد في كتابه عن دمنات بشهادات من كُتُب بعضهم الذين مروا منها. ومن شهادات الرحالة والراهب ميشال فوكو في كتابه "استكشاف المغرب"، ألف الأستاذ عبد الأحد السبتي كتاب " بين الزطاط وقاطع الطريق. أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار". ومن كتب أولئك الأجانب ما تمت ترجمته إلى اللغة العربية، ككتاب الراهب فوكو نفسه.

الأمر الذي أثار فضولي وشوقي للبحث عن كتب أولئك الأجانب ولاكتشاف ما جاء في مضمون شهاداتهم عن أحوال المغرب ولا سيما عن أحوال حياة البسطاء الذين يشكلون السواد الأعظم من شعبه. فاستفدت منها كثيرا وتفتحت شهيتي لتعميم تلك الفائدة بين جميع المغاربة، ولا سيما الأجيال الصاعدة والقادمة بتأليف كتاب حتى تكتشف ما خفي عنها من تاريخ بلدها وشعبه ولم تدركه من خلال المقررات الدراسية والمواد الإعلامية التي ظلت تقتصر على التعريف بالوجه المشرق والزاهي من ماضينا من دون غيره. واخترت له عنوان : "صفحات من تاريخ المغرب عن شهود عيان أجانب".

كتاب وثائقي يتشكل من نصوص مختارة من كتب مؤلفين أجانب من فرنسا وأنجلترا وألمانيا وإسبانيا، زاروا المغرب وأقاموا فيه تباعا، ما بين منتصف القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين. تعد مؤلفاتهم شهادات حية على فترات من تاريخ المغرب أرضا وشعبا وحكْما وحُكاما. دوّنوها وطبعوها ونشروها من أجل قرائهم ببلدانهم الأصلية. آذانهم ليست ميكروفونات وأعينهم ليست عدسات كاميرات، وإنما هم بشر جاؤوا إلى المغرب محملين بخلفياتهم الثقافية والحضارية. فكانت لهم أفكارهم المسبقة عن المغرب وعن شعبه وعن نظام حكمه وحُكامه.

وكلهم كانوا، بشكل أو بآخر وكما تقدم، جواسيس في خدمة مصالح بلدانهم. كان يتم استخدام شهاداتهم كوثائق استخباراتية من طرف القوى الأوروبية التي صارت، منذ اكتشاف القارة الأمريكية في أكتوبر من سنة 1492، قوى إمبريالية واستعمارية مغرضة تحت ذريعة نشر الحضارة الأوروبية. فطورت بحريتها وصارت تتنافس فيما بينها على احتلال العديد من البلدان والشعوب ما وراء البحار، بإفريقيا وآسيا وأمريكا. وقد كانت لكل منها أطماع استعمارية بالمغرب وبغيره جنوب المتوسط بالقرب منها. وبما أن كتبهم كانت مطبوعة ومنشورة من أجل عموم القراء ببلدانهم الأصلية، فما كان من مصلحة أولئك الأجانب أن يُكذّب من سبقهم ما جاء فيها ولا من كان سيأتي من بعدهم. بل من أجل مصداقيتهم عند القراء ولا سيما عند الناشرين كانوا بلا شك يتوخون الصدق في شهاداتهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ومع ذلك، إذا ما تنبهنا لكل تلك الخلفيات وتلك الأفكار المسبقة في شهاداتهم فيمكننا أن نطل من خلالها الشيء الكثير من حقيقة أحوال ماضي بلدنا ولا سيما على نمط عيش البسطاء من أسلافنا. وذلك بالمقارنة حينها مع أحوال شعوب بلدانهم المتطورة والمتقدمة. وهو الأمر الذي لا يزال تتعذر علينا معرفته حتى اليوم من خلال

شهادات المغاربة في تلك العصور وشهادات الإخباريين من بينهم ومن بعدهم، اللهم البحوث الأكاديمية المعاصرة من إنتاج أساتذة وطلبة مختلف كليات المملكة.

أمور وأحداث الماضي التي تثير انتباه وفضول الأجنبي بالمقارنة مع ما يجري في بلاده الأصلية، ما كان ليُلقي لها بالا المغاربة، لكونها عندهم أمورا عادية جدا ولا تستحق الإشارة إليها في كتبهم. الغالب ذكره عندهم هو تراجم الأعلام وأحوال الحكام والصراعات السياسية التي كانت تقع بينهم، مع المبالغة في التمجيد والإطراء أحيانا لمن يكتبون لهم من السلاطين والأمراء في عهدهم وفي عهد أسلافهم، مع شيء من التحقير والتبخيس في حق خصومهم بحق أو بباطل. وكل ذلك في مقابل القليل النادر من الأخبار عن أحوال الأرض وأحوال عيش البسطاء من الشعب، وعن طبيعة نظام الحكم الفريد الذي لم يعرفوا غيره.

بمُقامهم في المغرب لغرض مّا، سيظل أولئك الأجانب يشكلون جزءا من تاريخه بالنسبة لعلماء التاريخ من الجيل المعاصر، وشهاداتهم المدونة ستظل عندهم من وثائقه. شهادات يستشهدون بها، كما تقدم، في بحوثهم وفق المناهج العلمية العصرية، وتحت إشراف خيرة الأساتذة بمختلف كليات المملكة. وحسبنا في ذلك ما أشرنا إليه أعلاه من البحوث الأكاديمية القيمة.

وبالنظر لما يعرفه اليوم عموم المغاربة عن ماضي بلدهم عبر المناهج الدراسية وعبر مختلف وسائل الإعلام فلن يسعهم إلا أن يندهشوا ويستغربوا ويتعجبوا، بل ويستنكفوا أحيانا كثيرة مما أورد أولئك الشهود الأجانب من أخبار البلاد والعباد. وبالاطلاع على شهاداتهم بما لها وما عليها، وبمعيار مقاصد الشريعة السمحة المتمثلة في حفظ النفس، والدين، والعرض، والمال، والعقل، سندرك بصفة عامة وسيدرك شبابنا بصفة خاصة أن حاضر بلدنا أفضل وبكثير من ماضيه في كل مناحي الحياة، وأن ما لا زلنا نعاني منه من فساد ومن سوء الأحوال هو أقل سوءا وبكثير مما كانت عليه أحوال أسلافنا. وذلك مع العلم أنه ما خلا مجتمع بشري من فساد ولن يخلو منه أبدا. وبتلك القناعات سنشفق عليهم حكاما ومحكومين، من دون أن نحكم عليهم، بل نقدر ظروفهم والإكراهات التي كانت تثقل كاهلهم. لكن ندرك ونعي جيدا أخطاءهم كبشر فلا نكررها بحال من الأحوال. ونحمد الله في الوقت نفسه على نعم الحاضر التي لا تحصى، فنسعى للمزيد من التقدم بالوطن إلى الأمام، بعيدا كل البعد عن كل تطرف من شأنه أن يهدد أمن البلاد والعباد من أجل إعادة إنتاج أمجاد مُتوهّمة.

هكذا ترجمت إلى اللغة العربية في كتابي المذكور أعلاه، من كتب أولئك الأجانب المقاطع التي أضاءت لي جوانب كثيرة من ماضي بلادنا كان يلفها في ذهني غموض كثيف، ولا سيما تلك التي تتعلق بأحوال الأرض وبأحوال عيش البسطاء من الشعب وبنمط الحكم. وأملي أن تتفتح بها شهية القارئ الكريم كي يطلع على مثل هذه المؤلفات بلغاتها الأصلية أو على تلك التي تمت ترجمتها بالنسبة لمن لا يحسنون القراءة بتلك اللغات. وذلك مع الأمل في أن يتطوع كل من يستطيع لترجمة ما تبقى منها إلى اللغة العربية حتى تعم الفائدة. ومع الرجاء أيضا في أن يهتم الباحثون الأكاديميون بتبسيط وتعميم إنتاجاتهم العلمية القيمة في مادة التاريخ المغربي. وأهيب أخيرا بمختلف وسائل الإعلام كي تهتم بها حتى تثير فضول متتبعيها، فيطلعوا عليها ويستفيدوا من مضامينها ويستمتعوا باكتشاف ما خفي عليهم من تاريخ أسلافهم.

والله ولي التوفيق.

ذ. المصطفى حميمو

التاجر والدبلوماسي الفرنسي لويس دو شينيي Louis de Chénier

باستثناء فترة الانقطاع ما بين عامي 1718م و1767م، ظلت فرنسا دائمًا ممثلة لدى سلاطين المغرب منذ عام 1577م، وذلك إما عن طريق القناصل أو القائمين بالأعمال أو الوزراء المفوضين. وكان لويس دو شينيي Louis de Chénier (1722-1796) من بين أشهرهم. قضى في هذه المهمة الدبلوماسية خمسة عشر سنة، من 1767 حتى عام 1782. وأقام على التوالي في آسفي والرباط وطنجة. وقد حمل في البداية لقب القنصل العام، ثم لقب القائم بالأعمال.



سبق أن سافر شينيي في سن العشرين إلى تركيا وأقام بمدينة إسطنبول كتاجر، حيث تميز ونجح جيدا في التعريف بنفسه، لدرجة أنه تم تعيينه في عام 1750 نائبًا للأمة بتلك المدينة، أي ممثلًا لجميع التجار الفرنسيين فيها. وفي عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله قدم شينيي إلى المغرب مع سفير ملك فرنسا لويس الخامس عشر، وتولى مهامه كقنصل لبلاده بمجرد التوقيع على المعاهدة الفرنسية المغربية في 28 مايو 1767.

أقام شينيي أولاً في آسفي، وفي العام التالي استقر في الرباط، حيث مكث حتى عام 1881. وقضى السنة الأخيرة في طنجة. في الرباط عاش في منزل يقع في شارع القناصل ويطل على نهر أبي رقراق. عاش فيه وحيدًا مدة أكثر من ثلاثة عشر عامًا بعيدًا عن أسرته التي بقيت بباريس في فرنسا. وأخذ خلال تلك المدة إجازة واحدة فقط.

وقد كان يشغل وقت فراغه في إعداد العمل الذي نشره في ثلاثة مجلدات في باريس سنة 1787، عامان قبيل الثورة الفرنسية، تحت عنوان "أبحاث تاريخية عن المغاربة وتاريخ إمبراطورية المغرب" Recherches historiques sur les Maures, et Histoire de l'Empire de Maroc. وأهداه لأخ الملك لويس السادس عشر.

فبعد التعرف على أداء الحكومة المغربية وعلى تقاليد شعبها، أدرك شينيي أن الأوروبيين وخاصة الفرنسيين ليس لديهم سوى رؤية غير مكتملة عن المغرب. فحدد لنفسه سببًا ثانيًا لإقامته في هذا البلد. شرع في إجراء بحث تاريخي عن شعبه بالثقة المستوحاة من الرغبة في العمل الجيد وحب الحقيقة، كما قال. هكذا تضمن كتابه إلى حد كبير التاريخ الطويل للمغرب منذ وصول العرب الأوائل مباشرة بعد ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية.

واقتصرت أنا هنا، وكما ينبغي، على إيراد شهاداته عن المغرب وشعبه في عصره، وهو عصر السلطان محمد بن عبد الله. الشهادات التي دونها خلال إقامته الطويلة في البلاد. وتتعلق بتدين المغاربة وبنظام الحكم وبالقوانين والقضاء والعلوم والتعليم والصحة والطب والأطباء والثروات المدفونة في

الأرض وعلاقات المغرب مع الدول الأجنبية والكوارث وتمرد الجنود السود بمكناس وخسارة الأمير الحبيب وصورة عن السلطان سيدي محمد وأخيراً مشكلة ولاية العهد.

1. تديّن المغاربة

في هذا الفصل سنسافر إلى مغرب سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790) في القرن الثامن عشر، مع هذا الدبلوماسي الفرنسي كي نكتشف أحد معالم عيش أسلافنا البسطاء كما شاهدها وصوّرها في كتابه لقرائه الفرنسيين في عصره. سنرى معه كيف عاينهم يتديّنون. وسنكتشف أنه شاهد بعض الطقوس التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا ومن بيننا من يحسبها حديثة وتفشت فقط في عهد الاستعمار.

تحدث فيه عن المجاذيب والأولياء الصالحين وعن طقوس الأعياد الدينية وعن الصدقات وعن الإيمان بالقدر ومزيته. فقال في المقدمة لقرائه بفرنسا أن تدين المغاربة فيه شيء من التشدد ومختلط بممارسات خرافية احتفظوا بها من ديانات قديمة أو تلقوها من بلدان أخرى. وأشار إلى أنهم يتدينون وفق مذهب الإمام مالك. وبما أنه سبق أن عاش مدة طويلة بين المسلمين الأتراك قال أن إفريقيا أنتجت مصلحين متحمسين أكثر من الدول الإسلامية الأخرى، فنتج عن ذلك بين المغاربة عدد لا متناهي من المعتقدات الخرافية التي خلطوها عن جهل وسذاجة بالدين الحقيقي. فماذا قال عن الولاية الدينية والمجاذيب ؟

المجاذيب والأولياء : يرى أن الولاية في هذا الجزء من إفريقيا، هي إحدى المهن الأكثر إجلالا، وربما الأكثر ربحًا. إنها ميراث عائلي تنتقل من الأب إلى الابن وأحيانًا من السيد إلى الخادم. يزعم الولي بثقة أنه ولي صالح، كما يقول الخياط إنه خياط. عددهم كبير بمقدار عدد الحمقى والأغبياء الذين يُعتبرون أولياء صالحين. وهنا يتحدث شينيي عن المجاذيب، مثل سيدي عبد الرحمن المجذوب في عهد الوطاسيين. ومع ذلك، يقول شينيي، أنه فيما يتعلق بالخوارق المزعومة، ليس الحمقى أبدًا هم من يقومون بها. هؤلاء في أذهان هذه الشعوب عقولهم تقع تحت الرعاية الربانية، فيعتني بهم المغاربة من باب الإحسان، وهو الأمر الذي يشرفهم. لكن هناك من يستغل بشكل جيد هذا الاعتقاد ويتظاهر بالحمق كي يحظى بنفس الرعاية.

وفي المغرب بيت الولي الصالح أو زاويته أو إقليمه، كلها تحظى بحرمة غير قابلة للانتهاك. هذه الأماكن المعروفة منذ زمان، والتي كانت من حيث المبدأ مجرد ملاجئ للحماية من ظلم وقمع الاستبداد، وسّعت لا محالة من امتيازاتها. حتى أن هناك من الأولياء الذين لديهم أراض شاسعة لا يمكن انتهاك حرمتها. سلطة الحاكم تقف عند حدود هذه المجالات، ولا يخضع فيها المرء سوى لسلطة الولي الذي كُرست له. وكان من المعتاد، في زمن الثورات، السفر إلى تلك الأماكن تحت حماية الولي من كل اعتداء. فيتسلل إليها الهاربون من عقاب السلطات كما تسافر فيها القوافل بأمان من دون أن يكلفها ذلك أي شيء. يعني من دون حماية الزطاطة الذين تحدث عنهم الراهب ميشال فوكو في كتابه استكشاف المغرب. وزاد شينيي قائلا أن حكام المغرب الذين يعتمدون في حكمهم فقط على القوة قد ينتهكون أحيانًا حرمة مناطق نفوذ أولئك الأولياء. لكنهم بحكم مصلحتهم في الحفاظ على معتقدات الشعوب الخرافية، فهم دائمًا يحترمون حرمتها. ولم يفسر ما هي تلك المصلحة.

وعن طقوس المغاربة حيال هؤلاء الأولياء الذين تضاعفت زواياهم بشكل كبير يقول شينيي أنهم يتضرعون إليهم للشفاء من بعض الأمراض، ويتوسلون لبعضهم من أجل خصوبة أراضيهم، أو من أجل نجاح أعمالهم. البعض الآخر يُستغاث بهم لإبطال سحر السحرة وعلاج لدغات الثعابين والحشرات السامة جدًا، التي يلعبون بها. وقد رأيت بعضًا منهم، يقول شينيي، يأكلون العقارب. وهناك من تقدّم لهم النساء قرابين من أجل إنجاب الأطفال. وهؤلاء هم من يحظون بالإقبال الأكبر من طرف النساء اللواتي يثقن بمعظم الخوارق المزعومة.

في الجبل، على بعد مسافة قصيرة من فاس، يوجد ضريح ولي يزعم كل من البربر واليهود أنه وليهم. والرأي الغالب هو أنه كان يهوديًا قد دُفن في هذا الجزء من إفريقيا قبل فترة طويلة من مجيء المسلمين. نساء البربر ونساء اليهود اللائي يردن إنجاب الأطفال يسافرن على الأقدام إلى ضريحه في قمة الجبل. بالقرب من هذا المزار، توجد شجرة الغار التي ظلت بطبيعتها تتوالد من جذعها بصفة متجددة لعدة قرون. الأمر الذي أوحى للناس أن ذلك الولي بيده بركة الخصوبة.

ومن بين عدد الأولياء الذين عرفتُهم، يقول شينيي، لأنه من الضروري بقدر ما يمكن للمرء أن يكون لديه أصدقاء في جميع الولايات، كان هناك واحد رائع وحكيم جدًا في المجتمع، والذي كان يحلو له التعاطي في الفضاء العام للممارسات الأكثر إبهارا مصدرها عند الناس إلهام رباني. كان يقلد صوت المدافع وفرقعة القنابل التي يعتبرها المغاربة تنبؤات بالخير أو بالشر. وأقل تغيير يطرأ على المواسم والأوقات والأحداث الأكثر اعتيادية كانت تبرر تلك التنبؤات السخيفة. كانت لهذا المُخادع الماهر أيضًا فضائل أخلاقية عندما يقوم ببعض الأعمال الخيرية. ومغاربة البادية الذين يعتبرونه ملهَما بفضل بركة ربانية كانوا ملتزمين بالتبرع له بجزء من أولى ثمار كل محاصيلهم. وقال شينيي بالرغم من أنه لم يحضر لأي من تلك الخوارق المزعومة، إلا أنه كان يشركه في بعض الأحيان في مكاسبها. واعترف له بأنه يسْخر من فن الخداع الذي كان يستغله في لعب دور الأحمق.

وقال شيني أنه سمع برجال طائفة في الجنوب تُدعى بن حيفا من سلالة النبي جيشوا، في اعتقاده، والذين في نشوة شطحاتهم العنيفة، يرقصون ويتخبطون منتشين بسكرتهم التي تتحول إلى جنون، فيرتمون، وهم يرغون، على كل ما يجدونه أمامهم فيمزقونه إلى أشلاء. يقال أن مجموعة من هؤلاء المجانين تراموا على حمار ومزقوه بأسنانهم وافترسوا لحمه. وقال أنه لن ينتهي إذا أراد أن يسرد أحداث خداع كل المحتالين الذين يبجلهم المغاربة المتلهفون على فكرة الأولياء. تبجيل الناس لهؤلاء المعتوهين أمر لا يصدق. يهتمون بهم ويرعونهم ويهدئون من هيجانهم في لحظات الجنون هذه. ومن بين أولئك الأولياء أشخاص طيبون حقا ويلهمون الثقة فيهم، ويظهرون للناس عن حسن نية. لكن العدد الأكبر يستحق العقاب على الإساءات التي يرتكبونها باستغلال سذاجة الشعوب.

والأولياء الأكثر سكينة، يقول شينيي، هم الذين يلهمون الناس أكبر قدر من التفاني في خدمتهم وفي الإخلاص لهم. وغالبًا ما يدخلون المدن على ظهور الخيل ويسبقهم حامل العلم ويتبعهم عدد كبير من الناس على الأقدام ويركضون في تنافس بينهم على من يستطيع الاقتراب منهم. يضع الولي يده على رؤوس الذين يأتون لتقبيل تلابيب ثيابه والذين يؤمنون بأن من شأن ذلك أن يكفّر عن خطاياهم.

وكأنه عالم اجتماع وهو يخاطب في كتابه قراءه الفرنسيين، ربط شينيي بين تلك التقاليد ونظام الحكم، فقال من السهل أن نرى إلى أي مدى يسهم الحكم الصارم، الذي يلهم دائمًا الإثارة والخوف، في اعتماد الخرافات بين الناس. أرواحهم الخجولة تستسلم بالضرورة لجميع نقاط الضعف الكامنة فيها، لذلك نراهم يذهبون بهدايا، على بعد مسيرة خمسة أيام من بيوتهم، لاستجداء كرامات بعض الأولياء المعتَمدين، يتوسلون لهم بها لنيل عطف ونعم وثقة الحكام أو بعض المنافع الدنيوية. البدو من بينهم لا يتأخرون أبدًا، من بعد الحصاد، عن أداء فريضة زيارة الولي المعتمد الذي يدينون إليه بأكبر قدر من التفاني، ويحملون له معهم باكورة ثمار محاصيلهم الزراعية للتعبير له عن امتنانهم.

وعاين شينيي ما كان لرجال الدين والقضاء وكل علماء الشريعة وجميع المثقفين وكذلك الشرفاء من قدر من القداسة بين المغاربة. تبجيلهم يشمل كذلك من قاموا بالحج إلى مكة. كان التبجيل هاجسا كبيرًا جدًا بين المغاربة لدرجة أنه امتد حتى إلى الحيوانات. الجمل الذي قطع الرحلة إلى مكة يتم الاحتفال بعودته ويُعفى من الاشتغال عليه ويتمتع بالرعي الحر حيثما شاء. والغريب قوله أن نفس التبجيل كان يسع

حتى كهنة المسيحيين، وبشكل أكثر وتحديدًا الذين يشير إليهم القرآن من خلال هندامهم البالي الذي كانوا يرتدونه في القرون الأولى للدين المحمدي. معنى ذلك أنه كانت بالمغرب أديرة للرهبان علاوة على ما كان بالشواطئ المغربية من كنائس للجاليات الأوروبية من تجار ودبلوماسيين. ويفسر شينيي ذلك التوقير لألئك الرهبان بكون الخليفة عمر في القرن السابع الميلادي أوصى بتوقير الرهبان الذين كانوا في القدس في ذلك الوقت والذين عُرفوا بالزي الرث الذي كانوا يرتدونه. ثم انتقل شاهدنا للحديث عن الأعياد والصدقات.

الأعياد الدينية والزكاة: للمقارنة بين الأتراك والمغاربة قال أن الأوائل يحتفلون مدة ثلاثة أيام فقط بعيد الفصح بعد الصوم الكبير. لا ننسى أنه يكتب لقرائه الفرنسيين وبما يفهمون. فيقصد بعيد الفصح عيد الفطر. ثم يضيف، وكذلك نفس عدد أيام كوربان، أو قربان بالتركية كما ذكر، والذي يأتي بعد سبعين يومًا. وهو يقصد بذلك عيد الأضحى حيث يتم ذبح خروف أو أكثر لكل أسرة وتوزيع لحومها على الفقراء. وعن صلاة العيد قال شيني يحتفل به إمبراطور المغرب خارج المدينة حتى يتجمع المزيد من الناس ويحافظ على عادة المغاربة بالصلاة في الريف عندما اعتنقوا الدين المحمدي. فذلك هو ما قيل له ربما لما سأل عن تلك الصلاة بعيدا عن المساجد. وتابع قائلا أن الخروف المذبوح يُرسل إلى قصر الإمبراطور ويقصد بذلك السلطان، بواسطة فارس. وإذا كان لا يزال ينبض عند وصوله، يتم تفسيره ببشارة خير. وبما أن ذلك الاعتقاد مجرد خرافة، فنحن لا نعرف لا أصلها ولا سببها. معنى ذلك أنه كان لا يكتفي بالمشاهدة. لكن قيمة التفاسير التي كان يتلقاها كانت مرتبطة بمستوى تعليم من كان يطلبها منهم.

وقال أن العيدين اللذين تحدث عنهما للتو هما العيدان الوحيدان اللذان يحتفل بهما المحمديون الشرقيون بشيء من البهجة. تجدر الإشارة هنا إلى أن المسلمين اشتهروا عند الأوروبيين في تلك العصور بالمحمديين. ويضيف قائلا أنه يتعين في تلك الأعياد التوقف عن العمل خلال الأيام الثلاثة. أما المغاربة، لأنهم إما أكثر ورعا أو أقل ميلا للعمل كانوا يحتفلون بكل من هذين العيدين مدة ثمانية أيام. ويطبقون الشيء نفسه على عيد المولد، وكذلك عيد العام الجديد الذي يحتفلون به بعد عشرة أيام من بدايته، وهو يقصد بذلك عاشوراء من شهر محرم. ويقول أنه يتم تكريس هذا الأخير بينهم لإخراج الزكاة. وقد شبه ذلك، مخاطبا قراءه بفرنسا، بهدايا السنة الجديدة عندهم. في حين لا علاقة بين الأمرين. ويضيف قائلا أنه في ذلك اليوم، العديد من الأشخاص يتوقون إلى استلام أموال الزكاة. والذين هم في وضع يسمح لهم بالعطاء يحتبسون في بيوتهم من أجل الاقتصاد. هكذا تصور شينيي من يحق عليهم إخراج الزكاة أو فُسره له. مع العلم أن الزكاة في البوادي كانت تدفع للمخزن كضرائب. فماذا عن زكاة الأموال في المدن ؟ هل كانت تدفع رأسا لمستحقيها لصعوبة تقديرها ؟ ربما كان الأمر كذلك، لا ندري.

الصدقات وكرم الضيافة : وهو يخاطب دائما القراء الفرنسيين، يقول شينيي أن الصدقة وكرم الضيافة جعلهما محمد من تعاليم الدين. ولا تتم مراعاتهما بنفس القدر بين المغاربة وبين الأتراك. في تركيا يلاحظ المرء قلة عدد المتسولين وتُوزع فيها الصدقات بشكل يحول دون تكاثرهم. وكرم الضيافة عند الأتراك ممارسة منتظمة لدرجة أن بيوتهم مفتوحة في وقت الطعام لأولئك الذين يرغبون في الاستفادة منه. يُلاحَظ شينيي الشيء نفسه فقط بين المغاربة المتميزين قليلاً. لكنه ليس أكثر شعبية لأن الإمكانيات والاحتياجات في الواقع ليست هي نفسها هنا وهناك. ثم أنهى هذا الفصل من شهادته بالحديث عن الإيمان بالقدر.

الإيمان بالقدر : قال شيني في هذا الصدد أن الدين المحمدي يبدو متفوقا على الأديان الأخرى بميزة الإيمان الأكبر بالمشيئة الإلهية. ويقصد بلا شك الإيمان بالقدر. ويشرح ذلك بقوله أن المحمديين، بدل قوله المسلمين كما تقدم، أقل تأثرا بنكبات الدهر ومصيبة فقدان ممتلكاتهم ومراكزهم. يبدو أن هذا الاعتدال أمام المصائب يثبت في الواقع خضوعًا أكبر لإرادة الكائن الأسمى وإيمانا راسخا به. يعتقدون أن جميع أحداث الحياة بلا استثناء محددة بإرادة ربانية ثابتة. معنى ذلك أن الأوروبيين ما كانوا يؤمنون بذلك، أو فقط البرجوازيين مثله.

ويثني شينيي على ذلك الاعتقاد قائلا أنه كان من شأنه أن يكون واقيا من المعتقدات الخرافية. إلا أن المحمديين وخاصة المغاربة، تجدهم مستسلمين لها بالكامل. ويتهم **الطّلبة** بذلك، كما يعتقد أو قيل له، لما يقول أنه من مصلحة رجال الدين عندهم الحفاظ على هذا الانحراف للزيادة من ثقة الناس فيهم وفي اعتماد تمائمهم ضد الأمراض والسحر وتأثيرات الجن والأرواح. هذه التمائم تحتوي على نصوص من القرآن وملفوفة في قطع من الجلد في شكل دائري أو مربع أو مثلث، تعلق في الأعناق ولا سيما أعناق الأطفال وحتى أعناق الحيوانات لدفع الشرور أو الحوادث المؤسفة. وبنفس الثقة يتوسل المغاربة للولي الذي يعهدون له بحماية أنفسهم من أي خطر. ويبرئ شينيي الإسلام من كل ذلك وبحق لما يقول مخاطبا دائما قراءه الفرنسيين، قد تكون هذه الشعوب قد تبنت هذه المعتقدات الخرافية قبل أو بعد مجيء الدين المحمدي. دين ليس فقط بريئا منها، بل إنها لا تتوافق مع قانون الاستسلام فيه لمشيئة القدر. معتقدات الناس متباينة بسبب العديد من الفروق الدقيقة لدرجة أنه من المستحيل كشفها وتفسير ما بينها من تناقضات.

2. نظام الحكم

في هذا الفصل سنسافر مرة أخرى إلى مغرب سيدي محمد بن عبد الله (1757-1790) في القرن الثامن عشر، مع **الدبلوماسي الفرنسي شينيي**. وذلك من بعد اطلاعنا معه في الفصل على أنماط تديّن المغاربة في ذلك العصر. سنرحل معه كي نكتشف أسلوب حكم السلطان سيدي نحند كما عايشه عن قرب كتاجر وكدبلوماسي، ووصفه في كتابه لقرائه الفرنسيين في عصره. الأمر الذي ما كان للإخباريين والمؤرخين المغاربة لينتبهوا إليه ويدوّنوه لأنه كان عندهم أمرا عاديا ما عرفوا غيره، فلا يتوقّفون عنده.

بخلاف هذا الأجنبي الذي كان تاجرا ودبلوماسيا ومثقفا، ما دام قد كتب مؤلفه هذا عن تاريخ المغرب من ثلاثة مجلدات. فقد كان بلا شك يعرف أنظمة حكم متعددة ومختلفة حتى عصره. منها الملكية بالاختيار بروما العتيقة ثم الجمهورية الرومانية حيث كان الحكم مشتركا بين مجلس للشيوخ وقنصلين منتخبين لولاية مدتها سنة واحدة. وعايش من حول بلاده نظام حكم جمهورية البندقية ونظام حكم جمهورية الأقاليم السبع الهولندية والملكية البرلمانية ببريطانيا العظمى بمجلس اللوردات ومجلس العموم علاوة على نظام حكم الولايات المتحدة جديدة النشأة عند كتابته للكتاب وأخيرا نظام حكم بلاده المقيّد حينها وبقدر ما قبيل الثورة ببرلمان باريز كهيئة قضائية عليا كانت تراقب تشريع الملك فتقبل تسجيله في مدونة القوانين المعمول بها في البلاد أو تردها عليه كي يعيد فيها النظر، اللهم في حال ما حضر بنفسه فيتم تسجيلها بالرغم عن تلك المؤسسة.

كل تلك الثقافة السياسية تجعلنا في رحلتنا هذه إلى مغرب سيدي محمد بن عبد الله مع خبير في النظم السياسية. والمصطلحات المستعملة في حديثه مع قرائه في زمانه ليست بغريبة عنا اليوم، كما كانت بالنسبة لأسلافنا في عصره. أسلافنا الذين ما عرفوا سوى نظام الحكم الذي عاشوا فيه. فالحديث معهم عن الاستبداد والحرية والسيادة والسلطات الثلاث والتشريع والقوانين، كالحديث مع الضرير عن الألوان.

عن طبيعة الحكم : فيقول شينيي مخاطبا قراءه من الفرنسيين المتعلمين والمثقفين في عصره والذين كانوا يفهمون حينها لغته في السياسة، أن نظام الحكم بالمغرب هو الحكم الأكثر استبدادا الذي يمكن للمرء أن يتصوره. لا يخضع فيه صاحب السيادة لأي مبدأ ثابت يمكن أن يتعارض مع إرادته أو يمكن أن يكون بمثابة أساس للثقة العامة في حكمه. بتأكّده من طاعة الشعب المطلقة يجمع كل السلطات في يده. وكل شيء موكول إلى إرادته التامة. فهو من يشرع ويغيّر القوانين بحسب مزاجه ورغباته ومصالحه، وليس لديه ما يخشاه من ذلك.

عن دور الفقهاء في الحكم : ويسترسل قائلا أنه على الرغم من تمتع الفقهاء بالاحترام الشخصي في دول المغرب فليس لهم النفوذ الذي ينعم به نظراؤهم في تركيا. ونذكر هنا بأنه عاش كتاجر بتركيا مدة طويلة قبل مجيئه للمغرب. فيقول في حق فقهاء المغرب أنه ليس لهم أي تأثير على الإطلاق في الحكم.

لأنه لا توجد أية قوة وسيطة بين صاحب السيادة والرعايا. وإذا كان أباطرة المغرب قد استشاروا في بعض الأحيان فقهاء مستنيرين فبصفة شكلية حتى تظهر قراراتهم أكثر شرعية. رأيُ الفقهاء ليس مطلوباً في المغرب. لكنه لا يمكن الاستغناء عنه في تركيا حيث يجب على المفتي تقديم المشورة بشأن كل ما يتعلق بالدولة.

عن غياب الوزراء: وليس لإمبراطور المغرب - هكذا كان يوصف الأوروبيون سلاطين المغرب - وزراء مسؤولون عن إدارة الدولة. ومن السهل أن نتخيل أنه لا يمكن أن يكون لهم وجود في حكومة خاضعة بالمطلق لإرادة صاحب السيادة. هذا الأمير يتصور أنه سيضعف سلطانه إذا نقل جزءًا من صلاحياته إلى أحد خدّامه. ينظر في كل شيء بنفسه. وبنفس الاهتمام يقوم بإعادة إرساء النظام العام في أي إقليم وينظر بنفس الاهتمام في بعض التفاصيل داخل قصره. وقراراته تُحدَّد دائما وفق ما تقتضيه اللحظة، وهو الأمر الذي يتغير بالضرورة بتغير الظروف.

عن طبيعة الوظيفة المخزنية: ويقول أن ما يسمى في أوروبا بالبلاط الملكي، أي مركز إدارة الدولة، يقال له في المغرب "المخزن". وللسبب نفسه يسمي مخزني كل شخص مرتبط بخدمة صاحب السيادة. تقلد هذه المهام في المخزن هي شرفية فقط. بها يكون المخزني من المقربين من الحاكم. والنعم التي يحصل عليها بفضل ذلك التشريف هي كل النفع الذي يجنيه منه.

كل الذين هم في خدمته ليسوا سوى أدوات لتنفيذ إرادته. وظائفهم ليس لها أي شيء ثابت ولا تخضع لأي تتبع. الواحد يكمل ما بدأه الآخر. وغالبًا ما يرسل الأمير أوامر متناقضة في نفس اليوم. ومن يستقبلها لا يدري أيها سينفذ. الذين يخدمونه بأعداد كبيرة لا يتقاضون رواتب. الأسفار والنفقات الصغيرة التي يقدمونها لخدمته هي بالمجان تمامًا. ويعتمد هو على براعتهم في إيجاد وسيلة للتعويض عنها. وكل هذا عايشه شينيي عن قرب كتاجر وكدبلوماسي، وليس من رأى كمن سمع كما يقال.

عن حملات السلطان العسكرية بأرجاء البلاد : هذا الأمير، يقول شينيي، حافظ على الهدوء في دولته من خلال ظهوره بنفسه بين الحين والآخر في أطرافها المترامية. - وذلك هو ما كان يُعرف بالحرْكات-. ويسترسل شينيي قائلا أنه غالبًا ما تكون تنقلاته هذه بسبب شكاوى الرعايا ضد الحكام أو الخلافات التي تقسم باستمرار القبائل المختلفة. المشاعر العدائية فيما بينها تشكل مناسبات لدفع غرامات مالية جديدة. لأن الخلافات والمصالحات التي تقتضي تدخل السلطة وتفعيل القضاء ومنح العفو تنتهي دائمًا بدفع بضعة قناطير من المال. ومع ذلك، فإن هذه الانقسامات البسيطة لا تدعو إلى القلق. هي فقط تحظى بانتباه اللحظة. بل من المفيد للسلطة افتعالها ما دامت تقويها وتساهم في تمويل خزينتها.

في سنة 1772 كان قد أمضى سيدي محمد على العرش مدة خمسة عشر عامًا لما شوهدت تولد من جديد بذرة الثورات التي أزعجت هذه الإمبراطورية منذ ولادتها. فانطلق صوب مراكش من الجنوب الذي كان مهد السلالات القديمة، مُرابط -يقصد شيخ زاوية- فخور بنفسه ومتعصب مع ثلاثة آلاف من أتباعه الذين جمعتهم روح الحماسة، ليعلن لهذا الإمبراطور أن عهده قد انتهى وأنه يجب أن يستولي هو على السلطة مكانه. كانت أسلحتهم الوحيدة هي صرخاتهم المتطرفة والهراوات التي ادعوا أنها ستتحول إلى بنادق بينما بنادق خصومهم ستتحول إلى عصي. لكن لم يرو حلمهم هذا يتحقق لما تم تقطيعهم بحد السيف وطرد من تبقى منهم من قبل حفنة من الجنود. وتم القبض على زعيمهم في المسجد وإحضاره أمام الإمبراطور في المشور. خضع هذا المجنون للاستنطاق بكل حزم وثقة كرجل ملهم. فأمر الإمبراطور بقتله كمثير للشغب.

منذ ذلك الوقت وحتى عام 1778 لم تُظهر الأقاليم أية اضطرابات يمكن أن تثير القلق. حسب تقاليد هذه الشعوب تُبدي قبائل الشمال حركات العصيان عندما يكون الأمير في الجنوب. والتي في الجنوب

تفعل الشيء نفس عندما يتواجد هو في الشمال. لكن مجرد مجيئه وفرضه لبعض الغرامات المالية كعقاب، يعيد هذه القبائل إلى الطاعة وفي نفس الوقت تعزز من سلطانه وتنمي ثروته.

عن قضاء السلطان: هكذا حيث ما تواجد الإمبراطور، يقول شينيي، يترأس أربع مرات في الأسبوع جلسات لتصريف الأعمال وللقضاء بين الناس. تلك هي المناسبة التي تسمى بالمشور، وذات السمعة المحترمة بالنسبة للملوك وللرعايا. في المشور كما في كل الفضاء العام لا يظهر هذا الأمير سوى على ظهر فرس أو في عربة. والعربة وفق الشاهد الإنجليزي لامبريير كانت عبارة عن كرسي متحرك يدفعه طفلان من أطفال العبيد. ويقول شينيي أن الإمبراطور لا يُرى ماشيًا سوى في قصره وفي المسجد، ونادرًا في الحدائق. ولا يسافر في مركبة – يقصد العربة التي تجرها الخيول- لأن الطرق غير صالحة لذلك. في المشور يمتطي حصانًا وتظله مظلة يحملها إسطبلي. وتلك هي العلامة التي تميزه عن غيره. يحيط به كبار الضباط المقربين وعدد من الجنود المسلحين. وهناك يظهر مفعول كل من الرأي العام والسلطة المطلقة لصاحب السيادة.

كل الرعايا، من دون استثناء، الذين لهم شكاوى أو اعتراضات على أحكام صادرة في حقهم، لهم كامل الحرية في حضور جلسات المشور. يتم البدء فيه بتسليم الإمبراطور الرسائل الموجهة إليه. ثم تُقرأ عليه الأخبار التي بها يطلع على ما يحدث في مختلف الأقاليم ويعطي ما يلزم من أوامر للقيادات والمسؤولين الذين هم دائمًا على استعداد لتحقيق رغباته. تلي ذلك جلسات القضاء بين الناس على وجه السرعة من طرف صاحب السيادة الذي لا تستأنف أحكامه.

ويقول شينني أنه في يوليو من عام 1775 كان حاضرا في المشور بمكناس لما أمر الإمبراطور بقتل قائد منطقة الريف بضربة عصا على أم رأسه. بعد ذلك أمر بقطع يديه ورمي جثته في البادية. ثم نزل عن حصانه منفعلا جدا لتقبيل الأرض، وحمد الله على هذا العمل العادل، وعاد ليمتطي فرسه. وقربنه منه وخصنه بمقابلة طويلة جدًا. فقال له أن هذا القائد تم عقابه كخائن. كان يتخابر مع الإسباني حاكم مليليا أثناء حصار هذه المدينة. وقد أظهر عصيانًا واضحا لأوامر سيده. يمكن للإمبراطور أن يجعل من الباشا جنديا ومن الجندي باشا يؤكد شينيي ويقول أنه يعرف قائدا خلعه الإمبراطور وحُكم عليه بكنس شوارع المدينة التي كان يحكمها.

إن العُرف المحترم الذي يسمح بموجبه صاحب السيادة للجميع بحضور مقابلات المشور حيث ينتصب هو كقاضي في جلسات علنية، من شأنه أن يخفف من صرامة الحكم، كما يوجد فيه عزاء للرعية المعرضة دوما للقمع. إنه بمثابة كابح لإساءة استخدام السلطة التي قد تتعرض لها الساكنة من جانب حكام المقاطعات والمدن. وهؤلاء الحكام هم الوحيدون الذين يضطر صاحب السيادة أن يتنازل لهم عن نفوذ واسع بمناطقهم بسبب بعدها، وحيث تنتقل السلطة المطلقة من السيد إلى الخادم.

يقوم القواد أو الباشاوات حصريا بالحفاظ على النظام العام. إلا أنهم يحرصون على الزيادة في دخلهم عن طريق استغلال السلطة والاستفادة من المشاحنات بين الأفراد التي تتسبب فيها روح القلق عندهم. وفي حال ما جمع هؤلاء الباشاوات ثروات هائلة، يحرص الإمبراطور على تجريدهن منها كإجراء عادل لصالح الخزينة. المال هنا هو الجريمة، ويتم التكفير عن إثم المذنب بسلبه منه.
والذي فات شينيي هنا هو أن تكاثر المال بيد أحد الرعايا أيا كان أمير أو قائد أو باشا، كان مصدر قلق للسلطان على عرشه. العرش بالجند والجند بالمال كما قال ابن خلدون في المقدمة بالنسبة لهذا النظام من الحكم الذي لم يعرف هو كذلك غيره.
عن مستلزمان حضور الأجانب ببلاط السلطان: وبما أن الإمبراطور يستقبل في المشور الأجانب من وزراء وقناصل وتجار أو غيرهم، يتم تصريف الأعمال هناك معهم في العلن. والأمور التي تستدعي السرية يتم تمريرها إليه كتابة عبر أشخاص موثوقين في بيئة تسود فيها المنفعة وما تتطلبه

ظروف اللحظة. فلا يسمح لأحد بحضور تلك الجلسات العامة من دون تقديم هدية متناسبة مع قدراته أو مع طبيعة مطالبه. هكذا يخضع كل الأجانب لعُرف تقديم بعض التبرعات لجميع الأشخاص المرتبطين بخدمة الأمير. بل يحدث في كثير من الأحيان وفي جميع الأوقات أن هؤلاء الأشخاص يحملون إليهم رسائل حقيقية أو زائفة من جانب الملك من أجل مضاعفة تلك المكاسب.

عن مستلزمات حضور الرعية بالمشور: والمغاربة أقل تعرضًا لهذه المضايقات التي صارت عرفا. لكنهم لا يحضرون المشور من دون تقديم لنفس الخدم ما يدل على خضوعهم. يقدم عمال الأقليم وقواد القرى المال والعبيد والخيول والجمال. الرعايا العاديون يقدمون السجاد أو القماش أو غيرها من متاع العيش اليومي. المسكين يقدم حصانا طاعنا في السن أو ناقة أو شاتين أو بضع رؤوس ماعز أو ثلاث دجاجات أو حتى دزينة بيض.

3. القضاء والقضاة

في هذه الورقة سنسافر أيضا في الزمن إلى مغرب سيدي محمد بن عبد الله (1790-1757) في القرن الثامن عشر، مع **الدبلوماسي الفرنسي شينيي**. وذلك من بعد اطلاعنا معه في ورقة سابقة على أنماط تدين المغاربة في ذلك العصر وفي أخرى على أسلوب حكم السلطان. سنرحل معه كي نكتشف معالم خطة القضاء كما بسطها في كتابه لقرائه الفرنسيين في عصره. الأمر الذي كتب فيه الإخباريون في تلك الحقب لما عانوا منها، لكن من دون أن يعرفوا طبيعتها بأوروبا حينها لما كان الأوروبيون بشواطئ المغرب لا يرضون بها في القضايا المدنية فكانوا يلجؤون لقضاء تمثيلياتهم الدبلوماسية موفق اتفاقيات بن بلدانهم والمغرب.

وتجد الأستاذ أحمد التوفيق، كمؤرخ من الجديد بالمغرب، قد خصص فصلا للقضاء في بحثه "المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتنان ما بين 1850 و1912)". وأورد فيه شهادة محمد بن عبد الله الكيكي من كتابه "مواهب ذي الجلال في نوازل البلاد السائبة والجبال" وشهادة محمد بن أحمد الغُجدامي من كتابه "التسلي عن الآفات بذكر الأحوال وما فات". وذلك علاوة على ما تيسر له من وثائق من تلك الحقبة. وما جاء في بحثه مفصلا عن **خطة القضاء في القرن التاسع عشر**، لا يختلف عما جاء عنها مُجملا في شهادة شينيي هنا، وفي القرن الثامن عشر.

فتجده يقول مخاطبا قراءه بفرنسا أنه لا توجد مدونة قوانين في الإمبراطورية المغربية. أحكام الدين تعوض هناك غياب القانون المدني. وينحصر الفقه في تطبيق المبادئ التي تم جمعها من القرآن ومن الأحكام القضائية السابقة. في المدن وفي الأرياف هناك القضاة والقواد والباشوات لإقامة العدل، وعدول لتحرير العقود مع كل ما يتعلق بحفظ الممتلكات، والتي تخضع لأداء رسوم معتدلة.

ويقول أنه من النادر رؤية المغاربة يقتتلون فيما بينهم. في خلافاتهم يتشاتمون لكن من دون ضرب. وفي حال ما حصل عنف فالعرف بينهم يقضي بمعاقبة الضارب الأول، لكن من دون أن يكون في ذلك مساس بالحقوق المتعلقة بموضوع النزاع. لكنه لم يشر إلى كل يتعلق بالجنح والجنايات ليس من اختصاص القضاة كما كان الحال ببلاده، وإنما من اختصاص رجال السلطة والشرطة من قواد وباشاوات.

ثم يحدد ذلك قائلا أن القضايا التي تتعلق بالممتلكات وجميع النزاعات ذات الصلة يتم عرضها على قاضي المدينة أو القرية في كل منطقة من الإقليم. يترافع فيها الأطراف بأنفسهم. وغالبا ما يترافع عنهم وكلاء. والمسطرة المتبعة غير معقدة وقليلة التكلفة. القاضي ينظر في موضوع وظروف القضايا والنزاعات ويصدر قراراته من بعد التشاور مع مساعديه من الفقهاء الحاضرين. قراراته تستند دائمًا إلى الأحكام المستنبطة من مبادئ القرآن أو من العرف المعمول به في النازلة والتي لا يعالجها القرآن.

ثم يقارن بين قضاة المغرب وقضاة تركيا، حيث عاش مدد طويلة، فيقول وبما أن الفقهاء من بين المغاربة ليس لهم نفس النفوذ الذي لنظرائهم بين الأتراك فإنهم أكثر إحراجًا في ممارسة مهامهم. يتبعون الأحكام الفقهية الموروثة بشكل أعمى، ولا يأخذون على عاتقهم تعديلها أو توسيعها. لذلك لا نرى بين المغاربة، كما نرى في كثير من الأحيان بين الأتراك، أحكامًا تعتمد على حكمة واجتهاد القاضي الذي به ينبغي أن يتبع قواعد الإنصاف وأن ينحرف عند الضرورة عن صرامة أحكام فقه السلف.

وإذا لم يكن الطرفان راضيين عن حكم القاضي، فلهما الحرية في استئنافه أمام الإمبراطور. وهو أمر نادر الحدوث. وذلك بالنظر إلى أن الدعاوى القضائية غالبا ما تكون بسيطة ولا تستحق تحمل نفقات الاستئناف الباهظة. كما أن المغاربة يفضلون حكم القاضي أو التسوية الرضائية فيما بينهم على حكم تعسفي من السلطة. لأن سياسة هذه الشعوب تكمن في إخفاء مصالحها بقدر ما تستطيع عن أصحاب السلطة المطلقة الذين من أجل التوفيق بين الأطراف قد يحتفظون بلب الفاكهة ويرمون لها بالقشور.

رجال المخزن لا علاقة لهم بمثل تلك النزاعات. صلاحياتهم تشمل شرطة المدن والطرق ومراقبة الأسواق وأسعار المواد الغذائية والسرقات وأخيراً كل ما له علاقة بالأمن وبالنظام العام. قراراتهم مجردة من كل الإجراءات والشكليات ويأخذ فيها المزاج مكان غياب القانون. فدائمًا ما تكون أحكامهم تعسفية. بشكل عام العقوبات الصادرة عنهم تتجلى في قليل من الجلد بالسياط عشوائيا للمذنب والبريء معا أو في بضعة أيام من السجن قابلة للاستبدال بدفع قدر من المال أو في غرامات أقل تناسبًا مع الجريمة بقدر ما تكون متناسبة مع مقدار سعة المذنب ومع ظروفه. ونتيجة لذلك، فنادرًا ما يُعاقب الأثرياء بما يستحقون حينما يكونون متورطين في أعمال سيئة. وهكذا عندما نجول حول العالم نجد نفس التساهل في كل مكان.

4. التعليم والعلوم

العلوم والفنون تزدهر فقط في ظل الحرية. ولا يمكن أن يكون لها أي تشجيع تحت نيْر الحكم المطلق[1]. يبدو أن المغاربة الذين تلقوا الدين ولغة العرب لم يشاركوا في أي من ازدهار معارفهم. اختلطوا بالموريسكيين الذين أتوا من إسبانيا والذين تبنوا الفنون والعلوم وشهدوا ميلاد ابن رشد وعدد من الرجال العظماء، وكان لهم تلاميذ بجامعة مدينة فاس التي أنتجت كذلك كتابا كبارا، لكنهم لم يحتفظوا بأي أثر من عبقرية أسلافهم.

المغاربة ليست لديهم فكرة عن العلوم الخلافية. على غرار العرب القدماء الذين كانوا متعلمين قليلا، وهم قلة، لا يقرأون سوى كتب ديانتهم. في عموم المغرب يقتصر تعليم أطفالهم على تعلم القراءة والكتابة وحفظ ستين حزبا من القرآن عن ظهر قلب، والتي من باب التقشف تكتب على لوحات خشبية صغيرة. وعندما تصبح هذه الأحزاب محفوظة في الذاكرة يكون الطالب قد تعلم ما يكفي لمغادرة المدرسة. ويتم اصطحابه في جولة في المدينة على ظهر فرس، ومن حوله رفاقه الذين ينشدون احتفاء به. تعد تلك المناسبة يوم ظفر له بين زملائه، وعيدا بالنسبة للمعلم ويوم إنفاق بالنسبة للوالدين. لأنه ليس في جميع هذه البلاد من حفلة ولا عيد من دون أكل.

في فاس التي احتفظت ببعض من أفكار التمدن يتلقى الطلبة المزيد من التعليم في المدارس. الآباء الميسورون، ولو قيلا، يرسلون أطفالهم إلى هناك لتعلم اللغة العربية والتعرف على الدين وعلى فقهه وأحكامه. كما يتم فيها تذوق الشعر الذي لم يكرسه العرب القدماء للاحتفال بالمناسبات فحسب، بل اعتادوا أيضًا على التباهي بالتحدث به في اجتماعاتهم أو في زيارات احتفالية. علاوة على كل ذلك، فإن اللغة العربية بخصوبتها وبطاقتها وبعناصرها التصويرية المحسوسة، ربما تكون أكثر ملاءمة للشعر من أي لغة حية.

الآباء الذين يتمتعون ببعض الرفاهية لا يضعون أبناءهم عن طيب خاطر في خدمة الأمير حتى يجنبوا أنفسهم العواقب التي قد تنجم عن طيشهم أو عن قلة خبرتهم. إنهم يفضلون أن يتابعوا دراستهم حتى يصبحوا

---

[1] نسي المؤلف الفرنسي أن الفنون والعلوم ازدهرت في عز الحكم المطلق للملك لويس الرابع عشر. ومعلمة قصر فرساي من بين أعظم ما يشهد على ذلك. الأمر يتعلق إذا بتكوين وتربية ومزاج المستبد. والحرية تساعد أكثر على ازدهار الفنون والعلوم.

أساتذة أو قضاة. إذا كانت لديهم مواهب، فإنهم يعهدون إليهم برأسمال للتجارة أو للاستثمار من بساتينهم وأراضيهم. وهذه هي بشكل عام المهن الرئيسية للمغاربة.

إن المغاربة يزوجون أبناءهم مبكرا لتثبيتهم في العمل وإبعادهم عن التسيب. فيشتغلون من دون تفضيل كتجار وبحريين ونساجين ودباغين وإسكافيين[2] إلخ .... ولا أحد منهم يخجل من ممارسة مهنة مفيدة. قد يزوج كل من القاضي وحاكم المدينة ابنته بحرفي من دون أن يستنكف من تلك المصاهرة.

علم الفلك الذي منحنا إياه العرب في أوروبا قد تجاهله المغاربة بالكامل. وذلك على الرغم من أنهم حافظوا على نفس عيش الترحال. إلا أن قلة منهم، إن وجدت، لديهم أفكار عن حركة الأجرام وقادرون من حيث المبادئ على تحديد مساراتها. للسبب نفسه يستحيل عليهم حساب مواقيت الكسوف الذي يتشاءمون منه دائمًا على أنه علامة على الفأل السيء[3].

الكسوف الذي حدث في 24 يونيو من عام 1778 كان تاما ومركزًا في مدينة سلا. وحرصت على عدم الإعلان عنه حتى لا يخاف الناس. ومن أجل مراقبة ظروفه بشكل أفضل ذهبت لرؤيته في الريف فتبعني الكثير من الناس. مع تقدم الغمر[4] فر الفضوليون من فرط الرعب واحدًا تلو الآخر للعودة إلى المدينة. وبقينا فقط مع جنديين للحراسة كانا يصفرّان من شدة الخوف الذي ظل يزداد بمقدار اختفاء نور الشمس من وراء القمر. وفي الوقت الذي كان فيه الكسوف كاملاً سمعنا صرخات مرعبة من النساء والأطفال الذين اعتقدوا أنها نهاية العالم. وفقط مع عودة الوضوح استعادت العقول بعض الثقة[5].

على الرغم من أن المغاربة حافظوا على طريقة حياة العرب القدماء إلا أنهم كانوا أقل اهتمامًا منهم باكتساب المعرفة الفلكية. بدلا من ذلك وبفعل تفشي الجهل والخرافة يميلون بمزيد من الشغف إلى علم التنجيم[6]. وهو المعرفة الخرافية المكرسة للإغواء. هذا الفن الوهمي يزدهر بين الشعوب المرعوبة من شرور الحاضر والتي تبحث فيه عن الأمل في مستقبل زاهر. والتنجيم هو حليف فن السحر الذي يحظى بالإقبال على تعلّمه بالمغرب والذي يستخدم بنجاح مستغلا سذاجة الناس لخداعهم بكلام منمق.

5. الطب والتطبيب

لقد تقهقر مغاربة اليوم إلى ما لا نهاية. حتى أنهم ليس لديهم أي استعداد لتلقي العلوم. في الطب يعرفون خاصيات بعض القواعد البسيطة. لكن لأنهم لا يتصرفون وفق المبدأ ويجهلون أسباب وآثار الأمراض فهم يطبقونها دائمًا في علاجاتهم بشكل خاطئ. معالجوهم العاديون هم الطلبة[7] وهم أيضا الأولياء الذين يحظون عند الناس بثقة خرافية.

---

[2] وذلك من بعد تعليمهم تلك الحرف وهم صغار كمساعدين وأعوان عند المهنيين.

[3] ذلك كان شأن العامة ولا يزال، لولا الإعلام، وليس فقط في المغرب بل حتى في أوروبا في ذلك العصر. أما الخاصة فعندهم حديث مشهور عن مزاعم كسوف الشمس بسبب موت إبراهيم بن الرسول ﷺ، والتي فندها بقوله: " إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته".

[4] ذلك يعني أن القمر الذي بتقدمه يغمر نور الشمس.

[5] مرة أخرى نجد المؤلف يستغرب من سلوك عامة الناس مع هذا الكسوف، من باب الاعتزاز بالنفس كأوروبي متحضر أمام شعب متخلف. في حين هو الأجدر بالاستغراب منه. علم الفلك هو علم الخاصة. والبحث في مستواه بالمغرب يقاس بمدى معرفته عند الخاصة وليس عند العامة. وذلك ما فعله الجاسوس الإسباني الملقب بعلي باي العباسي كما سنرى ذلك لاحقا. أما هذا المؤلف الفرنسي فاستغرابه من تعامل العامة مع ذلك الكسوف لقياس مدى معرفة المغاربة بعلم الفلك فهو كمن يريد قياس وزن الذهب بميزان الخضر والفواكه. لذلك فهو الأحق بالاستغراب منه. ولا داعي لترجمة تعليقه على هذا الحدث المكرس لاستعلائه الفج.

[6] علم الفلك، أي دراسة الأشياء والظواهر التي تنشأ خارج الغلاف الجوي للأرض، وهو علم. وقد أصبح على نطاق واسع من ضمن الانضباط الأكاديمي. أما علم التنجيم، والذي يستخدم المواقع الظاهرة للأجرام السماوية للتنبؤ بالأحداث المستقبلية، فهو شكل من أشكال العرافة وليس سوى أحد العلوم الزائفة.

[7] والمقصود بالطلبة حتى يومنا هذا بالبوادي والقرى وحتى المدن هم حفظة القرآن الذين يسترزقون من تعليم الصغار بالكتاتيب القرآنية.

الحمى المعتادة مثلا في البلاد الحارة والناجمة عن تناول الخضار الطرية وعن سوء التغذية وعن مناخ تتناوب فيه الحرارة والبرودة مع شيء من الرطوبة، ينسبها هؤلاء الجهلة إلى الأرواح الشريرة. الجن حسب رأيهم هو سبب نزلات البرد وارتفاع الحرارة هذه. والهذيان الناجم عن تلك الحمى يؤكد فقط خطأهم. ويموت المريض لما لا يتلقى سوى العلاجات الخرافية التي يفترض أنها ذات تأثيرات خارقة ويتم تجاهل قوانين الطبيعة.

إن مرض الجدري الذي يقال إنه جاء إلينا في أوروبا من آسيا أو إفريقيا والذي لم نكن نعرفه قبل الحروب الصليبية، هو المرض الوحيد الذي لا يستدعي المغاربة في علاجه بركة الأولياء. يأتي بشكل طبيعي تمامًا ويسبب ضررًا ضئيلًا جدًا بسبب درجة حرارة المناخ وشظف العيش عند هذه الشعوب. ويُعرف التحصين[8] منه في المناطق الداخلية من البلاد. ولكنه يُمارَس بمستوى أقل فعالية مقارنةً بالإغريق المعاصرين الذين تبنوه، والذين من عندهم جاء إلى أوروبا. ومع ذلك، يلاحظ استخدام التحصين فقط بين البربر في الجبال وبالجنوب، ولا يستخدم عندهم بشكل عام.

على الرغم من أن المغاربة ليست لديهم معرفة بالطب، فإن الضرورة مع قليل من الميل إلى الابتكار جعلتهم يبدعون. فهناك من يتجرأ على إجراء عملية استخراج حصيات المسالك البولية، وهو مرض معروف في البلاد. رأيت حصاة مشوكة وكبيرة مثل بيضة حمامة صغيرة قد تم استخراجها للتو. ويرتجف المرء عند رؤية الآليات التي يستعملها هؤلاء الجراحون. يتعلق الأمر بسكين حلاقة صغير ورديء ومخطاف خشن يشبه المسمار المعكوف.

6. الحاجة إلى طمر الحبوب والأموال في الأرض

بعد الحصاد يدفن البدو الفائض عن الاستهلاك من الحبوب في مطامير حيث يّحتفظ بها لفترة طويلة. ولحمايتها من الرطوبة يقومون بتبطين جوانبها بالقش. ولما تمتلئ يغطونها بنفس الطريقة ويغلقونها بحجرة من فوقها كومة من التراب على شكل هرم كي تُبعد عنها ماء المطر. الأب الميسور يملأ مطمورة عند ولادة الطفل من أجل إفراغها من أجله عند زواجه. لقد رأيت قمحا تم الحفاظ عليه بهذه الطريقة لمدة خمسة وعشرين عامًا.

عندما يُجبر البدو على تغيير المكان لأسباب تتعلق بالترحال أو بأمر إمبراطوري ويكونون غير قادرين على أخذ حبوبهم المطمورة معهم فإنهم يتركون علامات من حجارة مكدسة على المطامير حتى لا يجدون صعوبة في العثور عليها عند العودة. وفي حال ما رجعوا ووجدوا تلك العلامات قد ضاعت يراقبون سطح الأرض عند شروق الشمس وحيثما يرون بخارًا سميكا يخرج منها يتعرفون على مكان مطاميرهم.

لا يقتصر الأمر على طمر الحبوب في الأرض حفاظاً على الفائض منها. بل القهر وعدم الثقة يجعلهم يدفنون حتى ثرواتهم المالية. ولربما تكون كمية الأموال المخبأة في أرض إمبراطورية المغرب أكبر من الكمية المتداولة. وهكذا يضيع منها الكثير الذي طمر خوفا من جشع الورثة[9]. خلال الثورات التي حدثت حين اعتلاء شرفاء اليوم العرش حصلت العديد من الهجرات التي تمت بسرعة لدرجة أن المغاربة الذين لم يكن لديهم الوقت ولا التسهيلات لاستخراج أموالهم المطمورة كانوا يكتفون بالتأشير على مكانها بالحجارة أو علامات أخرى غير دقيقة من أجل التعرف عليه عند العودة واستخراجه. لكن الكثير منهم فوجئوا بالموت أو أحبطوا بسبب بعد المسافة فلم يعودوا، وبالتالي فقدوا ما كان لديهم والذي بقي مطمورا. الذين كانوا يعرفون الكتابة، وهم قلة، حددوا مكان الإيداع بمزيد من الدقة قبيل الهجرة وعاد أولادهم من بعدهم لاستخراجه.

وفي هذه الظروف وجد الدجالون أنفسهم معتمدين، خاصة بالجنوب، كسحرة. لقد كانوا متعلمين فاستغلوا هناك كما في أي مكان آخر أميّة أولئك الذين لم يكونوا مثلهم. كان كل فن هؤلاء المشعوذين يكمن في معرفة كيفية

---

[8] يعني ذلك تحصين شخص صحيح من باب الوقاية من الجدري الحاد عبر إصابته إراديا بالجدري المأخوذ من شخص مريض قليلا. لكن ما كان يوجد دليل على أن الفرد المحصن هكذا لن يصاب بالجدري الحاد. وخطر انتشار الجدري أدى إلى التخلي عنه بعد اكتشاف التلقيح.

[9] وغيرهم

القراءة والعثور بهذه الوسيلة على الودائع المحددة في الكتابات المسلمة إليهم. فخلط هنا المغاربة بين مهارة القراءة والسحر الذي يدرسه الطُلبة[10] بقبائل الجنوب حيث تسود الخرافة بمزيد من الحرية.

7. حصار مدينة مليلية

ما أن جمع سيدي محمد في عامي 1767 و1768 عددا من القاذفات والمدافع حتى أعد العدة في بداية عام 1769 لحصار مدينة مزاݣان[11]. فقرر البرتغاليون إخلاءها، واسترجعها هو في شهر مارس من نفس العام. فشجعه هذا الفتح على التفكير في مخططات أكثر طموحًا. هكذا من بعد مواسم فلاحية جيدة ما بين عامي 1771 و1773 اقتنى المزيد من الأسلحة. وذهب إلى شمال إمبراطوريته ومكث بضعة أيام في الرباط وسلا، وكأن ذلك هو منتهى رحلته. ثم تظاهر سنة 1774 بالقيام بحملات عسكرية أحيانًا ضد مدينة فاس وأحيانًا ضد أهالي الجبال. وأخيرا انطلق لحصار مدينة مليلية.

وادعى هناك أنه لم يكن لديه أمان إلا من جهة البحر مع صديقه دون كارلوس[12]، الأمر الذي كان يحرص على الحفاظ عليه. لكنه لم يكن يأمنه من جهة البر. فتلقت إسبانيا ذلك باستياء كبير وقطعت كل العلاقات مع المغرب وأرسلت تعزيزات فورية للدفاع عن المكان. وقد كان بإمكان سيدي محمد الاستيلاء بسهولة على مليلية لو أنه باغتها بشيء من الحزم. لأنه مع حالة السلم ما كانت فيها سوى حامية صغيرة. لكن التعزيزات الفورية من ثمانمائة رجل قدمت لها دفاعًا قويا جعل الإمبراطور ينهي الحصار ويندم على مشروعه الذي لم يحالفه النجاح، وكلفه نفقات هائلة، والأمر الذي وربما كان المغاربة يرفضونه سرًا.

ومن أجل تفادي الانطباع السيء الذي قد يتسبب فيه انسحابه في أذهان شعبه تم ترديد شائعات في الأقاليم أن ملك إسبانيا سيعيد مليليا بمجرد أن ينجح في زعزعة معارضة الرهبان الذين أعربوا عن اشمئزازهم الشديد من التنازل عن هذا المكان. فعم الابتهاج بهذا الخبر. وذهب الإمبراطور إلى مكناس في بداية عام 1775. ولما كان سيدي محمد يستعد لحصار مليلية أعلن الحرب على هولندا[13]، لأنها قصرت في قيمة الجزية[14] غير العادية التي قدمتها له للتو. فهيأت ما يلزم من الأسلحة لحماية تجارتها وملاحتها. وبعد أن شنت حربًا دفاعية أعطته ما يريد وجددت معه السلام عام 1778.

8. كوارث الجراد والجفاف والمجاعة

في عهد سيدي محمد أحدث الجراد دمارًا هائلا في إمبراطوريته. لكن بأسه ما كان على الإطلاق عامّا ولا شديدا كما كان بعد سنة 1778. في صيف ذلك العام رأينا سُحبًا من الجراد قادمة من الجنوب حجبت الشمس ودمرت جزءًا كبيرا من المحاصيل. وتسببت اليرقات التي تركتها في الأرض أضرارًا أكبر. وظهر الجراد مرة أخرى وتناسل في العام التالي. في الربيع كان الريف مغطى به بالكامل. كانت تلك الحشرات تزحف فوق بعضها البعض ركضا وراء القوت. والصغار هم الذين ألحقوا أكبر قدر من الأذى. قشور جذوع أشجار التين والرمان والبرتقال الصلبة جدا لم تستطع النجاة من نهم هذه الحشرات.

لحماية الحدائق والمنازل المجاورة للمدن، تم حفر خنادق بعمق عشرة أقدام وعرض مماثل. وتم تغطية جوانبها بأعواد القصب المتقاربة جدًا من بعضها البعض والمائلة نحو الأراضي التي يراد حمايتها. وهذه الحشرات غير القادرة على الصعود على الجهة الملساء للقصب كانت تسقط وتحشر في الخندق فتلتهم بعضها

[10] مرة أخرى قديما وحتى يومنا هذا "الطالب" بين العامة في المغرب هو حافظ القرآن والمسترزق بتعليمه للصغار بالكُتاب القرآني.

[11] وهي مدينة الجديدة اليوم

[12] وهو كارلوس الثالث ملك إسبانيا الذي حكمها ما بين عامي 1759 و1788

[13] والمقصود بالحرب هنا، كان يعني إطلاق يد القراصنة ضد سفن العدو في البحر وفقدان مواطنيه وتجارتهم للأمان في البر.

[14] معنى الجزية هنا هو المبلغ السنوي الذي كان يدفعه بلد أوروبي للسلطان مقابل كف يد القراصنة المغاربة عن الهجوم على سفنه في البحر وتمتيع مواطنيه بالحماية في البر. لأن المغرب ما كانت له سفن تجارية في البحر ولا مواطنون مغاربة في بر البلدان الأوروبية لطلب حمايتهم كي تعفيها من دفع الجزية.

البعض. وبهذه الطريقة تم تخليص حدائق ومزارع العنب من حول الرباط والمدينة نفسها من هذه الآفة سنة 1779.

الأراضي المدمرة في جميع أقاليم الجزء الغربي من البلاد لم تنتج محصولاً. والمغاربة الذين يعيشون على احتياطاتهم من القمح التي خزنوها منذ 1774 شعروا ببعض الضيق. الماشية التي لا يوجد لها أي علف وليس لها سوى العشب الذي ترعاه يوميًا ماتت من الجوع، ولم يبق منها إلا تلك التي كانت بالقرب من الجبال أو المستنقعات حيث يخلف الكلأ بسهولة.

كان عام 1780 أكثر تعاسة. الجفاف أحبط ثمار الأرض وولد جيلًا جديدًا من الجراد الذي دمر ما نجا من طقس الفصل. لم يحصد المزارع ما زرعه ووجد نفسه لا يملك طعامًا ولا بذورًا ولا ماشية. في هذه الأحوال القاسية عانى الناس من كل أهوال المجاعة. شوهدوا وهم يتجولون في الريف ليأكلوا الجذور وليبحثوا عما في أحشاء الأرض للحفاظ على حياتهم. مات العديد منهم من البؤس ومن سوء التغذية. لقد رأيت أبناء الريف في الطرقات وفي الشوارع ميتين من الجوع ويوضعون على ظهور الحمير ليذهبوا بهم إلى الدفن. رأيت نساء وأطفالًا يركضون وراء الإبل ليبحثوا في فضلاتها عن بعض حبوب الشعير التي لم يتم هضمها ويلتهمونها.

كان من الممكن أن يكون الشر أكبر بكثير لو لم تسمح إسبانيا والبرتغال، حيث كانت المحاصيل وفيرة بما فيه الكفاية، بتصدير الزيت والزبدة والفواكه المجففة والأطعمة الأخرى، وخاصة القمح الشمالي الذي انتشر لحسن الحظ بوفرة في قادس وفي لشبونة. تم تصدير هذا القمح الفاسد في كثير من الأحيان إلى أسواق سلا بأسعار باهظة. الجلبان والفول والعدس التي تكثر في هذه البلدان أصبح استهلاكها من الترف وصارت تُعد حباتها. خلال ثلاث أو أربع سنوات من البؤس كان الناس يأكلون خبزا ثقيلًا وصعب الهضم بسبب سوء نوعية حبوبه. الخبز الجيد ارتفع ثمنه للغاية.

مع هذه الكوارث التي حلت بهذه الإمبراطورية، لا يسع المرء إلا أن يرى بذهول واحترام مدى استسلام أفراد هذه الشعوب التعيسة للعناية الإلهية. تحملوا شرها من دون شكوى لأن كل شيء حسب إيمانهم يحصل بأمر من الله تعالى ولا يحدث إلا بمشيئته. الأوروبيون الذين هم أقل إيمانا وربما أكثر قلقا، اعتادوا على الاعتماد على رعاية الإدارة المكلفة بتوفير كل شيء، ولا يتحملون الزيادة في أسعار المواد الغذائية سوى بمزاج ونفاد الصبر واتهام المسؤولين بالتجاوزات والشبهات، على الرغم من أن تلك الأمور تحصل دائمًا من حيث المبدأ، إما بسبب سوء الأحوال الجوية في المواسم أو بعض الأحداث الخارجية.

9. ثورة الجنود السود بمكناس سنة 1778

تم استنفاد خزينة الإمبراطور بسبب حصار مدينة مليليه عام 1774. وما كان بالإمكان إعادة ملئها بسبب توالي الكوارث. ولتحقيق التوازن بين الإيرادات والنفقات اضطر سيدي محمد إلى الزيادة في نسب الضرائب بل إلى فرض ضرائب جديدة. الجنود السود الذين تأخرت رواتبهم أو كانوا يتقاضونها ببطء اشتكوا من هذه الرسوم الجديدة. وأخيراً في أكتوبر 1778 طردوا جباة الضرائب من مكناس واستولوا على المدينة. بعد هذا الانفجار الملحوظ، أرسلوا وفداً إلى فاس للقاء مولاي علي، الابن الأكبر للإمبراطور، كي يعرضوا عليه استلام زمام الإمبراطورية. لكن هذا الأمير الحصيف وغير القادر على الإخلال باحترام والده، رفض وحاول عبثًا إعادة هؤلاء الناس إلى رشدهم. فتسلل إلى الرباط حتى لا يثير وقاحتهم ضده بسبب عناده.

حينها اتصلوا بمولاي يزيد الذي لم يظهر نفس الامتناع. فتم إعلان هذا الأمير المحبوب من قبل الجنود إمبراطورا في وقت الصلاة. وقتها تسببت هذه الثورة في أعمال شغب في مكناس. وهرب والي المدينة بصعوبة تحت طلقات الرصاص وتم نهب وتدمير منزله. ومع ذلك أبلغ مولاي يزيد والده بما كان يحدث واعتذر عن السهولة التي استسلم بها لتوسلات المتمردين على أمل أن يتمكن من إعادتهم إلى طاعته. فأدى سلوك مولاي يزيد وبعض سوء التفاهم بين السود إلى إبطاء تقدم هذه الثورة.

كان بإمكان هذه الثورة أن تتم لو أن هذا الأمير، الذي لم يكن لديه مال، قد قرر الذهاب إلى الرباط مع تلك القوات. وبمجرد أن تلتحم مع حوالي ثمانية آلاف من السود هناك كان بإمكانه بسهولة أن يستولي على جزء من أموال الخزينة الذي، من خلال تصرف غير متسق، تم توزيعها لعدة سنوات في كل من الرباط والعرّائش وطنجة. هذه الأماكن التي كان بالإمكان الاستلاء عليها في غضون أيام قليلة كان من شأنها أن تجعل مولاي يزيد سيّد الإمبراطورية[15].

10. تبادل اللوم بين سيدي محمد وعلماء فاس

إثر فتنة مكناس خرج الإمبراطور من مراكش مع قواته متجها إليها. وتوقف في الطريق بمدينة الرباط للاطمئنان على ولائها. ولما وصل إلى مكناس تم استقباله كصاحب السيادة. والطرفان[16] اللذان انتابتهما نفس المخاوف لم يتحدثا عما حدث. فذهب الأمير من هناك إلى فاس. هذه المدينة، التي بالنظر إلى ما لأقدميتها من تقدير واحترام، لها بعض التأثير في القرارات الحكومية. وهكذا تبنت سخط الجنود في مكناس فأعطت بذلك وزناً وأهمية لتمردهم.

وبشأن اللوم الذي وجهه الإمبراطور للأعيان والعلماء على عصيانهم لأوامره فقد قالوا له بنفس القدر من الحزم والاحترام أن مدينة فاس ما كانت تنوي عصيانه ولن تفعل ذلك أبدًا. إلا أن الضرائب المضروبة على المنتجات الغذائية والزيادة في الرسوم على المعاملات التجارية والضرائب الجديدة التي اعتبرها المسلمون مخالفة لعاداتهم ولدينهم، يمكن وحدها أن تشفع لدى هذا الأمير العادل والورع لتلك الهمهمة بين الناس ولذلك الاستياء العام.

سيدي محمد المحرج من ذلك الخطاب أخفى كل شيء بحذر. لكنه مقتنع برسائل، تم اعتراضها، أنه كان بين ابنه مولاي يزيد والبربر اتصالات يمكن إساءة تفسيرها، فأوقفه ثم أرسله إلى مكة للتهدئة من حماسه وتهوره وجعله أكثر اتزانا. هكذا هذا الأمير الذي نضج بفضل تقدم العمر والخبرة استمد من تلك الرحلة الثمار التي تُجمع عادةً من دراسة البشر ومعرفة الأمم.

11. تسريح جل الجنود السود

بغض النظر عن ميل سيدي محمد إلى الرأفة، لم يستطع أن ينسى تمرد الجنود السود بمكناس. فاتخذ إجراءات للتخلص من هذه المليشيات المشاغبة التي عانى والده من جشعها في كثير من الأحيان والتي أصبحت أكثر تكلفة كل يوم. لم يعد بإمكان الخزينة المنهكة صرف أجور هذه القوات إلا بصعوبة. الريف الذي دمره الجراد وثلاث سنوات متتالية من الجفاف زاد من البؤس والحاجة فلم يعد يسمح للشعب تحمل المزيد من الضرائب التي تضاعفت مع مرور الزمن وتحت ضغط الظروف.

فقط حوالي عشرة ملايين جنيه من المدخرات بقيت في خزينة الدولة. وفي كل عام كانت هناك حاجة لأربعة ملايين أخرى للإبقاء في أوقات النكبات هذه على ثلاثين أو خمسة وثلاثين ألف فارس أسود. في هذه الظروف المحرجة أخذ الإمبراطور سنة 1780 قرار تسريح بعض هؤلاء الأجانب الذين كان لديهم كل شيء ليخشاه منهم. ولإخفاء قراره هذا ومنع سوء العواقب التي قد تنجم عنه جعل الجنود السود يغادرون ثكناتهم في أفواج متفرقة بقصد الانتشار في أقاليم متفرقة. ثم أصدر أمرًا مضادًا لوحدات أقوى منها كي تقوم بنزع سلاح كل منها وجعلها تستقر في أراضي مخصصة لها في مناطق مختلفة ومتباعدة بما يكفي عن بعضها البعض حتى لا يكون هناك ما يُخشى من التخابر فيما بينها. ولم يحتفظ هذا الأمير إلا بجزء من هؤلاء الجنود الذين كان يثق في إخلاص ضباطهم له. وهكذا على مدار ستين عامًا، مئات الآلاف من السود الذين تركهم مولاي إسماعيل من بعده والأجيال الجديدة التي أنجبوها، لم يبق منهم في الجيش سوى حوالي خمسة عشر ألف عنصر.

[15] يستشف من هذا التعليق لهذا المؤلف الديبلوماسي الفرنسي أن الأوروبيين كانوا متضايقين من سياسات سيدي محمد وكانوا يتمنون رؤية مولاي يزيد مكانه.

[16] وهما سيدي محمد من جهة والجنود السود الذين تمردوا من جهة ثانية.

12. وفاة الأمير مولاي علي سنة 1783

في عام 1783 قام الإمبراطور برحلة إلى تافيلالت مع جزء من القوات. هذه المدينة والمناطق المحيطة بها والتي يسكنها سكان أشراف تواقون للهيمنة، قد تعرضت لبعض الانقسامات التي هدأت تمامًا بوجود صاحب السيادة. ففرض هذا الأمير على هذا الإقليم والأطراف الشرقية للأطلس الكبير غرامات كبيرة كعقوبة على إقلاق راحة الأهالي.

كان سيدي محمد في تافيلالت عندما تكبدت الإمبراطورية خسارة في وفاة أكبر أبنائه مولاي علي. توفي هذا الأمير في فاس عن عمر يناهز الرابعة والأربعين بسبب إهمال نكسات حمى أو سوء علاجها. كانت لديه كل الصفات المطلوبة لإسعاد الناس. لم يرث عن الملوك الشخصية الملتهبة والمتسرعة التي، من دون أن تجلب لهم السعادة، تساهم دائمًا في تعاسة الشعوب.

سبق أن تم تعيينه من قبل والده حاكما لفاس التي كانت من أهم المدن التي ينبغي الاهتمام بها بصفة خاصة. وتصرف مولاي علي هناك بقدر كبير من التواضع والزهد في الدنيا لدرجة أن الإمبراطور الذي كان في حاجة للمال، وافقت مدينة فاس على التضحية التي طالبها بها كي تحافظ على هذا الأمير في ولايته وعلى رضى أبيه عنه.

كان زهد مولاي علي في الدنيا من أعظم خصاله عند الشعب. فلما فرض والده الزيادة في معاش باقي الأمراء وأمر هذا الأمير بأن يأخذ هذا المبلغ بالزيادة في الضرائب المفروضة على اليهود[17]. فرد عليه مولاي علي بقوله: "سيدي، اليهود فقراء لدرجة أنهم ليسوا في وضع يسمح لهم بتحمل دفع حتى الضرائب العادية. فأنا غير قادر على مطالبتهم بضرائب جديدة. يمكن لجلالة الملك التصرف في إيرادات إقليمي إذا رغبت في ذلك لصالح إخوتي. لكنني أرجوها ألا تطلب مني مضايقة رعاياها وأن تضعني في موقف يزيد من بؤسهم". نرى من خلال هذه السمات الحميدة مدى مشروعية الأسف الذي شعر به الناس بمناسبة وفاته. أنا شخصياً أقدر الثقة الكاملة التي شرفني بها، حيث جعلني في كثير من الأحيان قادرا على اختبار لطفه والحكم على سلوكه.

13. علاقات المغرب مع أوروبا

بمجرد أن بدأت روح الصناعة في إحداث ثورة بدول أوروبا وفي أعراف شعوبها، شعر ملوكها بالحاجة إلى فرض هيبتهم في البحر بواسطة القوات البحرية لضمان تقدم رعاياهم وتجارتهم وملاحتهم. وقبل اكتشاف السبيل إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح[18] وحتى بعد مرور بعض من الوقت على ذلك لم يكن لأوروبا من اتصال بآسيا سوى عبر البحر الأبيض المتوسط. فقامت في هذا البحر بتجارة واسعة إلى حد ما عبر إسبانيا وفرنسا وإيطاليا والمشرق والشواطئ الشمالية لإفريقيا التي ظلت تتعرض طيلة تلك الآونة للسطو عليها من قبل عصابات القراصنة.

القراصنة المحتلون لشواطئ طرابلس وتونس والجزائر والمغرب والذين في البداية سلحهم الدين[19] وجعل منهم أعداء للمسيحيين بدافع التعصب، صاروا يزاولون نشاطهم من أجل المنفعة. هذه الشعوب المعوزة وقليلة الميل للعمل ومن دون تجارة ولا صناعة، والتي تمارس القرصنة كهواية وبدافع الحاجة، ما كان بإمكانها اكتساب قدر من الاعتبار إلا من خلال التسيب وقطع الطريق.

---

[17] وهي الجزية المفروضة على اليهود مكان الزكاة المفروضة على المسلمين.

[18] هو معبر بحري يقع بجنوب غرب دولة جنوب أفريقيا. اكتشفه البرتغالي بارثولوميو دياز سنة 1488. والذي أطلق عليه اسم رأس الرجاء الصالح هو ملك البرتغال جون الثاني وذلك للتعبير عن ابتهاجه باكتشاف طريق بحري إلى الهند يغني أوروبا عن تجارة القوافل البرية المعرضة للمخاطر.

[19] سلحهم ما كانوا يتدينون به من فهمهم للدين وليس الدين الإسلامي على الإطلاق. وكما يقوله نفس المؤلف لاحقا القراصنة الأوروبيون كانوا مسلحين أيضا بفهمهم لدينهم لاتخاذ المسلمين أعداء لهم.

أوروبا التي كان حماس الدين قد سلحها ضد هؤلاء الأعداء المشتَركين سرعان ما وجدت نفسها منقسمة بسبب المصالح السياسية. الدول المتعطشة للهيمنة ولجمع الثروة منشغلة بصناعاتها وبتبادل إنتاجها، فلا تهتم إلا بمصالحها الخاصة. وعلى أمل اكتساب المزيد من الهيمنة من خلال التجارة والملاحة الآمنة، ظلت مصممة على عقد معاهدات مع بلدان شواطئ شمال إفريقيا[20]. ويتم التقيد بها بشكل أو بآخر وفقًا لقوتها ولقدرتها على المعاملة بالمثل.

من حيث المبدأ كانت هذه هي أسباب العلاقات بين القوى الأوروبية وهذه الدول الأفريقية. التنافس التجاري بين الأولى أو ضعفها مكّن لاحقًا حكومات الثانية من اكتساب وسائل القوة. فجعلتها في كثير من الأحيان تُشعر الأوروبيين بثقل المضايقات التي وضعتها لصالحها في ظروف لا تؤدي إلا إلى جعلها أكثر هشاشة وأغلى ثمناً وأكثر إذلالاً.

هكذا أبرمت القوى الأوروبية معاهدات صداقة مع هذه الحكومات ليس من أجل مزايا تجنيها من تبادلاتها التجارية معها، بل فقط من أجل ضمان أمن وحرية ملاحتها وتجارتها الخارجية. الإمبراطورية المغربية نفسها، على الرغم من ثراء إنتاجاتها لم تعرف تجارة خارجية واسعة النطاق. من ناحية، عدم استقرار قوانينها ظل يشكل عقبة أمام تنمية نشاطها الصناعي وأمام ثقة الأجانب. ومن ناحية أخرى، احتياجات المغاربة لا تتكاثر بسبب ظروف تثقيفهم والمناخ غير المحفز على المزيد من الاستهلاك وقمع السلطة التي لا تمنح أي حرية للإقبال على الرفاهية، فتبطئ بالضرورة من النشاط التجاري الذي يحركه بالأساس رغد العيش[21]. فبغض النظر عن بعض التبادل التجاري المتواضع، فإن حصول الدول الأوروبية على ضمان أمن وحرية الملاحة هو السبب الوحيد لعقد اتفاقيات بينها وبين إمبراطورية المغرب[22].

كان إمبراطور المغرب في حالة سلام مع الدول التجارية الرئيسية. ورغب في القيام بذلك مع جميع القوى المسيحية على أمل توسيع التجارة في دولته والاستفادة بشكل أفضل من التنافس بين الأمم. في عام 1777 أعرب لها عن نواياه في رسائل يمنح فيها لجميع الأعلام حرية التجارة والتواصل مع موانئه. وسأتحدث عن معاهدات ومصالح أجنبية مع المغرب مرتبة حسب زمن عقدها. ثم سأتحدث بشكل منفصل عن تلك التي تمت مع فرنسا.

مملكة أنكْلترا: كانت إنكْلترا هي القوة الأولى التي أبرمت معاهدات صداقة وتجارة مع أباطرة المغرب. صاحبة السيادة بطنجة التي تنازلت لها عنها حكومة البرتغال سنة 1662[23]. وكانت تشعر من وقت لآخر بقلق المغاربة فكانت تقدم لهم تضحيات كي تتمكن بسهولة أكبر من الحفاظ على قواتها بهذا المكان الذي بسبب بعده أصبح أخيرًا عبئا على الأمة. وبما أن إنكْلترا كانت لديها بالفعل تجارة بحرية واسعة النطاق إلى حد ما، فقد قدمت سنة 1675 لمولاي إسماعيل تلميحات لعقد اتفاقيات السلام. لكنها لم تنجح. فما تم إبرامها سوى عام 1681 لمدة أربع سنوات. لكن هذه الهدنة لم تمتد إلى أجلها. ادعى الأمير المغربي أن السلام يهم فقط حامية طنجة ولا يمتد إلى حصانة العلم البريطاني[24]. هذا التمييز تطلب تفسيرات. فأرسل مولاي إسماعيل سفراء إلى لندن في بداية القرن. وكانت مناسبة لجلب المزيد من الهدايا كما تم تجديد معاهدة السلام أخيرًا مع الملك جورج الأول. بعد وفاة مولاي إسماعيل تم تأكيد هذه المعاهدة وتجديدها في عام 1728 من قبل ابنه مولاي أحمد الذهبي، وبعد فترة وجيزة من قبل ابنه مولاي عبد الله.

---

[20] كي تتدخل وتلجم القراصنة عن مهاجمة سفنها

[21] كانت باختصار شديد تلك هي أهم عوامل التنمية الاقتصادية التي توفرت في أوروبا وغابت في المشرق العربي وفي غيره فشكلت الفارق بين الجهتين ولا تزال كذلك بقدر ما حتى اليوم.

[22] تلك الاتفاقيات كانت تقضي بدفع جزية سنوية للمغرب كي يكبح جماح قراصنته ضد سفن وتجارة الطرف الثاني وحماية مواطنيه وتجارتهم في البر.

[23] لما تزوج ملك أنكْلترا تشارلز الثاني مع الأميرة البرتغالية كاترين كانت طنجة محتلة من طرف بلدها. وكانت المدينة جزءا من المهر الذي جاءت به لزوجها. فانتقلت السيادة عليها من أيدي البرتغال إلى أيدي إنكْلترا.

[24] يعني حصانة السفن التي تحمل العلم البريطاني

كانت الملاحة والتجارة الهائلة للإنكّليز دافعًا قويا لحثها على ترتيب سلامها مع إمبراطور المغرب. كما كانت مضطرة إلى القيام بذلك بدافع سياسي حتى تكون قادرة على توصيل الإمدادات بسهولة أكبر إلى جبل طارق الذي كان تحت سيطرتها منذ بداية القرن. سيدي محمد، الأكثر استبصارًا من سابقيه، استفاد من هذا الوضع الدقيق بالنسبة للأمة الإنكّليزية. أمة فخورة وغيورة، لكنها مستعدة دائمًا لتحمل الإهانة من أجل مصالحها. هكذا أخفت ولا تزال تخفي جميع أوجه عدم المساواة التي تجعلها نفس المصالح تشعر بها في تلك التسوية مع الإمبراطورية المغربية.

لا يمكن أن تكون لإنكّلترا مع المغرب سوى تجارة محدودة وسلبية في كثير من الأحيان لعدم وجود طلبيات على سلعه عند العودة. إن ازدهار التجارة بين الدول يعتمد دائمًا على المعاملات المتبادلة وعلى التسهيلات. ومع ذلك للإنكّليز علاقة تجارية مستمرة بساحل هذه الإمبراطورية. يصدرون إليها بعض الأثواب من النسيج المبرد والقماش والقصدير والحديد المستورد من بساوي[25]. ويستوردون منها الزيوت والشمع والصمغ وأنياب الفيلة والجلود والصوف. مواد أولية غالبا ما يتم نقلها إلى ميناء مرسيليا على متن سفن فرنسية لأن استهلاكها أكثر شيوعًا في أقاليمنا الجنوبية منه في الشمال. كما يصدرون من المغرب كمية من البغال لأمريكا الشمالية[26]. لكن تجارتهم التي لم تكن كبيرة جدًا مع هذه الإمبراطورية فقدت بعضا من نشاطها.

جمهورية هولندا: استقبلت جمهورية هولندا عام 1732 سفيرًا من مولاي عبد الله وأبرمت السلام مع هذا الملك. لكن الثورات التي هزت عهد هذا الأمير أعطت القليل من الاستقرار لمعاهداته. كانت هولندا هي القوة الأولى التي جددت السلام مع سيدي محمد الذي يحكم حاليًا والذي كان آنذاك فقط أميرًا وحاكمًا لآسفي، والذي بوصفه الوريث الوحيد للإمبراطورية كاد أن يستولي على السلطة فيها.

بغض النظر عن سلامة الملاحة، كان لا يزال لدى هولندا مصلحة سياسية في تأمين السلام مقدمًا مع هذا الملك حتى تتمكن من الاستفادة بشكل أفضل من الحياد خلال حرب 1755[27]. وقد بلغ إمبراطور المغرب أن هذه الجمهورية تعاملت مع الجزائر بمزيد من العطاء، فاشتكى من ذلك لهيآتها العامة[28]. وعلى الرغم من الاعتبار الذي أبدته له في نهاية عام 1774 فقد أعلن الحرب عليها بحجة أن الهدية[29] غير العادية التي قدموها له للتو والتي احتفظ بها، لم تكن كافية.

الأمر الذي جعل الجمهورية تدفع بالعديد من الأسلحة في المضيق لحماية تجارتها وملاحتها. ولم يظهر منها سوى القليل على الساحل لدرجة أن قراصنة المغرب سطوا على ثلاث سفن هولندية. اثنتان منها خرجتا من سان لاوكار[30] على مرمى حجر من قادس. وما تم اقتناصه منها عوض الخسائر التي تكبدها إمبراطور المغرب. في المقابل فرقاطة هولندية لم تقم سوى بنصف مطاردة مراكب قرصان من سلا ودمرت أحداها عند مدخل نهر العرائش وأخرى عند مدخل نهر المعمورة[31]. ومن أجل تجديد السلام في عام 1778، اضطرت هولندا لأن تكون سخيّة. ويمكنها أن تطيله بنفس الوسائل.

فصارت هولندا تجري تجارة آمنة مع الساحل المغربي. ومع الوقت أصبحت وارداتها من هناك ضرورية. تصدر له كمية من القماش والعديد من الأثواب الشائعة ببحر البلطيق وقليل من مواد البقالة والخردوات والشاي وقطع الحديد من بيسكاي[32] وكمية من السكاكين من ألمانيا. وتستورد هولندا من ساحل المغرب الشمع

---

[25] وهي غينيا بساو

[26] هكذا عوامل التنمية الاقتصادية المتوفرة بأنكّلترا ومثيلاتها وغيابها بالمغرب جعلت تبادله التجاري معها يعتمد على استيراد المواد المصنعة في مقابل تصدير المواد الأولية.

[27] لعلها حرب السنوات السبع، وهي حرب جرت بين عامي 1756 و1763. وقد شاركت فيها بريطانيا وبروسيا ودولة هانوفر ضد كل من فرنسا والنمسا وروسيا والسويد وسكسونيا.

[28] الهيئة العليا صاحبة السيادة على مؤسسات الجمهورية للمقاطعات السبع الهولندية المتحدة

[29] أو الجزية المقدمة له في مقابل النفقات التي يتطلبها كبح جماح القراصنة ضد سفنها.

[30] وهي شَلُوقَة أو المَسَاجد بالإسبانية: *Sanlúcar de Barrameda*، إحدى بلديات مقاطعة قادس التي تقع في منطقة الأندلس جنوب إسبانيا.

[31] وهو مصب نهر سبو اليوم حيث المهدية المدينة المغربية الساحلية داخل مجال عمالة القنيطرة.

[32] بيسكاي هي مقاطعة في شمال إسبانية

والصمغ وأنياب الفيلة[33]. لكن نظرًا لأن الكميات المطلوبة بهولندا من تلك السلع غير كافية بالنسبة للتجار الهولنديين لتغطية تكاليف العودة، فهم ما يزالون يستفيدون من التسهيلات التي توفرها لسفنهم موانئ فرنسا لتمرير الزيوت المغربية والصوف والجلود بشعرها، لأنها تستهلك هناك بكميات أكثر مما تستهلك في الشمال. ولو لم تستغل هولندا بما يكفي هذا التسامح الفرنسي، لكانت قد أُجبرت على التخلي عن تلك التجارة مع المغرب لأنه ستصبح فيها الخسارة أكبر من الربح.

مملكة الدانمارك: بدأت حكومة الدنمارك المفاوضات مع سيدي محمد عام 1755[34]. وبعيدًا عن المغرب، لم تكن لديها فكرة عن هذه الحكومة. وكانت تثق في اليهودي الذي كان العضو والمترجم الفوري لهذه المفاوضات. فاعتقدت أنها تستطيع التقليل من الإضرار بمصالحها ببناء حصن في سانت كروا[35] لحماية مركز تجاري اقترحت إقامته هناك. الوكيل اليهودي أخفي نوايا الحكومة الدنماركية عن سيدي محمد الذي لم يكن يعرف الحصن الذي أرادت إنشاءه هناك حتى بدأ تفريغ مواد وآليات البناء. فشعر بالإهانة لرؤية الدانمارك تشبهه بأمراء السنغال، وأمر باعتقال سفيرها مع حاشيته والاحتفاظ بهم كعبيد[36]. مع مرور الوقت تم توضيح ملابسات سوء الفهم الحاصل. واستأنفت حكومة الدنمارك مفاوضاتها في 1757[37]، ووافقت على دفع فدية[38] وقدمت هدايا جديدة من أجل سلام جديد.

ملك الدنمارك الراحل الذي كان منشغلا بالمشاريع التجارية أعطى موافقته على إنشاء الشركة الملكية الإفريقية[39] حصلت من إمبراطور المغرب بموجب دفع إتاوة سنوية قدرها خمسون ألف قرش قوي[40] على احتكار التجارة مدة عشر سنوات بمينائي سلا وآسفي حيث أنشأت فرعين للمؤسسة. لم تسفر هذه الشركة إلا عن نتائج سيئة بسبب الخسائر التي تكبدتها من جراء سوء تدبير بعض المدراء الأجانب الذين عهدت إليهم بإدارة مصالحها. من ناحية أخرى، فقدت الشركة الدانمركية امتياز احتكار التجارة المغربية عبر كل من آسفي وسلا لما أنشأ سيدي محمد كلا من ميناء موكَادور وميناء العرائش اللذين استقطبا تصدير منتجات إمبراطوريته بفضل التقليص من نسب الرسوم الجمركية التي خصها بها. وبما أن بلاد الدنمارك لا تمتلك في حد ذاتها إنتاجًا دانماركيًا كي تصدره إلى المغرب، ولا تستهلك منتجاته حتى تستوردها منه، أصبحت تعتمد فقط على الأرباح من جلب المواد المصنعة من باقي الدول الأوروبية إلى المغرب، فكانت تصل سفنها محملة وتعود فارغة.

وتولت هذه الشركة تصفية نفسها بعد اعتلاء كريستيان السابع عرش بلادها. وذلك في عام 1767. هكذا تحررت الدانمارك من دفع خمسين ألف قرش كرسوم سنوية مستحقة للمغرب مقابل التجارة الحصرية للشركة الملكية التي أخفقت في تحقيقها. لكنها ما حصلت على استمرار السلام معه سوى بدفع رسوم سنوية قدرها خمسة وعشرين ألف قرش. مع العلم أن الدنمارك لم تعد لديها أية تجارة مباشرة مع هذا الساحل[41].

---

[33] مرة أخرى المغرب يستورد المواد المصنعة ويصد المواد الخام.

[34] لما كان نائبا عن أبيه بمراكش منذ سنة 1745 لأنه اعتلى العرش سنة 1757

[35] هي مدينة أكَادير اليوم، والتي كنت تسمى بالبرتغالية *Santa Cruz do Cabo de Aguer*. وترجمتها بالفرنسية هي *Sainte Croix du Cap Ghir*

[36] الحصانة الدبلوماسية هي نوع من الحصانة القانونية والسياسة المتبعة بين الحكومات تضمن عدم ملاحقة ومحاكمة الدبلوماسيين تحت طائلة قوانين الدولة المضيفة. في اليونان القديمة، لم يتمتع رسل الحكومة الأجنبية بأي حصانة وتعرضوا في بعض الأحيان للاغتيال عندما حملوا رسائل مثيرة للاستياء. في العصور الوسطى كانت الحصانة الدبلوماسية مكفولة بالقانون الروماني ولكن كان من الصعب جدًا تطبيقها عمليًا. خلال عصر النهضة، كانت الحصانة الدبلوماسية لا تزال غير مألوفة. وهكذا، في عام 1538، قام ملك فرنسا فرانسوا الأول بضرب سفير هنري الثامن بشدة بسبب سلوكه الوقح. في عام 1709، كان البرلمان البريطاني أول من أنشأ الحصانة الدبلوماسية والتزم بها. وتم أخيرا الاتفاق على الحصانة الدبلوماسية كقانون دولي في مؤتمر فيينا للعلاقات الدبلوماسية الذي عقد في 1961.

[37] سنة اعتلاء سيدي محمد العرش

[38] لتحرير المعتقلين

[39] وهي شركة ملاحية تجارية، كان لها مثيلات بأنكَلترا وبفرنسا وهولندا.

[40] piastres fortes هي عملة جمهورية البندقية أصلا. وكانت معتمدة بتركيا تحت اسم قرش وقروش.

[41] لكن الرسوم المدفوعة سنويا للمغرب كانت في مقابل نفقات ضمان أمن أعلام سفنها من هجوم القراصنة المستقرين بسواحله. يحصل الشيء نفسه فيما بين الدول الأوروبية لكن ليس بدفع رسوم بل بالانتفاع من مصالح متبادلة لأن كلا منها كان له أسطول بحري تجاري، وكل منها يكف يد قراصنة سواحله عن سفن غيره. وبما أن المغرب لم يكن له أسطول تجاري بحري فقد كان يتم تعويض نفقات نفس الخدمات نقدا.

مملكة السويد : أبرمت حكومة السويد صلحًا مع إمبراطور المغرب في عام 1763. ثم قدمت هدايا عينية مشكلة من عدة مدافع وصواري السفن[42] وأخشاب البناء وغيرها، بالإضافة إلى هدية نقدية سنوية قوامها عشرين ألف قرش. وكانت تنوي دفعها على مراحل في سندات لكن الإمبراطور طلبها دفعة واحدة، وذلك حتى عام 1771. ورفض الملك گوسطاف الثالث دفع أية إتاوات مع الاحتفاظ بحرية تقديم الهدايا حسب رغبته ومن دون تحديد وقتها أو قيمتها. وأخيرًا كوسيلة لترسيخ الانسجام الجيد بين البلدين، تم الاتفاق على أن يرسل ملك السويد كل عامين إلى إمبراطور المغرب سفيراً ومعه هدايا. السويديون لا يتاجرون مع الساحل المغربي.

جمهورية البندقية: أبرمت جمهورية البندقية اتفاقية سلام مع إمبراطور المغرب عام 1765. وقدمت له هدية متميزة من المال علاوة على إتاوة سنوية تبلغ حوالي مائة ألف جنيه. ولما تبين أن هذه الجمهورية كانت أكثر سخاء مع الجزائر استاء إمبراطور المغرب من ذاك التمييز وأرسل إلى البندقية أحد مواطني جنوة[43] الذي كان في خدمته للشكوى منها. لكن مجلس الشيوخ استقبل هذا المبعوث ببرود ولم يقدم إجابة مرضية. فأعرب سيدي محمد في عام 1780 عن غضبه من الجمهورية وتحت ذريعة اتهامات مفتراة قام بطرد قنصلها من دولته. ولكن في عام 1781، رضخت الجمهورية لرغباته فعاد قنصلها واستقبله هذا الأمير بحفاوة. جمهورية البندقية ليست لديها تجارة مع الساحل المغربي، مثل الدنمارك والسويد. فقط سلامة ملاحتهم هي المنفعة الوحيدة التي تجنيها هذه الحكومات من السلام مع هذا البلد.

مملكة إسبانيا: أبرمت إسبانيا السلام مع إمبراطور المغرب عام 1767 في نفس الوقت الذي أبرمته معها فرنسا. غير أن سيدي محمد من بعد حصوله على أفضل التعابير عن سخاء ملك إسبانيا وبعد أن حصل على امتياز إصلاح سفن المغرب بجميع موانئه تقريبًا، تسبب في تدمير الانسجام الجيد الحاصل بينهما. كيف ذلك ؟ من دون أن يقصد كسر السلام الذي، حسب قوله، يقتصر على حرية الملاحة، وخرج على رأس جيش في نهاية عام 1774 لفرض حصار على مليلية التي كان يعتقد أن إسبانيا سوف تتنازل له عنها بدلاً من الدفاع عنها. فكان هذا الإجراء المخالف للمعاهدات بين البلدين سبباً في قطع العلاقات بينهما. وبعد أن فشل الأمير المغربي في هذا المشروع، استخدم كل الوسائل الممكنة لاستعادة السلام. لكن ملك إسبانيا، الذي شعر بإساءة شديدة إليه، تعامل ببرود مع تلك المساعي واكتفى بالعودة إلى حالة الهدنة.

وبعد أن غيّرت القطيعة بين فرنسا وإنگلترا الوضع السياسي بأوروبا، اعتقد ملك إسبانيا أن اللحظة المناسبة لتأمين العلاقات الجيدة مع إمبراطور المغرب قد جاءت. فجدد معه السلام في عام 1780 من خلال سفيره ابن عثمان[44]. في المقابل استجاب سيدي محمد لكل مطالبه. لم يقبل الإمبراطور فقط برفض إرسال المرطبات إلى جبل طارق الذي كانت إسبانيا تفكر في فرض الحصار عليه، بل صار الإسبان بطريقة ما أسيادا على طنجة التي منها كانوا يزودون جيشهم بما يحتاج إليه. وأصبحت ملجأ لقواتهم المرابطة قريبا من هناك. كانت نقاط المراقبة الخاصة بهم من فوق القلعة وحتى رأس سبارطيل[45] راسخة لدرجة أن إشاراتهم في كل نقطة كانت متواصلة مع ساحل الأندلس بأكمله.

لا يمكن أن تكون هناك تجارة مستمرة بين ساحل إسبانيا وساحل المغرب، فتبادل الحبوب التي تعتمد على الاحتياجات والظروف تعتبر فقط تجارة موسمية، والسلع الواردة من المغرب باستثناء المواد الغذائية ليس لها من رواج في إسبانيا. وإسبانيا لديها عدد قليل جدًا من الأشياء المناسبة لاستهلاك هذا الساحل، باستثناء صباغة

---

[42] الصاري (جمع صواري وصوارٍ) هو عمود رأسي طويل يدعم الشراع. وللسفن الكبيرة عدة صواري. وكانت السفن تصنف حسب شكل الصواري وعددها. وتكون معظم الصواري مدعمة بالشدادات (الكابلات).

[43] جنوة (بالإيطالية: Genova)، مدينة وميناء بحري شمال إيطاليا.

[44] هو أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان المكناسي المتوفي فيسنة 1799م. خدم في بلاط السلطان سيدي محمد بن عبد الله. وكان أول من خصه بترجمة حياته من بين المغاربة هو المؤرخ مولاي عبد الرحمان بن زيدان. أما من سبقه من المؤرخين من الزَّياني إلى الناصري، فإنهم لا يزيدون على التلميح إلى الوزير ابن عثمان بمناسبة سفارته إلى إسطنبول وبمناسبة المعاهدة التي عقدها المغرب مع إسبانيا بواسطته، وبمناسبة وفاته. ويجزم محمد الفاسي أن طمس أخباره سببه العداوة التي كان يحملها له أبو القاسم الزَّياني، في حين أن معاصرا آخر لابن عثمان وهو الضعيف الرباطي غض الطرف عن كثير من جوانب نشاطه.

[45] رأس سبارطيل (بالفرنسية: Cap Spartel) قمة صخرية جبلية على الساحل المغربي جنوب مدخل مضيق جبل طارق، على بعد 14 كيلومترا غرب طنجة.

القرمزي التي تستخدم في صباغة الجلود، والتي يحتفظ الإمبراطور بتجارتها الحصرية. يمكنها أن تستورد إليه الحديد من بسكايا[46] ومناديل الحرير من برشلونة حيث يكون استهلاكها واسعًا للغاية. لكن الأجانب يستقطبون منها الأجود مقابل منتجاتهم. أما الأقل جودة فكميته ليست كافية للحفاظ على نشاط تجاري مهم[47].

في السنوات الأولى للسلام الذي تم التوصل إليه في عام 1767، قام الإسبان، بعد أن كانت المحاصيل سيئة، بجلب كمية كبيرة من القمح والشعير من الساحل المغربي. كانت بالنسبة لهم تجارة قسرية وظرفية. حملوا النقود لشراء السلع من الدجاج والفواكه من أجل تزويد الأندلس حيث تقلبات المناخ تجعل كميات المحاصيل غير مضمونة. هذه التجارة، كانت من الناحية السياسية، مفيدة فقط لإمبراطور المغرب لأن إسبانيا كانت من ناحية تحت رحمة هذا الأمير بالنسبة لاحتياجاتها، بينما من ناحية أخرى، هذه التسهيلات في الإمدادات جعلت ربما المزارعين الأندلسيين أقل نشاطا. ونتج عن ذلك أخيرًا تداول كمية كبيرة من لأوراق النقدية في الإمبراطورية المغربية، وربما أكثر من مليوني جنيه إسترليني في الإيرادات الجمركية. من عام 1770 حتى عام 1774، ظلت إسبانيا تستورد كميات كبيرة من القمح والشعير من ساحل المغرب. لكنها في المقابل قدمت للمغرب نفس المساعدة من عام 1779 حتى عام 1781 عندما ضربت المجاعة جزءًا كبيرا من هذه الإمبراطورية.

مملكة البرتغال: خسر البرتغال في فبراير 1769 مدينة مزاكَان التي احتلها على الساحل الغربي للمغرب منذ بداية القرن السادس عشر. وكانت لقواته ولتجارته فيها أيام سعيدة. هذا المكان المتواجد في وسط إقليم خصب كان يزود البرتغال خلسة ببعض السلع وبعض المواشي. بعد خسارة مزاكَان أرادت حكومة لشبونة أن تحافظ على التزود من المغرب بنفس السلع وأن تمنح علمها مزيدًا من الحرية وأن تؤمن نفسها من قراصنة هذا البلد الذين قد يقتربون من سواحلها من بعد عقد السلام مع إسبانيا. فقررت في عام 1773 عقد معاهدة مع إمبراطور المغرب. لا توجد تجارة متواصلة بين البلدين. وتقتصر الروابط بينهما على تبادل بعض المجاملات. هكذا أرسل إمبراطور المغرب بعض الخيول إلى ملك البرتغال الذي رد على هذه السخاوة بأفضل منها.

دوقية توسكانا وإمبراطورية النمسا: في نهاية عام 1782، أرسل إمبراطور المغرب سفيراً إلى توسكانا[48] والذي ذهب من هناك إلى فيينا عام 1783 لعقد معاهدات سلام معهما. وبما أنه لا توجد تجارة متواصلة بينه وبينهما فليس تمة إذن لهذه المعاهدات أي فائدة أخرى سوى ضمان ملاحة السفن النمساوية والتوسكانية ومنح هذه الضمانة الإضافية للتجارة البحرية التي ترغب هذه الدول في تشجيعها في دولها.

جمهورية جنوة: كانت جمهورية جنوة[49] مع ملك المغرب فقط في حالة هدنة. لم تكن علاقات رعاياها مع هذه الإمبراطورية مدعومة بأية معاهدة. يهودي من المغرب يُدعى بنعمور ذهب إلى جنوة بأمر من سيده لترتيب علاقات بين أحد نبلائها وبين إمبراطور المغرب، والذي أعطاها اهتمامًا كبيرا. فأنشأ هذا السناتور شركة تجارية وأرسل مندوبيه إلى المغرب عام 1769 محملين بهدايا متنوعة ومع حاشية كبيرة. حظيت هذه الشركة للحظة بالتألق. لكنها لم تحقق نجاحًا كبيرًا بعد ذلك. فكانت مثل ضوء البرق الذي يظهر في ليلة مظلمة.

جمهورية راكُوزا[50]: على الرغم من أن سيدي محمد قد أظهر أنه ينوي تحقيق السلام مع أوروبا، إلا أنه لم يتردد في الإعلان عام 1779 عن احتجاز سفينة راكُوزية كغنيمة جيدة استولى عليها أحد القرصان المغاربة. كانت الشحنة التي تزيد قيمتها عن مائة ألف جنيه إسترليني مملوكة لمالطيين[51] كانوا على متنها، وتمت مصادرتها. ومع ذلك، من خلال إحدى تلك النزوات التي لا يمكن تفسيرها، تم تحرير المالطيين من دون مقابل، بينما تم احتجاز طاقم السفينة الراكُوزيين كعبيد. فادعى الباب العالي العثماني أن راكُوزا جمهورية تابعة له وأن نفس الحصانة تشمل علم سفنها.

---

[46] وهي دائما غينيا بيساو اليوم.

[47] مع المغرب.

[48] دوقية توسكانا الكبرى (بالإيطالية: *Granducato di Toscana*) كانت مملكة في وسط إيطاليا بين عامي 1569-1859.

[49] جمهورية جِنْوَة دولة بحرية بغرب شبه الجزيرة الإيطالية سادت عبرها مدينة جنوة منذ سنة 1096 حتى سنة 1815

[50] جمهورية راكُوزا أو جمهورية دوبروفنيك. وقد كانت جمهورية بحرية تركزت في مدينة دوبروفنيك بدالماسيا الموجودة اليوم في جنوب كرواتيا الحديثة. واستمرت هذه الجمهورية ذات سيادة ما بين 1358 و1808

[51] من جمهورية مالطا هي دولة أوروبية تقع في البحر الأبيض المتوسط.

تم استلام الرسائل المرسلة من الباب العالي والمكتوبة باللغة التركية بتقدير. ولكن تعذرت قراءتها. لكن الراڭوزيين المحتجزين كعبيد تم تحريرهم وتسليمهم إلى مبعوث هذه الجمهورية. وأملى الإمبراطور السلام معها بشروط محرجة لا يمكن أن ترفضها ولا أن تقبلها. أدى ما فيها من دواعي عدم الثقة والمضايقات إلى تفسيرات جديدة لم تهدئ من قلق مجلس الشيوخ الراڭوزي لأن الأمة التي يوجد مثلها في وضع هش لا يمكن أن تكون متيقنة من أي شيء.

جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية: بعد أن عززت استقلالها بقوانين حكيمة وعقد معاهدات تجارية مع قوى أوروبية، أرادت الولايات المتحدة الأمريكية أن تزود صناعاتها وبحريتها بوسائل جديدة للنمو. ونتيجة لذلك، فقد استغلت للتو خلال عام 1786 الترتيبات السلمية التي أعلنها إمبراطور المغرب لجميع الدول التجارية وأبرمت معاهدة سلام مع هذا الملك.

مملكة فرنسا: في بداية القرن[52] كانت لدى فرنسا مستعمرات ومصانع ومؤسسات بالخارج وملاحة تجارية التي بدأت تكتسب شيئا من الاعتبار بفضل تنامي القوات البحرية في عهد لويس الرابع عشر. لكن الحروب التي كان عليها دعمها في هذا العهد أعاقت تقدم تجارتنا الخارجية. وفي ظل العهد الموالي عرفت نموا سريعًا جدًا لدرجة أن خصومنا الغيورين على هيمنتهم على البحار تضايقوا من ازدهار الملاحة لدينا. ثم أدت بعد ذلك انتصارات قوات جلالته إلى محو ذكرى كل الانتكاسات التي جعلنا طموحهم نتحملها. وبتأثيرها على الأحداث، يبدو أن تجارتنا البحرية ستنتعش كل يوم[53].

أثارت التحركات الأولى للملاحة لدينا جشع الدول البربرية[54] المجاورة لموانئنا الجنوبية. بعد أن عمدت فرنسا إلى معاقبة وقاحتهم[55] المتواصلة أبرمت السلام أخيرًا مع الجزائر وتونس وطرابلس. وكانت مهتمة بالتفاوض مع مولاي إسماعيل. لكن لم يكن من الممكن الإفلات من تقلبات هذا الأمير ومن المضايقات المترتبة عن قلة حسن نيته. بعد وفاته سقطت الإمبراطورية في اضطرابات جعلتها تغيّر حاكمها في كل وقت وحين. فكان من الصعب للغاية التفاوض على السلام لأنه في مثل تلك الفوضى لا يمكن للمعاهدات أن تكتسب أي استقرار.

تغير كل شيء عندما صار سيدي محمد هو سيد الإمبراطورية. وفرنسا استفادت من الاستعدادات الشخصية لهذا الملك لبدء المفاوضات. ومع ذلك، فقد عانت من الكثير من التردد والاختلاف لدرجة أنه من أجل التأثير على إرادة الأمير المغربي قررت في وقت لاحق سنة 1765 إرسال قوات بحرية إلى الساحل الغربي للمغرب. هذه القوات التي كانت أكبر مما كان ضروريًا أحبطت مساعيها بسبب مجموعة من الظروف التي لم تتوقعها، لأنه لم تكن لديها معرفة كافية بهذا الساحل. فقصفت مدينتي الرباط وسلا من دون نجاح يذكر.

من هناك تقدمت إلى العرائش حيث تسببت في جنوح أحد مراكب القراصنة على الساحل. ودخلت النهر[56] وأحرقت هناك مراكب. كلفت هذه الإنجازات خسارة الأشخاص الطيبين الذين أجبروا على القتال ضد عدد كبير من الجنود المغاربة الذين كان لديهم وقت للتجمع هناك بسبب المضايقات التي تعرضت لها هذه الحملة. خسر الفرنسيون في هذه المعركة ما يقرب من مائتي رجل. خمسة وأربعون منهم أصبحوا عبيدًا وذلك من دون احتساب عدد الجرحى. لكن هذه الخسارة لم تعوض إمبراطور المغرب عما خسره من جهته من جنود كثيرين.

جرب هذا الأمير قتال الفرنسيين وخشي من أن يحالفهم النصر بفضل مزيد من الإقدام في مناسبات أخرى، فاقترح وقف إطلاق النار. وتم أخيرا الاتفاق على الهدنة التي تم تمديدها حتى تتضح الأمور بشكل أفضل. وحُددت أخيرا مقدمات السلام كليا في نهاية عام 1766.

---

[52] القرن الثامن عشر

[53] تلك كانت هموم القوى الأوروبية التي جعلتها تتفوق على دول باقي العالم. هذه الدول التي كانت مشغولة أكثر بل حصريا باستتباب أمنها واستقراها الداخلي.

[54] هكذا كان الأوروبيون يصفون كل الدول الإفريقية.

[55] يعني بذلك هجوم قراصنة شمال إفريقيا على سفنهم التجارية.

[56] نهر اللكوس

في ربيع 1767 تم تعيين القبطان الكونت دي بريگنيون[57] سفيرا لإبرام السلام مع المغرب. فذهب إلى آسفي مع الفرقة البحرية التي كانت تحت إمرته. وجلب معه لإمبراطور المغرب هدية تليق بعظمة جلالته. وتمت تحية علم ملكنا في آسفي من قبل مدفعية القلعة. واستُقبل سفيره بحفاوة على أرض الميناء وعلى طول كل الرحلة إلى مراكش. في نفس الوقت استولى قرصان مغربي على ثلاث من سفننا التجارية في المضيق. كانت استعادتها بطيئة إلى حد ما، ولكن من دون مواجهة أي صعوبة أخرى. لقد تبرأ الإمبراطور من هذه الحماقة. والقرصان الذي ارتكبها تم طرده إلى الأبد. وكان توقيع معاهدة السلام نفسه عرضة لمزيد من التوضيح. تمت تنحية تصوراتها التمهيدية التي تم الاتفاق عليها بين الجانبين لما سلمت إلى قصر قرساي باللغة العربية. فصار من الضروري صياغتها من جديد من بعد المناقشة التي غيرت تقريبا كل مواد المعاهدة الأولية التي كنا متفقين عليها من قبل.

فرنسا هي القوة الوحيدة التي ربما يمكنها أن تحافظ مع إمبراطورية المغرب على علاقات تجارية مفيدة من خلال تكافؤ المصالح المتبادلة. فرنسا تصنع كل ما يمكن أن يفي باحتياجات المغرب التي يتمتع إنتاجها في مرسيليا بتدفق أكثر استقرارا مما هي عليه في أي مكان آخر. قبل أن نحقق السلام مع الإمبراطورية المغربية، كانت هناك بالفعل مؤسستان تجاريتان فرنسيتان على هذا الساحل. بعد السلام تضاعف عددها. وهذا هو خطأ الفرنسيين. كان عددهم هناك أكبر من الفرص المتاحة على هذا الساحل. وهذه المنافسة، التي كانت ضارة بمصالح التجار، كانت ذات طبيعة مثيرة لمطامع الإمبراطور. أراد أن يستمد منها فائدة أكبر بإقرار زيادة في الضرائب. فثبطت من حماس التجار وتباطأت حركة النشاط التجاري.

حجم وارداتنا من المغرب أكبر من حجم صادراتنا إليه. لكن على الرغم من أن الميزان التجاري ليس في صالحنا فلا ينبغي أن نعتبر التجارة التي نقوم بها هناك سالبة. نحن لا نستورد منه سلعا مصنعة ولا مواد الرفاه. بل نجلب منه فقط المواد الخام المناسبة لتزويد معاملنا والمنعشة لقطاع الصناعة ببلدنا. فنغطي نفقات وارداتنا منه بإيرادات تصدير السلع المصنعة إليه، ويتكافأ بذلك تبادلنا التجاري معه[58].

عادة ما كان يعترف أباطرة المغرب بتجارة سفن الدول الأوروبية على سواحلهم وهي في حالة حرب معهم. هذا التسامح السياسي معها يشرفهم. لكن استفادتها منها لا تخلو من العوائق. يتمتع المغرب بامتياز التجارة وامتياز ممارسة القرصنة. في المقابل ليس له الاكتفاء الذاتي. فيفسح المجال للتجارة على ساحله فقط بدافع الضرورة. يجب أن يتخلص من فائض إنتاجه الذي لا حاجة له به، والحصول في المقابل على سلع لا يمكنه الاستغناء عنها. بالتالي يجب أن يتاجر مع أوروبا، مع العلم أن الميزان التجاري في صالحه. لذلك ستستفيد الدول الأوروبية أكثر من هذا الوضع، وبخاصة تلك التي تستهلك بسهولة إنتاج المغرب، بطرح هاتين الضرورتين على صاحب السيادة بالمغرب لإجباره على الالتزام بالانسجام الجيّد معها. بتيسير أوروبا لتجارة مفيدة فقط لأمة ما، وهي في حالة حرب معها، فكأنها تدفع لها الجزية من دون أن تحصل على السلام.

14. سيدي محمد كما عرفته

ليس من المعتاد عند المغاربة تسجيل تاريخ ميلاد الأطفال، ولا حتى تاريخ ميلاد الأمراء. يتم تحديده بما حصل في ذلك العصر والمسجل في ذاكرة الوالدين. كمن يقول بثقة أنه ولد في عام الجفاف كذا أو عام المطر الغزير أو أي حدث آخر. هكذا الإمبراطور الحاكم اليوم كان في مكة عام 1727 عندما توفي مولاي إسماعيل. لم يكن حينها متزوجا. وبالنظر إلى ذكريات هذه الرحلة، يُعتقد أنه كان حينها في سن السادسة عشر أو ثمانية عشر عامًا. وعليه يكون قد ولد في سنة 1710. فكان يبلغ من العمر ستة وسبعين عامًا[59].

[57] *Pierre-Claude Haudeneau, comte de Breugnon* هو ضابط في البحرية و دبلوماسي فرنسي. عين سفيرا فوق العادة للملك لويس الخامس عشر لدى سلطان المغرب عام 1767

[58] يتكافأ نقدا. وهو ما يسمى بميزان الأداءات في مقابل الميزان التجاري الذي يتعلق بحجم المبادلات وليس بقيمتها.

[59] وذلك سنة 1766م

سيدي محمد، صاحب عمق التفكير والتعقل، كان سيتمتع بجميع الصفات المناسبة للحكم لو أن الثقافة كانت قادرة على تطوير المواهب التي حبته بها الطبيعة. طوله خمسة أقدام وثماني بوصات. له حوَل قليل بعين واحدة، الأمر الذي يضفي على نظره بعض الصلابة. مزاجه القوي بطبيعته وطريقة حياته المتزنة والبسيطة جعلته متوائما جدًا مع الحياة المرهقة والعمل الجاد الذي يتطلبه حكم إمبراطوريته. إن التواصل معه يسير. يستقبل الغرباء بتأدب ويتحدث معهم من دون تكلف. لكن اهتماماته وتصرفاته دائمًا ما تكون موجهة بحوافز شخصية. ومصاحبته ليست ثابتة من حيث تتبدل بتبدل المصالح التي تحددها.

مهما كان تعلق سيدي محمد بالثروة، فنادراً ما استخدم الوسائل التي كان من الممكن أن يقترحها عليه العنف والقسوة لتكديسها. هذا الملك لن يترك من ورائه كنزًا هائلا كما يبدو ذلك من خلال حبه للتوفير. وذلك بسبب عهده الذي تعرض للعديد من النفقات ودولته المنهكة بشكل ملموس التي لم تعد لها نفس الموارد. بصرف النظر عن الأموال الكبيرة التي أنفقها على حصار مزاݣان ومليلية ومن أجل الحفاظ على القوات، قام سيدي محمد بتشييد المدن والحصون وزين قصوره وبنى مساجد وأسواق عامة واشترى من مالطا ومن إيطاليا عام 1782 عددًا كبيرًا من العبيد المحمديين، ومعظمهم لم يكونوا من رعاياه. وأخيرًا أرسل إلى القسطنطينية في عام 1784 أكثر من أربعة ملايين جنيه. وهو المبلغ المفترض أن يكون بدافع ورعه الديني، قد خصصه للكعبة بمكة وللدفاع عن الإمبراطورية العثمانية التي كان قلقا عليها من أطماع جيرانها. هذا الأمير الذي بدا متعلقا بجمع الثروات سيترك للأجيال القادمة فقط هذه الآثار النابعة من إخلاصه وبعد نظره وإحسانه.

ونظرا لكونه أكثر ليونة من أسلافه وأقل منهم إلزاما لغيره وأكثرهم سهولة في التواصل معه، كان سيدي محمد دائمًا يعامل بإنسانية المسيحيين الذين جلبهم مصير الحروب إلى العيش تحت سلطانه. وكان من بينهم من حظي بثقته. بعد الاستيلاء على مزاݣان، أرسل إلى سيد مالطا ومن دون فدية ثلاثين عبيدًا من رعايا دوق التوسكان، فأرسل له نفس العدد من المغاربة.

هذا الأمير المتبصر، غالبًا ما شكل حكمًا حصيفا على طبيعة الأمم، من خلال سلوك العبيد الذين كانوا من حوله والذين تمكنوا من الوصول إلى شخصه. رؤية نشاط الفرنسيين في عملهم جعله يفضل اختيارهم كمساعدين. ولاحظ في الوقت نفسه أنهم مشاكسون فوجب أن يكونوا مشغولين لئلا يتشاجروا مع بعضهم البعض أو مع الغرباء. لا يمكننا أن نقول إنه في ظل إمبراطورية هذا الملك، قد طغت الأعمال على كاهل العبيد. مع العلم أن الأمراء الذين يعتبرون فديات تحرير العبيد من ضمن دخلهم فلهم مصلحة في العناية بهم.

15. مسألة ولاية العهد بالمغرب

على مدى ثلاثين عامًا، حقق عهد سيدي محمد أسعد النجاحات. وسيكون من التسرع التنبؤ بما سيحدث بعد وفاة هذا الأمير. مهما كانت العلاقة بين الأحداث التي تهز الإمبراطوريات أو تحييها، لا ينبغي أن نحكم دائمًا على المستقبل من خلال الماضي. أدنى تغير في الظروف، وأدنى فارق في الشخصية بين الرجال على رأس الدولة، من شأنه أن يغير حالة الأشياء ويقرر مصير الشعوب. هكذا عندما نرى في المغرب حشدًا من الأمراء المتحمسين للحكم والذين لهم نفس الحق في العرش، يُخشى من أن تحصل نفس الانقسامات ونفس الاضطرابات التي مزقت البلاد في ظل العهود السابقة[60].

ولاية العهد في إمبراطورية المغرب لا تتم بموجب قانون ولا بموجب عرف. تعتمد كليا على الظروف. بالنسبة للمغاربة من الأفضل أن يرث أكبر الأمراء العرش لأن خبرته تجعله أكثر كفاءة لتحمل أعباء الحكم. لكن بما أنه لا يوجد قانون ثابت بشأن هذه النقطة ولا يوجد في المغرب ديوان[61] ولا مجلس حكومي للتداول في شؤون الدولة. يعتمد اختيار الحاكم الجديد كليًا هناك على المصادفة. يعتمد على شخصية الطامح إليه والرأي العام وتأثير الجنود ودعم حكام الأقاليم وبشكل أساسي على امتلاك المال. لأن من له المال يتحكم في الجيش فيُخشى.

---

[60] كما حصل مؤخرا من بعد وفاة مولاي إسماعيل.

[61] يعني المؤلف بالديوان الجهاز الإداري بالدولة العثماني والمتشكل من الصدر الأعظم وأفراد الطبقة الحاكمة. ومنصب الصدر الأعظم هو أعلى مناصب الدولة بعد منصب السلطان. وكان من يتبوأ هذا المنصب يلعب دور رئيس الوزراء ورئيس الديوان، ومن صلاحياته تعيين قادة الجيش وجميع أصحاب المناصب الإدارية المركزية أو الإقليمية.

كما حصل في عهد مولاي عبد الله تختار إحدى الفصائل أميرا عندما تعلن أخرى ولاءها لآخر. ومن المتوقع أن تحصل هذه المرة نفس الفوضى تقريبًا بالنظر لتعداد المتنافسين ما لم يتحد حكام الأقاليم لحماية أحد الخيارات. الأمر الذي بالكاد يُرى بين المغاربة الذين في اعتقادهم لا يفعل ويقرر الرجال شيئًا وإنما هي العناية الإلهية التي تفعل كل شيء. من بين أبناء الإمبراطور العشرة أو الإثني عشر هناك العديد القادرون على الحكم. وليس لدي من شك في أنهم على علم بالثورات التي مزقت هذه الإمبراطورية. ومع ذلك يطمحون جميعًا بنفس الثقة لاعتلاء العرش الذي لكل منهم الحق فيه بموجب الولادة ورغبة الناس.

الطبيب العسكري الإنڭليزي وليام لامبريير

ويليام لامبريير[1] طبيب جراح عسكري إنڭليزي (1751-1834). التحق بالخدمة الطبية العسكرية في عام 1789. وتم إلحاقه بحامية جبل طارق. في سبتمبر من نفس السنة تلقى الجنرال القائد هناك خطابًا من سلطان المغرب سيدي محمد بن عبد الله، يطلب فيه إرسال طبيب إنڭليزي لعلاج ابنه الأمير عبد السلام من مرض في العينين. وذلك مقابل مكافأة مالية سخية وتحرير عشرة بحارة بريطانيين من الاحتجاز.

بدافع الفضول والطيش الذي يطبع الشباب تطوع الطبيب وليام لمبريير لتلك المهمة. وقد كان عمره آنذاك ثمانية وثلاثون سنة. نزل في ميناء طنجة في 14 سبتمبر 1789. وسافر إلى موڭادور أو الصويرة على ظهر بغل تحت حراسة اثنين من الفرسان. ومنها انتقل إلى تارودانت حيث مقر الأمير المريض الذي بعد خمسة أسابيع من العلاج تحسن بصره بالتأكيد. عالجه الطبيب ويليام لمبريير بتناول جرعات من الدواء المهدئ للأعصاب. ولطمأنة الأمير على صحته كان الطبيب يشرب منه أولا. الأمر الذي، مع ذلك، استغرب منه المعالجون المغاربة. علاج العينين عندهم لا يتم سوى بالتقطير فيهما أو بطلائهما بمرهم. وأصبح السلطان متوترا لما سمع أن هذا الطبيب الأجنبي كان يسمم ابنه. لذلك أسرع بإرسال الأمير إلى الحج بمكة واستدعى الطبيب إلى مراكش. هنا تم تسليم أدويته إلى أطباء مغاربة لتحليلها. ولم تتم الاستجابة لطلباته بالسماح له بالعودة إلى جبل طارق.

حينها تم تسميم زوجة السلطان المفضلة على يد غريماتها. فتم استدعاء نفس الطبيب لعلاجها. وكان بذلك الرجل الوحيد، من دون العبيد المخصيين، الذي يلج حريم السلطان. ولما فحصها زعم بأنه لا يمكن الحصول على الأدوية اللازمة إلا من أوروبا. وحصل بذلك أخيرًا على إذن بمغادرة البلاد. فغادرها ثم عاد مرة أخرى في عهد مولاي يزيد لفترة قصيرة كي يستقي أخبار وفاة سيدي محمد واعتلاء ابنه يزيد العرش من بعده.

وفي عام 1791 نشر في لندن وصفًا لمغامراته في كتاب باللغة الإنڭليزية وتمت ترجمته إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان: "رحلة في إمبراطورية المغرب ومملكة فاس"[2]. الكتاب الذي حقق نجاحًا هائلاً. نشرت منه الطبعة الثانية عام 1793، والثالثة عام 1800، والرابعة عام 1808، والخامسة عام 1813. وتمت ترجمته إلى اللغة الفرنسية التي منها ترجمنا هنا بعض المقتطفات إلى اللغة العربية.

وفي عام 1792 تم إرسال الطبيب لامبريير إلى جزر الهند الغربية حيث أمضى خمس سنوات كجراح عسكري في جامايكا. وعند عودته نشر كتابين، جمع فيهما ملاحظات عملية عن أمراض الجيش هناك خلال الأعوام 1792-1797، وعن أكثر الوسائل فعالية للحد من الوفيات بين القوات وبين الأوروبيين في المناخات الاستوائية. وفي عام 1799 حصل على دكتوراه في الطب من جامعة أبردين. وكانت محطته التالية هي جزيرة وايت، حيث كان هو الطبيب العام للقوات الإنڭليزية. وترك الجيش أخيرا برتبة المفتش العام للمستشفيات. وتوفي في مدينة باث بجنوب أنڭلترا في 24 يوليو 1834.

لامبريير كان طبيبا ولم يكن عالم اجتماع. لكن مع ندرة من زاروا المغرب في عصره ودونوا ملاحظاتهم، ليس لنا الخيار في أفضل منه. هو لم يقتصر على تدوين ما رآه وما سمعه، بل غالبا ما تمادى في الحكم عليه بصرامة وقسوة وبتعالي الأوروبي الفخور بكونه قادما من بلاد متحضرة إلى بلد متخلف. وكونه لا يفهم لغة المغاربة، كان يستقي أحيانا كثيرة أخبار أحوالهم وعاداتهم وتقاليدهم من المترجمين اليهود ومن التجّار والديبلوماسيين الأوروبيين. وكان يصدق كل ما سمعه منهم وكأنها حقائق مدققة. في حين كثيرا ما كانت مغلفة بأفكارهم المسبقة ومشوهة للواقع إما عن حسن نية أو عن قصد. ومع كل ذلك هذه المادة الخام لا تخلو من الفائدة لما نغض الطرف عما جاء فيها من اعتبارات التعالي أو الاحتقار ولما نقفز عما جاء فيها من أخبار زائفة.

1. الغرض من رحلتي ومقامي بالمغرب

في شهر سبتمبر من عام 1789 طلب قنصل جلالة ملك بريطانيا بطنجة من الجنرال القائد لحامية جبل طارق أن يبعث طبيبا جراحا مقتدرا إلى مولاي عبد السلام الإبن المحبوب لإمبراطور المغرب والمهدد بفقدان بصره. كان الأمير يتوخى من طبيب أوروبي التخفيف من معاناته التي لم ينفع معها علاج المعالجين المحليين. ووعده بمكافأة سخية علاوة على تحمل كل

---

[1] *William Lemprière*

[2] Voyage dans l'empire de Maroc et le royaume de Fez.

نفقاته وعلى حمايته في الطريق بأفراد من الجنود. والأمر الذي كان من شأنه تشجيع طبيب أوروبي أكثر على مهمة علاجه هو الوعد بتحرير عدد من العبيد النصارى الذين كانوا يئنون تحت نيْر الأسر. وكان من بينهم عشرة بحارة إنكْليز بما فيهم قبطانهم، والذين شاء سوء حظهم أن ترمي الأمواج الهائجة بسفينتهم على شواطئ هذا البلد من إفريقيا[3].

ولم تجد عندي حماسة الشباب صعوبة في إيقاد فضولي من أجل استكشاف هذا البلد الغامض الذي قل من يعرفه من بين الأوروبيين، فتطوعت لتلك المهمة. تحدد موعد سفري ووصلت من جبل طارق إلى طنجة على ظهر سفينة صغيرة في 14 سبتمبر 1789. حينها كان الأمير الذي طلب من يعالجه يقود حملة عسكرية بأمر من أبيه بين مراكش وتارودانت محل إقامته. وغادرت طنجة لما علمت بعودته إلى مدينته. قبل ذلك اتخذ لي حاكم المدينة يهوديا يحسن الإنجليزية كي يرافقني في رحلتي كترجمان وجنديين لحمايتنا. وفي الطريق كنت أتوقف للاستراحة في بعض المدن.

من بعد قضاء ستة أيام في موكَادور عاد الرسول الذي أخبر الأمير عني ليبلغني أوامره. فحثني على الذهاب إليه بتارودانت. وأضاف حاكم موكَادور إلى عدد مرافقي ثلاثة جنود زنوج مسلحين جيدًا وأعطاني خيمة أفضل ومنحني مترجما يهوديا يتحدث الإنجليزية بسهولة. وتم إعفاء المترجم الأول البائس الذي سبق أن تم إجباره في طنجة على مرافقتي، فعاد من حيث أتى مغمورا بالفرح.

قضيت ثلاثة أيام في السفر لقطع الستة وسبعين ميلا[4] الفاصلة بين موكَادور وسانتا كروز[5]. بالنظر إلى ما ذكرته عن صعوبة التنقل في هذا البلد فلن يتصور القارئ أنني قضيت مدة طويلة لقطع تلك المسافة، لكن من دون أن يتخيل كم كانت الطريق متعبة. أحيانا كنا نضطر للنزول من فوق البغال وبالكاد كنا نستطيع السير على الأقدام.

غادرت سانتا كروز في 26 أكتوبر 1789. وفي غضون يومين وصلت إلى تارودانت، التي تبعد بأربعة وأربعين ميلًا. الطريق كان جميلا جدًا، ولكنه ممل من حيث لم يكن لدي فيه للعبور سوى القليل من الأراضي المنبسطة والغابات. فور وصولي تم اقتيادي إلى قصر الأمير على بعد نصف ميل من المدينة. هذا المبنى الملكي الذي كان مريضي الجليل هو مهندسه، صغير جدا. لكن له مظهر جميل من الخارج. وينقصه الذوق ووسائل الراحة من الداخل، مثل باقي دور المغاربة. سرعان ما تظهر عيوبه لمن يهتم بفحصه. القصر من الطوب محاط بجدار عالي. تتوسطه حديقتان بحالة ممتازة جدا تم رسمهما من طرف أوروبي، وتوجد بينهما نافورة. ويعتني بهما إسباني مرتد[6].

لما دخلت باحة القصر وجدت على جنباته العديد من الرجال جالسين بمنافذ محفورة في الجدران ينتظر كل منهم مجيء دوره للحظوة بالمناداة عليه لمقابلة الأمير. وبما أنني كنت في حرج من الجلوس مع أناس لا أحسن لغتهم بقيت واقفا أمشي ذهابا وإيابا حتى ظنوا أنني مجنون.

بعد الانتظار لمدة ساعة جاء دوري كي أدخل وبرفقتي مترجمي. مررنا من قاعة مظلمة تؤدي إلى باحة مربعة وواسعة يوجد بها باب مجلس الأمير مولاي عبد السلام. لما دخلت وجدته جالسا أرضا على وسادة، ومن تحتها بساط طويل يجلس على جنباته رجال حاشيته. فقدمت له رسالة القنصل الإنكْليزي من بعد ما طواها أحد خدمه في منديل من حرير. حيّاني مومئا برأسه وقائلا "بونو طبيب بونو إنكْليزي". في ذلك خليط من العربية والإسبانية الذي يعني "طبيب جيد وإنكْليزي جيد". ثم أمرني الخادم بالجلوس أنا ومترجمي على الأرض بجانب الأمير.

لما رأيت مولاي عبد السلام سنة 1789، كان سنه خمسا وثلاثين سنة. قامته كانت متوسطة. تشوهت ملامح وجهه تماما جراء الحوادث التي أصابت عينيه. بشرته داكنة وأسنانه نخرة. لكن بالرغم من وجهه المشوه لم يكن قاسي المزاج مثل باقي الأمراء الأفريقيين. لباسه لا يختلف عن لباس المغاربة سوى بشريط من حرير ملفوف من حول عمامته. كانت تلك هي العلامة التي تتميز بها عائلة السلطان. كان يرتدي قميصا فضفاضا جدا من القماش القرمزي المطرز بالفراء، والذي يسميه المغاربة قفطانا. ويمكن رؤية الرعايا يرتدون ملابس فاخرة مثل ملابس الأمراء وحتى ملابس السلطان.

أعرب الأمير عن فرحه الشديد بوصولي. وسألني ما إذا كنت قد أتيت بمحض إرادتي وما إذا كان الأطباء الإنكْليز يتمتعون بسمعة جيدة في أوروبا. أجبت على السؤال الأول بأن حاكم جبل طارق هو الذي أرسلني، والثاني، أنه كان عليّ أن

[3] والذي وصفه بالوحشي.
[4] 122 كلم تقريبا
[5] وهي مدينة أكَادير
[6] مرتد يعني عنده نصراني اعتنق الإسلام. وجل ما يجده جميلا في المغرب غالبا ما يحرص على أن ينسب نشأته أو العناية به إلى أوروبي.

أنصف الحقيقة وبلدي، مؤكدا للأمير أن أفضل الأطباء وأشهرهم يوجدون في إنكْلترا. وسألني عن تقاليد الأوروبيين. كان مهتما على الخصوص بقوانين إنكْلترا وبنظام حكمها. ولما كان لا يفهم جيدا أجوبتي كان يطلب مني إعادتها. كل شيء فيه كان يشير إلى أنه يريد التعلم. ثم بدأت الأسئلة تنهال علي من أفراد حاشيته. وكان الجميع يريد استفساري.

بعد هذه المقدمة، طلب مني عبر المترجم فحص نبضه وفحص عينيه. إحداهما قل بصرها بسبب غشاء المياه الزرقاء. والأخرى كانت تعاني من تشنج عصبي. وكان يريد في الحال معرفة رأيي في الأمر ومدة العلاج. فأجبت بأن ذلك يتطلب وقتا كافيا كي أشخص مرضه بشكل جيد. وأضفت أنني سأتأكد من ذلك من بعد يومين أو ثلاثة.

كنت قد حلقت ذقني في ذلك الصباح. ولما رآني أحد أفراد الحاشية من دون لحية قال بأنني ما زلت شابا كي أكون طبيبا جيدا. وادعى آخر بأنني أسعى لإخفاء سني الحقيقي بتغطيتي شعري بمسحوق. وزعم ثالث بأن الشعر فوق رأسي ليس لي. لكن الذي استغربوا منه أكثر هو لباسي الأوروبي اللصيق من قريب بجسمي. مع العلم أن لباس المغاربة فضفاض جدا ولا يليق في رأيي بهذا المناخ الحار بهذا البلد.

لم يكن هذا اللقاء الأول مهما. من بعد تعب السفر كنت أتمنى تأجيله. لكن اضطررت لتمديده إلى حين تلبية رغبات كل افراد الحاشية. لم يكن من بينهم من لم يطلب مني فحص نبضه ولم يستفسرني عن حال صحته. من بعد كل هذه الاستشارات الطبية أبلغني الأمير عبر مترجمي أنه أمر بتخصيص بيت مريح من أجلي وأنه ينصحني بأن أنصرف كي أستريح. فابتهجت بذلك، لكنه أمرني بالعودة يوم الغد باكرا.

البيت الذي خصصه لي ما كان سوى قاعة نوم بئيسة بملاح اليهود[7] الذي كان على بعد نصف ميل. هذه القاعة المتسخة والضيقة ومن دون نوافذ توجد بدار أهم شخص بين اليهود في تارودانت. لا يدخلها النور سوى من الباب الذي مع الأسف يطل على بيوت ثلاث عائلات يهوديات أخرى، من حول فناء حيث كانت ترمي كل أزبالها.

بلغ غضبي من ذلك إلى حد عزمي على امتطاء بغلتي والعودة للقصر كي أشتكي من سوء المسكن الذي تم اختياره لي. لكنني تذكرت ما قيل لي بأنه كان من بين أفضل ما يوجد بالمدينة وأنه ينبغي أن أتوقع المعاناة من كل المساوئ في مثل هذا السفر. فقررت الاستكانة فيه واستعماله بأقل قدر ممكن. لكن لم أصبر وفاتحت الأمير في الموضوع فأمر في الحال بإسكاني في حديقة القصر. لكن أوامره لاقت ما يكفي من المماطلة في التنفيذ، فما تم منها شيء حتى قبيل مغادرتي تارودانت.

من بعد قضاء ليلة متعبة بمسكني عند اليهودي التحقت بقصر الأمير عبد السلام لفحص عينيه بإمعان أكبر من الأمس. وما أن وصلت حتى فُتح لي الباب ووجدته في انتظاري مع شيء من القلق خوفا من أن يكتشف أنه مصاب بمرض عضال. وبالفعل لما فحصت عينه تبين لي أن حظوظ شفائها ضئيلة. وتكتمت على ذلك. واعترفت له فقط بأنني غير واثق من أن افتخر بعلاجه جذريا. لكنني أعطيته الأمل بالتخفيف من وطأة مرضه بشكل كبير بالرغم من عدم وثوقي بذلك. ومن أجل الوقت اللازم لتجريب أدوية مختلفة طلبت منه مدة شهرين من العلاج كي أحصل على الدواء الصالح.

مع إظهاره استعدادا لتلك التجارب بدأ بأخذ ما وصفته له من يومه. خلال الفحص الثاني وجدت أن غشاء المياه الزرقاء أفقده تماما الإبصار بالعين اليمنى. فما بقي لي سوى علاج العين اليسرى التي تعاني من التشنج العصبي المتواصل والذي يهددها بالعمى. حركاتها كانت عنيفة لدرجة أن بؤبؤها كان يختفي أحيانا من جهة الأنف. كان الأمير بالكاد يرى الأشياء الكبيرة لكن من دون التحقق من شكلها[8].

علاوة على ما وصفت له من دواء وصفت له حمية قاسية كي يلتزم بها. ومخافة تهاونه طلبت من خادمه الذي يحظى عنده بثقة كبيرة أن يتكلف بحثه على اتباع العلاج كما وصفته كتابة وتمت ترجمته إلى العربية. وصفت له كذلك أدوية موضعية. وحتى لا يتهاون في استعمالها تكلفت أنا بنفسي بعلاجه بها.

كان الأمير شديد الانقياد لشرب كل ما عرضته عليه. وذلك على الرغم من المذاق القبيح للأدوية التي استخدمتها. لكن ظل من المستحيل عليه أن يتصور كيف يمكن للعلاجات التي يتم تناولها عن طريق الفم أن تؤثر على علاج عينيه. إلا أنني

[7] كل الأجانب من غير المسلمين مهما علا شأنهم كانوا يُجبرون على الإقامة بملاح اليهود.
[8] أكثر من عشر سنوات بقليل من بعد ذلك يقول الجاسوس الإسباني الملقب بعلي باي العباسي في كتابه المشهور أنه التقى بالأمير عبد السلام ووجده أعمى.

وجدته أكثر عقلانية من كل من حوله. كان يحلو لهذه الشرذمة الغبية[9] أن تستهزئ بطريقتي في العلاج وتقول بصوت عال إنه من الحمق علاج داء خارجي بدواء غير موضعي. المقربون أكثر من الأمير وسوسوا له بأنني أعمل على إضعاف مزاجه. والحياء لا يسمح لي بتكرار كل ما كان سيترتب عن علاجي، في اعتقادهم، من مهالك على صحته وعلى التمتع بملذاته. أقول فقط بأن كل تلك السخافات كان لها تأثيرها على عقل مريضي الذي لم يتأخر في إخباري بمخاوفه. ما علمته من الشرور التي أصبحت تحيط بي أوقعتني في حرج كبير. فصرت أقول في نفسي كيف يمكن إسماع صوت العقل لأشخاص لا يعرفون لغته؟

واتخذت أخيرا قرار تبرير نمط علاجي الذي لا يسع كل ذي عقل سوى الاقتناع به. أكدت للأمير بأن الأدوية التي وصفتها له لا يمكن بأي حال أن تضر بصحته. وحاولت إقناعه بأن شرفي وسمعتي مرتبطان بعدم إغفال أي شيء من أجل أن يسترجع بصره. وبعيدا كل البعد عن الإضرار بصحته فإنني أبذل كل ما في وسعي لإسعافه. وأضفت قائلا بأن العلاج الذي وصفته له إن لم يحظ برضا أهل العلم فسأفقد سمعتي.

كل هذه المبررات المعقولة هدّأت أخيرا من روع الأمير. ويظهر أنه شعر اخيرا بأن حاشيته كانت تفتري عليّ. وكي يُنسيني المزاج السيء الذي كان يقابلني به منذ أيام، اعترف لي أن سببه الخوف. وأخذت منه العهد بمواصلة اتباع الحمية التي وصفتها له من دون انقطاع، اللهم في حال ما شعر أن صحته لا تتحسن. لكن ما أنعش ثقته هو تبيّنه من بطلان توقعات حاشيته. لم تُصبه أي حادثة خوّفوها منها. وصرت أزور مريضي الجليل مرتين كل يوم. ما تبقى من الوقت كنت أقضيه في قراءة كتب أخذتها معي من موكَادور. ومن وقت لآخر كنت أتسلى بالركض على ظهر الفرس بنواحي تارودانت.

تلقيت دعوة من القاضي فالتقيت به في داره. وجدته شيخا سبعينيا جليلا بلحية طويلة وبيضاء تفرض الاحترام. سألته بعض الأسئلة عبر ترجماني فوجدت أن أكبر متاعبه الصحية ناجمة عن ثقل سنين عمره المتقدم. وكان يعرف هو نفسه أنه في حاجة فقط لحمية ليّنة لقضاء ما تبقى من العمر في سلام. فالتمس مني أن أصف له إحداها. ومن بعد تلبية طلبه شكرني بكل لطف وبكل صدق. وعبر لي عن حساسية حقيقية عندما تحدث معي عن الحزن الذي أشعر به لكوني بعيدًا جدًا عن والديّ وعن أصدقائي. لقد أشفق على إرسالي إلى بلد تختلف عاداته كثيراً عن عادات بلدي. وتوسل إلي بأن أعود لرؤيته. فتفاجأت كثيرا بشكيمة وعقل هذا الرجل الذي يعيش وسط شعب نصف متوحش[10].

سألني ذات مرة عن راتب القاضي في إنڭلترا. ولما أجبته، قال: "كيف إذاً، القاضي عندكم يتقاضى راتبا أفضل من راتبي! هل تعلم أن الإمبراطور يعطيني فقط خمسين دوكات[11] في السنة (ما يعادل حوالي اثني عشر جنيهًا إسترلينيًا). لم أكن محظوظا ولا ممدوحا بنفس القدر عند باقي المرضى من أهالي تارودانت. كانوا كلهم تقريبا ودائمًا جاحدين للجميل ووقحين. منهم من كان يأتيني فقط لسرقتي. الأمر الذي لم يكن صعبا في مثل مسكني. البعض الآخر ما كان يقنع باستشارتي وبوصفاتي الطبية فكانوا يريدون مني مالا وهدايا. وحينما أطرد الوقحين منهم كانوا يهددونني بخناجرهم. وأقلهم شرا كانوا ينصرفون محملين ببعض أمتعتي البسيطة.

كثرة شكواي من تصرفات هؤلاء الأوغاد لم يقلل من شفقتي على بؤسهم الشديد. فكنت أساعدهم بقدر ما أستطيع. لكن الحشد أصبح أكثر عددا وجرأة وتطفلًا يومًا بعد يوم. فاضطررت إلى تقديم شكواي إلى الأمير مولاي عبد السلام الذي أعطاني حارسًا لحراسة باب منزلي. هكذا صار المرضى يدخلون فرادى من بعد خروج الآخر.

2. في حريم الأمير.

بعد أسبوعين، الأمير الذي كان المريض الوحيد المعني بسفري إلى المغرب بدأ يشعر بتحسن محسوس. عينه اليسرى التي بنيت عليها كل أملي، والتي كنت قد وجدتها تعاني من اضطراب متواصل، بدأت تتحرك بشكل طبيعي ومنتظم. لم تعد في تلك الحالة المتشنجة التي وجدتها عليها في اليوم الأول والتي بالكاد كانت تسمح له بالتمييز بين الليل والنهار. أما في ذلك الوقت فقد صار يرى تفاحة من على بعد خمسة عشر قدما.

[9] كان المؤلف يحقد على حاشية الأمير بسبب ما عاناه منها.

[10] تلك إحدى علامات استعلاء المؤلف واحتقاره للمغاربة والمشارقة عموما، والتي أوردناها كمثال على العديد منها التي قفزنا على ترجمتها.

[11] أو الدوقي، كلمة أصلها الدوق *Doge* بمعنى *duc* وهو حاكم جمهورية البندقية. وهي عملة هذه الجمهورية الذهبية أو الفضية التي كانت تستعمل في أوروبا منذ أواخر العصور الوسطى حتى بداية القرن العشرين. وتزن 3،4909 كْراما. حصل الذهب البندقي على قبول دولي واسع، حيث كانت عملة معتمدة في الكثير من البلاد المسلمة.

وفي الأسبوع الثالث شعر الأمير بتحسن أكبر. بدأ يقرأ النصوص المكتوبة بحروف كبيرة. وسرعان ما صار يكتب بنفسه الرسائل الموجهة لأبيه من أجل إخباره بتحسن بصره بفضل العلاج الذي وصفته له. ووعدني، في حال ما شفي تماما، بمكافأة على قدر الخدمة التي قدمتها له. صرت في نعمة طيبة معه لدرجة أنني صرت متمكنا من رؤيته في جميع الأوقات.

هذه العلامات الأولى للشفاء أغلقت أفواه الحاقدين. الأمير نفسه اعترف أنه قد تسرع لما ترك بعض الشكوك المسيئة في حقي تساوره. ولما تحقق من فعالية علاجي تنامت ثقته فيّ إلى درجة رغب معها في أن أفحص بعض نسائه كن في حاجة للتطبيب. كانت تلك هي الفرصة الفريدة لوصف هذا المكان الحريز الذي يسمى عندهم الحريم، لو أن حريم السلطان الذي زرته من بعد لم يمنحني فرصا لوصفه لاحقا بشكل أكثر تفصيلا.

وفور صدور قرار الأمير بدخولي لحريم نسائه أمر باقتيادي إليه أنا ومترجمي. فاستقبلني رئيس الخصيان عند الباب. الخصيان المكلفون بالنساء كلهم من العبيد السود. تجدهم قصيرين وسمان. وإذا ما صار أحدهم أطول من غيره فعلى حساب الشكل القويم بحيث من النادر ألا يكون مشوها أو مشلولا. أصواتهم لها لكنة خاصة. تشبه أصوات الشباب في سن المراهقة. وأخيرًا، تقدم هذه الكائنات المشوهة صورة مقززة عن الضعف والوحشية فيهم. السلطة الممنوحة لهم على الجنس الذي يتحكمون فيه تجعلهم يشعرون بشيء من الأهمية. هم أكثر تفاخرا ووقاحة مما يتصور المرء. أنا بنفسي كنت سأكون ضحية شرهم لو لم اتخذ احتياطات ضد خسة مزاجهم.

برفقة زعيم هذه الوحوش البرمائية مررت من باب الحريم المكلفون بحراسته. مشيت طويلا في قبو مظلم، قادني إلى الفناء الذي توجد من حوله شقق النساء. أثناء عبوره رأيت عددًا كبيرًا من الجنس اللطيف ومن الأطفال البيض والسود. علمت أنه في هذه المجموعة من الإناث كنت أرى حظيات الأمير والإماء اللائي يخدمنهن.

كل هؤلاء النساء تفاجأن بشكل كبير برؤية شخص أوروبي. وسرعان ما أحطن بي لفحص مظهر ملابسي التي بديْن مندهشات منها بشكل فريد. استحوذ ظهوري المفاجئ على عقول بعضهن لدرجة صرن معها وكأنهن متجمدات، بأعين ثابتة وأفواه مفتوحة. أخريات أكثر جرأة انفجرن من الضحك لما رأينني. وأولئك اللائي أسعدهن وجودي كن يتفحصنني باهتمام كبير من الرأس إلى أخمص القدمين. أكثر ما أدهشهن في زيّي هو المشابك والأزرار والجوارب. كانت دهشتهن طبيعية تمامًا لأنهن لم يرين مثلها من قبل في بلدهن. فيما يتعلق بشعري لم يتمكنّ من فهم لماذا كنت أحتفظ بالكثير منه. أما بالنسبة لما كان عليه من مسحوق فقد اعتقدن أنني كنت أستخدمه بدافع الحذر لحماية نفسي من الحشرات.

جميع الأطفال فروا من شدة الخوف. يمكنني أن أؤكد أنني بدوت لهم عجيبا غريبا وغير عادي وكأنني أسد أو نمر تم إحضاره من أرض أجنبية إلى بلدة في إنڭلترا في يوم من أيام السوق. وجميع نساء الحريم تقريباً كن سمينات. كان من بينهن بعض الشقراوات ببشرة شاحبة وبعض الزنجيات الجميلات.

عندما دخلت جناح المريضة التي أقلقت حالتها مولاي عبد السلام وجدت فيه ستارة كبيرة تقسمه إلى قسمين. فأحضرت جارية صغيرة كرسيًا صغيرًا ووضعته بالقرب من الستارة ونبهتني إلى أنه من أجل جلوسي عليه. بعد لحظة، سيدتها التي لم أتمكن من رؤيتها مدت لي ذراعها طالبة مني فحص نبضها. قناعتها بأنه بإمكاني معرفة مرضها فقط من خلال فحص نبضها أبقاها صامتة بالرغم من سؤالها عبر مترجمي عما إذا كانت تشعر بوجع في الرأس أو المعدة أو غيرهما. وبدلا من الإجابة سحبت ذراعها ومدت لي الذراع الآخر. هذا الاحتياط الكبير جعل صبري ينفد. لم أستطع معرفة سبب مرضها كما لم أتمكن من إشباع فضولي برؤيتها. فحاولت إقناعها عبر مترجمي بأنه لا بد لي من رؤية لسانها كي أتمكن من علاجها. فأخذت مقصا وفتحت فتحة صغيرة في الستارة أبدت منها فقط لسانها. حياؤها ذاك حال دون إشباع فضولي لكنه مكنني أخيرا من معرفة سبب مرضها فوصفت لها الدواء المناسب.

رأيت امرأة أخرى من الحريم مصابة بداء الغدد اللمفاوية. استقبلتني بنفس الاحتياطات. لكن بما أنه لا يمكن أن تعفي نفسها من إظهار عنقها المتورم تمكنت من رؤية جانب من وجهها الجميل جدا. وصرحت لي بأنها كانت محبوبة الأمير إلى حين أصابها هذا المرض المرعب فأعرض عنها. فصارت متدمرة من رؤية نفسها مجرد واحدة من جواريه من بعد ما كانت تتمتع بكل الامتيازات المخولة للسلطانة المفضلة.

ولما كنت أفحص تورمات عنقها نزعت من ذراعها كل المجوهرات الثمينة جدا التي كانت تتزين بها ومدتها إليّ كهدية لعلها تشجعني على التفاني في علاجها من ذلك المرض المهلك. لم أجد الشجاعة لقبولها مع شعوري بالقليل من الأمل في قدرتي على استرداد محاسنها الأولى. فوعدتها بتجريب بعض الأدوية لكن من دون ضمان لفاعليتها. لاحظت عدم رضاها عن

جوابي. لكنه أراح نفسها قليلا. وفكرتها المسبقة عن جودة التطبيب الأوروبي قوت من آمالها. فكانت أخيرا مستعدة لبدأ العلاج من يومها.

زياراتي المتكررة للمريضتين مكنتني من رؤية كل نساء الحريم الحبيسات فيه. لقد أحصيت منهن أكثر من عشرين بالإضافة إلى الأربعة التي يسمح بها القانون للمؤمنين الحقيقيين. لقد تمت استشارتي من قبل العديد من هؤلاء المحجبات اللائي كن ينعتنني بالجاهل عندما لا أكتشف أمراضهن في أدنى فحص لنبضهن. وإذا كنت مترددًا ولو بقليل، فإنهن ينظرن إلي فقط على أنني منتحل الصفة ولا يفهم شيئًا في الطب. وإذا ما توفقت في علاجهن بفضل مهارتي المتواضعة يقلن إن ذلك الشفاء سيكون مؤقتا. لما أدركت أنني كنت أبذل جهودًا غير مجدية لإسماع صوت العقل إلى هؤلاء النساء اللائي لا يفهمن لغته قررت الاستسلام لضعف أمزجتهن. فأكسبني هذا التصرف ثناء لم أستحقه وقد كان أكبر وأفضل من الإهانات التي كنت أعرّض لها نفسي بقولي الحقيقة.

نساء حريم مولاي عبد السلام لم يظهرن لي في عز شبابهن. لا أعتقد أنني رأيت من بينهن واحدة يقل سنها عن الثامنة والعشرين إلى الثلاثين. كلهن كن سمينات ولا يحسن المشي. الأحداث التي كان هؤلاء المحجبات الودودات على علم بها لم تتجاوز حدود حريمهن. والقليل من العناية التي تولى لتنمية عقولهن أدت إلى حرمانهن من القدرة على التصرف السوي في الحياة العادية. لا يخرجن من الحريم سوى لمرافقة سيدهن عندما يغير مكان إقامته.

3. متاعبي مع حاشية السلطان

صارت عيون مريضي الأمير مولاي عبد السلام في حال أفضل بكثير. وللتأكد من أنها جيدة بما يكفي ومن أنها صارت تتمكن من التمييز بين أشياء صغيرة، قدمت له ساعتي وسألته عن الوقت المحدد عليها. فأجابني بشكل صحيح على هذا السؤال. ومما زاد من يقيني بأنه صار يستطيع الرؤية جيدًا، أخبرني أن ساعتي قديمة وذات ذوق لم يعد من الموضة. وأعطاني واحدة ذهبية أكثر أناقة من ساعتي. فشعرت بالفخر.

مر فقط شهر على علاج مولاي عبد السلام عندما كتب له والده يأمره بالتحضير للحج إلى مكة. وما كان الأمير يستطع أن يخوض هذه الرحلة إذا ما كانت مضرة بعلاج عينيه. لكنها كانت في حالة جيدة لدرجة أنه كان بإمكانه الاعتماد بما يكفي على نفسه من دون الحاجة إلى رعايتي.

وحينها لم يكن في تارودانت ولا أوروبي واحد أستأنس به. وقد سئمت من الاستشارات ومن إهانات الجميع تقريبًا بما في ذلك مرضاي. صبري كان مدعوما فقط بالأمل في مغادرة هذا البلد عما قريب وفي رغبتي الكبيرة في الالتحاق بمواطني بلدي. إلا أنني صدمت برسالة من الإمبراطور يأمرني فيها بالذهاب على الفور إلى مراكش. لم أفهم لماذا جعلني أتخلى عن ابنه مولاي عبد السلام الذي ظل يمدح عنده مواهبي. ولم أستطع الحصول على أي إجابة عن هذا اللغز.

فغادرت تارودانت في السابع من دجنبر سنة 1789. ووصلت إلى مراكش يوم الغد من بعد قطع مسافة مائة عشرين ميلا. وأقمت ببيت جيد بملاح اليهود. ولم يكن لدي أدنى شك في أن الإمبراطور الذي تم إبلاغه بوصولي كان سيأمرني بالمثول للتو أمامه. لكن كان لدي متسع من الوقت للتحضير لهذه المقابلة لأنها تأخرت بشهر. مع نفاد الصبر وثقل الملل من هذا الانتظار الطويل، تساءلت في نفسي لماذا جعلني أغادر تارودانت على عجل حتى ينساني هكذا من بعد وصولي.

كنت قلقا من التعليقات المختلفة في حقي التي كانت تدور بالمدينة. حاشية الإمبراطور وجدتني أصغر سنا مما كانت تتوقع وأقنعته بأنه في عمري لا يمكن أن أكون طبيبا جيدا. واستدلوا على جهلي بالعلاج الذي قمت به لمداواة ابنه مولاي عبد السلام. كانوا يقولون إنه لا يوجد طبيب متعلم ولو قليلا يجرؤ على علاج مرض في العين بأدوية باطنية تشرب. ومنهم من ذهبوا إلى حد اتهامي بمشاريع إجرامية. أوحوا للإمبراطور بأنني جئت لأسمم ابنه. حاولت التعرف على أولئك المفترين لكن من دون جدوى.

أما المعالجون المغاربة فقد كانوا متضايقين من نجاحي في علاج الأمير. فكانوا متواطئين مع من يخدشون في سمعتي. لم يكن هناك من عمل شائن لم يبتكروه ليجعلوا الإمبراطور يشك في نواياي. بحسب أقوالهم الأدوية التي وصفتُها للأمير كانت قاسية جدا فدمرت صحته بالكامل. مكرهم جعل الإمبراطور يأمر بجلبها من تارودانت حتى يفحصها طبيبه الخاص. وقرر تأجيل مقابلتي إلى حين يتم ذلك الفحص. فبقيت أنتظر بفارغ الصبر. لكن علمت أخيرا أن سبب إنهاء مهمتي كان سياسيا. الإمبراطور

الذي صار لتوه في خلاف مع الحكومة البريطانية لم يعد يرى من اللائق مواصلة رعايتي لابنه من بعد توثر علاقاته مع سلطات بلدي.

لقد قضيت أكثر من شهر في مراكش. ويبدو أن الإمبراطور نسيني. بدأت هذه اللامبالاة الكبيرة في حقي تقلقني. فبذلت قصارى جهدي للحصول على وساطة الوزراء من خلال القيام بزيارات متكررة لهم أو من خلال تقديم المشورة كطبيب لمن يحتاجون إليها. لقد بدوا جميعًا متحمسين لخدمتي. لكن كل ذلك كان مجرد كذب. أحدهم الذي تلقى من الأمير مولاي عبد السلام رسالة يوصيه فيها بمساعدتي والذي كنت أعالج له قريبًا مريضًا جدًا لم يكن أقل نفاقا وخداعا من الآخرين. طوال الوقت الذي كان يعتقد فيه أنني مفيد، كان يقدم لي أجمل الوعود. لكن بمجرد شفاء صديقه لم يعد يفكر في الأمر. كلما زرته في بيته صار يتجاهلني إلى حد التظاهر بأنه ما كان يعرفني يوما. فما الذي يمكن أن أتمناه من مثل هذا الرجل الذي، كما قيل، كانت يده ملوثة بالجرائم؟ وسبق للإمبراطور أن عاقبه بالأمر بقص لحيته. مع فقدان الأمل في الوزراء التفتت إلى الحاشية المقربة جدا من الإمبراطور، لكن من دون جدوى. صار يبدو أنني محكوم بالبقاء محتجزا في مراكش.

ولما كنت أتباكى على مصيري جاد القدر عليّ بفرصة علاج يهودية كانت تنعم بحماية الإمبراطور. العناية التي قدمتها لهذه المريضة استعادت بها صحتها. فأعربت عن امتنانها لي من خلال مطالبة زوجها، الذي كانت له حظوة كبيرة بالبلاط، كي يحصل لي على مقابلة مع سيده. فحصلتُ عليها على الفور من هذا الطريق.

لما حان موعد اللقاء جاءني ثلاثة جنود زنوج وحثوني على الرحيل في الحال. فطلبت منهم مهلة للاستعداد بما يليق بالمقابلة. لكنهم أبوا وهددوني بالعودة من دوني مع الإخبار بأنني رفضت مرافقتهم. فصاحبتهم إلى القصر على الساعة الثانية عشر زوالا. ولما وصلنا أخبروا مدير التشريفات الذي أمرني بالانتظار إلى حين المناداة علي. ولم أدع للمقابلة حتى الساعة الخامسة مساء. وقت كاف استغللته لترتيب أفكاري من أجل الاستعداد للمقابلة.

كنت متوجسا من مقابلة هذا الحاكم من بعد كل ما سمعه عني من افتراءات مغرضة. فكيف سيكون استقباله لي وكيف ستكون أسئلته؟ لكن الخدمات التي قدمتها لابنه كانت كافية للتهدئة من روعي. واستعدت هدوئي لمقابلة الإمبراطور. عند وصولي لباب قاعة الاستقبال استوقفني مدير التشريفات. ورفض دخولي بسبب قدومي من دون هدايا للإمبراطور كما هي العادة مع كل الزوار الأجانب. الأمر الذي كنت أجهله. فقلت كوني الطبيب المعالج لابنه المحبوب كان من شأنه إعفائي من هذا البروتكول. ولما اقتنعت من جهتي بأن مدير التشريفات كان مخطئا بإرغامي عليه هددته بالتشكي من تصرفاته. تيقن حينها من جهته أنه لا فائدة من ابتزازي وأن الإمبراطور كان في انتظار قدومي. فسمح لي ولمترجمي بالدخول لمقابلته.

كنت بمكان قريب من السلطان فرآني. فعين لي مدير التشريفات مكان وقوفي وذهب وسجد أمامه وقبّل الأرض عند قدميه. ثم قام وصاح "الله يحفظ الملك"[12]. ثم أخبره بقدومي كما أمر. واعتقدت أنه قد حان الوقت للاقتراب من جلالته كي أسمعه ويسمعني. لكن بمجرد ما تحركت جذبني جندي من ثيابي وأمرني بعدم الاقتراب منه أكثر.

عندما تشرفت برؤية سيدي محمد عن قرب، وجدته يبلغ من العمر ثمانين عامًا تقريبًا. كان وجهه طويلاً ونحيفًا وشاحبًا جدًا. مثل ابنه، كانت لديه حركة تشنجية في إحدى عينيه. الأمر الذي جعله يبدو للناظر قاسيا. كان مظهره الأول مثيرا للرهبة. لكن سرعان ما اختفى هذا الانطباع المؤسف بفضل تودّده وعذوبة صوته. بسبب تحركه وتنقله فقط على ظهور الخيل، فقد منذ فترة طويلة استخدام ساقيه. كان يتنقل على كرسي متحرك. كان حاجباه ولحيته ناصعي البياض. لا تختلف ملابسه عن ملابس رعاياه سوى برقة وجودة الأثواب.

من بعد النظر إليّ مليا من دون أي مظهر من القسوة سأل مترجمي إن كنت الطبيب الإنڭليزي الذي عالج ابنه مولاي عبد السلام. ثم سأل إن كنت قد جئت من باب الصدقة أم بتكليف من ملك بريطانيا. وللرفع من مقامي عنده أجبت بأنني جئت بأمر من حكومة بلدي. ثم سألني أين درستُ الطب وما هو اسم الأستاذ الذي علمني إياه[13]. من بعد ما اجبت عن هذه الأسئلة الجديدة سألني ما إذا كان صحيحًا أن الأطباء الفرنسيين أكثر مهارة من أطباء بلدي[14]. أجبت أن هناك كليات طب في إنڭلترا أفضل من

---

[12] تلك كانت التحية المعروفة ب "الله يبارك في عمر سيدي"، التي أشكلت بلا شك ترجمتها على اليهودي المرافق للطبيب المؤلف. لأنه ما كان السلاطين يوصفون بالملوك.

[13] وكأنه كان يعتقد يعتقد أنه يتم تدريس الطب بأوروبا مثل تعليم المواد الدينية والأدبية بالمدارس ببلاد المسلمين على يد شيخ من شيوخها.

[14] هكذا، بالرغم من علمهم بمستوى التعليم العالي بالغرب لم يخطر على بال حكام المسلمين حينها اتباع سياسة تعليمية مماثلة تعيد للمسلمين ما كان عندهم من مجد أيام العباسيين ببغداد والأمويين بقرطبة. بل ما فكروا حتى في إرسال بعثات من الطلبة المتفوقين للتعلم بالكليات الغربية كي تغطي الخصاص وتكون نواة لبناء منظومة تعليمية عصرية.

كليات فرنسا. وكان هذا مني مجرد تحيز لصالح بلدي. أخبرني الإمبراطور بعد ذلك أن دجّالًا فرنسيًا كان قد استقبله في أرضه فقتل من المرضى عددًا أكبر من عدد الذين تماثلوا للشفاء على يده. وانبسط للحظة بالسوء الذي حكاه لي عن هذا المنتحل.

بعد ذلك سألني لماذا منعت ابنه من تناول الشاي؟ أجبت أنه بعد أن وجدت أعصاب مولاي عبد السلام في حالة تهيج شديد، كنت أعتقد أن الشاي يضر به. وتابع الإمبراطور أنه إذا كان الشاي مضرا بالصحة، فإنه يندهش من أن الإنڭليز يستهلكون الكثير منه. وافقته على أن الإنڭليز كانوا يسيئون استخدامه. لكنني أضفت أنهم يأخذونه مع قليل من القشدة أو الحليب مما يقلل من آثاره السيئة. أما المغاربة فيحبونه فقط بطبيعته الصافية. فقال لي الإمبراطور أنني محق في أن أجدهم في هذا الأمر أكثر تهورا من أبناء وطني. وأضاف أن الكثير من سكان هذا البلد ترتجف أيديهم بسبب الإفراط في تناول الشاي طوال حياتهم.

بمجرد أن انتهى الإمبراطور من الحديث عن هذا الموضوع أصدر أوامره بإحضار عشرات الزجاجات المليئة بمختلف المشروبات الكحولية المقطرة. وجعلني أتذوقها لأخبره أيها مُدفئ أو منعش. عندما أشبعت رغبته في هذا الصدد حدثني عن الثلوج بجبال الأطلس. مما دفعه إلى التساؤل عما إذا كانت هناك كمية كبيرة منه في إنڭلترا. فأكدت له أنه يشاهَد منه المزيد هناك بسبب طبيعة المناخ من حيث تواجد إنڭلترا شمالا أبعد بكثير من إمبراطورية المغرب[15]. لكن الإمبراطور أنهى الموضوع بقوله أنه لا يوجد شيء أكثر برودة في العالم من قمم جبال الأطلس، ولا يمكن للمرء أن يذهب هناك من دون المخاطرة بحياته.

أجواء اللطف التي تحدث بها الإمبراطور معي ألهمتني جرأة أكبر فحرصت على التحدث معه عن الافتراءات المشينة التي تم الترويج لها في حقي. وتوسلت إليه بأن يعلن براءتي من خلال الفحص الدقيق لحالة مولاي عبد السلام. وقلت له: "إذا شُفيّت عيناه فينبغي إنصاف علاجاتي بوضع حد للأكاذيب التي تقول في كل مكان بأنها كانت مهلكة لصحة أمير شرفني بوضع ثقته فيّ". فأجاب بأنه لا يحتاج إلى أي توضيح في هذا الصدد. وذلك من بعد ما قام طبيبه بأمر منه بفحص الأدوية التي كنت أجعل ابنه يأخذها، ولم يعثر على أي شيء يمكن أن يضر بصحته. فدهشت من تلك الاحتياطات التي اتخذت في حقي من دون علمي. الأمر الذي جعلني أدرك مدى الشك الذي كان يحوم من حولي. وفي الحقيقة أنا لا أعرف ما الذي كنت سأتعرض له من مخاطر في حال ما لم يبرر النجاح الكامل سلوكي مع الأمير مولاي عبد السلام.

أمر الإمبراطور أخيرًا بإعادتي إلى اليهودي الصادق الذي منحني فرصة هذا اللقاء المنشود والذي طال انتظاره. وأوصاه بألا يتركني من دون تلبية رغباتي في أي شيء. كما صرح لجميع الحاضرين أنني كنت الطبيب الذي أشفى ابنه مولاي عبد السلام وأن لديه رأي ممتاز في علمي. بعد هذا التصريح الرائع تمت تبرئتي تمامًا من كل ذلك الإفك الذي ألصق بي والذي كاد أن يتسبب في هلاكي.

4. الأمير الناكر للجميل

مرت فقط عشرة أيام منذ أن قابلت الإمبراطور لما وصل الأمير مولاي عبد السلام قادما من تارودانت بقصد السفر لأداء فريضة الحج إلى مكة. وبما أنه كان أعز أمراء العائلة المالكة فقد تميز دخوله إلى مراكش بالكثير من مظاهر الإجلال والفخامة. وحالما علم الإمبراطور أنه اقترب أمر شقيقيه مولاي سليمان ومولي حسين وكذلك الباشا وجميع الأشخاص المتميزين باستقباله. فخرج هذا الموكب الرسمي من المدينة على صوت العديد من أنواع الموسيقى. والتقى بمولاي عبد السلام على بعد أربعة أميال من مراكش.

تقدم الأمير حتى وصل إلى أسوار مراكش، حيث تم أمره بانتظار الإمبراطور الذي أراد أن يعطي لقدوم ابنه إجلالا أكبر. فجاء هو بنفسه لاستقباله خارج أبواب المدينة. مع اقترابه ترجل مولاي عبد السلام وانحنى لأبيه بكل احترام. قام سيدي محمد حينها بإقامته من ركوعه وبتقبيله ممسكًا رأسه بكلتا يديه. بعد هذه العلامة الأولى للعطف أظهر فرحة كبيرة لرؤية عينيه في حالة جيدة. وسارت الكوكبة بأكملها من بعد ما تضخمت بشكل كبير بمجموع حاشية الإمبراطور الغفيرة، ودخلت المدينة على نغمات العديد من الآلات الموسيقية. ولما سلم خفر سلاح الفرسان الأمير إلى القصر قام بإطلاق ثلاث طلقات نارية في الهواء لإنهاء حفل الاستقبال.

كنت حريصًا جدًا على معرفة نوع الاستقبال الذي سيقدمه لي مولاي عبد السلام في مراكش. كنت أخشى أنه قد نسي بالفعل الخدمة التي قدمتها له. لكن الاستقبال اللطيف الذي قدمه لي عندما تمكنت من رؤيته بدد القلق الذي واجهت صعوبة في

[15] وكأن في ذلك إيحاء من المؤلف للقارئ الإنڭليزي بأن إمبراطور المغرب لا يدرك مدى بساطة سؤاله.

دفعه عن نفسي حيث استقر توجس دفين من نكرانه للجميل. لكن لا شيء حتى الآن يشير إلى أنني سأكون في القريب العاجل المشتكي من هذا الأمير الذي سرعان ما ظهر أن قلبه كان مغلقًا على مشاعر الامتنان.

أخبرني في ذلك اليوم أن بصره قد تحسن كثيرا منذ مغادرتي تارودانت. كما اعترف بأن صحته كانت أفضل بكثير من جميع النواحي. بدت اللحظة مناسبة للتحدث معه عن الافتراءات التي تعرضت لها بخصوص علاجي له. فبدا غاضبًا من السوء الذي لحقني ووعد ببذل كل ما في وسعه ليجعلني أفقد ذكرى كل ما عانيت منه.

خلال الزيارة الثانية التي قمت بها من بعد أيام قليلة، أخبرني أنه سيكون سعيدًا جدًا بعدم التوقف تمامًا عن استخدام العلاجات التي جعلته يأخذها بنجاح كبير. وأضاف أن الإمبراطور أذن لي بإعطائها إياه كلما شعرت أنه لا يزال بحاجة إليها وشجعني على وضع اللمسات الأخيرة لشفائه التام. وكرر لي أن تحرير المحتجزين الإنكْليز سيكون هو المكافأة. ربما كانت هذه هي المرة المائة التي قطع لي فيها نفس الوعد.

التأكيد الذي أعطاني إياه الأمير بعودة مواطني الوشيكة إلى إنكْلترا أكده لي لما أسر لي أنه سيغادر إلى مكة في غضون خمسة أو ستة أيام. قال إن كل شيء تم ترتيبه حتى أتمكن من اللحاق به إلى مدينة سلا مع المحتجزين الإنكْليز. ووعد بأن يمنحنا بعد ذلك خفرا كي يرافقنا إلى طنجة. عندما سمعت من الأمير عن مثل هذا الترتيب اللطيف، اعتقدت أنه لا شيء يمكن أن يوقفني. فطرت على الفور إلى القبطان إيوينڭ لأشاركه فرحتي. لكن قلة الثقة التي كان يتمتع بها عنده كلام هذا الرجل الذي غالبا ما كان لا يفي بوعده، منعته من التفاؤل بالخير. ومع ذلك فقد أنعش هذا الخبر القليل مما تبقى من شجاعته.

في أحد الأيام عندما أُبلغت بمغادرة مولاي عبد السلام لم أشك في أن لديه مشروع اصطحابنا معه. فاتخذت الترتيبات اللازمة للحصول على البغال التي سنحتاجها. ولكن كم كانت دهشتي كبيرة عندما قدمت بنفسي إلى منزله لآخذ أوامره الأخيرة وتم رفض دخولي عند بابه. وأجل مقابلتي معه لليوم التالي مدعيا أنه كان مشغولا جدا لاستقبالي. لكنني رأيت أن كل شيء كان على استعداد لرحيله.

باندهاش وسخط عدت إلى مسكني حيث أمضيت الليل أصارع بعض الأفكار السوداء. وبمجرد طلوع شمس اليوم التالي انطلقت إلى القصر لأستقي بعض الأخبار عن رحيل مولاي عبد السلام. ما إن دخلت الباحة الأولى حتى سمعت عدة أشخاص يكررون أنه سينطلق بعد ساعة. وقد تم تحميل الأمتعة بالفعل على البغال. فما كان لدي أمل كبير في أن أستطيع التحدث إليه. ومع ذلك طلبت الإذن لرؤيته لكن من دون جدوى. للتخلص مني أرسل إلي عشرة رايكسدارات[16]. الشخص الذي كلفه بإعطائي هذا المبلغ المتواضع أخبرني من جانبه أنه ينبغي علي أن أتوجه بنفسي إلى الإمبراطور لأنه هو وحده من يستطيع أن يمنحني حرية العودة إلى وطني.

غاضبًا من هذا التصرف غير المستحق، أكدت لرسول الأمير أنني لست بحاجة إلى المال، وأنني طلبت منه فقط الوفاء بوعوده فيما يتعلق بي وبالمحتجزين الإنكْليز. وأضفت أنه حتى أتمكن من الاعتماد عليه، سأبقى عند بابه ما لم يتم استخدام بعض القوة لإبعادي. لم يكن لعنادي ولإلحاحي من تأثير آخر سوى أن مولاي عبد السلام أرسل إليّ مع نفس الرجل اثنين آخرين من رايكسدارات وأمرني بالانصراف، وأعطاني النصيحة بالاتصال بأحد كتبة الإمبراطور الذي ترك لي اسمه.

كل المحاولات التي بذلتها لرؤية الأمير ذهبت سدى. فقررت أن أنتظره عند مروره. هذا الملجأ الوحيد المتبقي لي ما جنيت منه سوى قناعتي بغدر أكثر الرجال الناكرين للجميل. بمجرد أن رأيته يمشي في فناء القصر حتى ركضت للقائه. ولكن قبل أن يتمكن مترجمي من النطق بكلمة واحدة حتى صار بعيدًا بالفعل. كان حصانه ينتظره في أسفل درج شقته. فقفز عليه بخفة وركض من دون التحدث إلى أحد. فذهلت من مثل هذا الرحيل المتسرع. وجاءتني أكثر الأفكار سوادا وبأعداد كبيرة لتحاصر ذهني.

5. احتجازي بمراكش

من أي وجهة نظر أقلب فيها وضعي لم أجد سوى أسباب الخوف والقلق. لا يمكن للأجانب الذين يتم تقديمهم إلى الإمبراطور مغادرة دولته من دون إذنه. لكن عندما قابلت لأول مرة مولاي عبد السلام، قدم لي أكبر الضمانات بأنه لن يحتفظ

[16] العملة الرسمية للإمبراطورية الرومانية المقدسة، منذ عام 1566. وعملة فضية في بروسيا.

بي بالمغرب إلا المدة اللازمة لعلاجه. ومع ذلك وجدت نفسي محتجزا في مراكش. بعيدًا عن استرجاع حريتي، وهو الأمر الذي لا يمكن اعتباره بالتأكيد منّة من أحد، فقد تعرضت لقسوة التخلي عني وتُركت تحت رحمة إرادة السلطان المخيف نفسه.

كنت مشغولاً بمصيري التعيس وبالآمال التي قدمتها لمواطني بلدي لما خدعتهم بإخبارهم بنجاة وشيكة وبالمديح غير المستحق الذي أغدقته على مريضي لما راسلت القنصل البريطاني لأخبره بشفائه المسعود. كل هذا أربك فكري لدرجة أنني لم أتمكن لعدة أيام من اتخاذ أي قرار. وأخيرًا بعد أن تعافى ذهني قليلاً فكرت في الذهاب إلى السكرتير الذي نُصحت برؤيته. هذا المسلك لم يؤدي إلى أي شيء. هذا الرجل الذي يمكن أن يقدم لي خدمة هائلة ذهب إلى فاس. لذلك كان عليّ أن أجد وسائل أخرى للخروج من هذا البلد الرهيب.

في المأزق الذي وجدت نفسي فيه اعتقدت أنه ليس لدي ما أفعله أفضل من طلب مساعدة قنصل بلدي بطنجة. أبلغته على الفور بالخيانة التي وضعتني بطريقة ما في الحديد. لكن رسالتي أخذت وقتا طويلا جدًا في الطريق فلم تعجّل بمغادرتي المغرب ولو بيوم واحد. وبما أنني لم أتلق أي رد من هذا الجانب قررت أن أكتب الرسالة التالية إلى الإمبراطور.

إلى جلالة إمبراطورية المغرب.

مع كل الاحترام والطاعة اللازمين لجلالتكم السامية، اسمحوا لي بإبلاغكم أن حاكم جبل طارق قد أرسل إليّ للتو أوامر دقيقة بالعودة إلى منصبي على الفور. وإذا تبيّن أن مهمتي لا تزال مفيدة لمولاي عبد السلام فسأكون قد قصّرت في واجبي إن لم أستمر في أدائه. ولكن من بعد أن حظيت بتوفيق العناية الإلهية في علاجه التام، فإنني أتوسل إلى جلالتكم الشريفة للسماح لي بالعودة على الفور إلى جبل طارق.

مع خالص الاحترام لجلالتكم السامية
من الخادم المتواضع والمخلص للغاية
G. LEMPRIÈRES

تمت ترجمة الرسالة أعلاه إلى اللغة العربية. ومن بعد أن لفقتها في منديل من الحرير وفق تقاليد البلاد أخذتها إلى الأمير مولاي عمر الذي كنت قد عرفته في تارودانت. وأرفقتها بهدية من الكتان الأيرلندي، قيمتها ستة رايكسدارات. وتوسلت إليه بأن يضع رسالتي أمام عيني الإمبراطور. قبل بهديتي من دون تردد ووعدني بأنه سيبذل قصارى جهده لتسوية وضعيتي بسرعة كبيرة. الاهتمام الذي أبداه وهو يتحدث معي منحني الثقة فيه. فهنأت نفسي على اتخاذ هذه الخطوة. لكن لم يمض وقت طويل قبل أن أدرك أن هذا الوسيط الجديد والجليل لم يكن أفضل من الآخرين. كان قلبه ينافقني. بكتمان نواياه كان يشبه الوزراء الذين توسلت إليهم قبله.

لم أتوقف عند الهدية التي أعطيتها لتوي لمولاي عمر. وسعت دائرة الوسطاء بإغداق الهدايا حتى على المسؤولين الحكوميين. لم يكن في ذلك سذاجة من جانبي للتوفر على أكثر من خيط في قوسي. ملكات الإمبراطور ضعفت لدرجة أنه لم يعد يستطيع أن يتذكر الطلبات التي قُدمت إليه ساعة من قبل. لذلك، من كانت له قضية ليحملها إلى أعتاب عرشه، كان من المناسب جدًا تذكيره بها أكثر من مرة. كنت أرغب في أن يتم تذكيره في كل لحظة بأنني ما زلت أنتظر استعادة حريتي. ولكن إما أن الهدايا التي قدمتها لم تكن كبيرة بما فيه الكفاية أو أن الوسطاء تخيلوا أنني سأظل أكرر تقديمها دائمًا، فلم أحصل على أي نتيجة لا من رسالتي للإمبراطور ولا من أعطياتي لأفراد حاشيته.

وعندما ذهبت لرؤية مولاي الحسين، وهو أحد أبناء الإمبراطور، وجدته جالسا على حصيرة في نفس مكان خيوله. وكان يجلس بجانبه عدد قليل من أفراد حاشيته. فأجلسني بالقرب منه، وأخبرني أن المسيحيين والمغاربة كانوا إخوة، وأنه يحب الإنڭليز ويكره فقط الرهبان الذين يعتبرهم مخادعين لأنهم، بحكم مأموريتهم، مضطرون لتضليل كل الشعوب.

ربما كان هذا الأمير الشاب يبلغ من العمر ستة وعشرين عامًا. كان ذا وجه جميل. بداية اللقاء معه اتسمت إلى حد ما بشيء من البرود. سبق أن عيّنه الإمبراطور حاكما لتافيلالت. وصفاته الحميدة أكسبته في هذه المحافظة جميع القلوب مع سلطة غير محدودة. حتى أنه أعلن نفسه ملكًا هناك. هذا السلوك غير الشرعي أثار استياء الحاكم الحقيقي. فأرسل عددًا كبيرًا من القوات لإعادة ابنه إلى الطاعة. وتم القبض عليه ثم اقتيد إلى مراكش، حيث جرده والده من ثروته ومن كل سلطاته. في الوقت الذي رأيته فيه كان يعيش حياة منعزلة للغاية. وأهداني حصانا جيدا إلى حد ما كمكافأة على بعض العناية التي قدمتها إلى زنجي كان يحبه.

وما إن عدت إلى المنزل حتى تلقيت رسالة مفادها أن مولاي سليمان[17]، شقيق مولاي الحسين، قد كتب إليّ يطلب مني الحضور لرؤيته في اليوم التالي. لما استجبت لأوامره وجدته في جناح كان قد بناه في نهاية حديقته، والذي يمكن الوصول إليه عبر ممر رائع محفوف بأشجار البرتقال. كان الأمير جالسا على وسائد مقابل الباب. كانت حاشيته متحلقة من حوله. عندما اقتربت منه صاح في وجهي مبتهجا: "بونو، بونو أنڭليزي!" وأضاف قائلا أن الإنڭليز هم أفضل أصدقائه.

لقد أرسل إلي كي أخبره عن حالة صحته التي كان يشعر بالقلق حيالها. ففحصت نبضه الذي لم يشر إلى شيء مزعج. طمأنته وأخبرته بأنه في صحة جيدة، فسُرّ بذلك. وكي يُظهر لي رضاه أمر بإحضار الشاي رغم أنه كان قد حان وقت العشاء. وكان حريصًا على إحضار الحليب من أجلي، لأنه كان يعلم جيدًا أن الإنڭليز يخلطونه دائمًا مع الشاي. وذهبت مجاملته لي إلى حد إهدائي بقرة حتى لا ينفد مني الحليب أو القشدة طوال الوقت الذي سأقضيه في مراكش.

كل ما استطعت معرفته من قبل المترجم عن حديث مولاي سليمان يُعرب عن طبيعته الجيدة. مثل الإمبراطور والده، أمه امرأة من أصل إنڭليزي[18]. كان آنذاك في الثامنة والثلاثين من عمره. كانت قامته مهيبة ووجهه مفصح جدا. أخبرني أنه في رحلة قام بها إلى تركيا، عبر البحر الأبيض المتوسط على متن فرقاطة إنڭليزية، لم ينس الاحترام الذي لقيه من قبطان هذه السفينة أثناء وجوده على متنها. وتحدث معي عنه بحساسية كبيرة.

بعد أن صب لي خمسة أو ستة كؤوس من الشاي أمر أحد خدمه بإخبار عبيده بأنه يريد ركوب حصان. بعد خمس أو ست دقائق تم إحضار فرس سباق رائع. كان السرج من القطيفة والركاب من الذهب. امتطى الأمير جواده برشاقة وجعله يؤدّي مختلف القفزات التي كان يمارسها المغاربة. ثم، وهو يقف على ركابه والفرس يركض بأقصى سرعة، أطلق رصاصة من بندقيته. عندما انتهى من عرض كل ما يعرفه عن الفروسية، سألني إذا ما كان الإنڭليز يستفيدون هكذا من خيولهم. ومن دون انتظار إجابتي، أمر عبدا بأن يحضر لي واحدا من أجمل خراف قطيعه. لم يكن لدي الوقت لأشكره على الاهتمام الذي أولاني إياه حتى انطلق على فرسه بكامل طاقته.

6. في حريم السلطان

شهر من بعد مغادرة مولاي عبد السلام مراكش إلى مكة، تلقيت باندهاش كبير وسرور عارم أمرًا من الإمبراطور بالذهاب فورًا إلى القصر. فتم إحياء كل آمالي بهذا الخبر السار. كنت أظن أن المقابلة التي استدعيت إليها ستكون فرصة خلاصي من الخدمة التي ستمكنني أخيرًا من رؤية جدران جبل طارق من جديد. فطرت إلى القصر. لكن مع الأسف! عند وصولي إلى البوابة الأولى، وجدت عبدًا مسؤولاً عن إعطائي أوامر سيده. لم يفكر السلطان قط في كسر قيدي. لقد تذكرني فقط لاستخدام مواهبي المتواضعة من أجل علاج واحدة من السلطانات كانت مريضة. الأوامر تقضي بأن أراها على الفور وأن أقوم بزيارتها ثانية خلال نفس اليوم لأمدها بالأدوية التي أراها ضرورية لعلاج حالتها، وأن أعود بعد ذلك لإبلاغ الإمبراطور بوضعها الصحي.

تسبب لي هذا الأمر الاستثنائي في حزن كبير وفي دهشة. لم أستطع أن أتخيل كيف ألهمتُ فجأة الثقة في شيخ عجوز[19] لم يُظهر شيئًا سوى الاستخفاف بطريقتي في علاج المرضى بالعلاجات الباطنية[20]. كنت أعرف إلى جانب ذلك أنه يبغضني كرجل إنڭليزي. فماذا يمكن أن يكون هدفه من إدخالي إلى الحريم الذي لم يسبق قط لأي رجل أوروبي أن دخله؟

---

[17] وهو مولاي سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل (1760م - 1822م) الذي صار سلطاناً ما بين 1797 و1822م.

[18] هكذا مجّد المؤلف كذلك الأمير مولاي يزيد لكون أمه من أصل إنڭليزي.

[19] يعني بالعجوز السلطان سيدي محمد بن عبد الله الذي بلغ حينها سنه ثمانين سنة وتوفي في نفس عام 1790.

[20] يتعلق الأمر بأدوية تؤخذ عن طريق الفم، أعطاها هذا الطبيب للأمير عبد السلام، نجل الإمبراطور، لعلاج تشنجات عصبية في عينه. داء لم يستطع المعالجون من حول الأمير والإمبراطور تشخيصه، بل سخروا من طريقة علاج هذا الطبيب الإنڭليزي.

بعد أن أعطى مرافقي أمر الإمبراطور للقايْد، قادني أحد خصيي الحرس مع مترجمي إلى الحريم المحظور. دخلت الباحة الأولى حيث رأيت حظيات السلطان وزنجيات يمارسن أنشطة مختلفة. وبما أنه لا يمكن لأحد أن يتخيل بأي معجزة كنت بداخل الحريم، فقد خاف العديد منهن وهربن. الأكثر شجاعة من بينهن اقتربن وهن يرجفن من العبد الخصي الذي كان يقودني ليسألنه عمن أكون. وحالما أخبرهن أنني طبيب وأنني قادم لرؤية السلطانة للا زهرة، ركضن لإخبار من هربن. وفي لحظة امتلأ الفناء بالنساء وهن يرددن مطمئنات: "طبيب نصراني طبيب نصراني".

بعد بضع دقائق، أحاط بي، بأعداد كبيرة، كل هؤلاء المحتجبات الجميلات اللائي كن يخشينني. كنّ جميعهن حريصات جدًا على استشارتي. إذا لم يعرفن الضرر الذي يشتكين منه، يعطينني أيديهن لفحص نبضهن على أمل أن أتمكن من إخبارهن بشيء عن صحتهن. ومن بعد أن بذلت قصارى جهدي لتزكية الرأي السامي الذي تصورنه في البداية عن مواهبي، بقيت مع كل ذلك في أذهانهن جاهلا.

حان الوقت لمغادرة هذا الفناء الأول. كانت شقة للا زهرة في الجزء الخلفي من الفناء الثاني. بينما كانت هذه المريضة الجميلة تنتظرني، فُتح بابها أمامي على الفور. والذي أدهشني هو ألا أجد زوجات الإمبراطور محجبات، لما تذكرت كل الاحتياطات التي تم اتخاذها لإخفاء زوجة الأمير مولاي عبد السلام[21] التي لم أتمكن من رؤية وجهها قط.

كان من السهل الحكم على أن السلطانة كانت جميلة جدًا قبل الحادث القاسي الذي أضر بصحتها إلى الأبد. لما كان جمالها في عز روعته، كانت هي مفضلة الإمبراطور. وما كان بالإمكان أن تتمتع بتلك الحظوة والمقام من دون إثارة الغيرة لدى العديد من المنافسات اللائي كن يجدن أنفسهن مُهانات بسبب ذلك التفضيل الممنوح لإحدى رفيقاتهن، وهن لا يعتقدن أن سحرها كان أكثر جاذبية من سحرهن. أولئك اللائي سبقن أن استحوذن على قلب الإمبراطور، ثم يرين أنفسهن مهملات من أجل للا زهرة، أقسمن على السعي لهلاكها. ولم يعُدن يفكرن في أي شيء سوى البحث عن وسائل لتحقيق مشروعهن. وبدا لهن السم هو الأكثر فعالية وسرعة.

ونتيجة لذلك، قمن سرا بشراء الزرنيخ وخلطوه مع طعام السلطانة. تم تنفيذ هذه الجريمة بمهارة كبيرة لدرجة أنها كانت تنتج بالفعل آثارها الخطيرة عندما تم اكتشافها. كانت لالة زهرة التعيسة، تعاني من القيء والتشنجات. كانت ستموت على الفور لو لم تكن لديها بنية جسمانية جيدة. بعد صراعها مع الموت لعدة ساعات، بدأت قوة السم في الانحسار. فلم تعد تشعر سوى بتهيج شديد في المعدة حتى صار ذلك بالنسبة لها حالة اعتيادية. ولم يستطع كل الطب الشرقي علاجه. جمالها، ذلك السبب في تعاستها، قد اختفى تمامًا. وهكذا، فإن عدوّاتها القاسيات قلوبهن، على الرغم من أنهن لم ينجحن في هلاكها، استمتعن جزئيًا بنتيجة جنايتهن، لما رأين ذبول جمالها الذي كان سببا في تعاستهن والذي انمحى إلى الأبد.

كانت للا زهرة حينها في الثلاثين من عمرها. ولم تمنعها حالتها التي ساءت بالتدرج، من إنجاب طفلين. كان أصغرهم لا يزال رضيعا، ويمكن أن يبلغ أكبرهما عامين ونصف. أعترف أنني فوجئت إلى حد كبير بجمال وقوة طفلين مولودين من أم متعبة صحيا. هؤلاء الصغار خفّفوا من سوء مصير من أنجبتهما وحالا دون طلاقها. لقد نسي الإمبراطور السلطانة البائسة. وأرسلني إليها فقط لأنها سمعت عن وصولي وتوسلت إليه للسماح لي بالحضور لرؤيتها وتشخيص مرضها وعلاجه. وصفت لها بعض الأدوية مع حمية غذائية معتدلة ثم غادرت شقتها.

لم أخط عشر خطوات حتى أوقفتني جارية السلطانة للا فطوم، وهي السلطانة الأولى بسبب أولوية زواجها. جاءت لتطلب مني الدخول عند سيدتها. وبما أنني قد جئت إلى الحريم فقط لرؤية للا زهرة، لاحظت أن مرافقي كان يراقبني بعيون قلقة. فكنت أخشى أن يكون هناك خطر بالنسبة لي بسبب تجاوز أوامر الإمبراطور. ومع ذلك غلب عندي الفضول على الحيطة والحذر. فسمحت لنفسي بالانتقال إلى شقة للا فطوم من دون القلق بشأن العواقب التي قد تترتب على هذا التصرف. بلّغني المترجم شكر السلطانة على اللطف الذي أظهرته لها بالمجيء إلى شقتها. وسرعان ما أخبرني نبضها أن الفضول وحده جعلها ترسل في طلبي. ما كانت بها سوى نزلة برد خفيفة. فشعرت بفرح شديد لما تيقنت من الاستغناء عن تقديم أي علاجات لها.

سلطانة الإمبراطور المفضلة، التي لم تكن أقل فضولًا، من بعد ما علمت بزيارتي للا فطوم، أرسلت على الفور إحدى جواريها لتطلب مني الحضور لرؤيتها. وسرعان ما جعلني لقب السلطانة المفضلة أقرر الامتثال لدعوتها. كنت سعيدًا لأنني تمكنت من الحكم بنفسي على ما إذا كانت تستحق حقًا أن يتم تفضيلها على منافساتها. وكان اسم هذه السلطانة هو للا الضو. عند دخولي إلى شقتها أدهشني جمالها لدرجة أنها لاحظت الاضطراب الذي سببه لي. أول رد فعل لي مع ذلك الجمال جعلني أرتكب

[21] الأمير مولاي عبد السلام ابن السلطان الذي جاء الطبيب إلى المغرب خصيصا لعلاجه بتارودانت

حماقة كان يمكن أن تكلفني غالياً. لقد أظهرت لها دهشتي من تواجد مثل هذا السحر عند أفريقية. وما أن قمت بهذه المجاملة غير اللائقة، حتى شعرتُ بكل الخطر، خاصة أمام المرافق الذي لم تغفل عينه عني أبدًا.

لكنها لم تبد قلقة بشأن هذا الأمر وأظهرت لي أنني لم أكن مخطئًا من حيث وجدت عندها الملامح الخاصة بأوروبية. فأخبرتني أنها ولدت في مدينة جنوّه[22]. وقد كانت في سن الثامنة لما أخذتها معها والدتها على متن سفينة لنقلها إلى صقلية. حينها تقرر مصيرها لما غرقت السفينة ورماها البحر مع أمها إلى شاطئ ساحل شمال إفريقيا. لسوء الحظ ألقت بها العاصفة على هذه الأرض غير المضيافة. وتم تقديمها إلى الإمبراطور. فتم واحتجازها في الحريم من بعد فصلها عن والدتها. وجمالها الذي بلغ ذروته في غضون سنوات قليلة وحدّة فكرها ورفعة مواهبها، جعلتها ترقى وتحتل المقام الأول في قلب السلطان. وكانت تعرف جيدًا كيف تحتفظ به، لدرجة أنه لا مرور الزمن ولا ألفة المتعة بها كانا قادرين على النقص من أفضليتها. أما النساء الأخريات في الحريم، اللواتي كن يكرهنها بسبب كونها منافسة من المستحيل عليهن مضاهاتها في النعومة واللطف، لم يستطعن مقاومة الإعجاب بقدرتها على القراءة والكتابة باللغة العربية. ولا واحدة منهن كانت تستطيع قراءة مجرد كلمة.

تم احتجاز للا الضو في سن صغيرة، لدرجة أنها بالكاد تتذكر لغة بلدها. ولا تتذكر وصولها إلى الحريم سوى بشكل غامض. واعتقادا منها أنني تأثرت بتخليها عن تعاليم الدين التي تلقتها من والديها وباندثارها في قلبها، قالت لي بلطف لا متناه: "لا تهم معتقداتنا. ألسنا كلنا إخوة وأخوات؟ وسأكون آسفة جدًا إذا كان لديك رأي سيء عني لأنني تخليت عن الإيمان المسيحي". ثم أضافت بأنها لن تكون سعيدة للغاية إذا لم تلق عندي أي اهتمام، وهي بحاجة لطبيب جيد لصحتها.

في الواقع، تعرضت للا الضو لداء السكوربيت[23] الذي صار يهدد بعض أسنانها الجميلة. فكانت تخشى، لسبب وجيه، أنه إذا أصبح هذا الداء أكثر جدية، فسوف يضعف من مشاعر ود الإمبراطور اتجاهها. علاج المرض الذي كان قد بدأ للتو يبدو سهلاً بالنسبة لها. لكن نظرًا لأن سعادة حياتها كانت تعتمد عليه، فقد أظهرت لي تنبيهات قوية جدًا بشأن حالتها. فسارعتُ إلى طمأنتها. الوعد الذي قطعته لها بعلاجها جذريًا في غضون أسبوعين هزها من الفرح.

لكن من خلال هذا الالتزام، نسيت أنني دخلت الحريم فقط لأرى للا زهرة. الجرأة التي اضطرتني للذهاب إلى السلطانة المفضلة من دون إذن الإمبراطور، قد تجلب لي أقسى عقوبة. لكن هل نستشير الحذر وهل ننتبه للخطر عندما تطلب منا امرأة جميلة مساعدتها؟ للا الضو، التي لم تخل من القلق بشأن زياراتي، أمرت جواريها بعدم الحديث عنها. لقد احتفظن بالسر جيدًا. الأمر الذي طمأنها كثيرا على المستقبل. وكانت تأمرهن بالحراسة كلما جئت لرؤيتها. وأخيرًا، توصلت السلطانة الودود إلى اكتساب ثقة وإخلاص الخصي الذي كان يرافقني لما غمرته بالهدايا. لفترة طويلة كانت لدي حرية قضاء ساعات كاملة معها كل يوم. كنت أحكي لها عن العادات الأوروبية التي كانت تسألني عنها ألف سؤال. كل ما قلته لها عن ذلك كان مسليا لها كثيرا. لم أر زوجة الإمبراطور الرابعة. كانت في فاس من أجل صحتها أثناء إقامتي في مراكش. علمت أنها كانت ابنة مرتد[24] إنڭليزي. وهي أم مولاي اليزيد الذي اعتلى العرش بعد وفاة أبيه سيدي محمد.

بعد أن أمضيت في الحريم وقتًا أطول بكثير مما كنت أتوقعه بشكل معقول، غادرته لإبلاغ الإمبراطور عن حالة للا زهرة التي عاينتها في أول الأمر. فاستقبلني في فناء مغلق. لم يكن لديه سوى بضع من العبيد يقودون كرسيا صغيرا متحركا بأربع عجلات. كان يجرها بيسر كبير أربعة من أطفال المرتدين الإسبان. مع اقترابي من هذا السلطان المهيب، أعترفُ أنني كنت أخشى من أن أجد فيه قاضيا صارما سينتقم مني لخطأ بسيط جدًا في حد ذاته، لكن يمكن أن يعتبره إهانة خطيرة للغاية في حقه. لم أبق طويلا في هذا القلق القاسي. رأيت من خلال النبرة الودودة التي سألني بها عن أخبار للا زهرة، أنه لم يكن على علم بأي شيء. ثم بعد أن زال عني الخوف الأول، أخبرته من خلال مترجمي بحالة المريضة التي أمرني بالذهاب لفحصها.

أراد أن يعرف ما هي الأدوية التي سأستخدمها لعلاجها. وبعد أن أحضرت له بعض العقاقير التي سميتها، أجبرني على تذوقها أمامه، وكأنه كان يخشى أن أعطي سما للسلطانة بسبب جهلي أو سوء نيتي. وبعد أن سألني أسئلة كثيرة حول كيفية علاج الأمراض المختلفة في أوروبا، عاد ليحدثني عن حالة للا زهرة. سألني كم سأستغرق من الوقت لاستعادة صحتها. فأجبت أنه من المستحيل تحديد مدة علاجها وأن أوجاعها لن تتوقف إلا بالاستخدام الطويل للأدوية التي وصفت ها.

[22] بالإيطالية: *Genova*. مدينة وميناء بحري شمال إيطاليا، وعاصمة إقليم ليغوريا.
[23] داء النقص الحاد في الڤيتامين (سي)
[24] متحول إلى الإسلام

عندما أدليت بهذا البيان، اعتقدت أنه يجب عليّ الاستفادة منه لالتماس إذنه لي مرة أخرى بالعودة إلى جبل طارق. في مقابل ذلك عرضت عليه أن أعتني بالسلطانة لمدة أسبوعين، ثم أترك لها نظامًا غذائيًا يمكنها اتباعه بعد مغادرتي بنجاح كبير كما لو كنت حاضرًا. وأكدت للإمبراطور على ضرورة انصياعي لأوامر رؤسائي بجبل طارق الذين اتصلوا بي مرة أخرى كي ألتحق بمقر وظيفتي. بدا الإمبراطور راضياً بحماسي لإراحة امرأة ما زالت تثير شفقته. كي يبين لي أنه راضٍ عن ذلك وعد بإطلاق سراحي بعد الأسبوعين الأولين من العلاج الذي وصفته للسلطانة وشرعت هي في أخذه. ترافقت كلمات المواساة هذه مع لفتة من الكرم، جعلت الإمبراطور يقول إنني سأحصل على حصان جميل للعودة إلى بلدي. وأمر وزيره بفتح الحريم لي كلما أردت الدخول إليه.

يتألف حريم سيدي محمد من مائة وستين امرأة. وذلك من دون احتساب كل الجواري اللائي يخدمن السلطانات. لا ينبغي الاعتقاد بأن الإمبراطور لم يتزوج إلا من النساء الأربع اللائي تحدثت عنهن. كان قد طلق العديد ممن لم يرزقن بأبناء، وماتت أخريات من الأمراض. لذلك سيكون من الصعب معرفة عدد المرات التي تزوج فيها بالضبط خلال فترة حكم طويلة. بشكل عام، الحظيات هن زنجيات أو جواري أوروبيات. ومع ذلك، فقد رأيت من بينهن من كن من عائلات مغربية محترمة، قد تم إهداؤهن بخسّة لحريم الإمبراطور من طرف آباء منحطين وطموحين[25].

كما لاحظت من قبل، الحريم هو جزء من القصر. تعود إدارته للسلطانة الأولى. وهي مسؤولة فقط عن النظام العام. ويمنحها هذا المقام الحق في اختيار أفضل جناح للإقامة فيه. امتياز كانت تستمتع به كل من للا فطوم وللا الضو السلطانة المفضلة لما دخلت الحريم. هما لوحدهما اللائي كان لكل منهما جناح مسبوق بغرفة أخرى.

كرم الإمبراطور لزوجاته كان إلى حد ما وفيرا. وذلك بحسب المشاعر التي كن يعرفن كيف يلهمنها فيه. لكن ما يمنحه لهن لم يكن رائعا دائمًا. وكان يتوخى منه أن يلبي جميع احتياجاتهن. المعاش الذي كان يدفعه لمعظمهن كان متواضعاً جدا لدرجة أنه لم يكن كافياً حتى لإطعامهن وإعالتهن[26]. صحيح أنه كان يعطيهن جواهر وأحياناً إكراميات نقدية. وعلى الرغم من كل هذه الهدايا، لم يكنّ في سعة من أمرهن، لولا الهدايا التي كان يقدمها لهن الأوروبيون والمغاربة حتى يهتموا بشؤونهم. لم يكن الإمبراطور يجهل أن زوجاته يتاجرن بتدخلاتهن لصالح الأجانب الذين كانوا يطلبون مساعدتهن. لكنه كان يغمض عينيه عن تلك التجارة لأنه كان يفضل التسامح معها على أن يفتح لهن محفظته.

السفراء والقناصل والتجار الذين كانوا يعرفون ذلك النشاط امتثلوا له وصبوا الكثير من المال في الحريم. كنت أعرف يهوديًا لم يتمكن من الحصول على إجابة من الإمبراطور بشأن مسألة مهمة. فقرر إرسال اللؤلؤ إلى السلطانات، متوسلاً إياهن التحدث معه لصالحه. وسرعان ما أعطت هذه الوساطة الجميلة لليهودي ما كان يطلبه منذ فترة طويلة. نساء الحريم يدفعن أجور العبيد الذين يخدمونهن. ويفعلن بعد ذلك، ما يردن بأموالهن. ولسن ملزمات بتقديم أي حساب عنها.

بشكل عام، يتمتع نساء السلطان بقدر لا بأس به من الحرية في حريمهن. لكنهن لا يستطعن الخروج منه أبدًا، اللهم عندما يسافرن معه لما ينتقل من قصر إلى آخر. وهذا التغيير في المُقام هو أمر عظيم. في اليوم الذي سيحدث فيه، يجب ألا يكون أحد في الطريق الذي ستمر منه زوجات الإمبراطور. ومن أجل إبعاد المتهورين الذين قد يجذبهم الفضول إلى هناك، تسبق فرقة من الجنود موكب النساء، فلا يغادرن الحريم إلا عندما يكون الحرس على يقين من أنهن لن يتعرضن لنظر البشر. ويرافقهن خصيان سود سيئو المزاج.

7. قصة فكاكي من الاحتجاز

[25] كانت في مصاهرة بعض كبار الرعايا مع الحكام مصالح متبادلة. بها يضمن الحاكم بقدر ما ولاءهم له وولاء من تحتهم بإقليمهم. ويضمنون هم الحصول على امتيازات قد تصل إلى حد أن تصبح عائلة الحاكم المقبل من جهة أمه. وهو يذم ما لتلك المصاهرة من أطماع مادية وسياسية على حساب الفتاة المهداة للحاكم كزوجة أو جارية، نسي المؤلف أن مثل هذه العلاقة المصلحية والخسيسة كما يقول، كانت أمرا متعارفا عليه في بلاطات ملوك أوروبا التي ما خلت يوما من الخليلات الرسميات وحتى من بين المتزوجات إلى جانب الزوجة الفريدة التي تكون قد زُوجت زواج مصلحة سياسية أو مادية كالمهر الهائل الذي كانت تأتي به للزوج والذي قد يكون أحيانا مقاطعة بمن عليها من أهالي وما عليها من ثروات. ومثال ذلك لما تزوج في سنة 1662 الملك الإنڭليزي تشارلز الثاني بأميرة البرتغال كاثرين دي برغانزا. وكانت مدينة طنجة المحتلة حينها من طرف البرتغال هو المهر الذي جاءت به لزوجها.

[26] من الملاحظ أن هذه الفقرة تحتوي على تناقضات صارخة. قد يكون سببها سوء الترجمة من الإنڭليزية إلى الفرنسية.

لم ينتظر الإمبراطور أكثر من أسبوعين للسؤال عن فعالية علاجي للسلطانة للا زهرة. ولما علم منها أن صحتها قد تحسنت فقط من بعد أسبوع، أهداني من خلالها دبلونا[27] ملفوفا في منديل جميل من الحرير. وما كانت هذه الهدية سوى مقدمة للمكافأة الكاملة التي وعدني بها إن هي شفيت تماما. لكن معرفتي ببخله ما سمحت لي بالأمل في الاستفادة من جوده. وليس هذا ما كان يقلقني. اهتمام أكبر من المال كان لوحده يشغل بالي. لم أكن أفكر سوى في استعادة حريتي وبأي ثمن.

ربما سيكون من المدهش عند البعض أنه بعد حصولي على دخول حريم الإمبراطور احتفظت بنفس الرغبة في مغادرة المغرب. يبدو أنه كان عليّ أن أبذل القليل من الجهد للخروج منه منذ أن صرت أرى بكل حرية السلطانة الجميلة للا الضو. ومع ذلك، إذا ما اعتبرنا أن هذه الشابة اللامبالية كانت تعرضني كل يوم لمخاطر جديدة، فلا شك في أنني كنت محقًا في رغبتي في الهروب من هذا المكان الذي قد يصبح مهلكا من لحظة إلى أخرى. إلى جانب ذلك، فإن غيابي عن جبل طارق الذي كان بالفعل طويلاً للغاية جعلني أخشى إغضاب رؤسائي.

وكان لدي سبب آخر لرغبتي في السماح لي بمغادرة هذا البلد. يتعلق بالرعاية التي كنت أقدمها إلى السلطانة للا زهرة. صحيح أن صحة هذه المريضة قد تحسنت بشكل أفضل. لكن مع علمي بنزوة وجهل نساء الحريم كنت أخشى من أن تمل من علاجاتي. فحتى لو افترضنا أن العلاج الذي كنت أعطيه إياها كان ناجحًا تمامًا، ألا يمكن أن يحدث أن منافساتها يحاولن مرة أخرى تسميمها وينسبن العواقب الوخيمة لجريمتهم إلى ضعف مهاراتي الطبية؟ كما يمكن لتقدم سن الإمبراطور وضعفه أن يتطلبا خدماتي فيعيقا رحيلي باستمرار. لكل ذلك كان من الحكمة الإلحاح في طلب السماح لي بالمغادرة وبكل حماسة ممكنة.

تصورت طريقة بدت لي ممتازة لإعادتي إلى جبل طارق. أخبرت مريضتي أن المساحيق الممتازة التي استخدمتها لعلاج مولاي عبد السلام، لم يتبق لي منها ما يكفي لاستعادة صحتها. وبعد تحذيرها من عواقب هذا الخطر، أقنعتها بأنه من مصلحتها الخاصة حث الإمبراطور على إرسالي إلى جبل طارق لجلب ما يكفي منها لاستكمال علاجها. فردّت السلطانة للا زهرة بحيوية أنه ليس من الضروري بالنسبة لي أن أذهب بنفسي للبحث عما يمكن أن يكون مفيدًا لصحتها، وأن الإمبراطور سيرسل إلى القنصل الإنكْليزي في طنجة لطلب توليه القيام بهذه المهمة في جبل طارق. وبهذه الطريقة سيتم إنجازها في وقت قصير جدًا.

فأحرجني هذا الرد الذي لم أكن مستعدًا له. ثم خطرت لي فكرة لعب دور الطبيب التجريبي الحقيقي. فأكدت جادًا للسلطانة أنني المبتكر الوحيد للمسحوق الرائع الذي جعلها تشعر بالفعل بتحسن صحتها. وبالتالي سيكون من غير المجدي الكتابة إلى جبل طارق للحصول عليه بالنظر لكوني الوحيد في العالم الذي يعرف كيفية تحضيره، وأن النباتات التي تتكون منه كانت موجودة فقط في أوروبا. هذه الحيلة، على الرغم من فجاجتها، نجحت بما يتجاوز توقعاتي. للا زهرة مقتنعة بصحة ما قلته لها توسلت للتو إلى نساء الحريم اللائي كان لهن أكبر قدر من التأثير على عقل الإمبراطور للانضمام إليها في حثه على السماح لي بمغادرة البلاد.

مما لا شك فيه أن الاضطرار إلى الكذب تحت أي ظرف من الظروف معيب. وإن هذا الباطل الذي تبنيته لبغيض لحساسية أخلاقي. لكن سوء تصرف الإمبراطور معي دفعني إلى الحد الأقصى من استخدام الخداع للحصول على حقي في العدالة. وعلى الرغم من تقدمه في العمر فقد ظل يحتفظ بالكثير من الفطنة حتى تنطلي عليه الحيلة التافهة التي حبكتها. ومع ذلك، يبدو أنه تظاهر بتصديقها تطييبا لخاطر للا زهرة ووعدها بإصدار أوامر تسمح لي بالمغادرة. لن يكون من السهل تخمين الأسباب التي جعلت هذا الملك يحتجزني في بلاده. لكن المؤكد هو أنني لم أنجح بعدُ في الحصول على حريتي.

مرت بضعة أيام منذ أن تم خداعي بالأمل الجميل في إعادتي إلى جبل طارق لجلب المسحوق العجيب الذي كان من المفترض أن يتمم علاج للا زهرة. لم يعد الإمبراطور يفكر في الوفاء بالوعد الذي قطعه لهذه السلطانة بشأن مغادرتي. هذا النسيان الذي بدا أنه متعمد جعلني أشعر باليأس. فركضت إلى أوروبي وصل لتوه إلى مراكش لأخبره عن مصائبي. لكنه لم يستطع إعطائي نصيحة أخرى سوى أن أحضر مجلس ديوان الإمبراطور وأن أجدد له مناشداتي. اتبعت نصيحته لكن من دون جدوى. لم يكن من الممكن أن أقترب بما يكفي منه حتى يلاحظ تواجدي. كان الوزراء أمامه. وكان هناك مائة جندي لمنع الحشود من إزعاج الديوان. بعد أن أنهى كل ما يتعلق بالشؤون العامة سرد الإمبراطور بعض الانتصارات التي حققها المغاربة على المسيحيين. وتحدث عن الأماكن التي فقدها أسلافه من أجل الحصول على فرصة للحديث عن مدينة مزاڭان التي أخذها من البرتغاليين. يمكننا أن نتخيل أن الوزراء لم يتأخروا عن التصفيق والتمجيد لأعماله العسكرية الكبرى. بعد أن أسدوا له هذا الثناء

---

[27] عملة إسبانية. ظلت، مثل عملات أوروبية ذهبية أخرى، تحمل نفس الإسم لما صارت مجرد مجوهرات لزينة النساء.

اللطيف الذي تعوّد عليه الشرقيون انتهوا بصيحة «حفظ الله الملك!"[28] التي تكررت أولا من قبل الجنود المحيطين بالإمبراطور ثم سُمعت تتردد في جميع باحات القصر.

انتهت جلسة الديوان من دون فائدة لمصلحتي، بل زادت من مشاكلي. بترددي على الحريم لم أعد أبحث عن التسلية. بالكاد صرت أقضي فيه الوقت اللازم لعلاج الموقرة للا زهرة التي لم يتزعزع لطفها معي أبدًا. ولكن ليس من دون مثال رؤية البئيس يتلقى ما يسره وهو في ذروة أحزانه. فهذا ما حدث لي. لما كنت آسف على يأسي من الأمل في الخروج من هذا الاحتجاز، تلقيت طردًا يحتوي على وثائق الرحيل التي كانت بمثابة جواز سفري للعودة إلى جبل طارق. جاء فيها بشكل أساسي أن حاكم طنجة سيتكلف بتسفيري بكل أمان إلى هناك.

لن أستطع أبدًا وصف المتعة التي شعرت بها عندما تلقيت هذه الأخبار السارة. كان من دواعي سعادتي التي لا توصف أن أرى نفسي في عشية مغادرة بلد أصبح مقيتا بالنسبة لي بسبب كل التناقضات التي واجهتها فيه. فاهتممت على الفور بالتحضيرات لرحلتي. وفي اليوم التالي ذهبت لأعلن ذلك لمريضتي وللنساء الأخريات في الحريم. لم أكن حريصًا، عند وداع كل هؤلاء الجميلات، على إظهار الفرح الذي كان يملأ روحي. لو كان بإمكانهن أن يخمن أن مشروعي هو الذهاب من دون رجعة لبذلن بالتأكيد الكثير من الجهد لمنعي من المغادرة بمقدار ما كن متحمسات لكي أحصل على النعمة التي منحني إياها الإمبراطور للتو. وكنت على قناعة بأنه كان من الأسهل عليهن إيقافي بدلاً من كسر أغلالي. ومع علمهن بأنه بإمكاني جلب الكثير من الأشياء من جبل طارق والتي لا يمكن العثور عليها في المغرب سارعن إلى إعطائي لوائح بأسمائها.

وأخيرًا غادرت مراكش في 12 فبراير 1790. وما أن وصلت إلى طنجة حتى تلقى القايْد خطابا من الوزير يأمره باسم جلالة الملك أن يشتري لي على حساب خزنته ثورين وعشرة رؤوس من الماعز ومائة طائر من الدواجن علاوة على الفواكه والخضروات. تلك كانت مكافأتي على الرعاية التي قدمتها إلى السلطانة للا زهرة. كما حثني فيها الإمبراطور على العودة كما وعدت. لقد عاملني حاكم طنجة جيدًا حينها، حتى أن الجمركي سمح لي بأخذ كل ما معي من الأمتعة من دون دفع أية رسوم. وأبحرت إلى جبل طارق، حيث وصلت في 27 مارس 1790.

لن أستطيع وصف الفرحة التي شعرت بها عندما رأيت مرة أخرى مكانًا حيث كنت سأجد أبناء بلدي والقوانين الحكيمة والعادات اللطيفة بموطني. في الحقيقة، السعادة التي يشعر بها سجين بئيس عند مغادرته زنزانة ليست أكبر من تلك التي شعرت بها عند رؤية حامية إنڭليزية. عندما عدت إلى جبل طارق، انقطعت جميع اتصالاتي مع المغرب. فأعطى هذا الأمر قيمة أكبر بكثير لهدايا الإمبراطور. ومع ذلك لم تكف مع هدايا الأمراء أبنائه لتعويضي حتى عن مصاريف الرحلة. لذا، أستطيع أن أقول إنني حصلت فقط على بعض المعرفة عن عادات وتقاليد بلد لا يشبه بلداننا الأوروبية.

8. من أحوال المغرب بين عامي 1789 و 1790

الأمراض والعلاجات الشائعة: الأمراض التي اطلعت عليها وكانت متفشية بالمغرب هي ماء العين والتهاباتها التي كثيرا ما تتسبب في فقدان البصر. زد على ذلك الجرب[29] المختلط بالجذام[30] وانتفاخ الخصية بالماء والأورام المختلفة. لاحظت كذلك الإصابة بالحمى المتعاقبة على فترات بسبب داء الصفراء وآلام المعدة المترتبة عن سوء الهضم.

بالرغم من الاحترام الذي يحظى به المعالجون بهذا البلد يستحيل الحصول على فكرة جيدة بخصوص علمهم. الموريسكيون[31] واليهود يعتقدون أنهم مهرة. في حين كل معرفتهم تنحصر في اختيار بعض الأدوية البسيطة من مخطوطات قديمة، ويستعملونها من دون تمييز. طريقتهم العادية في العلاج تبدأ بالحجامة ثم امتصاص الدم بفنجان وتشريط الجلد وتدليكه بقماش ساخن. يعالجون كذلك بشرب طبخات من الأعشاب المختلفة.

---

[28] مرة أخرى لسبب ما تعذرت على المؤلف الترجمة الصحيحة لعبارة "الله يبارك في عمر سيدي" المعروفة والمألوفة قديما جدا بالبلاط.

[29] الجرب، المعروف باسم "حكة السبع سنوات " هو مرض جلدي معدي. أكثر أعراضه شيوعا هي الحكة الشديدة والطفح الجلدي الذي يشبه البثور مع جحور صغيرة على الجلد.

[30] الجذام هو مرض حبيبي بشكل رئيسي يصيب الجهاز العصبي المحيطي والغشاء المخاطي للجهاز التنفسي العلوي. وتعتبر الإصابات الجلدية هي العلامة الخارجية الأساسية على الإصابة به.

[31] المقصود بالمورسكيين المسلمون من أصل أندلسي.

عندهم جراحون جريؤون بما يكفي لثقب ورم ماء الخصية بالمشرط. يجرؤون حتى اقتلاع غشاء المياه الزرقاء من العين. لم أشاهد ذلك بأم عيني لكنني التقيت معالجا أكد لي أنه قام بالعملية وتكللت بالنجاح. الآلة التي يستعملونها لذلك الغرض ليست شيئا آخر غير قضيب من النحاس برأس حاد جدا.

الأدوية الأكثر استعمالا عندهم هي تلك الموضعية. يفضلونها على الأدوية الباطنية بالرغم من ضعف آثارها على أسباب الكثير من أمراضهم. ليس من السهل إقناعهم بأن الأدوية التي تصل ابتداء إلى المعدة بإمكانها أن تعالج الرأس وباقي أجزاء الجسد. ومع ذلك فقد كانوا طيّعين ويستعملونها لما أقنعهم بأنها ستخفف من آلامهم. وبالرغم من إيمان المحمديين بالطب فإنهم يثقون في مفعول العلاج بالرقية وبتعليق التمائم. والمفارقة الكبرى تكمن في إيمانهم بالاستسلام للقدر المكتوب لكنهم يهرعون في الوقت نفسه إلى التطبيب عند إصابتهم بأدنى إزعاج صحي.

واحد فقط من بين العديد من المرضى الذين استشاروني عبر لي عن بعض الامتنان. الباقون، بعيدون كل البعد عن شكري على فحصي إياهم، ظهروا لي وكأنهم يمتنون عليّ تشريفيهم لي باستشارتي. الموريسكي الوحيد الذي لم يكافئني بنكران الجميل كان شيخا عجوزا يمتاز بسموه عن العامة. تأثر كثيرا بالعناية التي أحطت بها مريضا يحبه كثيرا، ولمكافأتي أرسل إلي في الحين دجاجا وفواكه. وزارني قبيل استئناف سفري وأكد لي أنه لن ينسى أبدا الخدمة التي أسديتها لصديقه. وألح علي في أن أعده بأن لا أتخذ لمقامي عند عودتي بيتا غير بيته. أمر استثنائي هنا حتى عز علي عدم ذكره.

الضغط الضريبي[32]**:** من بين عناصر الجباية بالمغرب الغرامات. الاتحاد القوي بين أفراد كل قبيلة يجعل منها جارا سيئا. كل قبيلة تكره غيرها وتحتقرها. الخلافات بينها غالبا ما تؤدي إلى صراعات مأساوية تنتهي بسفك الدماء إن لم يتدخل الإمبراطور بقوته وسلطانه لإيقافها. ولما يفصل بينها لا يسأل عن الظالم والمظلوم. بل يفرض إرادته على كل الأطراف المتنازعة كحاكم مطلق فيعود الهدوء ولو لفترة من الزمن. لكنه يجعلها تؤدي ثمن تدخله غاليا. علاوة على العقوبات الجسدية يفرض على كل منها أداء غرامات مالية باهظة. ولا يسع المرء سوى التسليم بذلك الحل لكونه الأفضل في التعامل مع رجال يصعب التعايش السلمي فيما بينهم.

علاوة على الموارد المالية التي يجنيها الإمبراطور من تلك العدالة المربحة، البدو والرحل يؤدون له عُشر الإنتاج الفلاحي السنوي. علاوة على ذلك يفرض عليهم رسوما استثنائية تعادل أربعين في المائة من قيمة الإنتاج القومي من المزروعات. رسوم تؤدى عينا أو نقدا وتخصص للإنفاق على الجيش. فهذا الشعب البئيس يقع عرضة لكل المضايقات التي يمليها عليه مزاج الحاكم المستبد من أجل الإنفاق على حاجيات حقيقية ووهمية.

الطرق التي يجني بها الإمبراطور الأموال من رعاياه بسيطة وجزافية. يُصدر أوامره المطاعة لحكام الأقاليم بدفع ما يكفيه من الأموال في مدة معينة. والحكام بدورهم يأمرون أعوانهم باستخلاص ضعف المبلغ المطوب من أهالي البوادي والمدن التي تقع تحت نفوذهم. ثم يحتفظون بنصفه لأنفسهم كمكافأة على متاعب القيام بهذه المهمة. لكن الأعوان يستخلصون ضعف المبالغ المطلوبة منهم كي يحتفظوا بدورهم بنصفها لصالحهم جزاء على خدمتهم. هكذا بفعل هذه السلسلة من الطغاة[33]، من أعلى هرمها إلى أسفله، يؤدي الشعب البئيس أربع مرات المبلغ الذي يأمر الإمبراطور حكام الأقاليم بدفعه لخزينته في أجل محدد.

عنف الاضطهاد يبلغ أحيانا حد امتناع بعض القبائل عن دفع الأموال المطلوبة منهم. فيضطر الإمبراطور إلى القيام بحملات عسكرية عنيفة من أجل استخلاصها بنفسه. حينها لا يتوانى الجنود عن القيام بالنهب المعهود فيهم.

---

[32] عند قراءة هذه المادة ينبغي استحضار كون الطبيب المتحدث رجلا إنڭليزيا جاء من بلد تم فيه تقنين جباية الضرائب منذ إعلان الميثاق العظيم سنة 1225م، بحيث لا تفرض رسوم استثنائية إلا من بعد موافقة البرلمان بغرفتيه، مجلس العموم ومجلس اللوردات اللذين تم إنشاؤهما على التوالي بعيد إعلان ذلك الميثاق العظيم. زد على ذلك معرفته بحرب الاستقلال التي شنتها المستعمرات الإنڭليزية بشمال أمريكا على الوطن الأم ما بين عامي 1775 و1783 بسبب فرض البرلمان الإنڭليزي رسوما جمركية عليها من دون أن يكون لها ممثلون فيه يدافعون عنها. هذا علاوة على علمه بالثورة الفرنسية التي قامت في نفس السنة التي زار فيها المغرب بسبب الإجحاف الجبائي في حق البرجوازيين وباقي الشعب الفرنسي من دون النبلاء ولا الكنيسة.

[33] هذا الإشكال قديم. انظر بهذا الخصوص رسالة تظلم أبي علي اليوسي إلى السلطان مولاي إسماعيل ضد جُباته لما قال "فلينظر سيدنا، فإن جُباة مملكته قد جرّوا ذيول الظلم على الرعية، فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ، ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا. أما الدنيا فقد أخذوها. أما الدين فقد فتنوهم عنه. وهذا شيء شهدناه لا شيء ظنناه. ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم. فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكل ما يزيّن له الوقت. فإن كثيرا من الدائرين به طلاب الدنيا، لايتقون الله تعالى ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب". مقتطف من كتاب أبي عبد الله محمد المهدي "النوازل الصغرى المسماة المنح السامية في النوازل الفقهية"، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1992، الجزء الأول، الصفحة 406.

نهاية عهد قراصنة مدينة سلا: بالرغم من كبرها ليس في سلا ما يجذب فضول الزائر الأجنبي. المدينة محمية بقلعة من عشرين مدفع موجهة للبحر. توجد قبالتها مدينة الرباط. كلاهما شكلا وكرين لمختلف أنواع الصعلكة. كانت مدينة سلا بالخصوص ذات يوم مشهورة لدرجة أن العديد من الروائيين تحدثوا عنها في حكايات ممتعة. لكن ما جعلها أكثر شهرة هم أولئك القراصنة الرهيبون الذين أبحروا من مينائها لاجتياح البحر، والذين كانوا معروفين فقط بأسماء قراصنة سلا. ظل هؤلاء الكاسحون للبحار يشكلون لفترة طويلة رعب التجارة في أوروبا. وكانوا، بما عرفوا به من الرهبة بفعل جرأتهم ووحشيتهم، هم سادة المحيط، وكان نهبهم يمتد ليصل حتى إلى الشواطئ.

من دون هدف آخر سوى النهب، كانوا يقومون بالعمليات الأكثر بسالة للاستيلاء على غنائم ضخمة. وما كان القتل يحرج أولئك الأوغاد. إن لم يقتلوا ضحاياهم فليس من باب الإنسانية والشفقة، بل فقط لبيعهم كعبيد مميزين إلى بعض الأفارقة المترفين. ولما كانت كل من سلا والرباط تزرع الرعب بسبب قراصنتها كانتا مستقلتين. كانتا تدفعان جزية ضئيلة للإمبراطور، وبالكاد كانتا تعترفان بسيادته عليهما. حالة الاستقلال هذه، التي تمتع بها المغامرون الجريؤون، كانت بفضل بسالتهم غير العادية. قليل من الرجال يهتمون بخوض مثل تلك المغامرات وبالتعرض لمثل تلك الأخطار الجسيمة من أجل الحصول على مثل هذه الحرية التي لا توفر أي نفع ملموس والتي لا يمكن حتى الحفاظ عليها.

الإمبراطور سيدي محمد أخضع المدينتين لدولته. شكل ذلك ضربة قاصمة للقراصنة بسبب فقدانهم الأمل في حرية الاستمتاع بما كانوا يغنمون. قمع الإمبراطور تلك التصرفات بشدة وأدانها أمام الأمم الأوروبية. ومنذ أن توقف نشاطهم المقيت امتلأ المرفأ بالرمال فلم يعد بإمكانهم ممارسته حتى في حال ما استعادوا حريتهم. وانتهت بذلك القرصنة بسلا.

النظافة: يعتقد بعض الفلاسفة المعاصرين أن النظافة التي يلاحظها المرء عند شعب يمكن أن تكون مقياسا لدرجة حضارته. وإذا ما كان ذلك صحيحًا بالتأكيد لصار المغاربة في المرتبة الأولى، لكن فقط في حال ما امتثلوا لتعاليم نبيهم. إلا أنه بالرغم من تأكيده على كثرة الوضوء حتى جعل منه فريضة دينية فلا شيء يشير إلى أنها متبعة بدقة. فالملابس التي يجب غسلها كثيرًا، نادرًا ما يتم تنظيفها[34]. هل نتفاجأ مع كل هذا الإهمال لأنفسهم أن يكون من الصعب عليهم تنظيف بيوتهم؟

لا يدخلون بيوتهم وهم يرتدون أحذيتهم. ولا يسمحون لأنفسهم برمي القمامة سواء داخلها أو بالقرب منها. لكن من عجيب المفارقات التي يعج بها العقل البشري لا يزيحون من الشارع القمامة التي تُلقى فيها وتتراكم. هكذا يرتفع مستوى الأرض بشكل مذهل في معظم أحياء مراكش لدرجة أن المباني الجديدة تظهر أعلى بكثير من المباني القديمة[35].

البيوت: من مسافة معينة منازل المدن تُشبه مجموعة من القبور. مدخل كل بيت ليس له مظهر مميز. ولا يكاد يوجد منزل يرتفع من فوق الطابق الأرضي. كلها مطلية باللون الأبيض من الخارج. تستخدم النساء أسطحها مثل النوافذ الإنكْليزية للقعود ولاستنشاق الهواء النقي. من فوق هذه المباني يمكنك التجول بنظرك في المدينة بأكملها تقريبًا من دون النزول إلى الشارع.

عندما يقوم المرء بزيارة بيت مغربي يجب أن يتوقع أن يُحتجز أولاً في قاعة تكون دائماً في مقدمة الفناء. لا يخرج منها الغرباء حتى يتاح الوقت الكافي لاختفاء نساء رب البيت، ثم يتم إدخالهم إلى قاعة الاستقبال. غرف النوم لا تحتوي على مدافئ[36]. فوق الأبواب تُرى بعض المنحوتات الغريبة. ويتم الطهي في الفناء على مواقد طينية.

من الخارج مساكنهم مبنية من دون خطوط مستقيمة ومنتظمة. تمتاز فقط بصلابتها. كيفية صناعة قوالب الطوب لتشييد أجمل معالمهم المعمارية هي المهارة الوحيدة التي بقيت لهم في حرفة البناء. قوالب الطوب عبارة عن عجين من الرمل والتراب والحصى الصغير الذي يُترك في الهواء الطلق حتى يجف ويتحول إلى إسمنت صلب كالصخر.

مساكن المغاربة أقل راحة وبكثير من مساكن جيرانهم الإسبان. وذلك بالرغم مما فيها من زينة النقوش والزخارف المتقنة كتلك التي نراها بأوروبا. إذا استضافك مغربي فستجده جالسًا أرضا على وسائد وساقاه متقاطعتان وفي فمه غليون

[34] قد يكون ذلك صحيحا بالنسبة للفئات الفقيرة من دون الفئات الميسورة.

[35] يقصد بذلك أنها بنيت فوق تراكم أزبال متقادمة. ولا يزال يحصل هذا في أحياء الفقراء من دون أحياء الأغنياء.

[36] وكأنه ينظر إلى ما يرى أمامه في المغرب ويقارنه على الفور بما هو عليه الحال ببلده. المدافئ حتى يومنا هذا لا توجد بصفة عادية سوى في المناطق الجبلية. أما في باقي البلاد فهي من المحسنات والكماليات وليست من الضروريات ولا حتى من مجرد الحاجيات. الملابس والأغطية الدافئة تكفي فيها للوقاية من برودة الشتاء.

التدخين[37]. الوسائد التي يتكئ عليها بارتخاء مغلفة بقماش جيد جدًا، وموضوعة على الأرض وأحيانًا على حصير من الجوخ. السجاد الذي يمتلكه المغاربة في شققهم متواضع نوعًا ما. توجد هناك ساعات حائطية محاطة بإطارات جلدية. ومن مظاهر الفخفخة تبطينها بجلد الأسد أو النمر[38]. لمنح هذه الشقق الجميلة كل الروعة التي يمكن أن تتمتع بها، تجدها مؤثثة بأسرّة من خشب الكاجو ومن فوقها أفرشة مغطاة بقطعة قماش بيضاء. يتم وضع هذه الأسرّة، التي تستخدم فقط كزينة، في الزوايا الأربع للشقة. شريعة محمد تحرم الرسوم بجميع أنواعها. فلا ترى منها أي شيء في منازلهم. ومع ذلك عرفت أحد سكان مراكش الذي كانت لديه لوحة زيتية جميلة وكان يخفيها في بيته ويظهرها فقط لأصدقائه.

من باب حسن الضيافة يتم تقديم الشاي للشخص الذي يزور أحد أصدقائه. يتم إحضاره دائمًا من دون اهتمام بالوقت. ويتم تقديمه على مائدة ذات أرجل قصيرة جدًا. ويخلط الشاي في مراكش بأوراق النعناع. عندما ينقع هذا الخليط جيدًا، يُسكب في أكواب خزفية هندية رائعة، وصغيرة بشكل ملحوظ. يقدم الشاي من دون حليب أو قشدة[39]، لكن مع بعض الحلويات أو الفواكه الجافة. يُظهر المقدار القليل من الشاي الذي يتم تقديمه في كل كوب مدى تقدير المغاربة له. يستمر تناول الشاي لمدة ساعتين على الأقل. لكن فقط الأغنياء هم من يستطيعون شربه بسبب ندرته في البلاد.

وبمجرد أن يكون الطقس جميلا ينشر أحدهم حصيرا أمام بابه. ويجلس عليه ضيوفه في شكل دائرة وأرجلهم متقاطعة وهو يتوسطهم، والعبيد على استعداد لتقديم الشاي الذي يشرب أثناء التدخين وتبادل أطراف الحديث[40]. الشوارع مليئة في بعض الأحيان بهذه المجموعات. تُلعب هناك لعبة لها علاقة كبيرة بالشطرنج، لكنها ليست مثيرة للاهتمام. معظمهم يدخنون ويشاهدون المارة. وإذا التقى شخصان أو ثلاثة وأرادوا الدردشة للحظة معًا، بدلا من المشي، فإنهم يجلسون في أول مكان متاح للتحدث في راحة.

الطعام وآدابه: هذا البلد لا يعرف استخدام الكراسي والطاولات والسكاكين والشوكات[41]. المغاربة يستخدمون أصابعهم للهجوم على طابق الطعام. أوقات الوجبات منتظمة ويتم الالتزام بها بدقة. يتناولون الفطور عند الفجر. الرجال والنساء يأكلون بشكل منفصل. لا يُسمح للأطفال بالجلوس على طاولة والديهم[42]. لديهم فقط طاولة الخدم. ومن نواح كثيرة لا يكاد هؤلاء الخدم يعاملون بشكل أفضل من معاملة العبيد.

يتم طهي عشاء الناس العاديين في قدر من الطين. ويقدم في طبق من خشب يوضع بين من يأكلون وهم جالسين أرضا في شكل دائري وأرجلهم متقاطعة مثل الخياطين. قبل لمس الطعام يجب غسل اليدين كما هو عام بين المغاربة. ثم يتم الهجوم بقوة على ما يوجد في الطبق.

في بيوت الأثرياء، يأتي الخادم بالماء لغسل الأيادي قبل الجلوس لتناول الطعام. ومعه حق في التشبث بهذه العادة في بلد لا يعرف استعمال لا السكين ولا الشوكة لتناول الطعام. وليس من غير المألوف رؤية ثلاثة أو أربعة ضيوف يمزقون بأصابعهم نفس قطعة اللحم وهم يأخذون كرة الكسكسو إلى الفم بأصابع اليد. هذه هي الحياة العادية للمغاربة الذين يعيشون في المدن. الفقراء الذين يعيشون على الصدقات يأكلون الخبز والفاكهة فقط. ومن ليست لديهم بيوت ينامون في الشارع.

عادة التدخين: التدخين يسرّ المغاربة كثيرا. يبلغ طول الغليون عادة أربعة أقدام[43]. رأسه من الطين. يتألق الإمبراطور والأمراء بروعة الغليون الذي رأسه من الذهب الخالص. وبدلاً من الأفيون الذي تحبه هذه الشعوب بشغف والذي لا يمكنهم استخدامه عادةً بسبب الرسوم الهائلة التي ترفع من سعره باهظا، فإنهم يأخذون الشيشة المنقوعة في الماء[44]. يؤكد المغاربة أنها تمنحهم الإحساس بالحبور، وتسكر من يشربها بإفراط، وعندما لا يستطيعون الحصول على الشيشة، يخلطون مع التبغ الخاص

---

[37] تعميم بلا شك مبالغ فيه، اللهم عند الفئة المترفة التي غالبا ما كان هذا الطبيب يزور بيوتها.

[38] كل تلك الأوصاف تؤكد بأنه يتحدث عن بيوت تلك الفئة المترفة التي غالبا ما كان في اتصال معها

[39] وهو يخاطب في كتابه القارئ الإنكْليزي المتعود على خلط الشاي بالحليب أو القشدة.

[40] مرة أخرى الحديث هنا عن الفئات المترفة التي تعود الطبيب على مخالطتها.

[41] الخطاب موجه دائما للقارئ الإنكْليزي المتعود على تلك الأمور.

[42] ربما فقط بالنسبة للعائلات الميسورة التي عندها خدم.

[43] لعله خطأ في الترجمة من الإنكْليزية إلى الفرنسية. ويتعلق الأمر على الأرجح بالبوصة وليس بالقدم. فيكون طول الغليون هو أربع بوصات أي عشر سنتيمترات.

[44] مع الأسف لم نعثر على النسخة الإنكْليزية للتحقق من صحة الترجمة. الشيشة كما وصفها المترجم شرقية وليست مغربية. وقد يكون بعض كبار القوم من الحجاج قد عادوا بها معهم من المشرق فرآها هذا الطبيب تدخن عندهم.

بهم عشبة تسمى عندهم الكيف. الدخان الناجم عنها يمنحهم أفكارًا مبهجة جدًا. يحظر القرآن صراحة النبيذ والمشروبات الروحية. ورغم هذا، هناك عدد قليل من المغاربة الذين يشربونه عندما تسنح لهم الفرصة.

الموسيقى والشعر: المغاربة مولعون بالموسيقى، كما أن البعض منهم يتذوق الشعر. نغماتهم رتيبة لأنهم يفتقرون إلى ذلك التنوع في الأوزان التي تشكل سحر موسيقانا المثالية[45] (هكذا!). ومع ذلك، يجب أن نعترف بأن لديهم بعض الألحان التي تطرب السامع، والتي تذكرني بالأنغام الإسكوتلندية المتميزة. شعر أغانيهم لا يتحدث سوى عن الحب، بالرغم من أنه لا توجد أمة في العالم أقل شغفا به. لكنه أسوأ من موسيقاهم. المزمار هو أحد الآلات المفضلة عندهم. ذاك الذي يستخدمونه يفتقر إلى المفاتيح التي نستعملها. لديهم أيضًا الماندولين الذي يحصلون عليه من جيرانهم الإسبان. آلاتهم الأخرى هي الكمان ذو الوترين والطبل التركي والناي والدف.

يتم الاحتفال في أيام الابتهاج الكبير والأعياد بلعب هذه الموسيقى المصحوبة بطلقات نارية من البنادق الصادرة عن الجنود على الأقدام وعلى ظهور الخيل. ويكثر فيها أكل الكسكسو. ويكثر فيها الدجالون والبهلوانيون على اختلاف أنواعهم. وتحتفي بهم الجماهير الغفيرة بشكل جيد وبسذاجة كبيرة.

أحوال الطرق ووسائل النقل: المغاربة لا يستعملون العربات للتنقل[46]. يحملون أمتعتهم على ظهور البغال أو الجمال. فلا يعبؤون بشق الطرق. والقديمة منها مهملة. لا أدري إن كان من السهل إقناعهم بأن العناية بالمسالك البرية ستحسن من ظروف أسفارهم وستقلل من كلفتها. والقناطر لقطع الأنهار قليلة وكأنهم لا يحسنون بناء الأقواس الحجرية[47]. يعوضونها بالمراكب لكن فقط في جنبات الموانئ البحرية. الإزعاج بسبب التوقف المتكرر من جراء تيار الأنهار من دون وسائل لقطعها، والمسالك البرية الرديئة والصعبة التي تعترض المسافر تقريبا في كل مكان أمور تجعل التنقل في هذا البلد البدائي محزنا وخطيرا. لا أحد يسرّه أن يكون فضوليا لخوضه لمّا يعرف أنه من بداية الإمبراطورية حتى نهايتها سيشرب ماء رديئا مع عدم اليقين من توفره دائما[48].

بشكل عام المغربي يتنقل على الأقدام. ويكف عن ذلك بمجرد أن يمتلك الوسائل للحصول على حصان أو بغل. البغال مفضلة عندهم على الخيول. الأثرياء يتسابقون على شراء أسرعها. وذلك من مظاهر ترفهم وأبهتهم. وأضيف أن الرجل المترف لديه أيضًا الكثير من الخدم يمشون من حوله. عددهم يتناسب مع منزلته ومنبته.

سوف نشفق كثيرًا على هؤلاء الرجال ذوي الشجاعة غير العادية الذين يقومون بخدمة البريد في الإمبراطورية. أحوالهم بائسة بشكل فظيع. ومع ذلك، بعد أن يناموا أرضا بضع ساعات يستأنفون مسيرهم لنقل إرساليات الحكومة ورسائل الأفراد على بعد ثلاثة وأربعمائة ميل بمعدل ثلاثين إلى أربعين ميلاً في اليوم. لا يتناولون أي طعام في الطريق سوى القليل من الخبز وبعض التين مع شرب الماء والنوم تحت شجرة. من منا لن ينبهر ويتعجب من رؤيتهم يخوضون هذه السباقات الصعبة في كل فصول السنة؟

من المعروف أن سعاة البريد الذين أتحدث عنهم منضبطون للغاية. تعوّدهم على قطع أربعة أميال في الساعة وعلى عبور الجبال وعلى العثور على المسارات الأسرع، تجعلني أؤكد، من دون شك، أن هذا البلد يعرف كيف يختار المزيد من مثل هؤلاء السعاة الحثيثين. هم موجودون في جميع المدن. المثال الذي سأذكره سيعطي فكرة عن سرعة مسيرهم. كان أحد هؤلاء السعاة قد قطع عدة مرات في مدة ستة أيام مسافة حوالي ثلاثمائة وثلاثين أو ثلاثمائة وخمسين ميلاً[49] الفاصلة بين مراكش وطنجة.

الإمكانيات الفلاحية والمنجمية المعطلة: بعبوري هذا البلد الجميل ما وسعني سوى أن آسف حقا على رؤية كثرة الأراضي غير المزروعة والتي لا تتطلب سوى سواعد رجال يعملون بجد لإنتاج ثروات لا تنضب. بالرغم من ذلك إنتاج القمح وافر بكثرة هائلة يتم معها تصديره للأقاليم الجنوبية من إسبانيا. ومن الصعب تصور كيف يضطر عاهل هذا البلد لتقديم هدايا إلى إمبراطور المغرب كي يسمح لرعاياه بحمل القمح مع منتوجات أخرى لتصديرها إلى إسبانيا عبر طنجة وتطوان. كيف يمكن

[45] المسألة مسألة الذوق الذي تربى عليه الشخص. حتى يومنا هذا قد نجد من كبار الفنانين من لا تطربهم الموسيقى الكلاسيكية كما تطربهم المقامات الشرقية.

[46] لأن العجلات تحتاج إلى طرق معبدة التي لا تعلق في الحفر أيام الصيف وفي الوحل في الشتاء. ولم يعرف المغرب الطرق المعبدة إلا من بعد عهد الحماية سنة 1912.

[47] اللوم لا يوجه لعموم الشعب وإنما للسلطات للمخزن الذي كان يستخلص منه كل أشكال الضرائب.

[48] يعمم في حين هو لم ير من المغرب سوى مدنه الشاطئية من طنجة إلى موڭادور علاوة على مراكش وتارودانت وما بينهما.

[49] يعني مسافة 570 كلم تقريبا

تفسير ذلك الأمر العجيب؟ هل أراضي المغرب أخصب من أراضي إسبانيا لدرجة تنتج معها كميات زراعية تفوق الاكتفاء الذاتي بالرغم من سوء حال الفلاحة فيها؟ أم أن الكسل والخمول أقوى عند الإسبان مما هما عليه عند المغاربة؟

لاحظت في غابات المغرب تواجد شجر البلوط القصير بثمار كبيرة الحجم ومن دون المرارة الموجودة في بلوط أوروبا. وفي جنوبه وجدت النخيل وشجر اللوز الذي تستخرج منه كميات كبيرة من الزيوت يتم تصديرها إلى الخارج. رأيت فيها كذلك العديد من الأشجار والنباتات الموجودة بإسبانيا والبرتغال. القطن والشمع والعسل والصمغ العربي والملح كلها منتجات مغربية.

يحتوي باطن جبال الأطلس على الكثير من معدن الحديد. لكن المغاربة لا يستفيدون منه لأنهم لا يعرفون طريقة استغلاله. الأمر الذي يضطرهم لاستيراده مصنعا من أوروبا. وقد تم اكتشاف النحاس بجهة تارودانت وحتى الذهب والفضة بجبال الأطلس. لكن يقال بأن الإمبراطور منع استخراجها. ولا أصدق ذلك. البربر في تلك الجبال الذين لا يخضعون لحكمه إلا اسميا كانوا سيستولون على تلك الكنوز لو اكتشفت حقا. ومع ذلك فمن المحتمل جدا أن جبال الأطلس تحتوي في باطنها على معادن نفيسة. لكن خمول رجال هذا البلد وإبعاد الأجانب عن مصادر تلك الثروات الهائلة سيظل يحول لزمن طويل دون الاستفادة منها.

مناخ المغرب جميل جدا. لكنه يتعرض لفترات جفاف كارثية بسبب ما يترتب عنها من أسراب الجراد المدمرة. ليس للمزروعات ومختلف النباتات من مخرب ومدمر أخطر وأشرس منها. سنة 1778 ظهرت بأعداد رهيبة غطت السماء. وفي سنة 1780 عمت البلاد وتسببت في مجاعة مروعة ومهلكة. شوهد فيها الناس البئيسين يموتون من الجوع بالأزقة. آخرون كانوا يحفرون الأرض بحثا عن الجذور لأكلها. ومنهم من كانوا يبحثون في فضلات الجراد عما تبقى فيها من حبوب القمح التي ابتلعتها بنهم ولم تبق طويلا في معدتها كي تهضم.

بمناسبة هذه الكارثة العامة فتح الإمبراطور خزائنه من الحبوب ووزع القمح والمال على رعاياه. وكل من وُجد عنده مخزون من المؤن تم إجباره على اتباع مثله. هذه الوقائع حديثة جدًا ويحتفظ الناس بذكريات مؤلمة عنها، لدرجة أنهم لا يتوانون عن التحدث عهنا للأجانب الذين يسافرون إلى بلادهم.

غياب التعليم الحديث والصناعات المتطورة: الطباعة ممنوعة تمامًا في المغرب[50]. يمكن أن نعزو السبب إلى القلق الدائم الذي يؤرق الطغاة ويجعلهم يخافون من فضح فساد حكومتهم. والصحافة هي النبع الذي يوقظ روح الأمم. وما دام هذا الاكتشاف السعيد غير معروف للأفارقة، فسيظلون في حالة الجهل والعبودية. معظم المخطوطات التي كانت بحوزة المسلمين مفقودة. تلك التي لا تزال موجودة عندهم تتعلق بعلم التنجيم وعلم الفلك والطب. ولا يتم الاهتمام من بينها سوى بعلم التنجيم. أما بالنسبة لمعرفة العالم فليس لهم منها سوى ما يكتسبونه في رحلة الحج إلى مكة. ويجهلون بشكل مطلق تاريخ الأمم الأجنبية. لا يتم الحديث معهم عنها مثل ما لا يتم الحديث عندهم عن مبادئ نيوتن[51] العلمية.

وباستثناء اليهود المغاربة الذين لديهم معرفة ببعض من الصناعات والمهارات الموجودة في بلادنا الأوروبية، فإن العلوم والفنون تكاد تكون غير معروفة تمامًا في المغرب. فيمكن وضع المغاربة في مصاف الشعوب المتخلفة جدًا في الحداثة. لذا تمارس عددا صغيرا فقط من الحرف الميكانيكية. كفاءاتهم الضئيلة في إدارة الأعمال تجبرهم على أخذ المشورة من اليهود متى ما أرادوا ممارسة التجارة.

---

[50] كان هذا سنة 1789. في حين أول كتاب مطبوع في أوروبا بحروف متحركة كان هو كتاب "القواعد اللاتينية" سنة 1451. طبعه مخترع آلة الطباعة الألماني ڭوتنبرك.

المطبعة لم تدخل المغرب إلا في وقت متأخر، قياسا مع تركيا وبلدان المشرق العربي. وكان القاضي محمد ابن الطيب الروداني المتوفى سنة 1865 هو أول من جلب للمغرب أول مطبعة بحروف اللغة العربية عام 1864. جلبها من مصر خلال رحلته للمشرق لإداء الحج. ووصلت الآلة إلى ميناء الصويرة. وسميت الآلة "المطبعة السعيدة". وكان كتاب الشمائل المحمدية أول كتاب طبع بالمطبعة السعيدة. إلا أن هناك أدلة تثبت بأن المغاربة تعرفوا على الطباعة قبل تلك الفترة بوقت طويل، من خلال الحجاج والعلماء المغاربة الذين كانوا يمرون ببعض بلدان المشرق في طريقهم إلى الحجاز، وخاصة مصر، حيث كانوا يعودون من رحلاتهم بالكتب المطبوعة، وكان بعض هؤلاء العلماء يحمل معه كتبه إلى القاهرة لطبعها هناك، نظرا لغياب الطباعة بالمغرب.

[51] إسحاق نيوتن Isaac Newton (1642 - 1727) عالم إنڭليزي يعد من أبرز العلماء مساهمة في الفيزياء والرياضيات عبر العصور وأحد رموز الثورة العلمية.

كثير من الصناع في الإمبراطورية متعلقون بنسيج ما يسمى بالحايك، وهو عبارة عن رداء من الصوف أو من القطن وحتى من الحرير. يرتديه المغاربة ككساء خارج البيوت. فقط في فاس يتم نسج مناديل من الحرير أو من قطن من نوع خاص. سجادات المغرب لا تقل جودة عن سجادات تركيا. تصنع في البلاد أيضا حصائر جميلة من جريد النخيل وورق رديء. كما تتم صناعة بارود المدافع بجودة متواضعة وسبطانات[52] البندقية من حديد بسكاية[53].

المغاربة لا يعرفون صناعة المدافع. والعدد القليل منها عندهم مستورد من أوروبا. والشيء نفسه بالنسبة للزجاج. وهم ليسوا في حاجة إليه، نوافذ بيوتهم من دون زجاج. حتى صناعة الزبدة عندهم لا تشرف. تستخرج من قشدة اللبن بنخضه في قربة من جلد المعز. وعند أكله يبقى دائما مختلطا بشعره ومن دون مذاق. وجبنهم ليس بأفضل. تقتصر صناعته عندهم على تجفيف القشدة المخثرة. خبزهم جيد بطنجة وتطوان لكنه مقيت في غيرهما.

من دون معرفة بصناعة المضخات وبالنظر لبعد الينابيع فإن العديد من الأهالي يضطرون لجلب الماء من صهاريج بالقرب من الأنهار. يُحمل الماء في قرب من الجلد مدهونة بالقطران حتى لا تسيل. الأمر الذي يعطيها مذاقا مقيتا. المحاريث وأدوات النجارة والنسيج وحتى الحدادة لا تزال تُصنع بشكل فظ وخشن مثل تلك التي كانت تستعمل في أوروبا منذ زمن طويل[54]. مصنوعاتهم صلبة بما يكفي، لكنها من دون ذوق. لا يستخدمون العربات لأنه ليست لديهم طرق. ينقلون كل شيء على ظهر البغال والجمال. مبانيهم مشيدة بدون أي قواعد هندسية لديهم فقط ميزة صنعها بقدر كبير من الصلابة. طريقة تحضير الملاط الذي يستخدمونه لأجمل مبانيهم هو الموهبة الوحيدة التي بقيت لهم في البناء. تلك كانت أحوال الشعوب حين لا تزال تفتقر إلى معرفة تحسين جودة الأشياء عند بدايات تحضرها.

التجارة الأوروبية بمرفأ موكَادور: موكَادور كما يسميها الأوروبيون أو الصويرة عند المغاربة مدينة كبيرة مشيدة تشييدا منتظما. توجد على شاطئ المحيط الأطلسي، وتبعد عن طنجة بثلاثة مائة وخمسين ميلا. ضواحيها عبوسة ومغطاة بالرمال. يدخل المرء هذه المدينة فقط بالمرور تحت أقبية حجرية كبيرة من تحتها الأبواب. السوق محاط بأروقة. إنه منتظم وجيد البناء. الجمارك والمخازن مباني جميلة على رصيف الميناء. إلى جانب هذه المباني يمتلك الإمبراطور قصرًا نادرًا ما يشغله. إنه ذو هندسة معمارية حديثة ولكنه صغير جدًا بالنسبة للملوك.

تصطف شوارع موكَادور في خط مستقيم، لكنها ضيقة للغاية. المنازل مختلفة جدًا عن تلك الموجودة في مدن أخرى في المغرب وعالية جدًا. خليج المرفأ ليس آمناً. تعاني السفن هناك بشكل كبير من الرياح الشمالية الغربية، فهي محمية فقط بجزيرة صغيرة يمكن رؤيتها على بعد ربع ميل من شاطئ البحر. يتم الدفاع عن هذا الخليج بحصن مليء بالمدافع. موكَادور محصنة من جهة البحر. ولها بعض المدافع من جهة البر لحمايتها من عرب الداخل المشاغبين على الدوام والذين يعلمون ما تحتويه المدينة من ثروات من شأنها أن تغريهم بنهبها.

شُرع في بناء المدينة في عهد الإمبراطور سيدي محمد. وأمر جميع التجار الأوروبيين بكل الأقاليم بالتوجه إليها لممارسة نشاطهم فيها. ولتشجيعهم على ذلك منّاهم ببعض التخفيضات في الرسوم. الأوروبيون الذين أغرتهم تلك المكرمة تركوا مؤسساتهم الأولى وأنشأوا أخرى بموكَادور. لكن المزايا التي توقعوا جنيها من هذه الرحلة كانت وهمية، حيث أن الإمبراطورلم يف بأي من وعوده. بل زادت الضرائب بدلا من أن تتناقص. وانعكست تداعيات هذه السياسة السيئة على التجارة التي ظلت متردية في موكَادور.

لكن سياسة خلفه التي كانت أفضل ولا سيما الهدايا التي تلقاها من التجار الأوروبيين أسفرت عن بعض التحسن. إلا أن الضرائب ظلت باهظة ومتنوعة بدرجة يصعب عليّ معها القول بدقة مقدار الرسوم المضروبة في هذا الميناء على كل بضاعة. مركز التداول بالمدينة يتكون من إثنى عشر دار تجارية من مختلف البلدان. لا يتعرض فيها التجار لأي إزعاج، مع العلم أنهم يؤدون ثمن التمتع بذاك الأمان غاليا. ومن مصلحتهم الابتعاد عن المغاربة.

يقومون بتصدير البغال إلى أمريكا، ويرسلون إلى أوروبا جميع أنواع الجلود والصمغ العربي والسندري وريش النعام والنحاس وشمع خلية النحل والصوف وأنياب الفيل والتمر والتين والعنب والزيتون والزيوت والحصائر الجميلة والسجادات الرائعة إلخ... ويستبدلون هذه السلع باستيراد أخشاب البناء والبارود والمدافع والثوب والقماش والرصاص وسبائك الحديد

[52] السبطانة هي الجزء الأنبوبي من الأسلحة النارية أو المدافع.
[53] منجم حديد بإسبانيا
[54] للتذكير المؤلف يتحدث هنا عن أحوال المغرب سنة 1789 بالمقارنة مع ما كان حينها موجود بأوروبا.

وجميع أنواع الحلي مثل المرايا والساعات والسكاكين الصغيرة إلخ... مع الشاي والسكر والتوابل والأشياء الأخرى التي لا تنتجها هذه الإمبراطورية.

الموريسكيون لا يقتصرون على المتاجرة مع الأوروبيين، بل لديهم علاقات تجارية بواسطة القوافل مع غينيا والجزائر وطرابلس والقاهرة الكبرى ومكة. وتوجد سانتا كروز[55] على منحدر هضبة في منتهى سلسلة جبال تقسم الإمبراطورية إلى جزئين وتسمى جبال الأطلس. كانت هذه المدينة في ملك البرتغاليين. وظلت أكبر مستودع لبضائع الأوروبيين إلى حين عهد سيدي محمد. هي الآن خالية، ليس فيها شيء عدا بعض البيوت الآيلة للخراب. ظهر لي أن مرفأها أكثر أمانا من مرفئ موڭادور. وبما أنه أقرب للمناطق الجنوبية من الإمبراطورية اتعجب من عدم تفضيله على غيره في المعاملات التجارية.

9. سيدي محمد وطبيعة حكمه.

التجار الأوروبيون المستقرون بموڭادور منحوني الفرصة المواتية للاطلاع على طبيعة الحكم في هذا البلد. بالنسبة لهم سيدي محمد كان يمتلك العقل الطبيعي الذي كان من شأنه أن يجعل منه ملكًا عظيمًا لو أنه تلقى تعليمًا أفضل. لكن قلة العناية بهذا الأمر كانت مصدر ما نبت في قلبه من خرافات وجشع. وسلطته المطلقة جعلته يستأنس بمشاعر التعصب التي تميز بها في جميع الأوقات الأمراء المغاربة وما كانت لتشرفهم. جشعه منذ شبابه، جعله يشغل نفسه طوال حياته بجمع الثروة. ولهذا فقط بدا وكأنه يمنح التجار الأوروبيين تحفيزات أكبر مما كان يفعله أسلافه. من بعد التودد لهم كان يخدعهم باستخدام أكثر الوسائل عسفا للحصول على أموالهم. كان يفرض ضرائب باهظة على سلع التصدير لدرجة أنهم كانوا يفضلون في كثير من الأحيان إعادة سفنهم إلى أوروبا فارغة. بل في عدة مناسبات كان سيدي محمد يقوم بالأعمال التجارية بنفسه. كان يرسل من يشتري البضائع من أوروبا ليعيد بيعها عبر يهود أقاليم بلاده بخمسة إلى ستة أضعاف قيمتها. باختصار، كان مشغولاً فقط بسحب كل ذهب رعاياه إلى خزائنه. حتى أنه كان يشتري به أحيانا السلم الداخلي لاعتقاده بأن الحروب لا تغني الحكام وإنما تؤدي بهم إلى الإفلاس.

لعل الموريسكيين توقفوا عن تطوير أنفسهم منذ أن طردوا من إسبانيا فافتقدوا بذلك ما كان عندهم من مختلف الفنون والعلوم. حينها كانوا يتمتعون بكل مزايا الأمة المستنيرة، في حين كانت غالبية أنحاء أوروبا منغمسة في الجهل والوحشية. ضعف حكامهم واستبدادهم جعلاهم يتقهقرون بشكل فظيع. كل المشاعر التي من شأنها أن تسمو بالروح وتوقد العبقرية اختفت. وهذا الشعب الذي كانت له قيمة بالأمس صار شرذمة متوحشة.

لا شيء أكثر عرضة للخطر تحت الحكم الاستبدادي من الجاه والثروة. كان السلطان السابق يعمل على تأكيد ذلك. كان يُرقي الجندي البسيط إلى رتبة باشا ويتخذ منه حتى السكرتير المقرب، وما أن يستاء منه حتى يسلبه في الحين كل ما اكتسبه من منصبه. ويكون المغضوب عليه سعيدا جدا إذا ما توقفت العقوبة عند سجنه. أليس من دواعي الاستغراب تواجد رجال طموحين ومتلهفين لجمع الثروات في بلد حيث تلك السمات تؤدي إلى مخاطر كبيرة؟ ومع ذلك فتلك هي طبيعة هذا الشعب المتعطش للذهب واللاهث وراء ولوج المقامات الأولى في الإمبراطورية. وما هو غير عادي مطلقا هو تصرف أصحاب تلك المناصب السامية. في الحقيقة، يقومون بكل ما من شأنه أن يفقدهم حسن نية سيدهم عندما يستخفّون بثقته وبسلطانه.

أحيانا، ما كان يكتشف السطان أن أحدًا من رعاياه قد جمع ثروة هائلة، حتى يسلبها منه بحجة أو بأخرى، خوفًا من أن يستخدمها لمساعدة أحد أبنائه على الإطاحة به[56]. في مثل تلك الظروف كانت الحكمة تقتضي منه أن يبقي الجميع في نفس المستوى المتواضع. ومن يتميز بامتلاك أموال أكثر من غيره لا يكون على يقين من الاستمرار في امتلاكها حتى يوم الغد. فما يبقى للغني من حيلة للإفلات من الإفلاس سوى إخفاء ثروته والظهور بمظهر البساطة وحتى البؤس. لكن ما أن يُكتشف حتى يخسر كل ما يملك.

الأشخاص الذين يتمتعون ببعض الحرية في هذا البلد، إن جاز استخدام هذه الكلمة عند الحديث عن المغرب، هم التجار الذين ينعمون بالسكن في مدن بعيدة عن عاصمة الإمبراطور. منازلهم وحدائقهم المنسقة بذوق رفيع وبيوتهم المزينة بالمرايا

---

[55] أو أڭادير

[56] بخلاف ملوك أوروبا الذين كان يعرف ولي عهد كل منهم الشرعي وفق قوانين ثابتة، فغالبا ما كان السلطان بالمغرب لا يخبر بمن سيخلفه من بين أبنائه سوى في الوقت الذي يكون فيه طريح فراش الموت. وكل من كان منهم يطمع في الحكم ويشك في حظوظه كان يسعى لاستعجال مبتغاه بالتمرد على والده للإطاحة به، ويتم ذلك أحيانا بمساعدة الرعايا الأثرياء الذين يفضلونه على والده وينتظرون منه مزايا في المقابل في حال ما استلم العرش. الأمر الذي أفقد البلاد الاستقرار السياسي اللازم للتنمية والتقدم.

وأواني البورسلين وغيرها، وأخيرًا الاستقبال الجيد الذي يقدمونه للأجانب، كل هذا يشير إلى أنهم أكثر أمانا من غيرهم، وأنهم يعرفون أفضل بكثير من بقية السكان ما يسهم في توفير ملذات الحياة والاستمتاع بها.

لكنهم، بسكناهم بعيدا عن عاصمة الإمبراطور، ليسوا في مأمن من إجحاف الضغط الضريبي، بل ليسوا في مأمن حتى من الابتزاز الذي يعم البلاد. في حال ما وَجد الباشا أو القايْد الحاكم بالمنطقة ذريعة لسجن الشخص المترف، وهو الأمر المعتاد من دون أي شكل من أشكال القضاء العادل، يصبح الضحية مشتبها به عند الحكومة، فتتم تصفية كل ممتلكاته من دون محاكمة.

هكذا تحت ثقل الاستبداد وقسوة القمع، فقد المغاربة كل فكرة عن التصنيع والمضاهاة فيه. وبما أنهم غير متأكدين من قدرتهم على الاستمتاع بثمار ما يبذلونه من جهد، فإنهم يعملون فقط للحصول على ما يكفي للعيش. وإذا ما بذل أحدهم المزيد من التفاني في العمل وحصل بثماره على المزيد من نعم الحياة، فإنه يحرص كثيرا على إخفائها حتى لا تتعرض لنهب الحكام. ومع شدة الخوف من اعتبارهم أغنياء، وهو الأمر الذي يعانون منه باستمرار، تجدهم يحرمون أنفسهم من وسائل الراحة في العيش وحتى من الضروريات، فيكنزون ما توفر لهم من أموال.

وعلى الرغم من كل العناية التي يبذلونها لإخفاء ثرواتهم عن الباشوات الذين يقودون المقاطعات فنادراً ما يفلحون في ذلك. وحالما تُكتشف فسرعان ما توجد وسيلة للاستيلاء عليها. ولكي يسكت الإمبراطور على هذا الابتزاز الرهيب يتم إشراكه فيه. وهذه الضرورة التي يجب على المغاربة أن يحيطوا بها دائمًا جميع أفعالهم مع أقصى درجات السرية تجعل روحهم مشحونة بالريبة وبالكتمان. ومن يتعود على الخداع مبكرًا، فمن الصعب ألا يتطبع بممارسة الكذب طوال حياته. هكذا توجد في كل مكان من إمبراطورية المغرب أمثلة صارخة على سوء التدبير وعلى الآثار الكارثية للحكم التعسفي.

الانتفاضات القليلة التي تجلت في عهد سيدي محمد كانت أقوى دليل على موهبته في حكم شعب مستعد دائمًا للثورة. إذا اندلعت شرارة تمرد في إحدى المقاطعات، فسرعان ما يتم نهبها من قبل القوات المرسلة لإجبارها على الطاعة. وكان يتم القبض على قادة العصيان وإرسالهم إلى مراكش حيث كانت تصدر في حقهم أحكام بالإعدام أو بقطع أوصالهم. أما الأتباع فكانوا يتعرضون للجلد بالسياط. وكان الإمبراطور حريصًا على توظيف الجنود الذين كان يثق فيهم كي يراقبوا التحركات الشعبية. باختصار، كان يتخذ إجراءاته بشكل جيد لدرجة أنه ما كان أبدًا معها يخشى انتفاضة خطيرة على سلطته.

كان سيدي محمد يستخدم مع الملوك الآخرين نفس التمويه الذي كان يمارسه في ولاياته للحفاظ على سلطته. ولكي يرضخ لمطالب عادلة من دولة مّا، كانت تلك الدولة في حاجة إلى تقديم هدايا لجعله يفي بالتزاماته. ومع ذلك، غالبًا ما يحدث أنه بعد أن تغدق عليه من الذهب، كان يجد بعض الحيل حتى لا ينهي أي شيء. ولما لم يدفع الملوك الذين اشتروا منه السلام على وجه الدقة الجزية المفروضة عليهم كان يهددهم بإعلان الحرب عليهم عما قريب[57]. ولو كان الملوك يعرفون جيدا نقاط الضعف في شخصيته، لما كانوا خائفين من تهديداته. في الحقيقة لقد كان يرتجف من إثارة حفيظة أعدائه. ولكن عندما كان يجدهم مستعدين لمنحه كل شيء في مقابل السلام، ما كانت تعرف طلباته حدودًا. كان يضاعفها ليبدو أكثر رعبا ولإعطاء رعاياه فكرة عالية عن قوته وسياسته.

كان سيدي محمد يتميز ببساطة كبيرة في زيه. وما كان أبناؤه يجرؤون على الظهور أمامه سوى بأبسط الملابس. وعلى عكس تقاليد المغاربة الذين يخلعون عمامتهم عند النوم، فإنه كان يجبر المسلمين على كشف رؤوسهم في حضرته. وما استثنى أبناءه من هذه القاعدة للاحتفاظ بهم ملتزمين بالخضوع المطلق. فكانوا، عند دخولهم على الإمبراطور، يحيونه بالركوع بوجوههم منحنية صوب الأرض، وهم يصيحون باللغة العربية قائلين ما معناه ... حفظ الله الملك[58].

إذا نزل كبرياء الإمبراطور قليلا في بعض الأحيان للحديث بشكل مألوف مع حاشيته ففقط لسماع إطرائهم الذي كانت خطاباتهم موسومة به. وكان يسره شرح بعض آيات القرآن وإظهار جمالها. كما كان يكرس نفسه قبل كل شيء لإلهام أكبر قدر من عدم التسامح مع المسيحيين الذين كان يعتبرهم ألد أعدائه.

كان لديه غرور الرغبة في أن يُنظر إليه على أنه متعلم في كل شيء. كان هذا الهوس يجعله يتحدث إلى التجار الأوروبيين عن المصانع الأجنبية وعن تجارة الدول المختلفة. وإذا استقبل ةيركسع ةيصخش فإن محادثاته تدور حول

---

[57] سلاحه في مثل تلك الحروب كان هو إطلاق يد القراصنة في سفنهم التجارية بالقرب من شواطئهم. وتلك كانت إحدى أنواع الحروب المتبعة حتى بين الدول الأوروبية.

[58] تلك كانت مرة أخرى التحية المعروفة ب "الله يبارك في عمر سيدي"، والتي أشكلت بلا شك ترجمتها على اليهودي المرافق للطبيب المؤلف.

التحصينات ومناورات الحرب. وإذا تعامل مع بحار، فقد كان يرسم أمامه خريطة شواطئه وموانئه. وقد صب كل اهتمامه على توفير جيش بري جيد. أما عنايته بالبحرية فقد كانت أقل.

طقوس وتقاليد الاستقبال الإمبراطوري: سيدي محمد يستقبل الأجانب ويمرر جزءا كبيرا من الشؤون العامة بباحة القصر وهو يمتطي ظهر فرس أو جالسا على كرسي متحرك. في بداية عهده كان يستقبل الأجانب في غرفة خاصة. الأمر الذي كان يجبرهم على الالتزام، وفق عرف البلاد، بالظهور في حضوره من دون حذاء. لكن أوروبيًا سيئ المزاج رفض أن يخضع لمثل هذه الآداب السخيفة. فقرر الإمبراطور استقبال الزوار في الهواء الطلق. قبل ذلك، وجد الرهبان الإسبان المقيمون في المغرب طريقة لإعفاء أنفسهم من خلع أحذيتهم أمام الإمبراطور، عندما ظلوا يرددون على مسامعه أن علامة الاحترام هذه لا يمكن أن تكون إلا لله. فلم يعد يجرؤ على مطالبتهم بها.

عندما يريد أوروبي أو حتى مغربي أن يتم قبوله في استقبال الإمبراطور يجب أن يبدأ بتقديم هدية لأحد وزرائه. وبهذا التمهيد يشرح حاجته. ولكن إذا لم تعتبر الهدية الأولى كبيرة بما فيه الكفاية فإن الشخص الذي قدمها لا يتلقى أي إجابة. فيلجأ إلى وزير آخر بدلاً من تقديم هدية أخرى أفضل. ومع ذلك يبقى من الضروري في كثير من الأحيان استخدام هذه الطريقة مع اثنين أو ثلاثة وزراء حتى لا يتم إبعاده. ويتم أيضًا إرسال الهدايا إلى السلطانات اللائي يتلقينها بسعادة كبيرة. وهذا الطريق هو الأكثر أمانًا والأسرع.

وحينما تكتمل الإجراءات الرسمية الأولى، أي بعد تقديم الهدايا، تنتظر أحيانًا وقتًا طويلاً من أجل المقابلة التي تطلبها. وإذا أرسل إليك الإمبراطور للحضور على عجل، فليس دائمًا لسماع قضيتك. على العكس من ذلك، فهو يستمتع بتحطيم آمالك بتركك ثلاث أو أربع ساعات متتالية في إحدى باحات القصر، ثم ينتهي بإخبارك أنه آسف لكونه مضطرًا إلى إرسالك من حيث أتيت من دون رؤيتك. وقد تتكرر هذه المسرحية المزعجة عدة مرات.

إن بطء تصريف الأعمال، وجرأة وجشع أصحاب المقامات السامية، بلغت كلها الحد الأقصى. وأولئك الذين، لسوء حظهم، يضطرون للتعامل مع المغرب يجب أن يتسلحوا بصبر لا ينضب. الإمبراطور لا يمنح أبدًا أي شيء، حتى لأبنائه، من دون تقديم هدايا. ويجب أن تكون متناسبة مع المنفعة التي يريد المرء الحصول عليها، وإلا قوبل الطلب بالرفض المؤكد.

ومن بعد الحصول على المقابلة تتبعك مجموعة من الأشخاص الذين لا يتركونك حتى يفرغوا جيبك. فتجد في مقدمتهم مدير التشريفات، ثم يأتي الخدم وحراس جميع الأبواب وعددهم لا يحصى. لديهم جميعًا الحق في مطالبتك بشيء مما عندك. وفي الحقيقة ليست لدينا الجرأة على تحديهم. ونعذرهم لما نعلم أنهم لا يتلقون أي راتب، وأنه ليس لديهم أي مورد آخر للعيش.

بالرغم من موافقة الإمبراطور على منح الشيء المطلوب فلا يجب أن نصدق أن القضية قد انتهت. إن الحصول على التنفيذ أصعب من الحصول على المقابلة. كان سيدي محمد يبطئ إبرام الصفقات التي يقصده التجار لطلبها، وذلك بسياسة غاية في التنقيح. كان يعلم، من خلال الاحتفاظ بالأجانب في المغرب، أنه يسهم في إثراء وزرائه. وبما أنه كان متأكدا من أن أموالهم ستصل في النهاية إلى خزائنه ما كان يتحرج من منح مصاصي الدماء الوقت الكافي لابتزاز هؤلاء الأجانب. ووزراء سيدي محمد يعلمون من جانبهم تساهل سيدهم مع الابتزازات التي يرتكبونها في حق التجار الأجانب. فلا يضعون حدا لأي من أعمالهم إلا مقابل تحفيزهم بهدايا كبيرة جدًا. هكذا، في مناسبات عديدة، وجد تجار أوروبيون أنفسهم محتجزين لسنوات كاملة في المغرب، لأنهم لم يدفعوا ما يكفي من المال لعملاء هذه الحكومة.

في بداية عهده لما كان سيدي محمد ينعم بجميع ملكاته الجسدية والمعنوية، تفرغ للاستمتاع بوقته لدرجة أنه لم تكن لديه الشجاعة للعناية بأي شأن من شؤون الدولة. فاستولى وزراؤه على كل سلطته. ولكن في السنوات الأخيرة من حياته، عندما استُنفِدت قواه، وغيّرت الشيخوخة عقله ومزاجه، أراد أن يحكم بنفسه. وسرعان ما صار هذا الهوس سخيفًا في عيون أولئك الذين اقتربوا منه كما أصبح أمرًا مؤسفًا لرعاياه.

الكتبة الذين كانوا يكتبون ما يمليه عليهم رأوه يرتكب أخطاء فادحة. لكنهم ما كانوا ليجرؤوا على تنبيهه. كانت تصدر عنه في أي لحظة أوامر متناقضة. الأمر الذي كان يتسبب في ارتباك الإدارة التي أصبح من الصعب التعايش معها. إذا، لم تقدم الإمبراطورية المغربية في أيدي أفضل ملوكها سوى مجموعة من التناقضات والجهل، فكيف كانت قبل سيدي محمد؟ في الواقع بالكاد كان لها مظهر من مظاهر الدولة.

وبما أن سيدي محمد ما كان يفعل شيئًا سوى من أجل إثارة إعجاب رعاياه، وأن الأجانب لم يغفلوا أبدًا عن الإشادة بكل ما كان يقوله، لحد أنهم كانوا يبدون منبهرين بمواهبه وبعبقريته، كان هو يمتلئ اعتزازا بنفسه ويشعر بأن كل ذلك الإطراء لن يؤدي إلا إلى زيادة في حسن رأي رعاياه فيه وفي جدارته عندهم.

ولكن عندما يقارنه المرء بأسلافه، سيضطر إلى الموافقة على وضعه في مقام سام من فوق الأمراء الذين حكموا قبله. لم يكن عنده ابدا ابتهاج بقسوة القلب. إذا أصدر على عجل، في حالة من الغضب الشديد، أحكام الإعدام، فسرعان ما كان يعرب عن خالص أسفه. كان دائمًا على حذر من الآثار السيئة لعواطفه العنيفة. لكن مستشاريه كانوا يحولون دون هذه الحركة الأولى التي كانت تدفعه إلى الصفح.

كان يحرص على تحقيق العدالة بحيادية طالما لم يكن ذلك ضد مصالحه. كان يفسح الطريق لكل شيء في سبيل إرضاء جشعه. فكان من السهل عليه جدًا انتهاك جميع القوانين علنًا في كل ما يتعلق به، لكن ما كان يتحمل من رعاياه أن يحذوا حذوه.

وعلى الرغم من حبه المفرط للمال لم يكن يذخره في ضائقة عامة. إذا حلت المجاعة كان يقدم مساعدة وفيرة للمعوزين. العدد الهائل من الفقراء الذين كانوا يتغذون كل يوم على باب قصره، والذين شاهدتهم بنفسي، يثبت أنه لم يخلو من المشاعر الإنسانية. وكان التجار المغاربة يثنون على التشجيع الذي قدمه لأعمالهم التي لم تشهد مثيلا لازدهارها سوى في عهده. لذلك كان هذا الملك مركبًا مذهلاً من السخاء والبخل، من الإنسانية وعدم التسامح، من الوداعة والقسوة. في الحقيقة أعتقد أن الطغاة وحدهم هم من يستطيعون الجمع بين الكثير من المتناقضات في قلوبهم.

إن الأمراء الذين يحكمون الشعوب المتحضرة يخضعون لأشكال معينة من الحكم تقمع أي ميل عندهم لفعل الشر. وفي حال ما حصل أن مالوا، بسبب المزاج أو تأثير المناخ، إلى إساءة استخدام سلطتهم، فإن هذه المأساة لا تدوم لفترة طويلة، لأن الملوك في أوروبا يفهمون مصالحهم جيدًا حتى أنه لا يمكنهم أن يكونوا سعداء إلا بفعل المعروف وتحقيق العدالة[59].

إن أفضل الحكومات هي تلك التي لا تحتاج أبدًا إلى استخدام القسوة، والتي يخضع فيها ملكها، مثل الرعايا، لقوانين حكيمة. من هو ذاك الرجل المثالي بما يكفي كي يعرف كيف يستمتع بالسلطة المطلقة باعتدال؟ أذهاننا كثيرة التذبذب، وأفق أنظارنا قصير جدًا وأهواؤنا شديدة العنف والطغيان، بحيث أكثر الأمراء كمالا ينبغي أن يخاف من سلطة لا حدود لها. ينبغي أن يخشى دائمًا من سوء استخدامها.

إذا كان من شيء سيُحدث تغييرًا سعيدًا في أذهان المغاربة فيمكن أن يكون هو ذلك الإمبراطور المستنير الذي ستضعه العناية الإلهية على العرش. حينها من شأن تقديسهم لملوكهم أن يجعلهم مطيعين جدًا لسياساته المتحررة من الأفكار الوحشية التي تسيء إلى الإنسانية. لكن قد تمر عدة قرون قبل أن يخترق شعاع من هذا النور مثل تلك المناخات المظلمة.

الجيش: على الرغم من عيوب في تشكلته، يبقى الجيش المغربي هو أقوى داعم للعرش. لكن يحدث أحيانًا أنه يصبح هو ألد أعدائه بسبب ولعه بالجديد وتعطشه للمال. الجنود هم أول محركات الفتن التي تهز الحكومة. قد يبيعون ولاءهم لمن يدفع لهم أكثر ومن يمنحهم الأمل في مصير أفضل. وأهم ما ينشغل به الملك الذي يعرف مدى سهولة شرائهم واستمالتهم بالذهب هو بإفقار عظماء إمبراطوريته الذين قد يغريهم ثراؤهم بإفساد جيشه.

إن ارتباط المغاربة بملكهم ضعيف للغاية، ولديهم رغبة في التغيير لدرجة أنه سيكون دائمًا عرضة لخطر خلعه من عرشه. ليس ذلك لأن لديهم أدنى فكرة عن الحرية. يتمردون للتخلص من طاغية من أجل الخضوع لنيْر آخر. أملهم في مجرد استبدال طاغية وحشي بآخر أقل قسوة يجعلهم يضحون بكل شيء لإحداث الثورة.

الباشا والقايْد والقاضي: يعين الإمبراطور الباشوات الذين يقودون المقاطعات، وينتمي هؤلاء عادة إلى طبقة المغاربة المتميزة. في بعض الأحيان يرسل أبناءه إلى تلك المقاطعات. أولئك القادة المعينون يتم عزلهم عند ارتكابهم أدنى خطأ ويتمتعون بسلطة غير محدودة تقريبًا. يمكنهم إنزال أي نوع من العقوبات باستثناء الموت. يفرضون الضرائب ويفرضون الغرامات وينهبون الناس من دون أن يجرؤ أحد على الشكوى.

---

[59] يقول الطبيب هذا في نفس سنة 1789 التي قامت فيها الثورة الفرنسية ضد النظام الملكي وبعد مرور قرن من الزمن على الثورة المجيدة سنة 1689 بأنڭلترا بلده، والتي كرست نهائيا نظام الملكية البرلمانية، وفقط بعد أربع عشرة سنة على انتزاع جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية الديمقراطية سنة 1776 استقلالها من أنڭلترا الوطن الأم بسبب تعسف برلمانها على المستوطنين الإنڭليز هناك.

السرقات من جميع الأنواع التي يرتكبها الباشا تتضاعف لدرجة أن المرء قد يعتقد أن نهب الناس هو أحد المهام الرئيسية لمنصبه. ولكن ما الفائدة التي يجنيها من هذه اللصوصية حين ينتهي الأمر غالبا باستيلاء الإمبراطور على الكنوز التي جمعها عن طريق النذالة والابتزاز؟ فحالما يتم إبلاغ الإمبراطور بأن الباشا قد أصبح ثريًا على حساب المقاطعة التي يحكمها، يسارع إلى اتهامه بارتكاب أخطاء ويضعه في السجن حسابا له على سلوكه. ولكن في انتظار محاكمته لا يتوانى أبدًا عن الاستيلاء على كل ما كان في حوزته. وإذا نجح الباشا في تبرئة ساحته، فإن منصبه يعود إليه، ولكن من دون استرجاع ثروته. بل يتم سلبه مرة ثانية إذا عاد لجنون جمع الثروة بعد الدرس الذي تلقنه.

أما حاكم المدينة فيدعى "القايْد". والقواد يخضعون للباشا مثل الأعوان المنوط بهم نفس السلطة في الدواوير أو مخيمات البدو الرحل. كل من هؤلاء يحمل اسم الشيخ. لديهم في مناطق نفوذهم، نفس السلطة التي للباشوات في المقاطعات. لكنهم لا ينعمون بها مرتاحي البال، فالإمبراطور لا ينفك من إزعاجهم بشتى الطرق علاوة على ما يعانونه من سوء أمزجة الباشوات.

والقايْد منوط بالسلطة المدنية والعسكرية في المدينة التي يعهد إليه بحكمها. يتم إعطاؤه عددًا معينًا من الجنود تحت إمرته للحفاظ على النظام العام، كما أنه يستخدمهم لاستخلاص الضرائب ولاعتقال المجرمين ولإيصال مراسلاته إلى البلاط ولتبليغ أوامره في حدود منطقته.

بصفته قاضيًا، يفصل القايد في كل القضايا الجنائية: يعاقب المذنب، ويمكنه حتى أن يحكم عليه بالإعدام. إذا فكر المرء في العواقب الخطيرة لمثل هذه السلطة الهائلة فسرعان ما سيرى أن التجاوزات ستكون هائلة ومستمرة تقريبًا، في بلد لا يُحسب فيه للعدل والشرف إلا القليل. يدين القائد شخصًا بائسا بسبب أدنى خطأ، ليس فقط بالضرب المبرح والسجن، ولكن أيضًا بدفع غرامة لصالح خزينته الخاصة أو بدفع هدية تعادل قيمتها غالبًا نصف ما يمكن أن يكسبه المرء طيلة حياته. وليس من غير المألوف أن ترى اتهامات باطلة ضد الأفراد من أجل الحصول على الحق في قشطهم. فهذا هو خطر السلطة المطلقة التي يمكن أن يساء استخدامها مع الإفلات من العقاب.

يمكن إعلان براءة الشرير الذي ارتكب أكثر الجرائم شناعة وشهرة من خلال السخاء بمبلغ من المال إلى القايْد. وإذا كان حاذقا، فبإمكانه حتى إنزال العقوبة التي يستحقها بمن يتهمه. في القضايا المدنية عليك أن تدفع ثمناً باهظاً مقابل امتياز الحصول على حكم جيد أو سيئ. وهذه المصيبة لا تخص المغرب وحده.

ويساعد القائد في مهامه حاكم أو نائب محافظ. مكتب هذا النائب لديه بعض التشابه مع مكتب الشرطي في إنڭلترا. بالإضافة إلى هذين القاضيين يوجد قاض مدني في كل مدينة وهو في نفس الوقت إمام المسجد لأن الوظائف المدنية لا تنفصل عن الواجبات الدينية في القرآن.

عند وجود أي نزاع بين الأفراد في المسائل القانونية، سواء فيما يتعلق بالديون أو القسمة وما إلى ذلك ... فإن من يعتقد أن لديه سببًا للشكوى يلجأ إلى القاضي الذي يحكم في القضية وفقًا لأحكام القرآن. في حالة عدم وجود القاضي، يمكن للطلاب[60] الذين هم رجال الدين من الدرجة الأدنى أن يحكموا مكانه. إذا استعان الطرفان بمحامين، يتم تقديم الالتماسات كتابيًا. لكن يحق للمتقاضين الترافع في قضيتهم. بالنسبة لهذه الأنواع من القضايا، لا يتم دفع أجور للطلبة الذين يصدرون أحكامًا بالنيابة. لكن تحل محلها الهدايا.

رئيس القضاة هو المفتي المكلف الأعلى بالشؤون الدينية. لا يتدخل في الأمور القضائية. وكل من يعتقد أن قضيته قد تم الحكم فيها بشكل سيء، من حقه استئنافه أمام الإمبراطور نفسه. لهذا الغرض، يتم تقديم طلب إليه عندما يعطي جلسات استماع علنية لتصحيح أخطاء العدالة. وقد كان من شأن هذا العرف أن يخفف من الشرور التي يسببها الاستبداد في حال ما كان الملك يقضي بنزاهة. ولكن يحدث دائمًا أن الهدايا الهائلة التي كانت تقدم له كانت تحدد حكمه. هذا التحيز لصالح الأثرياء والمعروف لدى الناس، علاوة على المسافة الكبيرة التي كانت تفصل بين عدة مقاطعات عن مقر الحكومة كانت تمنع العديد من المتقاضين المتضررين من استئناف دعاواهم لدى محكمة الإمبراطور.

[60] الطالب هنا ليس هو مجرد حافظ القرآن الذي يسترزق من تعليم الصغار في الكتاب القرآني، بل الذي يكون قد درس علاوة على ذلك العلوم الشرعية ببعض المدارس المختصة والتي قد يصبح المتخرج منها بتفوق قاضيا أو على الأقل كاتبا أو عدلا أو مدرسا في مثل تلك المدارس.

10. تزلف الأوربيين لسيدي محمد

بعد كشف سلوك سيدي محمد مع الحكومات الأجنبية، فليس خروجا عن السياق إبداء بعض الملاحظات حول سياستهم المتخاذلة معه. بادئ ذي بدء، ما يدهش أكثر هو رؤية الأمراء الأوروبيين تابعين أبديين لهذا المستبد الضعيف. مثل هذا الخضوع الطوعي والمخزي لا يمكن أن يُعزى إلا إلى نقص كبير في الاهتمام بمصالحهم أو إلى جهل لا يمكن تفسيره. لا شك في أنهم كانوا سيتجنبون ذلك لو بذلوا جهدًا للتفكير قليلاً في قوة هذا البلد الذي ليس لديه أسطول حربي ولا جيش يستحق أن يحمل هذا الاسم، والذي ليس لشعبه أدنى حماس.

ما الذي يمكن أن نخافه من إمبراطور المغرب الذي قلص أسطوله البحري بأكمله إلى عدد قليل من الفرقاطات الصغيرة ومراكب ذات مجاديف سيئة التجهيز بل وحتى سيئة الرياسة؟ يتكون سلاح الإمبراطور البحري من حوالي خمس عشرة فرقاطة، وعدد قليل من الخدود، وعشرين إلى ثلاثين سفينة مجدافية، ويقوده أميرال. لكن نادرا ما تستخدم اللهم في القرصنة. في الواقع، لا يمكن أن تكون ذات فائدة حين تجمع في أسطول. عدد البحارة العاملين في خدمة البحرية العسكرية يصل إلى ستة آلاف. فيمكن تدمير كل شيء في يوم واحد بواسطة فرقاطتين أو ثلاث فرقاطات أوروبية جيدة. باستثناء موانئ طنجة والعرائش، مداخل باقي موانئ المغرب، كما سبق أن لاحظت ذلك، صارت مليئة بالرمال، لدرجة أنه لن يكون من الممكن المرور منها في القريب العاجل سوى لقوارب الصيد والمراكب الصغيرة جدًا.

لا يتم تحصين أي من مدن الإمبراطورية بانتظام. موكَادور هي الوحيدة التي توجد في حالة دفاع، إذا ما جاز تسمية ذلك المكان حصنا، حيث سيكون من الصعب العثور على نصف دزينة من المدفعيين المدربين تدريباً كافياً لوضع مدفع على منصته. ومع ذلك فإن هذه القوة هي المسيطرة على جميع سواحل البرتغال وإسبانيا. بل يمكننا أن نقول إنها، بطريقة ما، هي سيدة مدخل البحر الأبيض المتوسط. وإذ ا كانت لا تزال موجودة ففقط لأن لا أحد يهتم بها. فلماذا شراء الهدنة مع سيدها بهدايا سخية؟ إنها طريقة سيئة تلك التي تتطلب الإغداق عليه بالذهب للحماية من هجمات قراصنته. بل من شأنها فقط أن تغذي جشعه الذي لا يشبع. إذا أعطيناه اليوم فرقاطة، فغدًا سيرغب في الحصول على أخرى. كلما منحناه زاد عدد طلباته. ألم ندرك أنه لا يمكن أن نحقق السلام مع الشعوب الهمجية إلا بفرضه عليهم بالقوة؟ عندما تُظهر لهم الحزم تجدهم مستعدين ليصبحوا أصدقاء لك. فبدلاً من البحث عن صداقة سيدي محمد، لو أعلن أحدهم الحرب عليه بصراحة، واستولى على مدينتين أو ثلاث من مدن إمبراطوريته، ولا سيما موكَادور التي كان يعتز بها كمنشأة من عمله، لكان من الممكن أن نراه قريبًا يقبل جميع الشروط التي تفرض عليه.

11. متاعب سيدي محمد مع الأمير مولاي يزيد

نشعر ـ نحن الإنجليز ـ بمزايا الملكية الوراثية عندما نفكر في كل الشرور المترتبة عن الملكية بالاختيار. في المغرب لا يوجد ترتيب بين أبناء السلطان لتحديد ولي العهد من بينهم، ومن حق الإمبراطور اختيار أي منهم ليخلفه قبيل موته. لكن هذا الامتياز يصبح من دون جدوى في حال ما لم يكن الأمير المحظوظ مدعوما من الجيش ومن أصدقائه المخلصين. هكذا يبقى العرش في الأخير من نصيب الأقوى من بين الأمراء. الأمر الذي يشكل كارثة بالنسبة لعموم المغاربة. لقد رأينا في أوقات مختلفة تلك الثورات الدموية تهز الإمبراطورية وتقضي على العديد من سكانها.

سيدي محمد من دون منافس له على العرش تمتع بعهد يعمه السلم الذي لم يتوفر لمن سبقوه[61]. والزمن هو الذي أظهر لنا ماذا كان مصير البلاد مع الأمير مولاي يزيد الذي كان يطمع في خلافته. هل كونه الإبن البكر شفع له في ذلك عند إخوته الذين لهم نفس الطموح؟ لهذا فإن رغبتي في إضافة بعض الخصائص التي ميزت وفاة الإمبراطور، والمشاجرات التي تسببت فيها بين أبنائه لتقاسم تركته، دفعتني إلى طلب إجازة لمدة شهرين والعودة إلى طنجة. فحصلت على الإذن بالذهاب إلى هناك وعلى أخذ جميع المعلومات التي كنت أرغب في الحصول عليها. وغادرت جبل طارق مرة أخرى عائدا إلى هذه الأرض اللعينة التي أقسمت على عدم رؤيتها مرة أخرى.

مولاي يزيد الذي يحكم البلاد اليوم كان هو الإبن البكر لسيدي محمد وكانت أمه ابنة مرتد[62] إنجليزي. ثروة هذا الشاب التي جعلها والده متواضعة للغاية، صارت لا تسمح له سوى بتوظيف أربعة أشخاص لخدمته. وقد اكتسب تقدير الجميع بفضل ذكائه وحسن سلوكه. مع مثل هذا الاعتبار الذي كان يتمتع به، كان بإمكانه أن يقول كلمة واحدة كي يجد تحت تصرفه ما يكفي

---

[61] يقصد الطبيب بذلك ما حصل من بعد وفاة مولاي إسماعيل واشتعل الصراع على خلافته بين ستة من أبنائه.
[62] يعني أسلم من بعد ما كان مسيحيا

من الجنود والأموال لتشكيل خطر على والده. لكن احترامه للإمبراطور وربما سياسته أبقياه دائمًا في حدود الواجب. لم يكن لديه ما يكسبه من افتعال ثورة شعب كان سيحكمه قريبًا لما يدعوه حقه بالبكورة إلى العرش من بعد موت الإمبراطور الطاعن في السن. لكن سلوكه الحكيم والمعتدل لم يطمئن والده، فظل الإمبراطور العجوز يخاف منه على عرشه وضاعف ذلك من شدة همومه.

فأرسل الأمير مولاي يزيد إلى مكة لإبعاده عن البلاد. لكن سرعان ما انتشرت الشائعات التي تقول بأنه كان يقترب من الحدود على رأس جيش لخلع أبيه. حينها انزعج منه الإمبراطور بشدة. ولم يطمئن إلا عندما علم أن مولاي يزيد كان بعيدًا عن التفكير في خلعه لما تراجع إلى تونس. إلا أنه بعد فترة من الزمن عاد سراً إلى البلاد ولجأ إلى الحرم الذي يُدعى ضريح مولاي عبد السلام[63] ومن دون أن يفكر دائما في خلع والده. بل فضل المقام في هذا الملجأ فقط لأنه لم يكن بعيدًا جدًا عن مراكش، حتى يستطيع الظهور هناك بمجرد أن يموت والده. وهو الأمر الذي ما كان ليتأخر كثيرا مع تقدم الإمبراطور في السن ومع ضعف صحته.

لم يرغب مولاي يزيد في تخويف والده منه. فاحتفظ فقط بأربعة من الخدم المخلصين. مثل هذا السلوك الحكيم كان ينبغي أن يطمئن السلطان العجوز. لكن لا شيء كان يمكن أن يهدئ من مخاوفه. فاستخدم ألف حيلة لإخراج ابنه من الحرم الذي صار فيه آمنا على نفسه. فصار يقول له إن هو رغب في العودة إليه فسيحظى من جديد بكل عطفه، وسيوافق على تلبية جميع طلباته. في وقت آخر حاول إغراءه بإخباره أنه إذا كان يفضل العيش في بلد آخر كمكة أو تركيا فإنه سيجعل مقامه فيه رائعًا بما يكفي كأمير.

وعندما رأى أن مولاي يزيد رفض كل مقترحاته اللطيفة استخدم الإمبراطور التهديد بمهاجمته في الحرم وإخراجه منه بالقوة، متحديا بذلك حرمة ضريح مولي عبد السلام الذي لا تنتهك ذمة من لجأ إليه. فتلقى حراس الضريح أوامر من الإمبراطور بطرده وإلا ضُربت أعناقهم بحد السيف مع أعناق كل أهالي الجوار. وخوفا من هذا التهديد الرهيب تم إبلاغ مولاي يزيد بإرادة الإمبراطور حتى يقرر المغادرة، وأشاروا عليه بالتوجه إلى حرم مقدس آخر حيث سيكون آمنًا. وهنا سأروي حكاية من شأنها أن تعطي القارئ فكرة عن ذكاء وحنكة مولاي يزيد.

مستفيدًا من عاطفة وسذاجة هؤلاء الأشخاص الخرافيين، وعدهم بالمغادرة إذا ما وافقت السماء على ترك هذا المكان المقدس الذي أرسلته العناية الإلهية إليه. وتظاهر على الفور بالاستسلام التام لقدره وامتطى حصانه أمام حشد غفير من الناس. ولكن كم كانت دهشتهم كبيرة لما رأوا حصان الأمير يمتنع عن المضي قدمًا، على الرغم من إجهاد سيّده عليه بالسوط وبالحافز. مستفيدًا حينها من الصدمة التي أوقعت فيها هذه الحيلة المشاهدين، صرخ قائلاً: "ترون بوضوح أن الله يأمرني بالبقاء هنا. لذلك لا يمكن لأي قوة على وجه الأرض أن تطردني منها". فكان لهذا الخطاب تأثير كبير على الجمهور، لدرجة أنه كان من الأفضل له المخاطرة بإغضاب الإمبراطور بدلاً من جذب انتقام السماء. لو لم يكن مولاي يزيد فارسا ممتازًا ولو لم يكن حصانه قد تدرب جيدًا، فما أدري كيف كان سيتخلص من الحرج الذي وجد نفسه فيه.

وقبل مغادرتي المغرب علمت أنه كان هناك خمسة آلاف إلى ستة آلاف من الجنود السود في الطريق لاعتقاله. لكن قائد الكتيبة ما استطاع تنفيذ هذا الأمر لاشتباهه في طاعة جنوده. وأمام تصرفات الإمبراطور المتأرجحة بين اللين والعنف ظل مولاي يزيد يقدم إجابات غامضة بإيعاز من والدته التي كانت تحتفظ معه بمراسلات سرية. فما كان الأمير يتوانى عن طمأنة والده بخصوص صفاء نواياه وظل يعده بتلبية رغباته لكن من دون الانصياع لها بحجج غامضة وملتوية. بالتأكيد ما كان الإمبراطور سيحاول إيذاء ابنه لو تمكن من القبض عليه. بل كل رغبته كانت أن يؤول العرش من بعده للأمير مولاي عبد السلام الذي كان يخشى على حياته من اقتراب أخيه الأكبر منه.

وكان يحلو لرجال البلاط إثارة قلق الإمبراطور من خلال الترديد المستمر على أذنيه أن مولاي يزيد كان يبحث عن كل الوسائل للإطاحة به. ومما زاد من قلقه التعلق الكبير الذي أبداه كل المغاربة بالأمير. بعد ثلاثة أشهر من المفاوضات التي لم تسفر عن شيء أمر سيدي محمد بتشكيل قوة عسكرية من ستة آلاف زنجي يقودهم الأمير مولاي هشام للقبض على الأمير المتمرد. ووعد من يسلمه له بمكافأة كبيرة. كما أمر القيمين على الضريح الذي احتمى به مولاي يزيد بطرده منه. وفي حال ما عصوه فقد هدد بتدمير الضريح وقطع رقاب كل الأهالي المجاورين له رجالا ونساء وأطفالا.

[63] عبد السلام بن مشيش العلمي (1163 - 1228 م) عالم متصوف عاش في زمن الدولة الموحدية. ولد بمنطقة بني عروس بالقرب من مدينة طنجة وانتقل بعدها للعيش بجبل العلم بشفشاون قرب العرائش. وهناك توفي ويوجد ضريحه.

لكن كان لدى حراس الضريح ما يكفي من الشجاعة والتشدد ليجرؤوا على مقاومة هذا التهديد. من ناحية أخرى لم يكن مولاي هشام متأكدا تمامًا من انصياع جنوده الذين كانوا يخشون عواقب انتهاك قدسية وحرمة ملجأ أخيه المتمرد. بل بلغت مخاوفه منهم لدرجة لم يعد يجرؤ معها على قضاء الليل في معسكره. وصار يذهب للنوم في قلعة طنجة بينما ظل جيشه محصنًا تحت أسوار المدينة.

غضب الإمبراطور بشدة من الضعف الذي أظهره ابنه مولاي هشام في تنفيذ مهمة القبض على الأمير مولاي يزيد المتمرد. فسحب الأمر منه ليعطيه للقائد المسمى عباس. مولاي سليمان، الأخ الشقيق لمولاي يزيد، جلب للقائد المزيد من التعزيزات. عند رؤية كل هذه الاستعدادات، يمكن للمرء أن يعتقد أن الأمر يتعلق باحتلال إقليم. في حين كان الهدف هو فقط اعتقال أمير ليست لديه أسلحة ولا جنود لتهديد والده[64] أو التسبب في فراره.

فقرر الإمبراطور قيادة هذه الحملة العسكرية بنفسه، وأرسل أوامره إلى القائد عباس بعدم القيام بأي تصرف حتى قدومه. اكتفى حينها هذا الجنرال بإغلاق كل المنافذ من حول الحرم حتى لا يستطيع أي شخص مغادرته. وغادر الإمبراطور مدينة مراكش على ظهر فرسه في 29 مارس من سنة 1790 ليستلم قيادة الجيش. حينها حصلت له حادثة ذات أهمية قليلة للغاية ليس فيها شيء خارق للطبيعة ولكنها تركت انطباع شؤم في عقله. فلم يعد يستبشر خيرا من رحلته. سبب ذلك هو مظلته التي كسرتها الرياح وحملتها في الهواء إلى ارتفاع مذهل. والخوف من أن تتسبب له هذه الحادثة في محنة جعلته قلقًا ومهووسا حتى بدا أنها، بالإضافة إلى التعب، عجّلت بلحظة وفاته. فتم وضعه ممدودا على سرير محمول لمواصلة رحلته من أجل القبض على ابنه مولاي يزيد.

12. بداية عهد مولاي يزيد

بدافع العداء للإنجليز قامت حكومة مدريد بتحريض سيدي محمد على منع إرسال حاجيات جبل طارق من المؤن. وبتلبيته لرغبة عدونا[65] لم يأبه إلى أنه كان يلحق ضرراً كبيراً بتجارة المغرب. وعندما كان على وشك السير ضد ابنه مولاي يزيد للقبض عليه فتح عينيه على مؤامرات إسبانيا، ففرض ضريبة كبيرة على تصدير القمح وجميع السلع الأخرى التي جاء الإسبان للبحث عنها في موانئه، بحيث عاد العديد من سفنها فارغا.

لكن قبل وقت قصير من وفاة الإمبراطور تم خداعه من قبل وزرائه لصالح الحكومة الإسبانية التي عرفت كيف تغريهم من خلال إفسادهم بهدايا كبيرة. بقليل من المال حصلت على استيراد كمية كبيرة من القمح من المغرب ومن دون دفع أية رسوم. قيمة ما كانت ستجلبه ضريبة تصدير الحبوب إلى خزينة الإمبراطور كانت تُقدر بخمسة أو ستة أضعاف قيمة الهدايا التي قدمتها إسبانيا لوزرائه والتي اقتسموها فيما بينهم سراً.

ولم تكن الخسارة التي تكبدتها خزينة الإمبراطور من جراء خيانة وزرائه هي الضرر الوحيد الناجم عن الامتياز الذي منحوه خلسة لإسبانيا، بل هناك شيء آخر كان بالإمكان أن تنتج عنه أكبر المصائب. فالجفاف في العام السابق تسبب في ضياع المحصول، فصار المغاربة يتوقعون مجاعة عامة. ولو لم يتم تحذير الإمبراطور من خطر تصدير القمح في وقت كانت ندرته تجعل الناس يتذمرون فلربما تسبب ذلك في انتفاضة عامة في الإمبراطورية. لكنه تفاداها بمنع عمليات النهب التي كانت تتسبب فيها إسبانيا في أقاليم مملكته.

وهو يسير بالجيش للقبض على ابنه الأمير يزيد ظل الإمبراطور يتقيأ بعنف شديد حتى صار يحتضر. ويقال إنه عندما اقترب من نهايته كتب إليه ليخبره برغبته في التصالح معه. وأنا يصعب علي أن أصدق ذلك. لكن القدر قرر ألا يصل إليه. كانت حالته تزداد سوءًا كل يوم فأعطى آخر أوامره. أمر بإعداد ضريح بالرباط لدفن جثمانه فيه في حال وفاته[66]. وتوفي في 9 أبريل سنة 1790، وهي العام الحادي والثمانين من عمره والسنة الثالثة والثلاثين من حكمه.

ومرة أخر نجد أن عرش المغرب من بعد وفاة الجالس عليه ليس بالضرورة من نصيب الأمير الأكبر. بل يؤول لمن اختاره أبوهم ليخلفه، لكنه يؤول في الواقع إلى الأمير الذي لديه أكبر عدد من الأنصار ويتمتع قبل كل شيء بأكبر قدر من النفوذ

[64] بدلا من قول المؤلف "والده الطاغية الذي كان يضطهده". هذا الطبيب ظل حاقدا على سيدي محمد بسبب ما عاناه منه في مراكش، وذلك بقدر ما كان متحيزا لمولاي يزيد باعتبار أمه التي كانت من أصل إنجليزي كما قيل له ذلك وأكده مرتين وبسبب العلاقات المتميزة التي حظيت بها إنجلترا في عهده.

[65] الطبيب يريد أن يقول: "عدونا نحن الإنڭليز"

[66] ضريحه يوجد بعين عتيق بالقرب من الرباط

في الجيش، وبالتالي يمكن اعتبار الملكية بالمغرب وراثية واختيارية في آن واحد. والمال الذي غالبًا ما كان يرجح الكفة لصالح الأمير الذي يملك منه أكبر قدر لا يحدد دائمًا من يعتلي العرش. ونراه بهذه المناسبة لما آل إلى الأقل ثراء من بين أبناء سيدي محمد.

وصل نبأ وفاة سيدي محمد إلى طنجة في 15 أبريل 1790. ومن الملاحظ أنه لا توجد في المغرب مراسيم أخرى لإخبار الناس أن لديهم إمبراطورًا جديدًا غير إعلان عام في الشوارع وفي المساجد. فشوهد حاكم المدينة على الفور وهو يذهب إلى المسجد الكبير لإعلان مولاي يزيد إمبراطورا جديدا. وكرر منادي البلدة هذا التصريح في الساحات وفي جميع الشوارع، مهددًا بأقصى العقوبات من يتجرأ على معارضة أوامر العاهل الجديد. وفي اليوم التالي للإعلان، تجمع سكان طنجة وكبار أعيانها ودعوا الله بالرحمة لروح سيدي محمد وبالبركة لخلفه. في نفس اليوم تم استدعاء عدد من النساء اليهوديات إلى القصر للنواح حدادا على روح الإمبراطور الراحل. وهو ما فعلوه لمدة أسبوع كامل، وهن يطلقن صرخات رثاء مروّعة. كما تم إطلاق واحد وعشرين طلقة مدفعية ابتهاجا بالعفو والإفراج الممنوح لجميع السجناء.

ولما اعتلى مولي يزيد العرش كان عمره حوالي أربعين سنة. كان وجهه مهيبًا وكانت هيئته مبهرة. يرتدي ملابس تركية مزركشة. يقال إن روعة بلاطه تتناقض بشكل صارخ مع البساطة التي سادت في بلاط والده. إنه ماهر بشكل مدهش في جميع التمارين البدنية. وقد تأكدت من أن محادثته كانت بشكل عام ممتعة. تأكد الاحترام والاهتمام الذي كان يكنه لأمه قبل أن يصبح إمبراطورًا. فاستمر في معاملتها بتقدير كبير. ويتعين على زوجات والده مدحه على حسن معاملته لهن. لقد وفر لهن كل أسباب العيش الكريم.

عندما سمع مولاي سليمان والقايْد عباس بوفاة الإمبراطور انسحبا مع جيشهما إلى القرب من سلا، ربما على أمل تشكيل قوة سياسية هناك، لكن لم يجدا فيه أي دعم. مولاي هشام ومولاي الحسين تركهما الإمبراطور من ورائه بمدينة مراكش لينوبا عنه في الحكم أثناء غيابه. ولجعلهم في وضع يمكنهم من العيش بشرف في المنصب الذي أسنده إليهما، فرض على السكان ضريبة قدرها عشرة آلاف رايكسدارات لمولاي هشام وأخرى من خمسة آلاف لمولاي الحسين.

وكان ذلك التمييز مثار خلاف بين الأخوين. غضب مولاي الحسين من تفضيل أخيه عليه وفكر في قتله في نوبة من الغضب. أما مولاي هشام الذي سبق أن عاتبه والده على جُبنه في القبض على أخيه يزيد، لم يُظهر مرة أخرى شيئا من الشجاعة في هذه المناسبة. فحبس نفسه مرتجفا في القصر. ومع ذلك، لما وصله خبر وفاة الإمبراطور شعر ببعض الطموح. وشوهد وهو يغادر القصر ليقدم نفسه للناس على أنه وريث العرش. فأيده بعض عرب الجبال. لكن غالبية سكان مراكش أعلنوا ولاءهم لمولاي يزيد. أعلنته كل الأصوات إمبراطورًا[67]. أما مولاي الحسين، فقد التحق بأخيه مولاي عبد الرحمن الابن الأكبر لسيدي محمد[68] الذي كان يعيش بين العرب في أقصى جنوب سوس. وقيل إنه فر هكذا عندما رأى أن مولاي يزيد، الذي سبق أن قتل له أحد أبنائه، صار هو صاحب العرش.

استسلام مولاي عبد الرحمن: وقد جمع مولاي عبد الرحمن سابقا ثروة كبيرة حرمه منها والده باستخدام المكر للاستيلاء عليها. كيف فعل به ذلك؟ بدأ باستدراجه إلى مراكش، وبعد وقت قصير من وصوله عينه حاكما على سلا. مولاي عبد الرحمن، الذي لم يكن قلقًا من أي شيء، استعد للمغادرة. حزم ماله وكل الأشياء الثمينة التي يمتلكها، وعندما صار كل شيء جاهزًا لرحيله ودعه والده بحرارة. لكن لم يقطع ستة أميال حتى أوقفته مجموعة كبيرة من الجنود وأخذت منه كل ما لديه. هكذا تم تنفيذ الأمر الذي أصدره الإمبراطور في الموعد المحدد، ولم يتبق للأمير سوى مسدس واحد غير صالح للاستعمال. أقسم حينها عبد الرحمن البائس الغاضب من والده ألا يراه مرة أخرى. ولجأ إلى جبال إقليم سوس ولم يغادرها منذ سنوات عديدة. لم يكن الإمبراطور يكرهه، فقام بعدة محاولات مستعطفا إياه كي يعود إلى جواره. لكنه لم ينجح، بل جعل الأمير لا ينسى ضياع كنوزه[69].

ولما علم عرب إقليم سوس بوفاة الإمبراطور كان هناك أكثر من أربعين ألفًا منهم الذين قدموا دعمهم لمولاي عبد الرحمن كي يتولى العرش ويطرد منه مولاي يزيد. ووافق بداية على المقترحات المقدمة له. ولا يمكننا أن نشك في أنه كانت لديه على الأقل لبضع لحظات الرغبة في الحكم. ولتقتنع بذلك ما عليك سوى قراءة الرسالة التي كتبها إلى مولاي يزيد. سأقوم

[67] بفاس إلى حيث رحل على الفور وجلس على العرش.
[68] نسي المؤلف أنه كرر عدة مرات أن مولاي يزيد هو الإبن البكر لسيدي محمد.
[69] وادعى الطبيب المؤلف أن الأمير عبد الرحمن كان يقول لمن أراد سماعه أن والده كان بلا إيمان ولا شرف.

بإدخال هذه الرسالة هنا، والتي إذا لم تكن دليلاً أكيدًا على طموح مولاي عبد الرحمن فستعطي على الأقل فكرة عن أسلوبه الجميل والممتع:

" علمت بوفاة الإمبراطور والدي. وعلمت في الوقت نفسه أنك
خرجت من الحرم حيث كنت مختبئًا وادعيت أنك تجلس على العرش.
فعد مثل الجرذ إلى جحرك، وإلا فسوف أريك قريبًا من هو إمبراطور
فاس وكم أنني لا أعبأ به."

قد يتخيل المرء أن الأمير الذي يصدر هذا التهديد الفج سيجعل نفسه مرعبا لمن تجرأ على وضع التاج على رأسه. ومع ذلك، فقد التزم الصمت. ومما أثار دهشة الجميع أنه كتب بعد فترة وجيزة إلى مولاي يزيد الإمبراطور الجديد يهنئه على توليه العرش ويعرض عليه خدماته. وهكذا، على الرغم من آلاف الصعوبات وجميع المنافسين الذين لديهم حق متساوٍ في التاج، رأينا مولاي يزيد يستولي عليه دون إراقة قطرة دم وبهدوء تقريبًا، كما يحصل في الممالك المتحضرة. بالنظر إلى الاضطرابات التي سبق أن تسبب فيها دائمًا تغيير الحكم في هذه الإمبراطورية فلا يسع المرء إلا أن يشعر بالدهشة من العقبات القليلة التي واجهها مولاي يزيد. هذا هو المثال الأول لأمير جلس بسلام على عرش المغرب.

أحداث مراكش والدار البيضاء: لم يكن على مولاي يزيد سوى إخضاع عدد قليل من قبائل العرب[70] بالأقاليم الجنوبية الذين بذريعة دعم قضية مولاي هشام قاموا بنهب مراكش وإجبار اليهود والمسيحيين على الفرار إلى القلعة للاحتماء من غضبهم. مدينة موڭادور التي أرادوا مهاجمتها كذلك لم تتعرض لنفس المصائب لأنها محصنة بشكل جيد ودافع عنها سكانها بشجاعة بقيادة حاكمهم.

الدار البيضاء، على الرغم من حراستها من قبل كتيبة عسكرية من مائة وخمسين زنجيًا، كانت تنتظر نفس مصير مدينة مراكش. حالما علم أعراب السهل بوفاة الإمبراطور جاؤوا ليشتروا منها كل البارود وكل الرصاص الذي يمكن بيعه في فيها، ناهيك عن الاستخدام الذي أرادوا الاستفادة منه، حتى وجدت المدينة نفسها خالية تمامًا من الذخيرة. عندما رأوها عزلاء تقدموا بأعداد كبيرة حتى وصلوا إلى أسوارها.

الحاكم، الذي انزعج من هذا التجمع الكبير، خرج من المدينة على رأس خمسين جنديًا ليسأل قادة المتمردين عن سبب قدومهم حاملين السلاح، فأجابوا بأنه ليست لديهم نوايا سيئة، وأن أهل البادية اجتمعوا فقط لاختيار الإمبراطور الجديد وأنهم لن يفعلوا شيئًا ضد سكان المدينة إذا أرادوا السماح لنوابهم بالدخول إليها لتقديم رغباتهم. لم يكن لدى الحاكم ما يعقبه على طلب بدا له معقولاً بما فيه الكفاية. فأخبرهم أنه يمكنهم إرسال أبرز نوابهم وأنه سيتم استقبالهم إذا تفرق الحشد على الفور. لم تكترث هذه الجموع من قطاع الطرق بشرط الحاكم، وأصروا على دخول نوابهم إلى المدينة.

وأخيرًا، بعد أن أدركوا أن القايْد كان غير راغب مطلقًا في استقبالهم قبل مغادرة الجموع، وعدوا بالانصراف لكن بشرط أن يحصلوا على ألفي رايكسدارات في الحال. ولو كان الحاكم ضعيفا واستجاب لطلبهم، لصار هؤلاء الأعراب أكثر وقاحة، لكنه بدلاً من منحهم المبلغ الذي تجرأوا على طلبه، أمرهم بالانسحاب، وإلا فإنه سيضربهم بالمدافع من فوق أسوار المدينة. هذا التهديد لم يرهبهم، واقتربوا من المدينة وسخروا من حاكمها المسكين الذي وقع في قبضتهم.

خلال هذه المفاوضات الطويلة كان كل شيء في حالة ارتباك بالمدينة. السكان المحرومون من قائدهم، لم يعرفوا إلى أين يتجهون. لم يروا سوى سوء حظهم من جراء المحاصرة من قبل هؤلاء الأوغاد الذين تحدثوا بالفعل عن القتل والنهب. ولما أصبح الخطر أكبر أدركوا أن المدينة كانت خالية من أي نوع من ذخائر الحرب. في هذا الحد الأقصى للأزمة، لجأ الناس إلى الإسبان الذين كانوا مقيمين بينهم، وكانت لهم تجارة كبيرة هناك. فنصح هؤلاء بإغلاق البوابات ووضع مدفع قديم على المنصة من فوق الأسوار، وهو الوحيد الذي كان صالحا للخدمة. في الوقت نفسه، وعدوا بدفع ثلاثة رايكسدارات لكل من أظهروا الحماس والشجاعة في الدفاع عن بيوتهم. لكن سرعان ما يئسوا من نجاة المدينة عندما تم إبلاغهم أنه لا يوجد مسحوق البارود لشحن المدفع الذي سبق أن واجهوا صعوبة كبيرة في وضعه على المنصة. مفتاح المخزن الذي كانت توجد فيه بعض الأرطال منه كان في جيب الحاكم الأسير عند الأعراب. ولما كان من المستحيل الحصول عليه فقد تقرر كسر الباب.

[70] الطبيب المؤلف يصفهم بالعرب. ولعل المقصود هم "الأعراب". وهم سكان البوادي والبراري، ويطلق عليهم أيضاً أهل البادية. بخلاف أهل الحضر في القرى والأمصار، الأعراب يتتبعون مساقط الغيث ومنابت الكلأ. وأصلهم في المغرب من العرب القادمين من المشرق.

وبمجرد ظهور البارود تم إطلاق طلقة مدفع تسببت في رعب شديد في صفوف الأعراب المحاصرين للمدينة. ومع ذلك، بعد أن رأوا أنه لم يلحق أي ضرر بأي منهم، اطمأنت أنفسهم وبدوا عازمين على كسر أبواب المدينة. لكن الإسبان، الذين يعلق عليهم السكان كل الآمال، أطلقوا طلقة ثانية من المدفع وقتلوا العديد من الأعراب فخاف الباقون الذين تفرقوا في حالة فوضى كبيرة. واستغل الحاكم هذه اللحظة للانفلات من قبضتهم والعودة إلى المدينة مع قواته.

الأعراب الذين تعافوا قليلاً من خوفهم الأول أرادوا أن يروا ما إذا كانت الحيلة ستفيدهم أفضل من القوة. وبالتالي قرروا تقسيم أنفسهم إلى فرقتين. واحدة تسير على يمين المدينة، والأخرى على يسارها. وأرسلت الأولى إلى المحافظ لتؤكد خضوع كل أفرادها ولتقديم خدماتها لمساعدته على القبض على الأشخاص السيئين الذين انفصلوا عنها للتو. لكن الحاكم لم يكن مغفلا كي ينطلي عليه هذا العرض الماكر. لم يكن يريد سماع أي اقتراح. غاضبين لعدم تمكنهم من تحقيق غاياتهم اجتمع الأعراب ليبذلوا جهدًا أخيرًا من جهة البحر. لكن سرعان ما اعترضتهم سفينتان كانتا في الخليج وكان بهما عدد قليل من المدافع الصغيرة. فهربوا بمجرد أن وجدوا مقاومة. ولم يبق منهم واحد أمام الدار البيضاء. ولمعاقبتهم على هذا التمرد، مُنعوا من دخول المدينة بالسلاح، وصاروا ملزمين بترك سيوفهم وبنادقهم خارج الأبواب.

وخلال الفترة القصيرة التي استمر فيها هذا النوع من الحصار، أولى الإسبان الذين تحدثت عنهم أكبر قدر من الاهتمام ببعض زوجات سيدي محمد اللائي تصادف وجودهن في الدار البيضاء. كما قاموا بتوزيع القمح من مخازنهم على الفقراء. ولما بلغت تلك الحقائق كلها مولاي يزيد الإمبراطور الجديد شكرهم برسالة بخط يده على تفانيهم الذي أنقذ المدينة والذي حال دون إهانة زوجات والده الراحل. ولم يقتصر على الشكر الجاف، بل سدد للإسبان كل ما أنفقوه بهذه المناسبة وأرسل إليهم أسدين كهدية. فكان هجوم الأعراب على الدار البيضاء أكبر عصيان سببه موت الإمبراطور. أمل النهب الذي، في ظل هذه الظروف، يقود الجموع إلى التمرد في هذه الأراضي البربرية لم يستمر سوى لوقت قصير لم يتم فيه تتويج مولاي يزيد بعد. وبمجرد الاعتراف به كإمبراطور تمتعت البلاد بأقصى درجات الهدوء.

استقبال مولاي يزيد للهيئة الدبلوماسية: عندما أبلغ مولي يزيد القناصل الأجانب في طنجة بوفاة والده وبحقه في خلافته أرسلوا له رسائل تهنئة. وطلب منهم الشرفاء ملابس جديدة لمواساتهم على آلامهم. فأعطوهم قطع قماش جميلة لصنع قفاطين وعشرين رايكسدارات، لكنهم لم يقتنعوا بذلك، فكان لا بد من إضافة بضع الرايكسدارات.

وفي 18 أبريل، غادر القناصل برفقة الباشا وسكان طنجة الرئيسيين، مسلمين ويهود، للتعبير عن إجلالهم للإمبراطور. وعندما اقتربوا من الضريح، حيث ظنوا أنه لا يزال مقيما فيه، جاء من يخبرهم بالذهاب إلى تطوان حيث دخل بشكل رسمي في اليوم السابق. ولما وصلوا إلى تلك المدينة مساء اليوم التالي، تم إيقاف سيرهم عند بوابة المدينة، لأن الإمبراطور، كما قيل لهم، قرر استقبالهم قبل أن يترجلوا. وبعد أن أجبرهم على الانتظار لأكثر من ساعة، أرسل من يخبرهم أنه لا يستطيع رؤيتهم في ذلك اليوم، وأمرهم في نفس الوقت بالالتحاق به بمعسكره ظهر اليوم التالي، فلم يتأخروا عن الامتثال لهذا الأمر.

في اليوم التالي وجدوا الإمبراطور وهو يمتطي حصانًا، وعليه ملابس تركية جميلة. وبعد أن عُرضوا عليه أعلن لهم أن نيته هي العيش بسلام مع راݣوزا[71] وإنجلترا وإعلان الحرب[72] على جميع القوى الأخرى. وأضاف إلى هذا الإعلان أنه أعطى أربعة أشهر فقط كمهلة لقناصل الملوك الذين اعتبرهم أعداء له لمغادرة مملكته. وبما أن غضب هؤلاء الطغاة البربريين[73] يهدأ دائما بدفع الذهب حصل القناصل الذين تم طردهم على لقاء آخر حيث قدموا هدايا للسلطان المعتز بنفسه من بعد ما استقبلهم بشكل سيء في البداية. فكانت تلك هي الوسيلة الممتازة لجعله أكثر قابلية لحسن معاملتهم، ووعدهم بالعيش بسلام مع أسيادهم وبتجديد المعاهدات التي عقدها سلفه معهم. وبعد أن أعطى القناصل هذه التأكيدات السلمية، عادوا إلى طنجة، حيث كان من المقرر أن يتلقوا، وفقًا لوعوده، رسائل منه تعبر عن نفس مشاعر الصداقة إلى ملوكهم.

لكن باشا طنجة، الذي كلفه الإمبراطور بإنهاء هذه المهمة، تصرف بأكثر الطرق شناعة. لقد طلب ألفي رايكسدارات من القناصل المعنيين علاوة على ألف وخمسمائة آخرين لإرسال الرسائل التي وعدهم بها سيده. القناصل الذين أرادوا وضع حد لهذه الأزمة وافقوا على كل شيء. فلم يتم الإفراج عن رسائلهم إلا من بعد ابتزازهم بدفع فدية باهظة. وكان لا يزال يتعين عليهم دفع رشوة لسكرتير الباشا حتى يسلمها لهم بمقراتهم. وذلك بالإضافة إلى المبلغ الذي طلبه منهم كتعويض عما ادعى أنه قد دفعه

---

[71] قد يتعلق الأمر بجمهورية *Raguse*، وهي دولة بحرية في حجم مدينة مثل البندقية حينها. وتوجد بكرواتيا المطلة على بحر الأدرياتيك.

[72] المقصود بالحرب هنا هو إطلاق يد القراصنة المغاربة لشن هجومات على سفن وشواطئ العدو. تلك كانت إحدى أشكال الحرب بين الدول البحرية.

[73] هكذا كان هذا المؤلف الإنكْليزي، مثل غيره، يصف كل حكام البلدان غير الأوروبية.

لصاحب الختم الملكي كي يضع ختم الإمبراطور على هذه الرسائل. غير أن هذا الابتزاز الأخيرلم يكتب له النجاح لأن القناصل رفضوه بصفة مطلقة.

انتقام مولاي يزيد من خصومه السابقين: وصل الإمبراطور في 10 مايو إلى مدينة مكناس، بيد أن مقامه فيها لم يدم إلا يسيرا بسبب حلول شهر رمضان الذي دعاه للانتقال إلى فاس. وقد أتاح الاعتكاف الروحي الذي قام به في هذه المدينة الأخيرة الفرصة لنشر شائعة قتله على يد شقيقه مولاي هاشم الذي قيل إنه جاء عن قصد من مراكش لاغتياله. لكن مولاي يزيد كان عليه الانتقام من عدة إهانات شخصية.

في فترة نفيه لجأ إلى يهود تطوان لإقراضه بضع مئات من الرايكسدارات التي كان في حاجة إليها، ووعدهم بأن يردها بفائدة بمجرد أن توفر له الظروف ذلك. لكن اليهود أصموا آذانهم تجاه طلباته الملحة لما رأوه في محنة، فلم يرغبوا أبدًا في مساعدته. ولما اعتلى العرش انتقم منهم.

أما بالنسبة للقائد عباس فقد كان للإمبراطور عليه مأخذان: أولاً، قبوله قيادة الجيش الذي أرسله والده للقبض على شخصه. ثانياً، انسحابه مع نفس الجيش إلى الجنوب عندما تم إبلاغه بوفاة سيدي محمد. الأمر الذي جعله يشك في أنه كان يريد دعم الأمير مولاي سليمان ضده. وعلى الرغم من ذلك لم يكن الإمبراطور ليقتله لو لم يكن الجنود الزنوج الذين أراد كسب ولاءهم مصرين على إسقاطه. القايْد عباس، لما رأى نفسه قد تخلت عنه القوات التي كانت تحت إمرته، سعى للهروب إلى أحد تلك الأماكن في المغرب التي لا يزال للجوء إليها حرمة مقدسة لا تنتهك. ولكن لسوء حظه سقط من فوق الحصان الذي كان يمتطيه، مما أعطى الوقت للجنود الذين كانوا يطاردونه كي يلحقوا به ويوقفوه.

وتم تقديمه للمثول أمام الإمبراطور الذي من بعد إخباره بالجرائم التي اتهمه بارتكابها أعلن أنه لا يزال يستحق العفو من خلال الذهاب إلى الملجأ حيث اضطر هو نفسه إلى الاختباء فيه لفترة طويلة. فكان عباس راضيا جدًا بمثل هذا العقاب الخفيف ومستعدا للاعتزال في منفاه، لكن قبض عليه العسكر ثانية وصرخوا مطالبين بموته، فلم يعد بإمكان الإمبراطور الشك في عداء الجيش له، ولذلك أذن بقتله.

عباس كان أفضل ضابط في خدمة الإمبراطور الراحل، لذلك لم يظهر أي خوف من الموت. وفي اللحظة التي رُفع فيها السيف لضرب عنقه نظر إلى سيده بكل فخر ومات بهدوء بطل. ولم يأمر الإمبراطور بدفن جثمانه الذي ظل مزعجا للمارة. وتلك كانت العادة في هذا البلد الذي لا يمكن فيه دفن الرجل الذي يُقتل على يد الإمبراطور أو على يد الجلاد ما لم تُبرأ حرمته.

الأفندي[74]، الذي لم تكن نهايته أقل مأساوية من نهاية القائد عباس، اتُهم بأنه كان أحد المحركين الرئيسيين لكره سيدي محمد لابنه مولاي يزيد. كما تمت مؤاخذته بالإساءة بشكل كبير إلى ثقة سيده في صفقة القمح التي باعها للإسبان والتي قيل إنه استخلص منها لنفسه مبالغ طائلة. لم يكد هذا الوزير أن يكون على علم بوفاة سيدي محمد حتى ركض واختبأ في ملجأ لا تنتهك حرمته ليحمي نفسه من أية ملاحقة. ولو كان حكيمًا لما ترك هذا المكان الآمن أبدًا، لكنه انخدع بالوعود الكاذبة للإمبراطور الجديد وعاد إلى البلاط حيث سرعان ما سيلقي العقاب المستحق على حماقته.

تظاهر الإمبراطور بعدم الاكتراث به لبضعة أيام، لكن سرعان ما وجد ذريعة لإلقاء القبض عليه. عندما رأى الأفندي البائس نفسه يتعرض للنكوث من قبل سيد قاسٍ كان يبحث فقط عن فرصة للإفلات من العقاب. فعرض عليه مائتي ألف رايكسدارات لإنقاذ حياته. لكن الإمبراطور أجاب بأنه لا يحتاج إلى ماله وأنه لن يقبل أي شيء من مصاص دماء الدولة. وجاء حكم الإعدام الصادر بحقه في أعقاب سجنه، كما قضى نفس الحكم بقطع يديه مع السماح له بالعيش لعدة أيام قبيل الإعدام. ولما تم قطع رأسه ظلت إحدى يديه معلقة على أسوار مدينة فاس. وتم إرسال اليد الأخرى إلى طنجة مع أوامر بتثبيتها على باب القنصل الإسباني من أجل تلقينه درسا في كيفية تعامل الإمبراطور مع شخص ضحى بمصالح سيده لصالح أمة أخرى.

أما باقي إخوته الأمراء فقد سامحهم على محاولاتهم سلب التاج منه، حتى أنه استقبل بحرارة أولئك الذين عادوا إلى البلاط. ولا شك في أن مولاي هاشم وإخوته تخلوا عن أطماعهم في العرش. ويدل سلوكهم على أنهم لم يعودوا يفكرون في التضحية بدماء وهدوء وسلامة الشعب من أجل إرضاء طموحاتهم.

---

[74] الشخص الذي كان يخبر المؤلف بهذه الأحداث كان بلا شك من الأوروبيين، وعلى علم بألقاب الأعيان بالبلاط التركي، فحكى عن الصدر الأعظم بالمغرب بلقب "الأفندي" ومن دون ذكر اسمه الخاص.

ظهر ميل الإمبراطور الجديد للإنجليز شديد الوضوح في بداية حكمه. وكان بعيدًا عن إظهار نفس التقدير للإسبان الذين لم يكد يجلس على العرش حتى ألغى جميع الإجراءات التي اتخذها والده لصالحهم. قال إنه أراد الانتقام من حكومة مدريد التي جعلت سلفه يوقع على المعاهدات الأكثر كارثية على إمبراطورية المغرب. الإسبان لديهم ألف سبب لتجنب الخلافات مع المغاربة بالنظر لقرب موانئهم ولكل شيء يحصلون عليه من عندهم، من أجل ذلك استخدموا أكثر الوسائل فعالية لمنع أي نزاع ولا يعني ذلك سوى تقديم هدايا كبيرة للإمبراطور ووزرائه. لكن هذه السياسة التي لم تفشل أبدًا في النجاح مع سيدي محمد، ليس من الممكن أن تحقق نجاحًا مماثلا مع خليفته الذي لا يبدو أنه متعطش لجمع الثروات. من المؤكد أنه لم يكن يعلق عليها سوى القليل من الأهمية قبل أن يتولى الحكم، لدرجة أنه غالبا ما كان بلا نقود.

ظل الإسبان يحتفظون بأمل السلام طالما عاش الأفندي القديم. لكن يده المقطوعة والمسمرة على باب قنصليتهم شكلت إهانة كبيرة لهم لدرجة أنهم شعروا بضرورة إعلان الحرب على إمبراطورية المغرب. قبل تنفيذ مشاريعهم العدائية أرادوا إعادة قنصلهم مع الرهبان الموجودين في المغرب من أجل تحرير الأسرى المسيحيين. من أجل ذلك أرسلت الحكومة الإسبانية بأوامر سرية فرقاطة إلى طنجة. وعندما دخلت الفرقاطة الميناء أرسل الضابط قائدها رسالة إلى حاكم المدينة يخبره فيها بأنه جلب معه هدايا لسيده ويطلب منه أن يرسل أشخاصًا موثوقين لاستلامها. واستغل القنصل والرهبان الذين تم إبلاغهم ذلك الوقت للركوب على متن نفس السفينة. وبمجرد أن انتهت العملية أبحرت. وفي اليوم التالي استولت على سفينتين مغربيتين من العرائش، وتحت أعين الإمبراطور الذي كان هناك على الشرفة وهو يشاهد هذا العمل العدائي الأول.

فوقع حينها مولاي يزيد في غضب رهيب، خاصة بعد أن علم في نفس اللحظة تقريبًا أن الهدايا الجميلة التي جلبتها الفرقاطة لم تكن سوى حزمات من الخرق البالية. هذه الإساءة المذلة، على الرغم من أنها كانت مجرد انتقام لتلك التي تعرضت لها إسبانيا في شخص قنصلها، لم يكن من شأنها الحفاظ على السلام بين البلدين. في الواقع، قام الإمبراطور على الفور باستعدادات كبيرة لمهاجمة سبتة. ونظرًا لكون هذا الموقع محصنا تحصينا جيدًا فقد كان من غير المحتمل أن يتمكن المغاربة من الاستيلاء عليه.

خلال إقامتي القصيرة بالمغرب في رحلتي الثانية، لم أر شيئًا آخر يستحق ذكره. لذلك سوف أنهي هنا ملاحظاتي على هذه الإمبراطورية. أبحرت من تطوان للعودة إلى جبل طارق حيث وصلت في 10 يونيو 1790 بعد عبور دام يومين.

التاجر البريطاني جيمس ڭراي جاكسون

جيمس ڭراي جاكسون[1] تاجر بريطاني أقام ستة عشر عامًا في مدينة موكًادور أو الصويرة بالمغرب في الفترة الممتدة من نهاية القرن الثامن عشر إلى بداية القرن التاسع عشر. وصادف مقامه هناك العهود المتتالية لسيدي محمد بن عبد الله ومولاي يزيد ومولاي سليمان. تواريخ ميلاده ووفاته غير معروفة.

قام بجمع العديد من الروايات عن طريق باقي التجار والرحالة فقط كمذكرات لاستخدامها الشخصي. ولكن بعد رجوعه النهائي إلى إنجلترا جمعها في كتاب بلغته الإنجليزية والذي تم نشره سنة 1809 تحت عنوان "تقرير عن المغرب وإقليم سوس"[2]، وأعيد طبعه عدة مرات خلال العقد التالي، وتُرجم إلى الفرنسية ونُشر في باريس عام 1824.

ويقول في مقدمة كتابه أن الراحل السيد ماترا، قنصل إنجلترا في المغرب، لاحظ أن هناك عددًا من الكتب المؤلفة عن البلدان البربرية[3] أكثر من غيرها. ومع ذلك لا نعرف عنها إلا القليل. ثم يعلق على ذلك بقوله إن السبب يكمن في المعرفة السطحية التي يمتلكها هؤلاء المؤلفون عن هذا الجزء من العالم. لقد كانوا على العموم رجالًا أتوا إليه على حين غرة وسافروا عبره لفترة وجيزة ومن دون معرفة أي شيء سواء عن الأخلاق أو العادات أو اللغة الخاصة بالناس فيه. في الواقع، فإن الجزء الأكبر من تلك المؤلفات التي تتحدث عن شمال إفريقيا هي روايات من رحلات السفراء إلى بلاط الإمبراطور التي غالبا ما كانت من أجل تحرير الأسرى، وجمعها شخص مرتبط بالسفير والذي على الرغم من أنه قد يروي بأمانة ما مر تحت عينيه فهو من حيث وضعه وإقامته القصيرة لا يجمع أي معلومات مفيدة عن البلد بشكل عام. ما يجمعه هو في كثير من الأحيان من مترجم غير متعلم ومتلهف دائمًا على تقديم معلومات حتى عن الأمور الأكثر تفاهة.

ولربما يكون ليون الأفريقي[4]، مع استثناءات قليلة، هو المؤلف الوحيد الذي صور البلد في شكله الحقيقي. وذلك على الرغم من أنه ارتكب بعض الأخطاء الجغرافية بشكل رئيسي. ومع ذلك، فإن مارمول[5]، مثله مثل العديد من المحدثين، قاموا بتقليده بشكل أعمى. يحتوي كتاب الطبيب لامبريير[6] على وصف مثير للاهتمام عن حريم السلطان. لكن الباقي به أخطاء كثيرة. يبدو أن الخريطة قد تم نسخها بشكل رئيسي من كتاب شينيي[7]، مع ما فيها من أخطاء إملائية. عمل شينيي هو أفضل ما رأيته. ويعزى ذلك إلى إقامته في البلاد عدة سنوات. وذلك على الرغم من استعلائه السخيف الذي لم يسمح له بالاختلاط بشكل عام بالمغاربة، ومن أحكامه المسبقة عليهم. إلا أن معرفته الجزئية بلغتهم مكنته من إجراء العديد من الملاحظات المفيدة المستمدة من التجربة.

من الواضح للجميع أن جزءًا كبيرًا من الوقت والدراسة ضروريان للحصول على معرفة شاملة بالطابع الأخلاقي والسياسي لأية أمة، وبشكل خاص مع أمة تختلف من جميع النواحي عن بلدنا، كما هو الحال بالنسبة للأمة المغربية. يجب أن يتمتع بفرص التغلغل في مجالس البلد ودراسة عبقرية الشعب في حالة الحرب وحالة السلام، في الحياة العامة وفي الحياة الخاصة، يجب أن يعرف مهاراتهم العسكرية ونظامهم التجاري، ويجب أخيرًا وقبل كل شيء أن تكون لديه معرفة دقيقة وعملية بلغتهم لتجنب أي مصدر للأخطاء وتفادي المفاهيم الخاطئة والبيانات الكاذبة. وفيما يتعلق بالعمل التالي فقد حاولت طوال الوقت أن أقدم للقارئ[8] وصفًا دقيقا للحالة الراهنة بإمبراطورية المغرب، لا سيما لنشاطها التجاري بالداخل وكذلك مع أوروبا.

---

[1] *James Grey Jackson*

[2] *An Account of Morocco and the District of Suse,*

[3] هكذا مرة أخرى، كانوا يصفون البلدان غير الأوروبية على أنها غير متحضرة بحضارة العصر.

[4] وهو الأندلسي ثم المغربي الحسن بن محمد الوزّان المشهور ب ليون الأفريقي أو يوحنا ليون الأفريقي أو يوحنا الأسد الأفريقي. اشتهر بتأليفه الجغرافي في عصر النهضة. ومن أشهر مؤلفاته «وصف أفريقيا».

[5] وهو لويس دل مارمول كرفخال *Luis del Mármol Carvajal* (1520 - 1600). وهو عسكري ومؤرخ إسباني عاش سنوات عديدة بين المورسكيين الذين أُحْتُجِزوا في غرناطة بعد استردادها من المسلمين، كما عاش كذلك في شمال إفريقيا. له كتاب مترجم إلى اللغة الفرنسية تحت عنوان *L'Afrique de Marmol*. "إفرقيا مارمول"

[6] انظر أعلاه الطبيب الإنكْليزي لامبريير

[7] انظر أعلاه التاجر والقنصل الفرنسي لويس دو شينيي.

[8] القارئ الإنكْليزي بطبيعة الحال.

1. الثروة المعدنية.

تم العثور على مناجم الذهب والفضة في عدة أجزاء من إمبراطورية المغرب. ولكن بشكل خاص حول ماسة في جهة سوس. ولأنني كنت في زيارة لحاكم هذه الولاية القايْد محمد بن دليمي، ومع رغبتي في زيارة المكان المجاور لماسة ومناجمه طلبت منه حرسا كي يرافقني إلى هناك، فمنحني إياه بسهولة. عند وصولي توجهت إلى الضفة الجنوبية من النهر حيث تم إطلاعي على منجم الذهب. فعلمت أن البرتغاليين كانوا يستغلونه لما كانت هذه المنطقة تحت سيطرتهم. وقبل رحيلهم ألقوا في فتحته صخرة حاول الشلوح مرارًا إزالتها من دون جدوى. كانت ذات حجم ضخم تتطلب قوة ميكانيكية كبيرة لإزالتها.

مشيت بعد ذلك عبر قاع النهر حيث اكتشفت في تربة مزرقة مشكلة من طبقتين منفصلتين من الرمال الزرقاء المختلطة بغبار فضي. فجمعت منها كمية صغيرة من أجل إرسالها إلى إنكْلترا لتحليلها. ولكن هذا حال هؤلاء الناس بحيث لا يسمحون لأنفسهم بنقل الرمال بأي كمية لغرض استخراج المعادن. وذلك على الرغم من أنهم لا يستفيدون منها لكونهم غير ملمين بالطريقة الصحيحة لتصفيتها.

في نفس المنطقة بالقرب من شتوكة يوجد منجم فضة غني جدًا. لكن كونه يقع بين قبيلتين، فإنهما تقتتلان باستمرار بسببه. لذلك ظل كلا الطرفين محرومين من الانتفاع به. ويوجد منجم فضة آخر في سهل بالقرب من سانتا كروز[1]، ربما كان البرتغاليون يستغلونه عندما كانت المدينة تحت حكمهم. وتم إبلاغ الإمبراطور سيدي محمد على أنه ضخم للغاية، فأرسل بعض الأشخاص على دراية بالمعادن لفحصه. وقبل مغادرتهم تم إبلاغهم سرًا بأن الإمبراطور يرغب في تبخيس مقدرات هذا المنجم خشية أن يصبح الإقليم بذلك غنيا وقويا جدًا فيتمرد ويتخلص من الخضوع له. وهكذا بعد إجراء فحص رسمي للمنجم تم الإبلاغ عن أنه لا يصلح لأي شيء وأن مردوده لن يغطي تكاليف تشغيله. فتم إغلاق مدخله، فثبط هذا الأمر آمال الشْلوح. وبما أنهم لم يشكوا في الدافع من وراء ذلك لم يولوه مزيدًا من الاهتمام.

يوجد الذهب أيضًا في جبال الأطلس وفي منطقة سوس السفلى. لكن المناجم هناك معطلة. اشتريت العديد من عينات الذهب والفضة من مناجم مختلفة في هذه الإمبراطورية وأرسلتها إلى أوروبا لتحليلها، لكن صغر حجم الكميات المرسلة حالت دون استخراج أي ميزة كبيرة من التحليل، ولم تتح لي فرصة مواتية بعد ذلك لإعادة التجربة بكميات أكبر.

كما تنتج منطقة سوس الحديد والنحاس وخام الرصاص. ويوجد في جبال إيدولتيت[2] الحديد الذي يصنع منه الناس فوهات البنادق ومواد أخرى، كما توجد في تسلت[3] وفرة كبيرة من مناجم النحاس. وأما المنطقة المتاخمة لمراكش فتنتج الملح الصخري. وتوجد في تافيلالت وفرة من مناجم خام الرصاص ومناجم الأنتيمون (الكْحُل) ذات النوعية الممتازة، وهناك نوعان من هذا المعدن، أفضلهما يباع بضعف سعر النوع الشائع، وهو أساس المادة السوداء التي تستخدمها السيدات الأفريقيات في تزيين العيون والحواجب والرموش. يكثر في جبال الأطلس ولا سيما الجانب الشرقي منها باتجاه فكْيكْ وتافيلالت. أفضل نوع يسمى الكْحُل الفيلالي.

في أجزاء من الصحراء يكثر الملح الصخري ذو اللون الأحمر الذي يتم استخراجه من المحاجر والمناجم. وتوجد في منطقة عبدة بحيرة واسعة جدًا توفر ملحًا بجودة عالية مقارنة بالملح المعدني. كلاهما قوي للغاية ولا يستعملان في تجفيف اللحوم مع تجربتهما بشكل متكرر، ربما بسبب عدم مهارة المغاربة في ذلك[4]. بالقرب من مدينتي فاس ومكناس يوجد ملح مشابه. ويتم إنتاج نوع أبيض جميل ونقي من الصخور التي تربط أجزاء كثيرة من الساحل. يتم إنتاجه بواسطة حرارة شمس الصيف من الماء المالح الذي يستقر في التجاويف. ويتم نقل كميات هائلة من الملح إلى السودان حيث لا يتم إنتاج أي منها هناك. وبناءً على ذلك يعتبر الملح ذا قيمة كبيرة في تومبوكتو حيث يتم مقايضة

[1] وهي أكَادير الحالية
[2] اتحاديةٍ كُبرى تجمع عدّة قبائل في جبال جزولة بالأطلس الصغير الغربيّ.
[3] دُوَّار يقع بجماعة إكرفراون في إقليم الحوز بجهة مراكش آسفي.
[4] هل ذلك يعني أن تحضير القديد في المغرب متأخر عن زمان سيدي محمد بن عبد الله ؟

وزن باوند[1] منه في كثير من الأحيان مقابل أوقية[2] من غبار الذهب. ويحظر تصدير الملح الصخري الآن سوى بقيود معينة ومنحة خاصة. ويتعلق الأمر بإنتاج فاس ومراكش وتارودانت. ويعد إنتاج تارودانت بسوس هو الأفضل والأنقى والأقوى، وفي حالته غير المكررة فإنه يساوي حالة ملح مراكش من بعد تكريره.

في فترات سابقة كان يتم استيراد الكبريت من البحر الأبيض المتوسط ومن حفر بسفح الأطلس قبالة تارودانت حيث توجد منه كميات هائلة، ويصنع منه العرب البارود بجودة أعلى بكثير من تلك الموجودة في أوروبا. لكنهم يحافظون على سر المهنة. أما ما يصنعه المغاربة من البارود فهو بشكل عام من نوعية رديئة للغاية، لا من حيث القوة ولا السرعة.

في كثير من الأماكن توجد ينابيع معدنية دافئة، بعض منها حار ومشحون بالعديد من الصفات الكبريتية والحديدية وغيرها من الميزات الطبية. فيوجد في فاس نبع ماء معدني، يُقال له إنفالي، قادر كما سمعت على العلاج من المرض التناسلي من بعد الاحتفاظ به لمدة أربعين يومًا متتالية. ويستعمله الناس في كل مراحل ذلك الاضطراب وبأثر كامل.

2. الساكنة وتقاليدها.

يمكن تقسيم سكان أراضي إمبراطورية المغرب إلى أربع فئات وهم: الموريسكيون، والبربر الذين هم على الأرجح السكان الأصليون، والشْلوح.

الموريسكيون: هم أحفاد أولئك الذين طردوا من إسبانيا، ويسكنون في مدن المغرب كفاس ومكناس وجميع البلدات الساحلية حتى جنوب إقليم حاحا. لغتهم عبارة عن عربية متداولة مختلطة بالإسبانية.

العرب: موطن العرب الأصلي هو الصحراء، ومنه يهاجرون إلى السهول في كل مرة يُفرغ فيها الطاعون أو المجاعة أو أي كارثة أخرى البلاد من بعض سكانها. ويسمح لهم بإقامة مستوطنات جديدة هناك من دون الإضرار بأراضي السكان السابقين. هؤلاء العرب يعيشون في خيام، ويتحدثون عربية متداولة أصلها لغة القرآن، إلا أنهم قوم متهيجون ومشاكسون، فهم في حالة حرب مستمرة مع بعضهم البعض. في بعض الأقاليم توجد القبيلة الموالية للإمبراطور وهي تقاتل الأخرى المتمردة عليه. ينهبون ويدمرون بعضهم البعض حتى يملوا من أوجاع الحرب فيتوقفون. وفي العام التالي قد تجد القبيلة المتمردة نفسها موالية للإمبراطور وتقاتل من أجله القبيلة التي التي صارت متمردة عليه من بعد ما كانت موالية له. هذه الخطة التي تجعل قبيلة موالية تقاتل أخرى متمردة كي تعود لطاعة الإمبراطور هي من سياسته. لأنه إذا لم يفعل سيكون مضطرًا لتوظيف جيشه الخاص من أجل الحفاظ على الهدوء في أقاليمه. وجيشه عادة ما يكون مشغولا بأمور أكثر أهمية.

البربر: يسكن البربر جبال الأطلس شمال مدينة مراكش. ويعيشون بشكل عام في الخيام. إنهم أناس أقوياء وعصبيون، لديهم لغة خاصة بهم تختلف عن اللغة العربية وعن اللغة العامة بإفريقيا. ومن المحتمل أن تكون لغتهم إحدى لهجات القرطاجنيين القدماء. أثناء السفر عبر قبائلهم لاحظت أن الكثيرين لديهم سحنات الرومان القدامى. يشتغلون على العموم بتربية المواشي وبتربية النحل من أجل العسل والشمع.

الشلوح: يسكن الشْلوح وفروعهم المختلفة جبال الأطلس جنوب مراكش. لغتهم تسمى الأمازيغية. إنهم يعيشون بشكل عام في المدن، ويشتغلون في الغالب بتربية المواشي مثل البربر. لكنهم يختلفون عنهم في اللباس واللغة والتقاليد. إنهم يعيشون بشكل كامل تقريبًا على وجبة (لَحْسوة) المصنوعة من الشعير، وعلى الشعير المحمص أو المحبب الذي يمزجونه بالماء عند السفر ويسمى "الزمّيتة". يستهلكون في بعض الأحيان الكسكسو وهو طعام مغذي مصنوع من حبوب الدقيق المطبوخ بالبخار والمدهون بالزبدة والمخلوط بلحم الضأن أو الدجاج والخضروات.

ويقال إن العديد من العائلات من بين هؤلاء الأشخاص تنحدر من البرتغاليين، الذين كانوا يمتلكون في السابق جميع الموانئ على الساحل والذين، من بعد اكتشاف أمريكا، ذهبوا تدريجياً إلى هناك. في شرق مراكش،

[1] نصف كيلو

[2] وزن أوقية من الذهب هو 29.75 جرام.

بالقرب من دمنات على جبال الأطلس لا تزال هناك كنيسة بها نقوش باللاتينية فوق المدخل، من المفترض أن تكون قد شيدت من قبلهم، ويُقال أنها مسكونة بالأرواح، فنجت بذلك من الدمار.

النساء: المرأة ليست أقل نظافة من الرجل. بالإضافة إلى غسل اليدين المعتاد قبل وبعد كل وجبة، فإنهن يغسلن الوجه واليدين والذراعين والساقين والقدمين مرتين أو ثلاث مرات في اليوم. مما يسهم في جمالهن. وتبدو وجوه النساء العجائز منكمشة من فرط استخدام مستحضرات التجميل والطلاء خلال فترة شبابهن. المسلمون بشكل عام يكتفون بزوجة واحدة. وفي منطقة واسعة من البلاد يبلغ عدد سكانها مائة ألف نسمة بالكاد يوجد من بينهم مائة رجل متزوج من أربع نساء. هذه هي حالة تعدد الزوجات في هذا البلد.

والمرأة ليست محصورة في البيت كما هو متصور بشكل عام، فكثيرًا ما تزور أقاربها وصديقاتها، ولديها طرق مختلفة لتيسير مكائدها. هكذا، إذا وُجد نعل سيدة عند باب الحجرة، فلا يجرؤ حتى الزوج نفسه على الدخول. يتراجع إلى غرفة أخرى ويأمر الأمة بإبلاغه عندما تفرغ زوجته. ويعرف هذا الأمر بخلع الحذاء عند عتبة الباب. ونساء عليّة القوم بالمدن نادرا ما يمشين لوحدهن في الشارع، لأن في خروجهن كذلك إهانة للزوج، لذا عادة ما يرافقهن خادم أو عبد.

النساء في فاس جميلات مثل الأوروبيات، غير أنهن يختلفن نظيراتهن بلون عيونهن وشعرهن الأسمر. ونساء مكناس بشكل عام وسيمات للغاية، لدرجة أنه من النادر رؤية امرأة شابة في تلك المدينة، وهي ليست جميلة. لهن عيون كبيرة وسوداوات اللون ومتلألئة ويتمتعن بمظهر صحي. يوحدهن لون الزنبق والورد ذلك اللون الأحمر والأبيض الجميل الذي يحظى بإعجاب الأجانب في سيداتنا الإنجليزيات. إن جمالهن يضرب به المثل، حيث ينطبق مصطلح المكناسية (امرأة من مكناس) على أي امرأة جميلة ذات شكل أنيق بعيون سوداء متلألئة وأسنان بيضاء. كما أنهن يمتلكن تواضعًا ولطفًا في الأدب نادرًا ما يجتمعان في مكان آخر. من غير المألوف أن يكتشف سكان مدينتين كبيرتين ومكتظتين بالسكان، وتبعدان بمسافة رحلة يوم واحد عن بعضهما البعض، مثل هذا الاختلاف الفيزيولوجي كما هو واضح بين إناث فاس وإناث مكناس، إناث فاس على العموم شاحبات البشرة.

والمرأة في دكالة عادية وقصيرة، في حين أن الرجل على العكس من ذلك فهو طويل القامة وذو أطراف جيدة وملامح منتظمة. رجال تمسنا والشاوية هم من عرق قوي ونشط ولون بشرتهم نحاسي. نساؤهم جميلات جدا بملامح معبرة للغاية، يعززها استخدام الكحل الفيلالي الذي يلون به رموشهن وحواجبهن كما سبق ذكره. في هذه الأقاليم يحببن بشكل خاص طلي أيديهن وأقدامهن بمستحضر من عشبة تسمى الحنة، والتي تمنحهن لونًا برتقاليًا جميلًا. وفي الطقس الحار تعطي نضارة لطيفة ونعومة لليدين من حيث تمنع سرعة التعرق إلى حد كبير.

أما بالنسبة للخادمات فهن عمومًا من النساء السود، يتم شراؤهن في الأصل من تمبكتو، يعيشن في المنزل مع الزوجات ويؤدين الواجبات المنزلية. وأولادهن، عندما لا يكونون من صلب السيد، يولدون عبيدًا ويرثهم، ويحتفظ بهم بغرض الزواج من عبيده السود أو يبيعهم في سوق النخاسة. ونادرًا ما يتم ذلك، اللهم عند الضرورة. لأنه إذا أعطى القانون للسيد مجالًا كبيرًا للتصرف في عبيده، فإن أطفالهم تتم تربيتهم عمومًا تحت رعاية الأم ويصبحون أفرادًا من الأسرة. ومن خلال الخدمة في سن مبكرة في الأشغال المنزلية يكسبون عيشهم لأنه في بلد يُحظر فيه تصدير ضروريات الحياة من أجل السماح للمواطنين بالعيش بشكل مريح بدخل زهيد فإن تكاليف رعايتهم ضئيلة. وبالتالي فإن تكاثر أفراد الأسرة فيه نعمة. كلما كانت أكبر كلما كانت البركة أكبر. ونظرًا لكونهم يعيشون على طعام بسيط وخاصة الدقيق فإن بطونهم يمكن إشباعها بسهولة. هكذا تكون احتياجاتهم قليلة ومواردهم عديدة.

الأطفال: الأطفال الذين يتساوى أسلوب تعليمهم في جميع أنحاء الإمبراطورية، يتم ختانهم في السنة الثامنة من عمرهم وليس في اليوم الثامن كما زعم البعض. ثم يبدأون في حفظ القرآن. واسم محمد يُعطى عادةً لأول طفل ذكر يولد في الأسرة. ويتم دائمًا مخاطبة الشخص الذي يحمله بلقب سيدي[1]. الإمبراطور نفسه يفعل ذلك مع أقبح شخص يقابله وهو يحمل اسم محمد. وعندما يكون الاسم أحمد أو علي أو سعيد أو قاسم إلخ... فقد تتم مراعاة ذلك التشريف وقد لا يتم، وذلك بحسب مقام الشخص الذي يحمله[2]. ومع ذلك، يجب على اليهودي، بغض النظر عن حاله،

[1] وذلك من باب التوقير الواجب لرسول الله ﷺ أكثر من الاحترام للشخص الذي يحمله.
[2] بالنسبة للأمراء يختص من يحمل اسم محمد بلقب سيدي، مثل سيدي محمد بن عبد الله، والباقون يحملون لقب مولاي.

مخاطبة كل مسلم بكلمة سيدي مخافة التعرض للمضايقة. بينما، من ناحية أخرى، المسلم الأقل شأنا يعتبر أنه من الإهانة لنفسه أن يخاطب يهوديا مهما على شأنه ومقامه بلقب سيدي.

اللعب واللهو: يبدأ الأطفال بتعلم القرآن. ثم يتمرسون على الحرف التقليدية من رعي القطعان وزراعة الأرض أو استعمال الأسلحة. لديهم تمرين عسكري واحد يسمى لعب البارود. يشارك فيه كل من لديه فرس[1]. تبدأ التشكيلة من مجموعة فرسان بالركض بأقصى سرعة وتطلق طلقة بارود من بنادقها ثم تتوقف بالقرب من حائط. وأمهر أفرادها هم من يتوقفون لما يقتربون بأقصر مسافة من الحائط. ثم تعود المجموعة لتكرر نفس التمرين. ويهتم الإمبراطور بشكل خاص بهذه المجموعات، حتى إذا اكتشف فيها ماهرا في السياسة تتم ترقيته عمومًا إلى منصب حكومي لتدبير شؤون إقليم أو مدينة.

والمغاربة لا يحبون كثيراً اللعب أو الترفيه. فغالبًا ما يظلون جالسين في الشارع لساعات معًا، يتجاذبون أطراف الحديث وهم يتفكهون بمزاح متكرر وممل. وأحيانًا يتحدثون بصوت عالٍ جدًا مع بعضهم البعض لدرجة أن غير المتعوّد على سماعهم قد يفترض أنهم سيقتتلون. وعندما يلعبون فإن الألعاب المعتادة عندهم هي القفز من فوق الأغنام وكرة القدم[2]. وهذه اللعبة الأخيرة هي مفضلتهم. ولا يسعون فيها إلى إرسال الكرة إلى المرمى لكن فقط إلى لاستمتاع بركلها من دون أي هدف آخر.

آداب الطعام: المغاربة، في الغالب، أنقى في أبدانهم مما هم في لباسهم. يغسلون أيديهم قبل كل وجبة. وبما أنهم لا يستخدمون السكاكين والشوكات فإنهم يأكلون بأصابعهم. نصف دزينة من الناس يجلسون حول طبق كبير من الكسكسو، وبعد قولهم "باسم الله" كل واحد يمسك الطعام بيده ويضعه بماهرة في فمه من دون أن تلمس أصابعه شفتيه. قد يكون هذا التصرف مثيرا للاشمئزاز بالنسبة لأفكارنا عن النظافة، لكن مع غسل اليد دائمًا وعدم لمس الفم مطلقًا أثناء تناول الطعام فإن هؤلاء الأشخاص ليسوا بأي حال من الأحوال غير مهذبين كما يتصور الأوروبيون في بعض الأحيان على عجل. ليست لديهم كراسي أو طاولات في منازلهم لكنهم يجلسون القرفصاء على السجاد والوسائد. وعند وجبات الطعام يوضع الطبق أو وعاء المؤن على الأرض.

طقوس دفن الميت: لا يؤجل المسلمون دفن موتاهم لأكثر من أربع وعشرين ساعة. في الصيف، قد يكون الاحتفاظ بهم لفترة أطول أمرًا مسيئًا. ولهذا السبب غالبًا ما يدفنون الجثة بعد ساعات قليلة من الموت. يغسّلون الميت أولاً ويغطونه بغطاء من القماش القطني ثم يضعونه على محمل خشبي ومن دون نعش. هكذا يحمله إلى القبر أربعة رجال ويتبعهم أقارب الفقيد وأصدقاؤه وهم ينشدون "لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله". ويدفن الميت ووجهه متجه صوب مكة. ويعلّم القبر بحجرة من جهة الرأس وأخرى من جهة القدمين.

ولا تفرض رسوم على الدفن. تعود ملكية المحمل إلى مسجد الجماعة ويستخدمه من يطلبه بالمجان. والمقبرة عبارة عن أرض مفتوحة من دون سور ومرتبطة بضريح ولي خارج المدينة، لأن المسلمين لا يسمحون بدفن الموتى بين مساكن الأحياء. إنهم يوقرون المقابر ويدعون للموتى كلما مروا بالقرب منها.

من آداب التشريفات بالبلاط لا يسمح لأي شخص أن يذكر كلمة الموت للإمبراطور. حتى إذا دعت الضرورة إلى إبلاغه بخبر وفاة أي مسلم، فيقولون "وَفَاهُ الأَجَل" و"رحمه الله" هو الجواب. عند وفاة المسيحي الذي كان حسن الخلق يقولون "مات مسكين". أما إذا كان لا يحظى بشعبية أو مكروه فيقولون "مات الكافر".

الزوايا والتسامح الديني: في جميع أنحاء البلاد توجد مبانٍ مثمنة الأضلاع بقباب حجرية مطلية بالجير[3]، وتسمى (زاوية). وتوجد قطعة أرض من دون سور ملحقة بكل منها لدفن الموتى. يشرف فيها القيم أو الولي المسمى الفقير أو المرابط على الخدمة الدينية وعلى دفن الموتى. وغالبًا ما يتم اللجوء إليه لتسوية النزاعات أو الخلافات.

---

[1] وهو أمر خاص في الغالب بكبار القوم وأبنائهم.

[2] يعود تاريخ لعبة كرة القدم الحالية في إنجلترا إلى القرن الثامن على الأقل. وهي في أشكال مختلفة قديمة عند اليونان والرومان. ولربما رأى المغاربة الأجانب يلعبونها بشكل ما بمختلف المدن الشاطئية التي كانت بها جاليات أوروبية من تجار ودبلوماسيين ومحتلين.

[3] ويعني أضرحة الأولياء وهي بالأحرى مبان مربعة الشكل ولها قباب مثمنة الأضلاع.

والمجرمون الذين يلجؤون إلى حرمة هذه الأماكن الموقرة يحصلون على الحصانة من قبضة العدالة. وغالبًا ما يودع أثرياء البلاد ثرواتهم هناك من أجل الأمان.

إن تسامح المغاربة قوي لدرجة أن الإمبراطور، بناءً على طلب خاص، يسمح لأي طائفة لا تعترف بتعدد الآلهة، بتخصيص مكان للعبادة. بجانب المؤسسات الكاثوليكية في مراكش ومكناس، توجد واحدة في طنجة وأخرى في بموگادور. وحتى أكثر المسلمين جهلاً وطائفية يؤكدون بأنه ينبغي السماح لكل إنسان أن يعبد الله وفقاً لضميره أو يتبع دين أسلافه. ولديهم ازدراء عميق الجذور لأي شخص يغير دينه حتى لو أراد أن يكون مسلما. يصفون هؤلاء المرتدين (بالعلوج)، من حيث يُجبرون أنفسهم على إخفاء معتقداتهم الأصلية بعد اعتناقهم العقيدة المحمدية ويبالغون في ازدراء المسيحيين لكي يظهروا كمسلمين ويمنعون عن أنفسهم التعرض للمضايقة بتوبيخهم لعدم إيمانهم بمحمد[1].

في بداية الحكم الحالي لمولاي سليمان بن محمد، نشأت عقيدة الربوبية المتوقفة عند (لا إله إلا الله) من طرف عدد كبير جدًا من الأشخاص المنتشرين في الأقاليم الشمالية، وذلك على عكس عقيدة دين الإسلام أو المحمدية التي تقول (لا إله إلا الله، محمد رسول الله). ولم يجد الإمبراطور صعوبة في إسكات هذه الطائفة لردع مثل هذه المبادئ.

خصلة القوة عند الشدة: هناك خصلة نبيلة في شخصية المغاربة لا يسعني إلا أن أذكرها هنا. يتعلق الأمر بالقوة عند الشدة التي يمتلكونها بدرجة عالية، فهم لا ييأسون أبدا. لا الألم الجسدي، ولا كارثة مهما كانت كبيرة، تجعلهم يسخطون. إنهم يثقون في مشيئة الله في كل حال، وينتظرون صابرين مع أمل في تحسن أحوالهم. لتوضيح ذلك، سوف أسمح لنفسي بسرد حكاية، من شأنها أن تظهر المخاطر الكبيرة التي قد يتعرض لها التجار الأجانب أثناء السفر عبر هذا البلد.

فهذا تاجر من فاس، كانت لي معه معاملات كبيرة، ذهب إلى تمبكتو[2] بكل بضاعته في الأعمال التجارية. وبقي هناك وقتًا كافيًا لبيعها كلها مقابل غبار الذهب والصمغ السوداني، ثم كر عائدا إلى فاس. وبعد أن اجتاز الصحراء بدأ يهنئ نفسه على حسن حظه ونجاحه الكبير عندما تعرضت فجأة قافلته لهجوم مجموعة من العرب الذين نهبوا كل ما يحلو لهم وتركوا تاجر فاس معدمًا من كل شيء ما عدا ملابسه التي كانت على ظهره. وخلال الفترة الفاصلة بين وفاة السلطان يزيد وإعلان السلطان الحالي سليمان، تعرض نفس الرجل مرة أخرى للنهب وهو في طريقه إلى موگادور من أجل الوفاء بديون كانت في ذمته وبيع ما معه من الصمغ ومنتجات أخرى سودانية. أربع زوجات وعدد كبير من الأطفال في بيته صاروا في وضع مؤلم بشكل خاص. ومع ذلك قال بصبر شديد "آش غادي ندير، الله هكا بغا، و لا إله إلا الله" : ما العمل؟ تلك مشيئة الله، ولا إله إلا الله. واشترى ما يمكن الحصول عليه من بضائع بالديْن وذهب مرة أخرى إلى تمبكتو حيث حقق أرباحًا كبيرة. وبينما كان مسافرا إلى مصر تعرض للنهب للمرة الثالثة وفقد كل ما يملكه بالقرب من القاهرة، فعاش في ضيق شديد، وواجه هذه المحنة الأخيرة بنفس العزيمة التي واجه بها الأولى. ومع كل ذلك، فهو اليوم واحد من بين التجار الرئيسيين في تمبكتو.

3. النشاط التجاري.

تستقبل مراكش أكبر الإمدادات من البضائع الأوروبية من ميناء موگادور التي تبعد عنها بمسافة أربعة أيام سفر بواسطة القافلة (يوم سفر بالقافلة يعادل مسافة 24 ميلا). لكن بعض السلع النفيسة يتم جلبها من فاس، مثل الأثواب الرقيقة والناعمة كالموسلين والكامبريك، علاوة على التوابل والشاي واللؤلؤ والمرجان الخ... بالإضافة إلى منتجات فاس الأنيقة من الحرير والذهب.

هناك سوق كبير يقام في مراكش كل يوم خميس. ويسميه العرب "سوق الخميس" حيث يتم بيع وشراء جميع المواد الأجنبية والمحلية، وكذلك الخيول والماشية والعبيد، وما إلى ذلك. يتم نقل عينات من جميع أنواع البضائع

---

[1] تلك ترجمة النص أسفله، والذي في آخره ما يتناقض مع مبدأ التسامح الذي جاء في بداية الفقرة.

Renegads, who, after having embraced the Mohamemedan faith are obliged to practise a system of dissimulation and to affect more than ordinary contempt for Christians in order to appear moslimized and to prevent theim being harassed and upbraided for their want of faith in Mohammed .

[2] تُمْبُكْتُو مدينة في شمال مالي

لعرضها للبيع بالمزاد على طول السوق وعبر شوارع المدينة بواسطة الدلال الذي يعلن السعر المعروض. وعندما لا يقوم أحد بالمزايدة الإضافية يتم إبلاغ أعلى مُزايد بأنه الفائز بالصفقة ويتم البيع.

الدلال في سوق الخيول لديه طريقة لإظهار الخيل بميزة كبيرة. بحيث إذا لم يكن الشخص متمرسًا في شرائها، فغالبًا ما يخدع. طريقة تمنع أحدق التجار العرب من دفع مبلغ متواضع للدلال من أجل شراء ولائه. عندما يتم ركوب الفرس عدة مرات في السوق بسرعات مختلفة يتم بيعه في المزاد لمن يدفع أعلى سعر. ويذهب كل من المشتري والبائع بعد ذلك إلى مقر القاضي لكتابة عقد البيع الذي يوقعه عدلان ويؤكده القاضي بتوقيعه أدناه أو على اليسار. بذلك العقد يشهد المشتري بأنه قبل حيازة الفرس بما له وما عليه، وهو الأمر المعبر عنه بالدارجة المغربية بعبارة "لعْظم في الخَنْشة" أي العظم في الكيس. ويلاحظ نفس العرف في بيع وشراء البغال والحيوانات الأخرى.

لقد تضاءل إلى حد كبير مؤخرًا الائتمان الذي تمنحه الشركات التجارية الأوروبية في موڭادور إلى المغاربة، بسبب التغيير في نظام الحكم. في عهد سيدي محمد والد الإمبراطور الحالي[1] كان التجار الأوروبيون يحظون بثقة كبيرة. فكانت دفاترهم تعتبر صحيحة ونادراً ما يتم الطعن في دين مُسجل بها. الأمر الذي شكل تشجيعا للتجارة. لكن المبادئ السياسية لمولي سليمان تختلف اختلافًا كبيرًا عن مبادئ والده. بحيث يجب الآن تأكيد أكثر المعاملات تفاهة بموجب القانون[2]. وذلك بقصد ترسيخ التعامل على قدم المساواة بين الأوروبي والمغربي ومنح هذا الأخير بموجب هذا الإجراء الحق في ضمان الائتمان الممنوح. وقد أدت هذه الإجراءات إلى إلقاء العديد من الحواجز أمام التجارة بحيث يتم إما القضاء على الائتمان أو تعويضه بالمقايضة، الأمر الذي قلص المعاملات التجارية إلى حد كبير. وهكذا فقد تم التخلي من قبلنا[3] عن التجارة في السنوات الأخيرة إلى حد كبير ووقعت في أيدي عدد قليل من اليهود من رعايا الإمبراطور.

إن الفرنسيين المدركين لأهمية التجارة مع المغرب من حيث تصدر فرنسا المنتجات المصنعة بجميع أنواعها وتستورد المواد الخام بالمقابل، اندفعوا إلى محاولة استثمار رأس مال كبير. لكن الطرادات البريطانية في البحر الأبيض المتوسط[4] جعلت من المستحيل تقريبًا على سفنهم الإبحار من وإلى مرسيليا وأجبرتهم على التخلي عن أعمالهم في الوقت الحالي، ويعلمون أنه في حالة السلام الدائم[5] يمكن لتجارتهم مع المغرب أن تستأنف بمزيد من القوة. كما أجبرت نفس الأسباب باقي التجار المنتمين إلى بلدان خاضعة الآن لسيطرة فرنسا على البقاء عاطلين بالكامل تقريبًا. وهكذا لا توجد حاليًا مؤسسات تجارية أوروبية ذات أهمية في موڭادور باستثناء مؤسستين أو ثلاث.

تعطلت تجارة موڭادور مع أمريكا خلال عامي 1804 و1805 بسبب نزاع بين ذلك البلد والإمبراطور، والذي تمت تسويته واستؤنفت التجارة بينهما الآن. السفن المبحرة من مدينة سالم ومدينة بوسطن[6] وأجزاء أخرى من أمريكا إلى شرق وغرب الهند تحمل بضائع إلى موڭادور وتتلقى في المقابل مختلف السلع المغربية. وبهذه الوسيلة يمكن لوكلاء التجار الأمريكيين الموجودين هناك أن يبيعوا لنا[7] جميع سلع شرق الهند اهبرغو .

إن الارتباط الوثيق بالإمبراطورية المغربية له أهمية قصوى سياسياً وتجارياً بالنسبة لبريطانيا لأنه، إلى جانب المواد التجارية المختلفة المتبادلة، يوفر إمدادات كبيرة. وإذا تم ترسيخ علاقة ودية بين البلدين، فلن نواجه أي صعوبة في تزويد ليس فقط جبل طارق بما يحتاجه من سلع، بل أيضًا جميع أساطيلنا المختلفة بالبحر الأبيض المتوسط والساحل الشمالي لأفريقيا. إنه مورد يستحق بالتأكيد الاهتمام الجاد ةيدو ةقلاع طبر للاخ نم مع هذا البلد.

مزايا التجارة مع هذه الإمبراطورية واضحة مما تم تفصيله في الصفحات السابقة من حيث يتبين أن كل صادراتنا إلى المغرب تقريبًا تتكون من المنتجات المصنعة وأن وارداتنا منه هي مواد خام بالكامل[8]، والكثير منها

[1] وهو مولاي سليمان.
[2] النص غير واضح. من الراجح أن المقصود بالقانون هو الشرع الذي يقتضي توثيق الدين كتابة وبواسطة شهود وفق نص آية الديْن في القرآن الكريم. وذلك بدلا من أن يبقى الديْن بكل بساطة مسألة ثقة بين التاجرين الأوروبي والمغربي.
[3] يعني التجار الأوروبيين
[4] المسيطرة على جبل طارق وعلى الملاحة بالمضيق.
[5] مع بريطانيا
[6] سالم وبوسطن مدينتان بالساحل الشمالي الشرقي الأمريكي.
[7] يعني مرة أخرى التجار الإنڭليز
[8] الأمر الذي يدل على مدى قدم التفاوت الكبير بين الطرفين في مجال التصنيع لصالح أوروبا.

مطلوب بشكل أساسي في مصانعنا. ويعتبرحجم هذه التجارة حاليا ضئيلا للغاية بسبب عدم كفاية ما تتلقاه من تشجيع ودعم. لذا يعتقد التجار البريطانيون أن عليهم الاعتماد على جهودهم الخاصة لتوفير ما تفتقر إليه تجارتهم في الغالب من حماية وأمن في هذا المسار. والآن تقع هذه المسؤولية في أيدي الرعايا المغاربة المقيمين في إنكْلترا. ومما يؤسف له للغاية أنه في وسعنا، من خلال التمثيل المناسب والمفاوضات الحكيمة، أن نزود من خلال هذه القناة جزءًا كبيرًا من المناطق الداخلية في إفريقيا بمصنوعاتنا الزائدة عن الحاجة. بينما يمكننا الحصول في المقابل على العديد من السلع القيمة والمفيدة للغاية مثل زيت الزيتون والجلود والمعادن واللثة والشمع والفضة والذهب. ويمكن أن يضاف إليها البرتقال والليمون، اللذين يمكن شراء كمية أكبر منهما في ميناءين للإمبراطورية أكثر من تلك التي تقدمها لنا إسبانيا والبرتغال. لا سيما أن برتقال تطوان هو الأجود في العالم ويباع بثمانية دراهم أي حوالي 38. 6 د. لألف[1].

قد يعترض البعض ممن وجدوا صعوبة في التعامل مع الإمبراطور بأنه ربما لن يسمح بتصدير الفاكهة. أجيب على هذا أنه من الممكن، بالوسائل المناسبة، الحصول على أي امتياز تقريبًا من مثل هذا الحاكم المرن. ليس الذهب هو الذي يتحكم في سلوكه كما يتصور بعض الحذقين أن هذه هي الطريقة الوحيدة للحصول على أي شيء منه. لو كان الأمر كذلك، لما منحني أنا امتياز تصدير البغال إلى جزر الأنتيل[2] بنصف قيمة الرسوم التي عرضته عليه مؤسسة تجارية فرنسية. باختصار، ليس هناك من مطلوب خاص لضمان التجارة الأكثر رحابة والأكثر ربحًا مع المغرب غير خلق صداقة بين البلدين معززة بتبادل المصالح والاهتمام. يمكننا القول بالفعل إن الإمبراطور الحالي، مولي سليمان، قام بمبادرات من هذا النوع، ولكن تم التغاضي عنها من جهتنا بسبب موقفنا الجلف وإهمالنا علاوة على جهلنا بالطريقة الأكثر نجاعة في التعامل معه.

ومع ذلك، لما نتذكر أن المبعوثين[3] إلى المغرب في القرن الماضي[4] كانوا يجهلون تمامًا أعراف الشعب المغربي وعاداته ومعتقداته ولغته، فلن نتعجب من رؤية علاقتنا مع هذه الإمبراطورية محدودة للغاية ويعيقها سوء فهم متبادل لمشاعر بعضنا البعض. وكل ذلك غالبًا بسبب عدم دقة المترجمين. ما هي التوقعات من الأمل في إكمال مفاوضات مع أمير بنجاح لما يتم الحديث معه من خلال مترجم جاهل وأمي وعادة ما يكون يهوديًا مخلصًا للإمبراطور والمنتظر منه أن يكون في الوقت نفسه كاتم سر الطرف المفاوض؟ إلى جانب ذلك فإن أي شخص يعرف طبيعة الحكم بالمغرب يدرك جيدًا أنه حتى في حال التوفر على يهودي قادر على القيام بترجمة دقيقة للغتين الإنجليزية والعربية، فهناك العديد من التعبيرات اللازم أن يقولها المبعوث إلى الإمبراطور ولا يجرؤ أي يهودي في البلاد على النطق بها أمامه، خوفًا من قطع رأسه. علاوة على ذلك، فإن الفضول العام عند هذه الشعوب قد يصل إلى درجة أنه ربما لا يستحق المترجم منهم أن يؤتمن على أي سر فيه مصلحة الأمة. والإمبراطور نفسه مقتنع بذلك. كذلك كان الحال مع والده الذي أعرب في كثير من الأحيان خلال فترة حكمه عن أسفه لأحد الديبلوماسيين من أنه لم يتم بعد العثور على قنصل إنجليزي قادر على التواصل معه بصفة مباشرة.

لإظهار العيوب الشديدة التي تجري في ظلها مفاوضاتنا مع القوى البربرية، سأحكي قصة حدثت خلال آخر سفارة في المغرب بقيادة السيد ماترا. جاء معه بمترجم يهودي مغربي طلب منه الإمبراطور أن يلبس رداء قبيلته. ولكن السفير ماترا اعترض وقال للإمبراطور إنه، نظرًا لكونه في خدمته المباشرة ينبغي اعتباره من الرعايا البريطانيين، وبالتالي يحق له ارتداء الرداء الذي يرتديه يهود بريطانيا العظمى. وقبل الإمبراطور بتلك الحجة. وبالتالي سُمح لليهودي المغربي بالمثول أمامه بالزي الإنجليزي. تلك كانت بالتأكيد نقطة فاز بها السفير. وكان من الممكن أن تكون مقدمة لمزيد من التنازلات الكبيرة، لو تم اتباعها بحكمة.

هكذا عامل الإمبراطور الذي كان حريصًا على المماطلة في التعامل مع الإنجليز هذا السفير وحاشيته بأسلوب أفضل حتى أنه سمح للسيد ماترا بالجلوس بجانبه، وهو شرف لم يُمنح من قبل لأي شخص آخر غير الأمراء. وانتهى كل ذلك اللطف والتأدب بعقد معاهدة صداقة وسلام طويلة الأمد. لكنها كانت مكتوبة باللغة العربية. ومع الأسف لم يستطع أحد من حاشية السفير فهمها بشكل صحيح إلا من خلال تفسير أعوج وغير دقيق من مغربي إلى المترجم اليهودي، ثم منه إلى القنصل. لكن هذا الأخير كان غير راضٍ عما سمع. فأسند الأمر إلى طالب إسباني الذي

---

[1] يصعب فهم المقصود من ذلك اليوم، اللهم رخص ثمن البضاعة المغربية بالمقارنة مع نفس البضاعة ببلدان أخرى.

[2] جزر الأنتيل Antilles هي مجموعة جزر تكون الجزء الأكبر من جزر الهند الغربية. وتشكل الأرخبيل الواقع بين البحر الكاريبي والمحيط الأطلسي وخليج المكسيك.

[3] يقصد المبعوثين الإنكْليز

[4] القرن الثامن عشر

بدلاً من تقديم ترجمة دقيقة إلى السفير على الفور، طلب منه مهلة وأرسل النص إلى مدريد، ثم أعاده إلى السيد ماترا بعد شهر، بحيث عُرف نص المعاهدة برمتها في مدريد قبل أن يُعرف في لندن، أو حتى من قبل السفير نفسه في طنجة.

4. القضاء في الإمبراطورية

لإقامة العدل في هذه الإمبراطورية، يمكننا القول إنه لا توجد مدونة قوانين ثابتة، فالشعب لا يعرف سوى إرادة الأمير. وإذا انحرف عن الأصول الأخلاقية الواردة في القرآن، كما يفعل أحيانا، تجب طاعته. وحيثما يقيم الإمبراطور، فإنه يقضي بين الناس بشكل شخصي. يحصل ذلك عادة مرتين، وأحيانًا أربع مرات في الأسبوع. يقيم العدل في مكان يُسمى "المشور". فيه يتم تقديم جميع الشكاوى أمامه. والوصول إليه يسير ويستمع إلى الجميع. لا فرق في ذلك بين أجانب أو رعايا، أغنياء أو فقراء، رجالا أو نساء. لكل فرد الحق في المثول أمامه وفي شرح طبيعة قضيته بكل جرأة. ومن المعتاد هنا، كما هو الحال في المشرق، أن يرفق كل شخص شكواه بتقديم هدية متناسبة مع حالته. فلا ينبغي أن يظهر أحد من دون شيء، لأن ذلك لن يكون فقط مخالفًا للممارسات المتبعة، بل سيكون مخيبا للآمال أيضا. حتى هدية تافهة مثل ثلاث بيضات أو أكثر مقبولة.

وعلى الرغم من أن شخص الإمبراطور مقدس وأن العرف الراسخ يلزم الشخص الخاضع أن ينحني له انحناء التعظيم بدلاً من مجرد الاحترام، إلا أنه يمكن لكل متظلم أن يروي أمامه قصته من دون أدنى تردد أو خجل. ودائمًا ما يكون الحكم الصادر عنه سريعًا وحاسمًا ومعقولاً وصحيحًا بشكل عام. وإذا كان شخص ما مرتبكًا أو يبدو مستحيا، فإن قضيته قد تضعف نسبيًا.

وفي الأماكن البعيدة عن بلاط الإمبراطور، تتم إقامة العدل من قبل القاضي الذي يسترشد في أحكامه بقوانين القرآن. يعمل تحت إمرته العديد من المحامين[1] (وكيل)، الذين منهم من يتعامل مع الخلافات المدنية أو الجرائم أو الأمور المتعلقة بالدين مثل الزواج والطلاق.

ويكون لخليفة الإمبراطور أو الباشا مشوره الخاص به حيث يقضي بين الناس أحيانًا وفقًا لقوانين القرآن، وفي أخرى بحسب هواه. ويعتبر تكديس الثروة هو الهم الأكبر عند هؤلاء. فعندما يعلمون من مبعوثيهم أو جواسيسهم أن فردًا ما قد جمع ثروة كبيرة فإنهم لا يعدمون وسيلة للعثور على سبب لتلفيق تهمة إليه تصادر بموجبها أمواله[2]. وغالبًا ما يحدث أن من يجمعون أكبر مبالغ مالية بهذه الطريقة يكون لديهم القليل من الوقت للاستمتاع بها. بعض الأوامر غير المتوقعة من الإمبراطور، إثر اتهامهم بارتكاب جرائم أو جنح، هو الذريعة لحرمانهم من ثرواتهم غير المشروعة. ولا يتوانى أبدًا عن إبلاغهم أنه لا فائدة لهم من امتلاك أكثر مما يكفي من الأموال للحصول على ضروريات الحياة. وبالتالي ينبغي أن يعود الفائض إلى الخزينة (بيت مال المسلمين) ولا يعود أبدًا إلى مالكه السابق.

وفي معاهدات السلام بين أي قوة أوروبية وسلطان المغرب، يكون دائمًا الغرض من إحدى بنودها حماية الرعايا. وهكذا، في المعاهدات الإنجليزية إذا ارتكب مواطن إنجليزي في الإمبراطورية جريمة معينة فلا يخضع لأحكام القانون المحمدي، بل يحاكم بموجب القانون الخاص ببلده. فينبغي تسليمه إلى القنصل حتى تصفى قضيته بالتراضي بين الطرفين. وبما أن العديد من التقارير قد ذهبت إلى الخارج فيما يتعلق بالتاجر البريطاني السيد لايتون في موﮔادور، بعد أن تم اقتلاع أسنانه بأمر من الإمبراطور، فمن المهم عرض تفاصيل هذه الواقعة في إطارها الحقيقي.

كان السيد لايتون الشريك الأول في شركة تجارية محترمة ذات رأس مال كبير. وكان الشريكان الآخران فرنسيين، وقد تم إخطارهما رسميًا بأن ملك فرنسا[3] قد قطع جميع العلاقات مع المغرب، الأمر الذي اضطر معه

---

[1] تلك هي ترجمة النص أسفله. وهو يقصد الوكيل الذي ينوب عن المتقاضي أمام القاضي، لكنه لا يعمل تحت إمرته.
He has under him several (l'ukil) attorneys

[2] هنا يكرر المؤلف ما جاء عن الطبيب لمبريير وعن القنصل شينيي أعلاه. كأجانب لم يعيشوا ذلك. لكنه كان شائعا بينهم كتجار ودبلوماسيين مقيمين بالمغرب. وبلا شك ليس لهم من مصدر عنه سوى المغاربة أنفسهم، من علية القوم ككبار التجار والأعيان والموظفين في الدولة الذين كانوا يخالطونهم.

[3] هذه القضية حاصلة بلا شك في أخر النظام الملكي قبيل الثورة الفرنسية وإذا في عهد لويس السادس عشر بفرنسا وعهد سيدي محمد بن عبد الله بالمغرب كما سيؤكد المؤلف ذلك لاحقا.

التجار الفرنسيون إلى مغادرة البلاد أو طلب حماية أخرى[1]. ومع انتشار معاملات تلك الشركة في جميع أنحاء المغرب صعب على الشريكين الفرنسيين الرحيل المفاجئ والتخلي عن مصالحهما، فاقترحا على شريكهما الإنجليزي أن يسجل الشركة باسمه. تلك كانت حيلة حتى تصبح مصالحهما محمية في شركة إنجليزية.

وبعد ظهر أحد الأيام، خرج الشركاء الثلاثة للصيد على ظهور الخيل برفقة كاتب، ومعهم كلاب سلوقية في ملكية الشريك الإنجليزي السيد لايتون. وفي طريق العودة إلى موكّادور هاجم أحد الكلاب عجلًا في ملك أحد أهالي قرية مجاورة، فأطلق الشلْح صاحب العجل النار على الكلب، تلا ذلك اشتباك، وسرعان ما اندلعت ضجة في القرية. وأثناء العراك، شوهدت نساء شلوح يرجمن الصيادين الثلاثة بالحجارة وأصيب أحد الفرنسيين برضوض شديدة. كما تبادل معهم السيد لايتون الركل عدة مرات. ولما عاد إلى موكّادور قدم على الفور شكوى إلى الحاكم، الذي وعده بتحقيق العدالة.

نتيجة لذلك تم استدعاء باقي الأطراف الذين أصروا من جانبهم على تحقيق العدالة لهم مدعين أن لايتون كسر سنين لامرأة، ومتوسلين للإمبراطور بالله وبرسوله كي ينصفهم، فأجبر هذا النداء الحاكم على الكتابة إلى سيده، وأمر الأطراف بالذهاب إلى مراكش. وفيها تم إحضار شهود ضد السيد لايتون الذين قالوا إنه كسر أسنان المرأة بمؤخرة سوطه السميكة. فاضطر الإمبراطور إلى إصدار أمر بخلع اثنين من أسنانه كقصاص منه لفقدان السيدة لسنيها. ومع ذلك لم يبد ميالًا لتنفيذ الحكم. لكن الناس الذين تجمعوا بأعداد كبيرة في هذه المناسبة غير العادية هتفوا بصوت عال مطالبين بتنفيذ القصاص في الجاني. ولما لوحظ أن بريطانيا أهملت الدفاع عن مواطنها صار يقال في المغرب إذا الدول الأوروبية لم تكلف نفسها عناء حماية رعاياها فلماذا نحميهم نحن؟

وعندما اقترب الجلاد من السيد لايتون طلب منه إزالة اثنين من أسنانه الخلفية بدلاً من سنتين أماميتين. الأمر الذي تطلب موافقة الإمبراطور. ولما كان جلالة الملك معجبا بالشجاعة التي تحلى بها السيد لايتون من أجل الخضوع للعملية وافق على طلبه واعتذر له في اليوم التالي. وأفهمه أنه لم يكن بوسعه تفادي الأمر بتنفيذ حكم القانون لأنه كان من الضروري تهدئة غضب الناس. ووعده بأن يمنحه أي امتياز يطلبه منه. فطلب لايتون الإذن بتحميل وتصدير شحنة قمح، فما كان من الإمبراطور إلا أن استجاب لطلبه. وأعتقد أنها كانت شحنة معفاة من أداء الرسوم الجمركية.

ثم قدم الإمبراطور خدمات مماثلة إلى السيد لايتون وأبلغه بأنه يرغب في أن يتم تعيينه قنصلًا بريطانيًا، لكنه رفض. ومع ذلك، كرر الإمبراطور هذه الرغبة له في كثير من الأحيان، مشيدا بمزايا التفاوض مع شخص يمكنه التحدث معه بلغته الخاصة. ووعده، في حال ما صار قنصلا، بمنح بلاده كل الامتيازات التي ترغب فيها. وبما أن لايتون لم يحظ بدعم بلاده من بعد الإساءة التي تعرض لها، أو لأي سبب آخر، ارتأى أن يرفض تلك المبادرات المتكررة من سيدي محمد.

[1] يعني حماية من قنصلية أخرى.

الجاسوس الإسباني دومينڭو باديا الملقب بعلي باي العباسي

دومينڭو فرانثشيسكو باديا إي ليبليش[1] المعروف باسم علي باي، هو ضابط إسباني، ولد عام 1767 في برشلونة وتوفي سنة 1818 بالقرب من دمشق. اسم والده بيدرو باديا. يقال إن والدته هي من أب بلجيكي قاتل في إسبانيا. دخل دومينڭو الجيش في سن السادسة عشرة، وخلف والده فيه كمحاسب حرب ثم كمساعد أمين صندوق بموجب مرسوم ملكي في 28 ديسمبر 1786. وأثناء قيامه بمسؤولياته المختلفة تمكن بعصامية من مختلف المعارف في أكثر المجالات تنوعًا، كالرياضيات والتاريخ والهندسة المعمارية وعلم الفلك واللغات الأجنبية وغير ذلك. واكتسب ثقافة شهد على جديتها لاحقًا العلماء والكتاب الذين التقى بهم.

في عام 1801 قدم إلى رئيس وزراء ملك إسبانيا شارل الرابع[2] مشروع بعثة علمية إلى إفريقيا. ثم تحول هذا المشروع إلى خطة سياسية تتمثل في تحريض بعض قبائل المغرب على الانتفاضة ضد السلطان لغزو بلادهم. وقام رئيس الوزراء ڭودوي بتمويل المغامرة بسخاء.

فغادر دومينڭو باديا إسبانيا عام 1803 متنكرا، وأطلق على نفسه اسم علي بك وادعى أنه أمير عباسي من نسل النبي محمد ﷺ، ومولود في سوريا. ولتبرير عدم إتقانه للغة العربية أوضح أنه تلقى تعليمه في أوروبا. وتصرف كمسلم تقي وأعلن أنه كان في طريقه لأدا فريضة الحج بمكة. ولتقديم نفسه على أنه مسلم حقا، سمح بختانه في لندن قبل الانطلاق في رحلته. وأمضى ستة وعشرين شهرًا في المغرب. جاب خلالها البلاد وراقب العباد بعيون أوروبية. وظل على اتصال مع كفيله من خلال رسائل مشفرة.

لكن بعد اكتشافه وفشله في مهمته اضطر إلى مغادرة المغرب على عجل هربًا من الموت. وبدلاً من العودة إلى أوروبا شرع في رحلة شرقية قادته إلى مكة المكرمة. وعلى الرغم من أنه ليس أول مسيحي يدخل المدينة المحظورة على غير المسلمين إلا أنه كان أول من قدم وصفًا سرديًا دقيقًا مصحوبًا بمخططات ورسومات.

عندما عاد إلى أوروبا، وجد كفيله قد تمت إقالته مع حكومته من سدة الحكم. فعرض خدماته على نابليون سنة 1808 ورافق شقيقه جوزيف الأول عندما دخل مدريد. لكنه في عام 1813 اضطر إلى الذهاب إلى المنفى ولم يعد منه أبدًا إلى إسبانيا. ونشر في فرنسا كتابه تحت عنوان "رحلات علي بك العباسي في أفريقيا وآسيا خلال الأعوام 1803 و1804 و1805 و1806 و1807"[3]. وتحدث فيه عن لقاءاته المتعددة مع السلطان مولاي سليمان (1792-1822) الذي اعترف به، على حد قوله، كمسلم صالح وكعالِم متعدد التخصصات. كما تم الاعتراف به كعالم دين في دائرة العلماء الضيقة والمغلقة بمدينة فاس. في نفس الكتاب الذي ترجم إلى عدة لغات، نجد معلومات مثيرة للاهتمام، لا سيما عن الجوانب الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والدينية للعالم العربي وفي مقدمته المغرب، علاوة على خرائط للمدن الرئيسية التي زارها. في عام 1818 بدأ علي بك رحلة جديدة إلى الشرق، لكنه مات هناك بالقرب من دمشق ضحية مرض الزحار.



رسم لباديا متنكر في زي مسلم

---

[1] *Domingo Francisco Jordi Badía y Leblich*

[2] كارلوس الرابع كان ملك إسبانيا في الفترة الممتدة من 14 ديسمبر 1788 إلى 19 مارس 1808..

[3] *Voyages d'Ali Bey el Abbassi en Afrique et en Asie pendant les années 1803, 1804, 1805, 1806 et 1807*, de l'imprimerie de P. Didot l'aîné ,Paris, 1814

1. الغرض من زيارتي لبلاد المسلمين.

قضيت سنوات عديدة في بلاد المسيحيين[1]. ودرست في مدارسهم العلوم الطبيعية والفنون المفيدة لحياة الإنسان في المجتمع، مهما كان دينه ومهما كانت عقيدته. ثم قررت أداء فريضة الحج بمكة[2] مرورا ببلاد المسلمين. وقررت خلال هذه الرحلة الطويلة ملاحظة وتسجيل عادات وتقاليد وطبيعة تلك البلدان من أجل أن أفيد بها المواطنين بالبلد الذي سأختاره في النهاية وطنا لي.

وهكذا من إسبانيا عبرت مضيق جبل طارق في أربع ساعات ووصلت إلى ميناء طنجة في 3 يونيو من عام 1803، الموافق ليوم الأربعاء 9 ربيع الأول من السنة 1218 للهجرة. الإحساس الذي يشعر به المرأ الذي يقوم بهذه الرحلة القصيرة لأول مرة لا يمكن مقارنته إلا بما يرى في الحلم. يمر إلى عالم جديد تمامًا، ليس له أدنى تشابه مع ذلك الذي خرج منه وكأنه انتقل حقًا إلى كوكب آخر. يلامس في نفس الصباح طرفي سلسلة الحضارة. على بعد اثنين إلى ثلاثة فراسخ، وهي أقصر مسافة بين الساحلين، يجد نفسه وكأنه سافر في الزمن إلى ما قبل عشرين قرنًا.

بعد فترة وجيزة من وصولي إلى طنجة، بدأت حياتي تصبح ممتعة للغاية. قام بزيارتي القاضي سيدي عبد الرحمن لمفرش. وأعلنت عن كسوف الشمس الذي كان من المقرر أن يحدث في 17 أغسطس. ووصلت أمتعتي وآلاتي من أوروبا على متن سفينة مع الهدايا التي قدمتها للقاضي وللقايْد ولباقي الشخصيات الرئيسية علاوة على سخائي مع آخرين. كل هذا ساعد في تركيز الانتباه العام عليّ حتى أنني كسبت في وقت قصير تفوقا مؤكدا على كل الأجانب وعلى كل الشخصيات المهمة في المدينة.

2. لقائي بالسلطان مولاي سليمان[3] في طنجة

في الخامس من شهر أكتوبر أعلنت طلقات منصات مدفعية طنجة عن وصول السلطان مولاي سليمان إمبراطور المغرب. في اليوم التالي أجريت مقابلة مع القايْد والقاضي معا لتحضير استقبالي من طرف للسلطان، فسألني القايْد عن قائمة الهدايا التي أنوي تقديمها له. فسلمتها له وسرعان ما اتفقنا على كل شيء.

وبما أن اليوم كان يوم جمعة، ذهبت أولاً إلى المسجد الكبير لأداء صلاة الظهر وكان من واجب السلطان أيضًا الذهاب إلى هناك. وتمت الصلاة على غرار بقية أيام الجمعة، سوى أن الخطبة كانت على لسان فقيه السلطان الذي أصر بشكل قاطع على أنه من الذنوب الجسيمة المتاجرة مع المسيحيين فلا نبيعهم أو نقدم لهم أي نوع من الطعام والشراب وأشياء من هذا القبيل. وحالما انتهت الصلاة عدت إلى المنزل. وفي الساعة الثالثة بعد الظهر، أرسل إلي القائْد تسعة رجال لمساعدتي على حمل هديتي للسلطان المكونة من عشرين بندقية إنجليزية مع حرابها وبندقيتين من العيار الكبير، وخمسة عشر زوجًا من المسدسات الإنجليزية وبضعة آلاف من حجارة قدح نار البنادق، وكيسين من رصاص الصيد ومستلزمات صياد كاملة، وبرميل من أفضل بارود في إنجلترا، وقطع مختلفة من قماش الموسلين مطرزة وذات لون واحد ، وبعض المجوهرات الصغيرة، ومظلة جميلة، وحلويات وعطور. كانت الأسلحة في صناديق مغلقة والأشياء الأخرى مرتبة على أطباق كبيرة مغطاة بقطع من الحرير الأحمر المضفور بالفضة.

صعدت مع القايد إلى القصبة وإلى جانبنا كانت الهدية محمولة على أكتاف خدمي والرجال الذين أرسلوا إليّ. ولما خرج السلطان تقدمنا فحنيت له رأسي ويدي على صدري، وأجاب السلطان بنفس الشيء وقال لي أهلا وسهلا، ثم تقدم القايد وحده مع الهدية. وكان هناك ما لا يقل عن عشرين شخصًا، كان معظمهم من الحمالين ومن كبار الضباط. ثم خلعنا نعالنا عند الباب وتقدمنا حفاة وفق العادة. وقف الضابطان بجانبي ويمسك كل منهما إحدى ذراعي، وتقدمنا منحنين انحناء الركوع، واليد اليمنى موضوعة دائما على الصدر. وبعد أن كرر لي السلطان عبارات الترحيب بي جعلني أجلس وظل القايد واقفًا. ثم أخبرني السلطان بحرارة وبنبرة مفعمة بالود أنه مسرور برؤيتي. لقد وجدت أن هذا العاهل منفتح لصالحي بشكل جيد، الأمر الذي أدهشني أكثر لأنني لم أفعل شيئًا من أجله.

[1] كتب كتابه مخاطبا المسيحيين من بني جلدته ودينه على أنه مسلم حقا بالرغم من نفاقه.

[2] هو أوروبي ومسيحي كما تقدم، ويتكلم هنا منتحلا صفة المسلم الورع والشريف.

[3] هو أبو الربيع سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل (1760- 1822). حكم ما بين 1797 و1822.

وسألني في أي البلدان كنت، وما هي اللغات التي أتحدث بها، وإذا كان بإمكاني كتابتها، وما هي العلوم التي درستها في مدارس المسيحيين، وكم من الوقت كنت أقيم في أوروبا. ثم بعد أن شكر الله على إخراجي من بلاد الكفار عبر عن أسفه على أن رجلاً مثلي استغرق وقتًا طويلاً قبل المجيء إلى المغرب. وسره أنني فضلت بلاده على الجزائر أو تونس أو طرابلس. وأكد لي في مناسبات مختلفة على حمايته لي وعلى صداقته.

عندما حدثني السلطان عن أجهزتي الفلكية أحضر إسطرلابا معدنيا صغيرا قطره ثلاث بوصات يستخدمه لضبط ساعاته وأوقات الصلاة. وسألني إذا كان لديّ إسطرلاب مماثل. أجبته بالنفي مضيفًا أن تلك التي كانت بيده هي أدنى جودة بكثير من تلك المصنعة حديثا. ثم سألني إذا كانت لدي آليات للرصد، فكان ردي بالإيجاب، فأخبرني أنه يريد رؤيتها وأنه يمكنني الذهاب لإحضارها. لم يكد ينطق بهذه الكلمة حتى جاء قايد ليأخذني من يدي وليرافقني بعيدًا. لكن من دون تغيير مكاني أشرت للسلطان أنه من الضروري للغاية الانتظار حتى اليوم التالي لأنه لم يبق هناك ما يكفي من الوقت لإعدادها. فقال لي "حسنًا أحضرهم غدًا". فقلت "في أي وقت". قال "في الثامنة صباحا". وقلت "لن أفوتها". ثم ودعته وخرجت مع القايد الذي كان ينظر إلي بدهشة لأنه في المغرب لا أحد يعقب على كلام السلطان. وبمجرد وصولي إلى المنزل جاءتني مجموعة من خدام القصر تطالبني بالعلاوات اللازمة في مثل تلك الظروف. تخلصت منهم بفضل خدمي بكلفة أقل مما توقعت.

اللقاء الثاني: في اليوم التالي ذهبت إلى القلعة في الوقت المحدد، حيث كان السلطان ينتظرني في نفس المكان مع الفقيه أو المفتي الرئيسي ومقرب آخر. كان الشاي الجاهز أمامه. كان يتألف من وعاء سكر من الذهب وإبريق شاي وإبريق حليب وثلاثة أكواب من خزف أبيض مذهب. والكل مصفوف في صينية كبيرة مذهبة. وفقًا لعرف البلد يوضع السكر في إبريق الشاي، وهي طريقة غير مريحة إلى حد ما، لأنه يجبر الضيف على تناول السكر إما كثيرًا أو قليلا.

وحالما دخلت جعلني أجلس بجانبه، ثم أخذ إبريق الشاي وصب لي منه في كوب مع الحليب وقدمه لي بنفسه، ثم طلب الورق والحبر. وأحضروا له قطعة من الورق الرديء ومكتب ومحبرة من قرن وبها ريشة من القصب. وكتب في أربعة أسطر ونصف نوعًا من الدعاء وأعطاه للفقيه ليقرأه،، ولاحظ هذا الأخير أن هناك كلمة منسية. فتناول السلطان الورقة مرة أخرى وأضاف الكلمة المفقودة. وبعد الانتهاء من تناول الشاي قدم لي جلالته تلك الورقة حتى أتمكن من قراءتها. ورافق قراءتي بالإشارة بإصبعه على الورقة كلمة بعد كلمة مع تصحيح عيوب نطقي بها كما يفعل المعلم مع تلميذه. لما انتهيت من قراءتها شرفني بالاحتفاظ بها، وما زلت أحتفظ بها.


بسم الله الرحمن الرحيم
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم
ءامنت بالله وملائكته وكتبه ورسله (*)
وباليوم الآخر وبالقدر

وهذه صورة للدعاء بخط السلطان مولاي سليمان بزعم المؤلف كما وردت في كتابه

ثم طلب رؤية آلياتي. وتفحصها قطعة قطعة بأدق التفاصيل. وطلب مني توضيحات في شأن ما لم يعرفه أو لم يكن يعرف استخدامه. لقد أظهر متعة كبيرة وطلب مني أن أقوم برصد فلكي أمامه. ولإرضائه، أخذت ارتفاعين للشمس بواسطة دائرة مكبرة. ثم أريته كتبًا مختلفة من الجداول الفلكية واللوغاريتمات التي أحضرتها لأوضح له أن مجرد الأدوات عديمة الفائدة من دون الاستعانة بهذه الكتب وبغيرها. كان مندهشا للغاية لرؤية هذا العدد الكبير من الأرقام. ثم قمت بتكريمه بآلياتي لكنه رد بأنه يجب عليّ الاحتفاظ بها لأنني كنت الوحيد الذي يعرف استخدامها وأنه سيكون لدينا ما يكفي من الأيام والليالي للاستمتاع معا بالنظر إلى السماء. فرأيت بوضوح بأنه يريد أن يبقيني قريبًا من شخصه ويجعلني في خدمته. الأمر الذي تأكدت منه بالفعل بتعابير أخرى. وأضاف أنه يريد رؤية باقي آلاتي، فعرضت عليه أن أحضرها إليه في اليوم التالي واستأذنت بالانسحاب.

اللقاء الثالث: في اليوم التالي ذهبت إلى السلطان. صعدت إلى غرفته. وجدته مستلقيًا على فراش صغير جدًا ووسادة. وقد جلس أمامه على سجادة فقيه كبير واثنان من المقربين. وبمجرد أن رآني، جلس وأمر بإحضار فراش آخر وكان من المخمل

الأزرق مثل فراشه، ووضعه بجانبه وأجلسني هناك. بعد مجاملات قليلة من كلا الجانبين طلبت إحضار آلة كهربائية[1] والصندوق المظلم[2]. لقد قدمتها له كأشياء للتسلية البسيطة التي لا تتعلق بالعلوم. وبعد أن جمعت الآلتين وضعت الغرفة المظلمة بالقرب من النافذة. قام السلطان ودخل الغرفة مرتين. لقد غطيته بصدرية خلال فترة طويلة من الوقت كان يتسلى فيها من خلال التفكير في الأشياء التي تنقلها الآلة. الأمر الذي اعتبرته أعظم دليل على ثقته. ثم قام بتسلية نفسه برؤية الزجاجة الكهربائية تنفجر عدة مرات. لكن ما ملأه بالدهشة هو تجربة الصدمة الكهربائية. فجعلني أكررها عدة مرات بينما كنا جميعًا ممسكين بأيدينا لتشكيل سلسلة. وطلب مني شرحًا مطولًا لهذه الآلات وتأثير الكهرباء. وكنت قد أرسلت إلى السلطان في اليوم السابق عدسة مكبرة. فطلبتها منه لتعديلها وفق بصره. وذلك ما فعلته فورًا بوضع علامة على الأنبوب بالدرجة المناسبة وفقًا للاختبار الذي أجراه عليها.

كانت لدي شوارب طويلة جدا. سألني السلطان عن سبب عدم قصها مثل المغاربة الآخرين. أشرت إليه أنهم في بلاد الشام يُبقونها كاملة. فأجاب: "جيد جيد، لكن هذا ليس هو العرف هنا". وبعد أن أحضر مقصًا قطع قليلا من شاربه ثم أخذ بشاربي وأراني ما يجب قطعه منه أو تركه. ربما كان يريد تقصيرها بيده. لكن بما أنني لم أجب وضع المقص، ثم سألني إذا ما كانت لديّ أداة مناسبة لقياس الحرارة، فتعهدت بإرسالها إليه. واستأذنت وانصرفت مع أدواتي. وفي نفس اليوم أرسلت له ميزان الحرارة.

في يوم الثلاثاء، 11 أكتوبر أرسل إلي القايد أمر السلطان بأن أكون مستعدًا للمغادرة معه إلى مكناس في اليوم التالي. ويقول لي بأن أسأله عن أي شيء قد أحتاجه. ذهبت على الفور لرؤية القايد الذي كان في القلعة، لأوضح له أنني لا أستطيع المغادرة مبكرًا وأنني بحاجة إلى البقاء لبضعة أيام أخرى في طنجة. فسألني كم من الوقت أحتاجه. قلت له مدة عشرة أيام. ثم أخبر السلطان بذلك فمنحني إياها على الفور.

وفي المساء، كنت في المنزل محاطاً بأصدقائي عندما وصل خادم السلطان ومعه هدية منه. بعد أن تم تقديمه على الفور بأوامر مني عرف بنفسه حانيا، ووضع أمامي مظروفًا من القماش ذهبي وفضي. رؤية الهدية الأولى من إمبراطور المغرب جعلتني أفتح الظرف بشغف. فوجدت فيه خبزتين سوداوين إلى حد ما. وبما أنني لم أكن مستعدًا بأي حال من الأحوال لتلقي مثل هذه الهدية لم يخطر ببالي في اللحظة الأولى محاولة تفسير هذا الأمر الغريب. لقد أصبت بالدهشة للحظة لدرجة أنني لم أعرف ماذا أجيب. لكن الذين كانوا معي سارعوا إلى تهنئتي، قائلين إنه عليك أن تعتبر نفسك سعيدًا! ويا لها من سعادة! أنك أخ السلطان والسلطان أخوك. فتذكرت أن أقدس علامة على الأخوة بين العرب هو تقديم قطعة خبز لبعضهم البعض ليأكلا كلاهما منها[3]. وبالتالي كانت هذه الأرغفة التي أرسلها السلطان علامة أخوته معي. كانت سوداء، لأن الخبز الذي يتناوله السلطان يُخبز في أفران حديدية محمولة. مما يعطيه ذلك اللون الأسود بالخارج. لكن من الداخل فهو أبيض جدًا وجيد جدًا.

ويبدو أن السلطان مولاي سليمان يبلغ من العمر أربعين عامًا تقريبًا. هو طويل القامة ووسيم وممتلئ الجسم. محياه الجميل ليس كثير السمرة ويحمل علامات اللطف وروعة المعشر. يتحدث بسرعة ويفقه بيسر. وبعبارة ملطفة فإن لباسه بسيط للغاية، لأنه دائمًا ما يكون ملفوفًا في حيك فج. فهو يتعفف عن أي نوع من الترف، ويلهم رعاياه نفس روح الالتزام بالدين. باستثناء شقيقه مولي عبد السلام[4] وأنا، لا يكاد أحد يجرؤ على إظهار أدنى مظهر من الأبهة.

السلطان المتواضع يأكل بأصابعه مثل باقي العرب الآخرين. ومع ذلك، عندما دعاني لتناول العشاء معه، أمر بتقديم ملعقة خشبية لي، لأن الشرع يحظر استخدام المعادن النفيسة في صنع الأواني. وهي لا تختلف بأي حال من الأحوال عن تلك

[1] الظاهرة الكهربائية في الطبيعة كانت معروفة من قديم الزمن عند الإغريق والرومان والعرب عن طريق كل من أحد أسماك نهر النيل والبرق والرعد. وتم التوصل إلى إحداث الصدمة الكهربائية بآليات خاصة في أوروبا منذ بداية القرن الثامن عشر. الأمر الذي كان غريبا بالنسبة لباقي الأمم. وهو الذي أدهش السلطان مولاي سليمان هنا مع علي باي. وقد تم اختراع المحرك الكهربائي عام 1821 من طرف الفزيائي والكيمائي الإنگليزي مايكل فاراداي. كما قام عالم الفيزياء الألماني جورج أوم بتحليل الدائرة الكهربائية حسابيًا عام 1827.

[2] ويسمى بالفرنسية *chambre noire* بداخله مرآة مائلة تسقط الصورة الخارجية مقلوبة على ورق شفاف موضوع على السطح الزجاجي في أعلى الصندوق.

[3] ولا تزال عبارة "نشترك الطعام" أم عبارة "نشترك في الملح والطعام" تروج بين المغاربة للتعبير عن بداية الصداقة بينهم.

[4] مولاي عبد السلام هو نفس الأمير المذكور أعلاه حين كلف والده سيدي محمد الطبيب الإنگليزي لمبريير بعلاج عينيه. وقد وجده هذا الجاسوس الإسباني أعمى، كما سيؤكد ذلك أسفله.

التي يستعملها رعاياه. لا يأكل أبدًا سوى من الوجبات التي تعدها له زنجيات في الحريم. لكنه في بيتي كان يأكل من تلك التي حضرها طباخي.

وعلى الرغم من أن مولاي سليمان يعيش حياة مستورة من دون بهرجة، إلا أن نفقاته على أسرته كبيرة للغاية بسبب العدد الكبير من نسائه وأطفاله. لا يمكن أن يكون له سوى أربع زوجات شرعيات، بالإضافة إلى جواري. لكنه كثيرًا ما يطلّق بعضهن ويأخذ زوجات جديدات. ويحيل المطلقات إلى تافيلالت حيث يمنحهن معاشًا للإنفاق على معيشتهن. رأيت عدة مرات السكان يعرضون عليه بناتهم اللائي يدخلن الحريم تحت اسم خادمات. ولما ترضيه إحداهن يرقيها إلى مرتبة زوجة وقد يطلقها بدورها.

مولاي سليمان فقيه وعالم شرعي، وكل تعليمه إسلامي بحت. يقضي جزءًا من يومه في الصلاة، ولذلك بالذات هو أكثر ورعًا من غيره. ونتيجة لهذا المبدأ، عندما تم تنصيبه بهدوء على العرش كان أحد أول قراراته هو اقتلاع جميع مزارع التبغ التي كانت موجودة في الإمبراطورية، والتي كانت توفر لقمة العيش لبضع آلاف الأسر. وعلى الرغم من أن تدخين التبغ لا يحظره الشرع صراحةً، إلا أنه عند الأصوليين بمثابة رجس تقريبا. ومع ذلك كان الأمير مولاي عبد السلام يدخن كثيرا. أما مولاي سليمان فنادرا ما كان يفعل. وباستثناء سكان الموانئ أو البحارة فلا يدخن من الأهالي إلا القليل .

وهذا المبدأ نفسه هو أيضًا سبب إحجام مولاي سليمان عن التعامل مع المسيحيين. إنه يخشى دائمًا أن تنتهي العلاقات مع الكفار إلى إفساد المؤمنين. وهذه النظرة تجعل أي علاقة تجارية صعبة للغاية، بحيث أن هناك أشخاصًا يستطيعون تصدير أساطيل كاملة من الحبوب، وهم لا يكادون يملكون المال للعيش، لكن لا يمكنهم بيعه في الخارج[1].

ليس للإمبراطورية المغربية دستور أو قانون مكتوب، فليس فيها نظام محدد للخلافة على العرش. يجب على كل من له الحق فيه، قبل أن يرى نفسه سيدًا للإمبراطورية، أن يقاتل إخوته وغيرهم من الطامحين الذين يوجد إلى جانب كل منهم حشد من الشعب يقاتل لصالحه. تافيلالت يسكنها أكثر من ألفي شريف. وجميعهم يعتبرون أنفسهم أن لهم حقوقا في عرش المغرب. ولهذا السبب، يتمتعون ببعض الامتيازات من السلطان. في فترة التناوب على الحكم يحمل الكثيرون منهم السلاح. وبما أن المغرب ليس لديه جيش سانح لخنق مثل هذه التحركات، فإنهم يغرقون البلاد في الفوضى. وهكذا فإن وفاة كل أمير متنافس على العرش تعني دائماً وفاة آلاف الرجال. وقد اعتلى مولاي سليمان عرش الإمبراطورية بسلاسة بعد الانتصار السريع على إخوته.

في اليوم التالي بعد آخر لقاء لي مع السلطان تلقيت زيارات من بعض أبناء عمومته أو أقارب آخرين، ثم ذهبت مع القاضي للقيام بزيارة للأخ الأكبر للإمبراطور، واسمه مولاي عبد السلام. ومن سوء حظه أنه أعمى[2]. كانت جلستنا التي استمرت قرابة الساعة تدور على الإحسان بالكامل. في نفس المساء، وبرفقة القاضي الطيب، ذهبت لزيارة رئيس الوزراء سيدي محمد السلاوي الذي استقبلنا في ركن من البيت الخشبي حيث رأيت السلطان، وكان ذلك الركن بفانوس بائس من القصدير من أربعة أكواب موضوع على الأرض بجانبه. وكان جالسا على الأرض، وحتى بدون سجادة بسيطة. كان قد استقبل في نفس المكان القنصل العام لفرنسا، الذي كان يغادره لحظة دخولي. جلسنا بجانبه على الأرض، وقضينا ربع ساعة في الإطراء المتبادل.

ثم ذهبت مع القاضي للقيام بزيارة ابن عم السلطان مولاي عبد المالك. وهو رجل محترم للغاية، وهو قائد الحرس. كان في الخيمة مستلقيا على فراش مع أحد أطفاله الصغار وبجانبه فقيه. عندما دخلنا، قام الفقيه وجلس مولاي عبد المالك وجعلنا نجلس بجانبه على فراش آخر. موضوع محادثتنا التي استمرت قرابة الساعة كانت تدور بالأساس حول الإحسان.

من أجل القيام بهذه الزيارات كنا نسير القاضي على بغله وأنا على حصاني وباقي المرافقين على الأقدام وحاملين للفوانيس. لقد قدمت هدية لكل من ذهبت لرؤيته، من دون أن أنسى إعطاء إكراميات للبوابين والخدام. كما كنت سخيا مرة أخرى مع بعض الضباط والمفضلين الكبار عند السلطان.

---

[1] بل سبب حظر تصدير الحبوب كان على الأرجح من باب الاحتياط لمواسم الجفاف وكوارث الجراد كالتي عرفها المغرب في عهد سيدي محمد بن عبد الله.

[2] كما تقدم، هو نفس الأمير الذي عالجه الطبيب الإنجليزي وليام لمبريير بطلب من أبيه السلطان سيدي محمد بن عبد الله وتماثل للشفاء حينها كما هو وراد أعلاه. لكنه وُجد هنا أعمى.

3. أحوال البلاد وتقاليد العباد في بداية القرن التاسع عشر

الطعام وآدابه: المواد الغذائية متوفرة بكثرة في طنجة وبسعر زهيد، خاصة اللحوم الشاحمة جدا. يُصنع هناك خبز جيد جدًا، وحتى أقله جودة ليس سيئًا. المياه ممتازة، على الرغم من سوء صيانة القنوات. لا توجد حانات لبيع النبيذ، لذلك يضطر القناصل لجلبه من أوروبا للاستهلاك الخاص. وأما الفواكه فهي رائعة ولا سيما التين والبطيخ والعنب وبرتقال تطوان.

الطعام الرئيسي لسكان المملكة المغربية كلهم هو "الكسكسو"[1]. وهو عجين يتكون ببساطة من خلط الدقيق بالماء يتم تقسيمه إلى قطع أسطوانية بحجم الإصبع، ثم يتم تصغيرها باليدين إلى حبيبات صغيرة بمهارة شديدة. وتوجد منها جميع الأحجام، من أجودها مثل "العصيدة" إلى أكبرها التي تشبه حبات الأرز. وأخيرا يتم تجفيفها بتعريضها على قماش إما إلى حرارة الشمس أو ببساطة في الهواء الطلق. ولطهيه يوضع الكسكسو مع الزبدة في إناء قاعه مخزوم بثقوب صغيرة، والذي يوضع بدوره فوق وعاء آخر أكبر، فيه عند الفقراء الماء فقط. أما الأثرياء فيضيفون إليه اللحم والخضر. ويتم وضع القدر المزدوج فوق النار، فيتصاعد البخار من القدر السفلي ويدخل من ثقوب القدر العلوي كي يطبخ الكسكسو الموجود فيه. وإذا كان هناك لحم في القدر السفلي يتم تقديمه في وسط طبق محاطًا ومغطى بالكسكسو في شكل هرمي بدون صلصة ولا مرق[2]. أنا أعتبر هذا الطعام أفضل ما يمكن للناس تناوله، لميزة سهولة الحصول عليه ونقله، علاوة على أنه مغذي للغاية وصحي وممتع.

المسلمون يأكلون بأصابع اليد اليمنى وبدون شوكة أو سكين لأن النبي هكذا كان يفعل. هذه العادة، التي تصدم المسيحيين كثيرًا، ليست مع ذلك مقززة أو غير صحية. وفضلا عن الوضوء الشرعي الذي يقوم به المسلم أثناء النهار، والذي يغسل فيه يديه كما سنرى لاحقا، فإنه يغسلهما أيضا في كل مرة يجلس فيها إلى المائدة وبعد أن يأكل حتى تبقيا نظيفتين دائمًا. ويؤكل الكسكسو بجمعه باليد في شكل كرة صغيرة ثم يرمى في الفم. أما عادة التقاط اللحوم بالأصابع لتناولها فمريحة للغاية.

هناك أيضًا طهاة في المغرب يفهمون جيدًا حرفتهم، ويطبخون عددًا كبيرًا من الأحساء بأنواع مختلفة من اللحوم والدواجن ولحوم الصيد والأسماك والخضروات والأعشاب. وبما أن تناول الدم محظور يتم الحرص على خروج كل دم الذبيحة. وعادة ما يكون لدى الأثرياء طهاة من الإماء السود. ومنهن الماهرات للغاية.

ولتناول الطعام يتم الجلوس على الأرض أو على بساط حول طاولة مستديرة صغيرة بدون أرجل، قطرها عشرون إلى ثلاثين بوصة وبحافة مرتفعة من خمس إلى ست بوصات، وتكون مغطاة بسلة مخروطية الشكل مصنوعة من الخيزران أو سعف النخيل وتكون أحيانًا ذات ألوان مختلفة.

يتناول الجميع الطعام من نفس الطبق. وعندما يكون هناك عدد كبير من الضيوف يتم تقديم عدة طاولات في نفس الوقت يجلس حول كل منها أربعة أو ستة أشخاص وأرجلهم متقاطعة. أحيانًا يتم وضع عدد معين من شطائر الخبز الرقيقة جدًا على المائدة وحول الطبق. وفي أحيان أخرى يتم تقديم كوب كبير أو وعاء مملوء بالحليب الرائب بشكل منفصل، مع ملاعق خشبية خشنة وطويلة وعميقة. ويأخذ الضيوف أحيانًا مع كل قضمة من اللحم أو الكسكسو ملعقة من هذا الحليب.

عند الجلوس حول المائدة للأكل يبدأ المسلمون بقول باسم الله، وينهون الوجبة شاكرين بقولهم الحمد لله. نفس الدعوات تقال قبل الشرب وبعده، ويكررونها عند القيام بأي عمل. لكن إذا كان اسم الله دائمًا في أفواههم، فإن إجلاله ليس دائمًا في قلوبهم. وعند الانتهاء من الأكل لا يغسلون أيديهم فحسب بل الفم كذلك مع مسح اللحية. من أجل ذلك يأتي خادم أو عبد وهو يحمل إناء من النحاس أو الخزف في يده اليسرى وجرة أو قلة في يده اليمنى وفوطة على كتفه الأيسر، ثم يخدم كل ضيف على حدة. وعند الأثرياء يقوم بهذه الخدمة خادمان، أحدهما يقدم الماء والآخر يناول الفوطة. وتنتهي الوجبة دائمًا بشرب فنجان من القهوة.

في الماضي كان المغاربة يستهلكون قدرا كبيرا من القهوة، كانوا يشربونها على مدار ساعات النهار كما هو الحال في بلاد الشام. لكن بعد أن قدم الإنجليز هدايا من الشاي إلى السلاطين فإن هؤلاء يقدمونه إلى أفراد بلاطهم. وسرعان ما انتشر استخدام هذا المشروب تدريجيًا حتى وصل إلى الطبقات الدنيا من المجتمع بحيث صار يتم اليوم تناوله أكثر نسبيًا في المغرب منه في إنجلترا. ولا يوجد مسلم ثري ليس لديه شاي في المنزل لاحتسائه طوال اليوم وتقديمه للأشخاص الذين يأتون لزيارته. يتم

---

[1] كما لا يزال يتم النطق باسمه باللغة الدارجة، وليس "الكسكس" كما هو معروف حتى اليوم باللغة العربية.

[2] بل قد يكون هناك مرق لم يره علي باي سائلا في الطبق كما تعود على ذلك، وقد امتصته حبيبات الكسكس.

تناول الشاي مكثفا بقوة، ونادرًا ما يخلط مع الحليب. ويضاف السكر إلى الشاي في الإبريق. الإنجليز هم الذين يزودون المغاربة بهاتين المادتين، وتجلب منهما كميات كبيرة من جبل طارق.

طقوس الزواج: يسمح القانون للمسلم بأربع زوجات شرعيات وبعدد الجواري اللائـي يستطيع إطعامهن فيشتريهن كإماء أو أسيرات حرب أو يستلمهن كهدايا. أما الزواج فيتم بعقد مبرم بين والد الخطيبة والخاطب أو والديه أمام القاضي والشهود من دون أي مراسيم دينية، بحيث يكون الزواج مدنيًا بحتًا. ومع ذلك فإن متطلبات العفة الزوجية والسلم الأسري يتم مراعاتهما في البيوت المسلمة بشكل أفضل مما هما عليه الأمر في بيوت الديانات الأخرى. قانون الطلاق يشكل عبءا كبيرا على المرأة. وتعدد الزوجات، في نفس الوقت الذي يرضي فيه الطبيعة في مثل هذه المناخات الحارة، لا يترك للزوج عذرا لإرضاء نزوة آثمة.

بعد توقيع العقد، عادة ما ترسل عائلة العريس الهدايا إلى منزل العروسة. يتم حملها أثناء الليل في مراسيم احتفالية مع عدد كبير من المصابيح والشموع والمشاعل تتوسطها فرقة من الموسيقيين وتحف بها مجموعة من النساء المزغردات. ثم يؤتى بالعروس إلى زوجها في موكب شبيه بموكب الأطفال الذين هم على وشك الختان.

كانت الساعة السادسة صباحًا عندما رأيت هذا المشهد لأول مرة في طنجة. حيث تحمل العروس على أكتاف أربعة رجال في سلة أسطوانية مبطنة من الخارج بغطاء من الكتان الأبيض ويعلوها غطاء مخروطي الشكل ملون بألوان مختلفة مثل ذلك الذي يستعمل لتغطية مائدة الطعام. الكل صغير جدًا لدرجة أنه بدا من المستحيل أن يكون قادرًا على استيعاب امرأة هناك. وبدت هذه السلة تمامًا مثل طبق وجبة طعام تم إرسالها إلى العريس. هذا الأخير، عند استلامه العروسة يرفع عنها الغطاء فيراها لأول مرة.

الحمام العمومي وطقوسه: الحمام العمومي في طنجة قبيح جدا وبائس المظهر[1]. تدخله من باب صغير. ثم تنزل عن طريق درج ضيق. وعلى اليمين يوجد بئر تسحب منه المياه اللازمة لخدمة المنشأة. على اليسار يوجد دهليز وبجانبه غرفة صغيرة. هاتان الغرفتان هما بمثابة غرف تبديل ملابس. على يمين الدهليز توجد غرفة أو بالأحرى قبو يتلقى القليل من الضوء لدرجة أنه عند دخوله يبدو مظلمًا تمامًا. أرضيتها مبللة وزلقة للغاية. يتم الاستحمام فيها بدلو من الماء الساخن وآخر من الماء البارد، ويلطف المستحم من حرار الماء بالمزج بين الماءين، ثم يصبه شيئًا فشيئًا على الجسم بيديه بعد أن يتوضأ[2].

الأشخاص الذين يريدون أخذ حمام البخار يذهبون إلى غرفة على اليسار. إنها مرصوفة ببلاط من الرخام الأبيض والأسود مرتبة على شكل رقعة شطرنج، وسقفها مقبب وفيه ثلاثة ثقوب دائرية يبلغ قطر كل منها حوالي ثلاث بوصات، ومغلقة بقطع من الزجاج من ألوان مختلفة، فيدخل منها ضوء جيد. باب هذه الغرفة مغلق دائمًا[3]. في آخرها يوجد حوض صغير يستقبل الماء الساخن بواسطة أنبوب. والماء البارد متوفر في الدلاء.

من اللحظة التي تدخل فيها إلى هذه الغرفة، تشعر بجو خانق ومجهد للتنفس. وفي أقل من دقيقة يغطى الجسم بالماء الذي يتجمع في قطرات كبيرة ويتقطر على الجلد فيغطيك عرق غزير من الرأس إلى أخمص القدمين. تجلس على بلاطات ساخنة فتشعر بحرارة لا تطاق في البداية لكنها سرعان ما تتبدد. وتبقى جالسا في هذه الغرفة بقدر ما يطيب لك وأنت تستحم. لكن الخروج لارتداء الملابس غير مريح للغاية، لأنه لا توجد غرفة متوسطة الحرارة قبل الخرج إلى الهواء الطلق[4].

في المرة الأولى التي دخلت فيها هذا الحمام شعرت بإرهاق شديد بسبب ارتفاع درجة الحرارة التي يحافظ عليها المرء هناك. لكن سرعان ما بدأت في التعود عليه، وأدركت قيمته. ومع ذلك، كنت أرغب في مزيد من الراحة وفي حرارة أقل. في كل مرة أعود فيها إلى هناك، كنت أجد ثمانية أشخاص أو عشرة أو أكثر وهم عراة تمامًا. وهو أمر ليس بلائق[5]. سعر هذه الحمامات هو موزونة التي يسميها الأوروبيون في البلاد بلانكيي والتي تعادل حوالي قرشين بالعملة الفرنسية.

[1] ربما يتسرع هنا في الحكم على كل الحمامات بما عاشه في حمام واحد.
[2] بالنظر لتتمة الحديث فالظاهر أن الأمر يتعلق هنا بطقس غسل الجنابة فقط.
[3] بل يفتح ثم يغلق تلقائيا من وراء المستحم حتى لا يخرج معظم البخار من الغرفة.
[4] إذا كان ذلك هو الحال بكل الحمامات في ذلك الزمان، فالأمر قد تغير اليوم من حيث توجد تلك الغرفة الوسيطة.
[5] أمر غريب، ولا تجده هو ومثله من الأمور العجيبة في كتاب لمغربي من ذلك العصر لأنه كان عاديا بالنسبة له. ولهذا من شأن شهادات الأجانب أن تكشف لنا اليوم عن مثل تلك الأمور العجيبة التي من حقنا أن نعرفها.

وللحفاظ على حرارة الحمام وبخاره الساخن، يوجد فرن أسفل الحجرة يقوم بتسخين كل من أرضيتها من فوقه، وصهريج يأتي منه الماء عبر أنبوب يفتح ويغلق بمخلب حسب الرغبة. وهناك أنبوب آخر يجلب البخار باستمرار من الماء الساخن بالصهريج. يزداد هذا البخار كثافة عندما يُسكب الماء فوق الأرضية الساخنة فيشحن بمزيد من الرطوبة.

تفشي الأمية: القراءة صعبة للغاية لعدم وجود الطباعة وبسبب الشكل العشوائي للحروف وغياب الحركات مع علامات التنقيط. ولهذا فإن سكان طنجة منغمسون في الجهل الأكثر فجاجة[1]. لقد وجدت شخصًا واحدًا فقط في هذا البلد سمع بالحركة الأرضية[2]. إنهم يحكون آلاف الخرافات عن الكواكب والنجوم وحركة النجوم، وليس لديهم أدنى فكرة عن الفيزياء. أحد أولئك الذين يسمون أنفسهم علماء رآني ذات يوم وبين يدي منظار الأفق الاصطناعي مليء بالزئبق لإجراء ملاحظة فلكية، فحذرني باهتمام كبير من أنها مادة ممتازة لقتل الحشرات، وعلمني كيف أضعه على ثنيات ودرزات الملابس. ذلك كان عنده الاستخدام الأكثر فائدة لمادة الزئبق.

ويخلط المغاربة[3] بين علم الفلك وعلم التنجيم، ولديهم الكثير من المنجمين. إنهم لا يعرفون الكيمياء، لكن لديهم بعض أتباع الخميائيين[4] المزعومين. ويجهلون الطب تمامًا[5]. إن مفاهيمهم حول الحساب والهندسة محدودة للغاية. ويكاد الشعراء عندهم يكونون منعدمين، أما المؤرخون فعددهم قليل[6]، لذلك يجهلون تاريخهم[7]. والفنون الجميلة[8] غير معروفة لهم. القرآن وشروحه هو القراءة الوحيدة لسكان طنجة. هذه الصورة شديدة الأمانة للأسف، وقد يُطلق على شعوب هذه المناخات بحق وصف البرابرة[9].

الأولياء: أن تكون وليا بين المسلمين هو وضع اجتماعي أو بالأحرى حرفة. يتم أخذ هذه الوضعية ويسمح بأخذها بشكل اعتباطي، وفي بعض الأحيان يتم توريثها. كان سيدي محمد الحاج وليًّا محترمًا جدًا في طنجة. بعد وفاته تم دفنه في ضريح صغير. وشقيقه الاصغر الذي ورث قداسته صار موضع تبجيل، إنه مخادع ماكر يأتيني من وقت لآخر للتقرب مني. صار الضريح وحديقته ملاذًا آمنًا لأي مجرم يريد الإفلات من العدالة. ولا يجرؤ أي مسلم على الدخول إليه من دون الوضوء الشرعي بالماء من بئر توجد بالقرب من بابه. لكنني بفضل نسبي الشريف[10] كنت أعتبر متفوقًا على الجميع، فأدخل باحة الضريح أحيانًا على ظهر فرسي ومع خادمي من دون أن نتوضأ.

تتميز طنجة بوجود مرابط آخر محترم للغاية، والذي أصبح أيضًا صديقي العزيز. إنه رجل طيب لأنه، بكثرة قولي له إنه ماكر ومخادع لمواطنيه ويفرض نفسه عليهم، اعترف لي بذلك ووافق على أنه صحيح. كنت أضحك معه في الخفاء من سذاجة الآخرين لأنه كان يعلم ذلك جيدًا، وكثيراً ما كان يكرر أن الحمقى موجودون هنا في الدنيا من أجل متع الأشخاص الأذكياء.

---

[1] ولا شك أنه يعني بسكان طنجة خاصتهم. لماذا؟ كونه منتحلا لصفة أمير من آل البيت ويتجول على ظهر فرس وبجانه يمشي خادمه وقد التقى بالسلطان مولاي سليمان، فهو غالبا ما كان يلتقي بالخاصة من بين المغاربة. ولما يتحدث عن الأمية هنا فبين أولئك الخاصة. أما الأمية بين العامة فقد كانت هي القاعدة حتى في أوروبا. وكانت حينها هناك هي الاستثناء بين الخاصة. ولما يستغرب هنا، فمن كون الخاصة بطنجة يكادون يستوون مع العامة في الأمية.

[2] وهنا لا يتحدث عن الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، بل عن الذي يقرأ ويكتب لكن معارفه العلمية محدودة أو منعدمة.

[3] يتحدث هنا عن سكان طنجة. وقد خصص فصلا كاملا للعلم والعلوم بفاس كما سنراه لاحقا.

[4] الكيمياء هي علم دراسة طبيعة وخصائص واستغلال المواد في الكون. والخيمياء تعني السعي الخرافي قديما إلى تحويل معدن رخيص إلى معدن نفيس كتحويل الحديد إلى ذهب.

[5] يعني به الطب كما تطور حتى عصره بأوروبا حيث توجد كليات للطب.

[6] لا يعني هنا المؤرخين الرسميين *historiographes* كأبي القاسم الزياني وأمثاله الذين كانوا يكتبونه بطلب من جهة رسمية أو بمبادرة من أنفسهم لكن من دون السعي للتحقق من صحة ما وصلهم من أخبار. بل يقصد علماء التاريخ *historiens* الذين يبحثون بمنهاج علمي في حقيقة ما وصلهم من أخبار الماضي وبشكل عام، أي بغض النظر عن المكان والزمان والقوم موضوع البحث.

[7] بل كان منهم في كل زمان من يعرفون ما وصلهم من أخبار ماضي أسلافهم وأخبار المسلمين بالمشرق وبالأندلس، لكن من دون السعي للتأكد من صحتها بمنهاج علمي.

[8] بالمعنى المتعارف عليه حينها بأوروبا.

[9] الوصف الذي كان يطلق في أوروبا على عموم سكان إفريقيا.

[10] وهو نفسه في هذا المجال أكثر مكرا منهم. بمعرفته بتلك التقاليد جاء إلى المغرب وبلاد المسلمين منتحلا صفة أمير من بني العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم.

يوجد هناك ولي آخر يركض في الشوارع مثل الأحمق برفقة كثير من الناس. كان رأسه مكشوفًا وشعره طويلًا مجعدًا، ويحمل في يده حبلًا من نوع من الحلفاء المنتشر في البلاد، ويعطي منه خيوطا رقيقة لمن طلبها منه. عندما قابلته في الشارع، أعطاني منه حفنة كبيرة كميزة فردية. وضعتها في صدري بكل تبجيل ممكن كهدية ثمينة.

ذات مرة كنت أسير في الشارع وحدي فاقترب مني شخص وقال "أعطني قرشًا ونصف لشراء سلهام، أنا ولي. وإذا كنت لا تصدقني وتشك في كلامي فاسأل خدامك وأصدقاءك وسترى أنني لا أفتري عليك أي شيء". تظاهرت بإضفاء الثقة على ما يقول ومنحته نصف قرش.

ويوجد في طنجة أيضًا ولي آخر يتظاهر بأنه أحمق ويقف في الساحة الرئيسية. يعلن عن تواجده من خلال نوع من الصراخ أو البكاء المشابه لصوت الإوزة أو البطة. على لباسه وتصرفاته أعظم قذارة. يرمي الطعام الذي بقي في بطنه من فمه متى شاء. قيل لي إن هذا الولي سبق أن ارتكب في بعض الأحيان علانية أشياء تتعارض مع الآداب العامة.

وأخيرًا، يبدو أن غباء وثقة هؤلاء السكان العمياء بشأن هذه الأشياء أمر لا يصدق وكأنه من روايات ألف ليلة وليلة. والفقهاء والطلبة يسكتون عنها، ويتركون الناس في هذا الضلال. وبالرغم من كونهم مستنيرين للغاية في هذا الموضوع يمتنعون عن الحديث بصراحة عن هذه الانحرافات في العقل البشري.

وحدات القياس: لا تُعرف في المملكة المغربية وحدة لقياس الطول غير ما يسمى "الذراع". وهي مقسمة إلى ثمانية أجزاء تسمى الثمن. نظرًا لعدم وجود وحدة مرجعية لقياس الذراع فمن الصعب للغاية العثور على اثنين متساويين تمامًا. ولكن من خلال حساب متوسط قياسات أذرع مختلفة ومقارنتها مع الوحدات الأوروبية الخاصة بي وجدت أن متوسط ذراع المغرب يساوي 0،55 متر[1].

ومقياس سعة الحبوب يسمى "المد". وهو نوعان الكبير والصغير. سعة الصغير تساوي نصف سعة الكبير. ويفتقر إلى الدقة مثل قياس الطول. والمد عبارة عن أسطوانة مجوفة خشنة الصنع. وقياس الوزن يعرف نفس التنوعات مثل القياسين الآخرين. وحدة قياس الوزن يسمونها "الرطل".

أصغر عملة في البلاد هي القيراط. وأكبرها هو البندقي. القيراط من النحاس، والفلوس يساوي أربعة قيراطات. الموزونة من الفضة وتساوي ستة قطع فلوس، والدرهم يساوي أربع موزونات. ومن الذهب يوجد المثقال أو "الدكّة" التي تساوي عشرة موزونات. ويوجد البندقي الذي يساوي مثقالين أو دكّتين ونصف.

كل العملات الإسبانية متداولة في المغرب. ويبدو لي أن الدورو أو القرش الإسباني، الذي يسمونه الريال هو أكثر الأنواع وفرة في البلاد. لكن قيمته اعتباطية للغاية، مما يؤدي إلى عمليات تهريب كبيرة جدًا للأموال من حيث أن معظم السفن أو القوارب القادمة من أوروبا تهرب العملات المعدنية من إسبانيا، لاستبدالها بالريال. هناك أيضًا الكثير من قطع العملات المزيفة التي تأتي من الخارج. وبحسب المعلومات التي حصلت عليها فلربما يتم صنعها في إنجلترا.

آداب دفن الميت.

عندما يموت مسلم يوضع على محمل ويغطى بقماش وأحيانًا بأغصان الشجر. يُحمل على أكتاف أربعة رجال، ويرافقه عدد من الأشخاص من دون ترتيب يميز بينهم ولا علامات حداد[2]، ويمشون بخطوات متعجلة. يتجه الموكب إلى باب المسجد وقت صلاة الظهر، وبمجرد انتهائها يعلن الإمام وجود ميت عند الباب، فينهض الجميع ويصلون سويًا صلاة قصيرة ترحما على روح المؤمن الميت، لكن جثته لا تُدخل إلى المسجد.

بعد الصلاة ينطلق الموكب من جديد بخطوات متسرعة، لأن ملاك الموت ينتظر الميت في القبر ليخضعه للاستجواب ويصدر في حقه الحكم الذي يقرر مصيره. في كل لحظة يتناوب الرجال على حمله، لأن الجميع يريد نصيبه من الفضل. على طول الطريق، يرددون جميعًا آيات من القرآن. عند الوصول إلى المقبرة وبعد دعاء قصير يوضع جسد الميت في القبر من دون

[1] تم اعتماد النظام المتري العشري بفرنسا من طرف المجلس التأسيسي سنة 1794 خمس سنوات من بعد الثورة الفرنسية.
[2] المؤلف يكتب للأوروبيين ويبيّن لهم كل مرة الفرق بين ما يجري في المغرب بالمقارنة مع بلدانهم.

نعش، ويمد على التراب متجها قليلاً نحو مكة، ويده اليمنى مطبقة على الأذن من جهة نفس الجانب وكأنه متكئ عليها[1]. وبعد دفنه يعود الموكب إلى منزل المتوفى لتقديم تعازيه للعائلة. خلال هذا الوقت، وبدءًا من لحظة الوفاة، ولمدة ثمانية أيام متتالية، تجتمع نساء العائلة معًا وهن يطلقن صرخات مروعة تدوم طوال اليوم تقريبًا.

أحوال العلم والتعليم بفاس: لما وصلت إلى تخوم مكناس على الساعة الثانية صباحًا أرسلت أحد خدمي برسالة للوزير سيدي محمد السلاوي، معلنا فيها عن صولي. نصف فرسخ قبل ذلك، وجدت ضابطًا من القصر تم إرساله لمقابلتي بأمر من السلطان وقادني بأمتعتي إلى المنزل الذي تم تجهيزه لي. بعد ذلك، قدم لي المشرف على الخزينة نفسه وحياني واستفسر عن كل ما يمكن أن أحتاجه لنفسي ولمرافقي وبهائمي، ومعه أمر بتغطية كل مصاريفي بدون استثناء. وعلى الساعة التاسعة مساءً أرسل إلي الوزير سيدي محمد السلاوي عشاءً رائعًا. وبقيت في المنزل في انتظار الأمر بتقديمي لمقابلة السلطان.

في اليوم التالي تم اصطحابي ظهراً إلى مسجد القصر. وبعد وقت قصير وصل السلطان. كان اليوم يوم جمعة فكانت هناك خطبة ثم الصلاة المعتادة. لقد أنجزت واجباتي الدينية وقدمت نفسي للسلطان الذي أجريت معه محادثة خيرية بالكامل. وأخبرني أنه سيغادر قريباً إلى فاس وطلب مني التشاور مع السلاوي. خارج المسجد، ذهبت لرؤية هذه الشخصية التي حثتني على أن أسألها عن كل ما أحتاجه للمغادرة في اليوم التالي والذهاب إلى فاس، حيث سأعيش بمولاي إدريس الولي الموقر جدا. وبمجرد وصولي إلى المنزل قمت بترتيبات المغادرة.

خلال إقامتي في فاس وجدت أن المناخ معتدل. قيل لي مع ذلك أن المرء يكاد يختنق من شدة الحرارة في الصيف. خلال الشتاء شعرت بالبرد كما في أوروبا. لكن مقياس الحرارة هبط فقط بمقدار أربع درجات فوق الصفر بمقياس ريومور[2]. وفرة المياه تحافظ على الغلاف الجوي في درجة عالية من الرطوبة، ودائمًا تقريبًا مع وفرة في الأبخرة التي غالبًا ما تمنع الرصد الفلكي في أكثر الأيام هدوءًا.

في 13 يناير من سنة 1804 شعر الناس في فاس بالزلزال الذي تسبب في العديد من الكوارث في موتريل[3] على الساحل الإسباني، وشعر به الناس أيضًا في مدريد. بدأ على الساعة الخامسة وتسع وثلاثين دقيقة من المساء واستمر عشرين ثانية وتسبب في ثلاثين موجة اهتزازية. كانت الأربعة أو الستة الأولى قوية جدًا، والبقية محسوسة جدًا، ويبدو أن اتجاهها يأتي من الشرق إلى الغرب. وأفترض أن مركز الزلزال كان تحت مضيق جبل طارق.

يوجد بمدينة فاس عدد كبير من المدارس[4]. وستكون لدينا فكرة دقيقة عنها لما نتصور في منزل صغير أو مسجد، يسمى مدرسة أو أكاديمية[5]، رجلا جالسا على الأرض، ومحاطًا بخمسة عشر إلى عشرين شابًا يجلسون في دائرة، وبأيديهم لوحات خشبية للكتابة، وهم يكررون الترانيم في وقت واحد تقريبًا مع سيدهم في ضوضاء تامة. أما الأمر الذي يتم تناوله هناك، فيمكنني أن أؤكد أنه يحتوي تحت عدة أسماء على مادة واحدة فقط، وهي الآداب والتشريعات المتعلقة بالعبادة والعقيدة. أي أن كل الدراسات تُختصر في القرآن وفي تفاسيره مع بعض المبادئ الخفيفة في النحو وفي الجدل، وهي ضرورية للتمكن من قراءة وسماع النص الإلهي.

---

[1] إذا كان قد شاهده بعينه فهو أمر غريب. وإذا سمعه فإما لم يفهم ما سمع، أو سمعه من غير مسلم مفتر أو من مسلم جاهل أو مسلم يسخر منه.

[2] رينيه أنطوان فيرشو دي ريومور، بالفرنسية: *René Antoine Ferchault de Réaumur*، هو عالم فرنسي في الفيزياء والعلوم الطبيعية عاش بين سني 1683 و 1757. له العديد من الإنجازات العلمية، خاصة في مجال علم الحشرات، كما أنه وضع ما يعرف باسم مقياس ريومور لدرجات الحرارة.

[3] بلدية موتريل، بالإسبانية: *Motril*، هي بلدية تقع في مقاطعة غرناطة التابعة لمنطقة الأندلس جنوب إسبانيا.

[4] يتعلق الأمر بلا شك بالكتاتيب القرآنية للصغار وليس بالمدارس العمومية كما نعرفها اليوم. الكتاتيب القرآنية كانت موجودة في كل مكان بالمغرب. وكان يقتصر التعليم فيها على تحفيظ الأطفال القرآن الكريم عن ظهر قلب من دون غيره. كما كانت على نفقة الأسر. ولم يعرف المغرب التعليم العصري والعمومي مثل الصحة العمومية على نفقة الدولة من المال العام سوى منذ بداية عهد الحماية. وكانت جامعة محمد الخامس هي أول جامعة عصرية وعمومية بالمغرب، والتي نشأت في بداية عهد الاستقلال.

[5] يتعلق الأمر بمدارس قرآنية ثانوية. وما كانت كثيرة لا في فاس ولا في غيرها. وكان يوجد بعضها في الزوايا خارج المدن. كما كان ينفق عليها من تبرعات المحسنين أو من إيرادات أموال الوقف.

ومما رأيته وأعتقد أن الدارسين كثيرا ما لا يتفقون فيما بينهم[1]. يغرقون نقاشاتهم في محيط من التفاصيل الدقيقة أو ما يشبه الميتافيزيقا[2]، ويرتبكون فيها من دون معرفة الوسائل التي سيتمكنون بها من إيجاد مخرج. فيستسلمون للأقدار أو لمشيئة الله المطلقة التي ترتب وتوفق بين الأشياء كلها. هؤلاء الدارسون هم مجادلون أبديون. بما أن فهمهم لا يستطيع حتى إدراك كنه الأطروحة التي يدافعون عنها، فإنهم لا يجدون أي دعم آخر لمزاعمهم غير كلام المُعلم أو الكتاب الذي يستشهدون به ومن دون تمحيص. انطلاقا من هذا المبدأ، لا يمكن التوفيق بينهم في نزاعاتهم لأنه لا يوجد عندهم سبب قوي كاف لدحض كلام المُعلم أو الحكم على الكتاب.

دأب العديد من كبار علماء فاس على الاجتهاد لحضور مجالس دروسي. وقد شاهدت مرات عديدة نقاشاتهم المملة التي لا تنتهي. عند رؤية هذا الأمر، استغللت تأثيري عليهم لإيقافهم. ورغبةً في إحداث تأثير أكبر وأكثر فائدة، عملت على إلهامهم التشكيك في كتبهم وفي معلميهم. وفعلا، من بعد تحقيق هذا الهدف، فتحت منهجا جديدا عند هؤلاء الرجال الذين أصيبت عندهم موهبة التطوير بالشلل بسبب هذا النوع من الجمود الفكري. بعد أن حددت خطتي، صرت أجادلهم كثيرًا. وعندما حشرتهم في الصمت من بعد الحجج التي لم يتم الرد عليها، لم تكن هناك طريقة أخرى لهم للإجابة سوى عرض الكتاب عليّ وجعلي أقرأ الجملة التي تدعم رأيهم. فسألتهم بعد ذلك:

- ✓ من كتب هذا؟
- ✓ فلان.
- ✓ ومن يكون فلان؟
- ✓ رجل مثل أي شخص آخر.
- ✓ بحسب اعترافكم، لن أعيره أي اهتمام متى ما توقف عن كونه عقلانيًا. وسأتخلى عنه بمجرد أن يزيغ عن المنطق السليم وينطلق في سرد المغالطات.

كانت طريقة الحديث هذه جديدة جدًا بالنسبة لهم، لدرجة أنهم في البداية ظلوا صامتين ومندهشين، ينظرون إلى بعضهم البعض ثم ينظرون إليّ، وهكذا دواليك. في النهاية تمكنت من جعلهم يعتادون على التفكير، الأمر الذي لم يسبق أبدًا أن تم التفكير فيه أثناء تعليمهم. وشيئًا فشيئًا تخلصوا من تلك الأجوبة الغبية التي كانوا يستخدمونها كثيرًا. لكنني لاحظت أن هؤلاء العلماء وقعوا في مشكلة أخرى لم تكن أقل خطورة. صاروا يعتمدون في نقاشاتهم على كلامي. في المحصلة لم يغيروا سوى الأعلام، أما تكتيكاتهم فقد ظلت كما هي.

كنت أقول لهم ألف مرة إنه لا ينبغي تبني أي طرح بحجة أن علي بك قال ذلك؛ بل قبل مناقشته ينبغي أن يفحصوه بعقولهم لمعرفة ما إذا كان مناسبًا؛ ثم يمكنهم الدخول في مناقشته. وحصلتُ أخيرًا على هذه النتيجة المنشودة. وأعتز بإطلاق ذلك الشعاع من النور الذي من شأنه أن يؤتي على المدى البعيد أكله بين هذه الشعوب.

لديهم كتاب إقليدس[3] في الهندسة، والذي تم عرضه عليّ في أحجام كبيرة ومتآكلة للغاية، لأنه لا أحد لديه الشجاعة لقراءته، وحتى على الأقل لنسخه، باستثناء عشرات الصفحات منه. علم أصل الكون ونشأته[4] عندهم من القرآن. وهو من بنات

---

[1] هناك يتحدث المؤلف عن الدروس التي يزعم أنه كان يلقيها بجامع القرويين. وكما تقدم، فقد تحدث في كتابه عن لقاءاته مع السلطان مولاي سليمان (1822-1792) الذي زكى الاعتراف به كمسلم صالح وكعالم مؤكد ومتعدد التخصصات، فتم قبوله ضمن الدائرة الضيقة والمغلقة لعلماء فاس.

[2] الميتافيزيقا أو الماورائيات أو ما وراء الطبيعة هو فرع من الفلسفة يدرس جوهر الأشياء. يشمل ذلك أسئلة الوجود والصيرورة والكينونة والواقع. تشير كلمة الطبيعة هنا إلى طبيعة الأشياء مثل سببها والغرض منها. بعد ذلك تدرس ما وراء الطبيعة أسئلة عن الأشياء بالإضافة إلى طبيعتها، خاصة جوهر الأشياء وجودة كينونتها. تسعى معرفة ما وراء الطبيعة إلى الإجابة على هذه الأسئلة

[3] هو إقليدس اليوناني المولود سنة 300 قبل الميلاد، عالم رياضيات، يلقب بأبي الهندسة. مشوار إقليدس العلمي كان في الإسكندرية في أيام حكم بطليموس الأول (323–283 قبل الميلاد). اشتهر إقليدس بكتابه العناصر وهو الكتاب الأكثر تأثيرا في تاريخ الرياضيات، وقد استخدم هذا الكتاب في تدريس الرياضيات (وخصوصا الهندسة) منذ بدايات نشره قديما حتى نهاية القرن التسع عشر وبداية القرن الـعشرين. بين ثنايا هذا الكتاب مبادئ ما يعرف اليوم باسم الهندسة الإقليدية التي تتكون من مجموعة من البديهيات. أنشأ إقليدس بعض المصنفات أيضا في حقول عديدة؛ كالمنظور، القطع المخروطي، الهندسة الكروية، ونظرية الأعداد وغيرها.

[4] علم نشأة الكون، بالفرنسية *Cosmogonie* يتعلق بالبحث في أصل نظام الكون الذي نحن فيه أو ما يدعى بحقيقة الكائنات الواعية ذات الحس

أسفار موسى الخمسة. علم أوصاف الكون عندهم من كتاب بطليموس[1]. أما علم الفلك[2] فقد تم تقليصه إلى بعض المبادئ الأولية الضرورية لأخذ الوقت عن أوضاع الشمس بواسطة إسطرلابات[3] خشنة للغاية، تمت صناعتها بشكل منفصل وخاص بكل خط عرض معين.

أما بالنسبة للرياضيات فهم يعرفون فقط كيفية حل عدد صغير جدًا من المسائل. ولا تدرّس مادة الجغرافيا. الفيزياء عندهم هي لأرسطو، لكنها حظيت بينهم بأقل قدر من الاهتمام. أما الميتافيزيقا فهي عندهم ساحة المعارك، حيث يتمرسون أكثر. بل أود أن أقول إن علماءهم يبذلون كل ما في وسعهم لدراسة هذا العلم[4]. دراسة الكيمياء غير موجودة بالنسبة لهذه الشعوب. لكن لديها بدلا من ذلك بعض الأفكار عن الخيمياء[5]، حيث لا يزال من بينهم بعض البائسين المشتغلين بها.

علم التشريح[6] محظور تمامًا عندهم لاعتبارات دينية تقدس حرمة جثث الموتى والفصل بين الجنسين إلخ... وفيما يتعلق بالطب، فلا يدرسون سوى القليل من الممارسات التقليدية البائسة، ويكادون يتجاهلون وجود الأطباء العظماء القدامى. أما العلاج عندهم فيجمع دائمًا بين العمليات الموجعة والممارسات الخرافية[7].

أما التاريخ الطبيعي[8] فتعترضه نفس العقبات التي لا تُقهر، مثل تلك التي تعترض علم التشريح، بذريعة التعاليم الدينية التي تحظر التماثيل واللوحات الزيتية ورسوم الأشياء المتحركة. وبسبب نفس التزمت الديني يتم التخلي عن ممارسة الموسيقى للنساء وللطبقات الدنيا في المجتمع. وبالتالي، لا توجد هناك فنون جميلة، ولا ملذات طيبة ولا انشغالات ممتعة.

بسبب الخلط بين علم الفلك[9] وعلم التنجيم[10]، كل من ينظر إلى السماء ليعرف الوقت أو لاكتشاف القمر الجديد، فهو في نظر الأهالي مُنجم وعرّاف يتنبأ بمصير الأفراد ومصير السلطان والإمبراطورية. لديهم كتب في علم التنجيم، وتحظى بتقدير كبير بينهم. بهذا العلم، يحصل المرء على مراكز مهمة في البلاط، بسبب الاعتقاد في تأثير المنجمين على الأمور العامة والخاصة. عندما أعلنت حربًا حتى الموت على علم التنجيم والخيمياء، بدأت في الحصول على بعض النتائج المرضية. وبفضل بث التفكير العقلاني، تمكنت من إقناع بعض الأذهان الجيدة بسخافة المنجمين والخيميائيين.

لقد أتيحت لي فرصة رائعة لإثبات أن علم الفلك كان مختلطا تمامًا مع علم التنجيم، وذلك عندما طلب مني بإلحاح شديد عالم الفلك الرئيسي في فاس أن أعطيه خطوط الطول والعرض لكل من الكواكب في اليوم الأول من السنة، لإعداد حساباته والتنبؤ بما إذا كانت ستكون سنة سعْد أم نحْس، إلخ...فأجبته بحزم أنه لا ينبغي على المرء أبدًا أن يُتاجر بعلم الفلك شبه المقدس

[1] كلوديوس بطليموس وُلِد نحو سنة 87م وتوفّي قُرْب الإسْكَندريّة نحو 150م. عالم رياضيات وفلك وجغرافيّ ومنجم. وهو وصاحِب كتاب المَجَسْطي. يقوم نظامُه الفَلَكيّ على أساس أنّ الأَرْضَ ثابِتَة، وأَنَّ الأَفْلاك تَدُور حَوْلَها.

[2] علم الفلك هو علم طبيعي يدرس الظواهر الفلكية والأجرام السماوية. يستخدم علم الفلك الرياضيات والفيزياء والكيمياء لشرح أصل وتطور تلك الظواهر والأجرام.

[3] الأَسْطُرلاب (الجمع: أَسْطُرْلَابَات) ويقال له أيضًا: الأَصْطُرلاب هو آلة فلكية قديمة وأطلق عليه العرب ذات الصفائح. وهو نموذج ثنائي البعد للقبة السماوية، وهو يظهر كيف تبدو السماء في مكان محدد عند وقت محدد.

[4] قد يتعلق الأمر بما عرف عند العرب بعلم الكلام

[5] وفق السياق التاريخي، فإن الخيمياء هي السعي وراء تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب قيم.

[6] علم تشريح الإنسان، يختص بدراسة بنية وتركيب أجهزة الجسم البشري وارتباطها بالمشاكل الصحيةويتكون جسم الإنسان، مثل سائر الحيوانات، من مجموعة من الأجهزة تتكون من عدد من الأعضاء التي تنقسم بدورها إلى عدد من الأنسجة المتكونة من مجموعة من الخلايا.

[7] أما أول كلية للطب والصيدلة في المغرب فقد تأسست بالرباط في عهد الاستقلال سنة 1963. في حين نشأت المدرسة الطبية السالبرنية *Schola Medica Salernitana* في القرن الحادي عشر. وقد كانت أول جامعة طبية في أوروبا على الساحل الإيطالي الجنوبي في ساليرنو. تراكمت فيها المعارف الطبية العربية المترجمة من اليونانية مع تلك التي تم اكتشافها أصلًا باللغة العربية، وتمت ترجمتها هناك إلى اللغة اللاتينية، وذلك نتيجة الاتصال مع العرب في صقلية وفي شمال أفريقيا. ولما اختفت كلية ساليرنو في بداية القرن التاسع عشر، صارت كلية الطب في مونبلييه *Montpellier* بفرنسا التي أُنشئت سنة 1220 هي أقدم كلية طبية لا تزال نشطة في العالم. وما عرف المغرب أوائل الأطباء من أبنائه المتخرجين من كليات الطب الغربية سوى في عهد الحماية. ومن بينهم الدكتور عبد الكريم الخطيب كأول طبيب جراح مغربي عام 1951.

[8] وهو العلم الذي يعنى بدراسة الكائنات الحية بما فيها النباتات والحيوانات في بيئاتها، باستخدام طرق تميل أكثر إلى الملاحظة منها إلى التجربة.

[9] هو علم طبيعي يدرس الظواهر الفلكية والأجرام السماوية. يستخدم علم الفلك الرياضيات والفيزياء والكيمياء لشرح أصل وتطور تلك الظواهر والأجرام.

[10] أو Astrology هو مجموعة من التقاليد، والاعتقادات حول الأوضاع النسبية للأجرام السماوية والتفاصيل التي يمكن أن توفر معلومات عن الشخصية، والشؤون الإنسانية، وغيرها من الأمور الدنيوية. ويسمى من يعمل فيه بالمنجم ويعتبر العلماء التنجيم من المعارف الزائفة أو الخرافات.

بثمن بخس لدجل علم التنجيم. وانتهيت من هجائي بأن وضحت له من خلال حججي، ومن خلال تعاليم القرآن أن ممارسة التنجيم خطيئة. وهو الحكم الذي أكده عدة علماء وفقهاء والذي دفعهم إلى الإعلان على أنني صرت زميلا لهم.

لكن من المستحيل أن ننتزع من عقول هؤلاء الناس فكرة أن من يعرف كيفية رصد أو إجراء حساب فلكي يجب أن يكون أيضًا منجمًا يعرف ماضي كل فرد منهم ويتنبأ بما سيحدث في المستقبل. هكذا أجد كل يوم أشخاصًا يتوسلون إليّ لأريهم أين هي الأشياء المفقودة أو المسروقة. وهناك آخرون مصابون ببعض الأمراض يأتونني لاستعادة صحتهم. ومنهم من يكتفون بسؤالي الدعاء من أجلهم. ومنهم أخيراً من يريدون مجرد قطعة نقدية صغيرة للاحتفاظ بها كهدية ثمينة مني. حتى أنه في مرة من المرات لما انتهى الخسوف بفاس بعد الظهر بقليل وكنت على مائدة الغداء علمت أن ابن القاضي يريد التحدث معي بشكل عاجل. وبعد أن أحضره خادمي أخبرني والدموع في عينيه وبنبرة مليئة بالشفقة أن مرض والده الذي أصابه بالشلل منعه من الخروج. ولقد جاء مرسلا من جانب والده ليسألني، بما أن الرب الكريم أخرجهم بأمان من الكسوف، أن أكون لطيفًا بما يكفي لأخبره إذا ما كان هناك أي شيء آخر ليخشاه. فهدأت من روع هذا الرجل وطمأنته بقدر ما أستطيع وعاد إلى والده مرتاح البال. فهذا هو جهل هؤلاء الناس الذين سعيت لإخراجهم منه ولشفائهم من سذاجتهم بكل الوسائل.

يوجد في الإمبراطورية بعض المؤرخين الرسميين[1] أو كتاب تاريخ البلاد والأمة. ولكن بالكاد كانت تُقرأ أعمالهم. وهم يجهلون تاريخ الشعوب الأخرى. واللغة عندهم في حالة تدهور شديد. ليست لديهم مطبعة[2]. والعيب الكبير في الكتابة يأتي من الخلط بين الحروف. هناك مجموعة من الأسباب المتظافرة لتدمير المعرفة العلمية القليلة المتبقية. وأخيرًا، فإن قراءة ورقة مخطوطة تكلفهم الكثير[3]. وفي كثير من الأحيان لا يتمكن حتى الشخص الذي كتبها من فك رموزها. وهذه هي أحوال التعليم والمعرفة بفاس. وهي المدينة التي، إذا ما أمكن السماح بهذه المقارنة، يمكن اعتبارها أثينا الإفريقية. وذلك بالنظر لما فيها من عدد هائل من العلماء ومن المدارس التي يحضرها عادةً ألفا طالب في المرة الواحدة.

أحوال القضاء: الوالي الحاكم في طنجة هو سيدي عبد الرحمن أشاش. كان بغّالا[4] بسيطا لا يعرف على الإطلاق كيف يقرأ أو يكتب، ولا حتى يوقع باسمه. لكن لديه بعض المواهب الطبيعية ونوع من الحيوية الجريئة. وهو في وضع لا يسمح له حتى بمعرفة مدى فائدة التعليم للإنسان بحيث يرفضه بشكل منهجي لأطفاله الذين لا يستطيعون القراءة ولا الكتابة. يمتلك حاليًا ثروة كبيرة في تطوان التي توجد تحت إمرته أيضًا وتعيش فيها عائلته. ويتنقل بين سكن وآخر، بحيث له خليفة في طنجة وآخر في تطوان يحكمان أثناء غيابه.

وكل من القايْد أو الوالي الحاكم يقضي بين الناس كل يوم[5]. وغالبا ما يصدر أحكاما شفوية. أحيانًا يحضر الطرفان معًا أمامه، وأخرى يظهر الطرف المشتكي فقط، فيسمح له القايْد بإحضار خصمه، وهو ما يفعله من دون أن يجد معارضة من الطرف المشتكى به، لأن أدنى مقاومة تعرضه لعقاب شديد.

لممارسة القضاء، ليس للقايْد أو الوالي أي قانون يستند إليه سوى تقديره الشخصي، وفي أحسن الأحوال يعتمد على بعض تعاليم القرآن أو الحديث[1]. ويستشير فقيها في حالات نادرة جدا أو يحيل الخصوم على القاضي أي القاضي المدني. ونادرًا

---

[1] **المؤرخ تحت الطلب** *historiographe* هو المؤلف المكلف رسميًا بكتابة تاريخ زعيم أو صاحب سيادة أو عصر أو حزب أو مؤسسة. أما **المؤرخ** *historien* فهو الشخص الذي يكرس حياته لدراسة الماضي بشكل عام، فيسرد الحقائق ويحللها ويكتب كتبا في تاريخ أمور معينة ويعلم هذا التخصص.

[2] للتذكير مرة أخرى أول كتاب مطبوع في أوروبا بحروف متحركة كان هو كتاب "القواعد اللاتينية" سنة 1451. طبعه مخترع آلة الطباعة الألماني ڭوتنبرج. المطبعة لم تدخل المغرب إلا في وقت متأخر، قياسا مع تركيا وبلدان المشرق العربي. وكان القاضي محمد ابن الطيب الروداني المتوفى سنة 1865 هو أول من جلب للمغرب أول مطبعة بحروف اللغة العربية عام 1864. جلبها من مصر خلال رحلته للمشرق لإداء الحج، ووصلت الآلة إلى ميناء الصويرة.. وسميت الآلة "المطبعة السعيدة". وكان كتاب الشمائل المحمدية أول كتاب طبع بالمطبعة السعيدة. إلا أن هناك أدلة تثبت بأن المغاربة تعرفوا على الطباعة قبل تلك الفترة بوقت طويل، من خلال الحجاج والعلماء المغاربة الذين كانوا يمرون ببعض بلدان المشرق في طريقهم إلى الحجاز، وخاصة مصر، حيث كانوا يعودون من رحلاتهم بالكتب المطبوعة، وكان بعض هؤلاء العلماء يحمل معه كتبه إلى القاهرة لطبعها هناك، نظرا لغياب الطباعة بالمغرب.

[3] ولا يزال الأمر كذلك حتى يومنا هذا، الأمر الذي خلق ما يعرف بعلم وصنعة تحقيق المخطوطات. ومعناه إخراج نصوص المخطوطات القديمة في صورة مطبوعة وصحيحة متقنة، ضبطاً وتشكيلاً، وشرحاً وتعليقاً، وفق أصول متبَعة ومعروفة لدى الذين يتعاطون هذا الفن.

[4] يتاجر في البغال أو يسوقها كدواب لحمل البضائع.

[5] وحتى قُبيْل استقلال البلاد في عام 1956، ظل الباشوات والقياد يحكمون في بعض القضايا الجنحية، جامعين بذلك بين السلطتين التنفيذية والقضائية.

ما يُقدّم إلى القايْد طلب من أربعة أو ستة أسطر، وبالتالي فإن جميع أدوات كاتبه مختزلة في لوحة كتابة صغير وريشة من القصب، وبضع قطع صغيرة جدًا من الورق، مطوية من المنتصف، وجاهزة لتلقي بعض الأوامر النادرة جدًا. ليس لهذا السكرتير مكتب أو أرشيف؛ بحيث يتم إتلاف الأوراق التي تُعطى له بعد فترة وجيزة، فلا يحتفظ بأصغر سجل للأوامر التي يتلقاها.

القايْد أو الوالي المتمدد على بساط وبضعة وسائد، يسمع للطرفين وهما يجلسان القرفصاء بالقرب من باب غرفة قضائه. أحيانًا يقضي القايْد بين الناس بباب بيته. فيكون حينها جالسا على كرسي، والحشود من حوله. وتبدأ المناقشة. أحيانًا يخوض القايْد والمتخاصمان في الكلام أو بالأحرى في الصراخ في وقت واحد لمدة ربع ساعة، ودون أن يسمع أحدهم الآخر، حتى يتدخل الجنود الواقفون من وراء الخصمين بعنف من أجل إسكاتهما. فينطق القايْد بالحكم، وفي نفس اللحظة يتم إخراج الطرفين خارج المحكمة بعنف مضاعف من قبل الجنود، ويتم تنفيذ الحكم بشكل غير قابل للمراجعة.

في الأيام القليلة الأولى من وصولي، وجدت نفسي في إحدى هذه الجلسات. تقدم صبي صغير للقاضي يشتكي من خدش صغير على وجهه، فتم إحضار خصمه الذي حُكم عليه بواحد وثلاثين جلدة[2]. مباشرة بعد ذلك قام أربعة جنود بطرحه أرضًا، وتم إحضار عصا مشقّقة بحبل، وتم تمرير قدمي المذنب فيها، وقام جندي بجلده بإحدى وثلاثين جلدة قوية بحبل مدهون بالقطران. ولما انتهت العملية تم طرد صاحب الشكوى بعنف. أردت التشفع للمحكوم عليه لكنني امتنعت عن ذلك لأنني ما كنت أعرف كيف سيتم تلقي طلبي. علمت بعد ذلك أنه في كل هذه الحالات بالإمكان التشفع لمذنب بعد تلقيه عشر أو اثنتي عشرة جلدة. عند كل منها عادة ما يصرخ المذنب "الله". لكن البعض بدلا من ذلك، يحسبون بفخر الضربات واحدة تلو الأخرى.

أحكام القاضي[3] أقل صخبًا من أحكام القايْد، لكنها تصدر إلى حد كبير في أشكال مماثلة. يتخذ القاضي القرارات وفق تعاليم القرآن والسنّة، بشرط ألا يتعارض ذلك مع إرادة السلطان. بعد الحكم في الدعوى من قبل القايْد أو القاضي، ليس للأطراف ملاذ آخر غير السلطان نفسه، لأنه لا توجد محاكم وسطى.

حقيقة الدين وواقع التدين: الإسلام أو دين محمد شديد البساطة. وكلمة إسلام تعني الاستسلام لله. وعلى هذه القاعدة تأسس هذا الدين. الإيمان بوجود إله واحد، والطهارة، والصلاة، والصدقة، والتذلل لله بالصوم والحج، هي السمات الأساسية لهذا الدين. سمات تجعله محترما بين جميع الأمم وفي نظر الفلاسفة الذين يتعرفون عليه من خلال تقارير أخرى غير تلك التي يكتبها الروائيون أو الرحالة غير المتعلمين.

ولا يوجد بين المسلمين كهنة بالمعنى المتعارف عليه. القيمون على المساجد ليست لديهم أية علامة تميزهم وتعرف بهم، ولا أية صفة تعفيهم من واجبات المواطنة. لديهم زوجات ويشتغلون ويدفعون الضرائب. بكلمة واحدة، الهيئات الكهنوتية التي نراها في باقي الديانات وتشكل طبقة منفصلة في الدولة ويُنظر إلى أفرادها على أنهم وسطاء للإنسان مع الرب الأعلى، لا توجد بين المسلمين. الرجال هنا متساوون أمام خالق كل شيء. فقط الفضيلة والرذيلة تقربان الإنسان من الإله أو تبعدانه عنه.

خدام المساجد هم في المقام الأول الأئمة الذين يتولون إمامة الناس في الصلاة ويخطبون يوم الجمعة وأحيانًا يقومون بالقراءات المقدسة[4]. ثم هناك المؤذنون الذين يدعون المؤمنين من أعلى المآذن للصلاة والذين يساعدون الأئمة في إقامتها. وبمجرد أن ينتهوا من خدمتهم يتفرغون لحرفهم مثل باقي المواطنين العاديين. وفي حال غياب إمام المسجد، يتولى المؤذن أو غيره من المصلين إمامة الصلاة بالجماعة مثل الإمام الحقيقي.

لكن مع الأسف الشديد، تم إدخال الخرافات أيضًا إلى دين الإسلام، وهو الأمر الذي يشجبه الفيلسوف المسلم. طغت طقوس العبادة الظاهرة على حقيقة الدين، لدرجة أنه يكفي أن يقوم المسلم يوميًا بعدد الصلوات المفروضة، وبغض النظر عن أخلاقه، فإنه يُعد مسلمًا صالحًا. بل قد يرقى إلى مقام الولي الصالح إذا تجاوز عدد الصلوات وعدد أيام الصيام المفروضة. وذلك حتى في حال ما كان سلوكه فاسدا كما هو شأن بعض من أعرفهم.

---

[1] في حال ما كان متعلما

[2] انتهى العمل بعقوبة الجلد مع بداية عهد الحماية وتم تعويضها بالسجن.

[3] فقط في القضايا المدنية

[4] لعله يريد بذلك الدروس في الوعظ والإرشاد

إن التبجيل الذي يحمله المرء إلى قبور الأولياء له نتيجة مفيدة عندما تكون هذه الأقبية بمثابة ملجأ للأبرياء من هجمات الطغيان. لكن اللجوء إلى ضريح الولي يحافظ أيضًا على عدد كبير من المجرمين الذين كان ينبغي أن يختفوا من المجتمع. والتبجيل الذي يتمتع به الأغبياء يحمي وجودهم التعيس. وتبجيل الحمقى قد يؤدي إلى ألف هجوم على الأخلاق العامة. التعويذات والتمائم والسبحات والقراءة على المرضى أو من أجل الأشياء المفقودة، إلخ... قد تفضي إلى الكثير من الحيل باسم الدين التي من شأنها أن تشوه لمعان التوحيد المحمدي الخالص. آه يا محمد العظيم! أنت لم تخدع الناس! لم ينسب النبي أبدًا عطية المعجزات إلى نفسه، معترفًا علنًا أنها أعطيت ليسوع المسيح، وليس له[1]. وما هو ذاك الدين على الأرض الذي لم يحرّفه جشع الدجالين بمساعدة سذاجة الناس الأغبياء؟ لحسن الحظ لا نرى في هذا المغرب قطعانًا من النساك كأولئك الدراويش الذين نلتقي بهم في جميع أنحاء تركيا.

الولي سيدي بلعباس راعي مدينة مراكش: الولي الراعي لمدينة مراكش هو سيدي بلعباس. وعلى طراز ضريح مولاي إدريس بفاس، فإن ضريحه عبارة عن غرفة مربعة تعلوها قبة مثمنة الأضلاع عوارضها منحوتة بمقرنسات ملونة ومغطاة من الخارج ببلاطات فخارية لامعة. قبر الولي مغطى بالعديد من الستور من الصوف والحرير موضوعة واحدة فوق الأخرى. وبجانبه صندوق الصدقة. الأرضية وجزء من الجدران مغطاة بالسجادات وستائر أخرى.

بالقرب من الضريح توجد عدة باحات بها أروقة وغرف مخصصة لإيواء الفقراء والمقعدين والمعاقين وكبار السن في مشهد مروع. يضاف إلى ذلك الافتقار إلى الترتيبات التنظيمية الحكيمة التي لوحظت في أوروبا في مؤسسات من هذا النوع. ألف وثمانمائة بئيس من كلا الجنسين يعيشون في هذه المؤسسة بأموال الصدقات وبأموال الضريح. ويعتبر هذا الملاذ أيضا بمثابة ملجأ للمضطهدين[2] اللاجئين بداخل محيطه. يمكنهم التفاوض منه بشأن العفو عنهم وانتظار العودة إلى التمتع بحقوقهم. لديهم ضمانات بأن لجوأهم فيه لن يتم انتهاكه، وذلك بالرغم من عدم وجود قانون وضعي لصالح هذه الحصانة، لكنها مدعومة بالرأي العام. وأي عاهل يريد، بسوء استعمال السلطة، انتهاكها فإنه لا محالة سيخسر، لأنه، فعله هذا، سيتسبب في ثورة. ويحمل المشرف على هذه المؤسسة أيضًا لقب مقدم أو شيخ مثل المشرف على ضريح مولاي إدريس بفاس. إنه محترم أيضًا، بل تفوح منه رائحة القداسة.

وليان، كل منهما سيد مطلق بمنطقته: سأتحدث هنا عن أعظم وليين موجودين الآن في الإمبراطورية المغربية. أحدهما سيدي علي بن أحمد[3] ويقيم في وزان. والآخر يدعى سيدي العربي بن أحمد[4] ويعيش في تدلا. يكاد كلا الوليين أن يقرر مصير الإمبراطورية، لأنه يعتقد أن كلا منهما يجلب بركات السماء إلى الأرض. في المناطق التي يعيش فيها لا يوجد للسلطان لا باشا ولا قايد ولا حاكم، ولا يوجد أي نوع من الضرائب كي تدفع له. الشعب محكوم بالكامل من قبل هذا الشخص المبجل، في ظل نوع من الثيوقراطية ونوع من الاستقلال. ويأمر في نفس الوقت بالخضوع للسلطان وبالحفاظ على السلم الأهلي وبممارسة الفضائل. إن التبجيل الذي يتمتع به عظيم لدرجة أنه عندما يزور باقي الأقاليم يأخذ منه الحكام الأوامر والنصائح. ويتلقى عطايا عظيمة من الصدقات، وربما لا توجد امرأة في الإمبراطورية لا تبحث عن فرصة لمشاورته عندما يأتي إلى مقاطعاتهن. ويرافقه في هذه الرحلات الربانية حشد كبير من الفقراء وهم يتغنون بحمد الرب وبتبجيل الشخصيات المقدسة. كما يرافقه عدد كبير من المسلحين المستعدين دائمًا للدفاع عن الأمر الرباني بطلقات نارية.

---

[1] وهو بلا شك يعي قوله تعالى عن عيسى عليه السلام : "وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ" الآية 49 من سورة آل عمران.

[2] بل حتى المجرمين كما أشار إلى ذلك أعلاه.

[3] هو سيدي علي بن احمد الوزاني المتوفى عام 1226 هـ موافق 1811 م. كان متمكنا في العلوم الشرعية واللغوية والعقلية. وصلت الزاوية الوزانية في عهده قمة ازدهارها الديني والثقافي والسياسي والاقتصادي. وربط علاقات متميزة مع السلطان مولاي سليمان. وأودع خزانة مولاي عبد الله الشريف الكثير من الكتب النفيسة.

[4] ولربما يتعلق الأمر بالشيخ سيدي العربي بن المعطي الشرقاوي الذي كانت له مكانة عالية على مستوى المملكة المغربية. وكان معاصرا للسلطان سيدي محمد بن عبدالله العلوي وملاي يزيد ومولاي سليمان. كانت الزاوية الشرقاوية في عهده سيد محمد قد اكتسبت قوة دينية أساسية في المنطقة الوسطى من المغرب، وأصبحت تلعب دور الوسيط بين المخزن والمتمردين عليه، حتى أصبحت ملجأ للفارين من سطوة المخزن وأعوانه. وهذا ما جعل السلطان يقوم بحملة تأديبية وهدم الزاوية ونفي شيخها سيدي العربي الشرقاوي الى مراكش. ولما جاء ابنه السلطان مولاي سليمان أعاد شيخ الزاوية من منفاه بمراكش الى مقره في بجعد، وبنى بها المسجد الحامل لاسمه (جامع مولاي سليمان) وخصص له منحة مالية. لكن تدخل الشيخ في نزاع السلطان لصالح أخيه مولاي هشام العلوي جعله يبعده الى فاس مرة أخرى. وبقي فيها الى حين وفاته. ثم استرجعت الزاوية مكانتها في عهد سيدي محمد بن داود.

لقد لاحظت بالفعل أن هذه الهبة الإلهية وراثية في بعض العائلات. كان والد سيدي علي وليا عظيما. وسيدي علي هو كذلك الآن. وابنه الأكبر سيدي بن التهامي بدأ نجمه في الظهور أيضًا. إن هذه القوة التوليدية هي هدية منحها الخالق للمخلوق الضعيف ويتمتع بها هؤلاء الأولياء إلى درجة عالية. لدى سيدي علي عدد كبير من الزنجيات وعدد أكبر من الأطفال. بالإضافة إلى زوجاته الشرعيات وجواريه العاديات، لدى سيدي العربي ثمانية عشر زنجية صغيرة تشاركن يومًا في الأسبوع في خدمة سماوية[1]. إنها معجزة القدرة المطلقة!

في جولة قام بها سيدي علي في المغرب، كان من حسن حظي أن أتحدث معه. وقد طمأن بعض التأنيب من ضميري الحساس. أعطيته هدية صغيرة عبارة عن مبلغ قدره ألف فرنك، وأعطاني مقابلها جلد أسد رائع، كان يصلي عليه لمدة ثلاثة عشر عامًا، علاوة على الكثير من الحلويات وزجاجة كبيرة من شراب الليمون الذي عادة ما يخلط به الشاي. لم أفوت فرصة مدح هذا الشراب كثيرًا عندما تناولته معه. وبزهده في المتع الدنيوية، استخدم المال الذي أعطيته إياه وكذلك أموال الصدقات الكبيرة التي جمعها لشراء بنادق وأسلحة أخرى للمدافعين عن الإيمان الذين يرافقونه.

إن هيئة سيدي علي الذي قد يكون في الخمسين من عمره، هي بحق هيئة بابوية[2]. وجهه ممتلئ وألوانه قوية وعيناه ثاقبتان ولحيته صغيرة ناصعة البياض وبنيته صغيرة ومتكاملة ومتناسقة تمامًا. الحمد لله! ويتألف زيه الذي هو نفسه دائمًا من قميص أو قفطان صغير من الصوف الأبيض ومن عمامة صغيرة ومن مئزر خفيف من الصوف الأبيض الذي يغطي رأسه ويظل يطفو خلفه. وعلى الجوانب مثل معطف صغير. صوته الذي يخرج قليلا من الأنف له نعومة من لينه الرباني. الابن الأكبر لهذه الشخصية يسير على خطى والده. إنه بالفعل يلهم القداسة على الرغم من صغر سنه. قد يكون في السادسة والعشرين، لكنه أطول وأسمن من أبيه، وفوق ذلك كله أكثر احمرارًا. ويرافق الولي أبناء زنجياته الآخرين وهو يسافر قاعدا على كرسي محمول بين بغلتين[3]. والكرسي طويل بما يكفي لكي يضطجع فيه لما يتعب من الدعوات الحارة لجلب نِعم السماء على البلاد.

لم أر الولي سيدي العربي الذي كان في تادلة. لكني أعرف أحد أبناء أخيه جاء لرؤيتي نيابة عنه. إنه أحمر جدًا، وضخم جدًا لدرجة أن تنفسه متعب. يقال إن سيدي العربي أكبر وأسمن. نرى أن الصوم والنقع[4] بعيدان كل البعد عن تقويض قوة وصحة أوليائنا. على الرغم من ضخامة جسمه يُضاف أن سيدي العربي يركب حصانًا بكل رشاقة ويطلق النار جيدًا، وهي هبة ربانية إضافية.

مع الأسف نشأت بعض الخلافات بين الولي سيدي العربي وبين السلطان مولي سليمان. هذا الأخير، الذي بنى مسجدًا في إقليم تادلة، ولا شك من دون أن يحيطه بما يكفي من الاعتبار للولي دفع سيدي العربي إلى تحويل ذلك المسجد إلى إسطبل. فقدّم مولاي سليمان هدية من ألف قطعة من عملة الدوقي لسيدي العربي لجبر خاطره. وأرسل الولي الجليل في مقابل ذلك ألف شاة إلى السلطان.

[1] من دون أن يوضح المقصود بتلك الخدمة
[2] نسبة إلى بابا الكنيسة الكاثوليكية.
[3] واحدة من الأمام والأخرى من الخلف
[4] لا ندري المقصود بكلمة macération التي ترجمتها بالنقع الذي معناه ترك الشيء يتحلل في الماء مثلا.

المستكشف الفرنسي روني كايي

رنيه كايي[1] (1800-1838)، مستكشف فرنسي، كان هو أول أوروبي يعود حيا من زيارة بلدة تمبكتو في دولة مالي الحالية. ولد في غرب فرنسا وهو ابن عامل في مخبزة. في سنة ولادته أُتهم والده بالسرقة وحُكم عليه بالسجن وتوفي فيه سنة 1808. وتوفيت أمه سنة 1811 فأصبح يتيما فتبناه أحد أقاربه. قراءته رواية روبنسون دو كروزو أوقدت في نفسه حب السفر والمغامرة، وفي سن السادسة عشرة قطع مسافة 40 كيلومترا سيرا على الأقدام إلى ميناء روشفور ومنه سافر على متن سفينة إلى السنغال. من هناك رحل إلى كُواديلوب قرأ كتابا عن استكشاف النيجر الأوسط. ثم عاد إلى بوردو في فرنسا ومنها إلى السنغال مرة أخرى سنة 1818 حيث أصيب بالمرض والحُمّى وأُضطر إلى العودة إلى فرنسا حيث صار يفكر في الوصول إلى بلدة تمبكتو بمالي الحالية. فكر في ذلك لما سمع بأن الجمعية الجغرافية في باريس توعد بمكافأة قدرها عشرة ألاف فرنك لأول أوروبي يصل إليها ويرجع منها حيا. وكان يعتقد أنها بلدة أسطورية وغنية وعجيبة بحسب روايات العرب مثل ابن بطوطة. وكان يحرم على المسيحيين دخولها، فما عاد منها حيا كل من خاض منهم تلك المغامرة. بل كان يموت أو يقتل قبل الوصول إليها أو فيها أو أثناء العودة منها.

فقرر كايي خوض المغامرة انطلاقا من السينغال متنكرا في هيئة مسلم، زاعما أن أصله من الإسكندرية قد تم اختطافه من طرف الفرنسيين أثناء حملة نابلويون على مصر[2]، فنشأ في فرنسا من دون أن ينسى دينه ولغته. ولما كبر عزم على العودة إلى بلاده انطلاقا من السينغال. كل ذلك حتى لا يقتل طيلة الرحلة. وكما فعل من سبقوه تعلم ما استطاع من اللغة العربية ومبادئ الإسلام بموريتانيا، وحفظ عن ظهر قلب قصار السور من القرآن.. و في أبريل من 1827 انضم إلى قافلة في رحلة شاقة صوب بلدة تمبكتو التي وصلها بعد سنة في أبريل من عام 1828. استقر فيها مدة أسبوعين وشعر بخيبة أمل لما وجدها مدينة شبه منهارة. ثم انضم إلى قافلة أخرى تعبر الصحراء إلى المغرب، وبلغت مدينة فاس في 12 أغسطس من نفس السنة. ومنها سار في رحلة شاقة مرة أخرى إلى مكناس ثم الرباط ثم العرائش حتى وصل إلى طنجة حيث تم تهريبه خلسة إلى فرنسا على متن سفينة فرنسية.

فحصل رينيه كاييه على جائزة الجمعية الجغرافية كما تقلّد وسام جوقة الشرف ومعاشا طيلة ما تبقى من حياته. ونشر قصة رحلته عام 1830 تحت عنوان: "يوميات رحلة إلى تمبكتو وجيني في وسط إفريقيا "[3]. فنال به شهرة منقطعة النظير. لكن الإنجليز طعنوا في صحة كتاباته ورحلته، الأمر الذي آلمه أكثر مما آلمته مشاق مغامرته. إلا أن من وصولوا من بعده إلى بلدة تمبكتو أكدوا صحة أقواله لما كان على قيد الحياة. وتوفي بمرض السُلّ الذي أصيب به في أفريقيا سنة 1838 في سن الثامنة والثلاثين. في كتابه كان مروره من المغرب مجرد مرحلة ثانوية في طريق عودته من رحلته. وبالنسبة لما يهمنا في كتابه لم يتوقف عند وصف ما شاهده بشيء من التفصيل سوى في ثلاث مدن، وهي تافيلالت وصفرو وفاس. فاخترناها وترجمناها هنا حتى يطلع القارئ الكريم على بعض من أحوال تلك المدن سنة 1828. لكن قبل ذلك نترك كاييه يحكي لنا بنفسه عن الغرض من رحلته.



لوحة زيتية لروني كايي

[1] *René Caillié*

[2] الحملة التي انتهت سنة 1801 لما كان عمر كايي سنة واحدة. بطبيعة الحال ما شك أحد في ذلك طيلة رحلته.

[3] *Journal d'un voyage à Tombouctou et a Jenné dans l'Afrique centrale*

1. الغرض من رحلتي الاستكشافية.

كان هدفي الرئيس من هذه الرحلة هو أن أجمع بعناية ودقة كل الحقائق التي تقع أمام عيني مهما كانت طبيعتها، وأن أكرس اهتمامي بشكل خاص لكل ما يبدو لي أنه مهم لتقدم علم الجغرافيا ولتطوير وتنمية تجارة بلدنا في إفريقيا. لقد علمتني الإقامة المطولة في مؤسساتنا ومستعمراتنا في السنغال علاوة على تجربتي الخاصة كم ظلت تجارتنا راكدة لفترة طويلة وكم كانت بحاجة إلى منافذ وعلاقات جديدة في داخل القارة الإفريقية. ومن أجل إقامة هذه العلاقات الجديدة وفرض منتجات صناعتنا على الشعوب البعيدة كانت هناك حاجة إلى اكتشافات جديدة ومعرفة جغرافية حديثة لا غنى عنها تمامًا لاستثمار الجهود التي تبذلها حكومتنا والتشجيع الذي من شأنه أن ينعش تجارتنا على هذا الساحل.

إن الإحساس الشديد بهذه الضرورة وبهذه الحاجة الملحة التي تضغط على تجارتنا في إفريقيا كان بطريقة ما هو الروح التي توجه ملاحظاتي وقراراتي خاصة في جزء معين من رحلتي. كنت مقتنعًا بتأثيرها القوي عاجلاً أم آجلاً على مصير مستعمراتنا وعلاقاتنا التجارية. يتعلق الأمر بمعلومات واضحة وإيجابية مستمدة من المصدر بعينه ومودعة في أيدي حكومة الملك الحامي المستنير المتحمس لخدمة المصالح المهمة، وبخاصة اليوم وبشكل وثيق، لازدهار المملكة وربما لسلامها الداخلي.

لكن لم أعد من المناطق التي سافرت إليها سوى بملاحظات مقتضبة للغاية. ملاحظات مدونة في الغالب بيد ترجف ورجل تركض، لأنه كان من الممكن أن تتحول إلى أدلة لا هوادة فيها ضدي في حال ما لو تم الإمساك بي وأنا أخط بيدي حروفا أجنبية من أجل أن أكشف للرجل الأبيض أسرار وألغاز هذه البلدان. في إفريقيا، تنكر الأجنبي في هيئة مسلم يعد من أكبر الإهانات التي تستوجب سفك الدم. ولربما من الأفضل بمئات المرات أن يظهر المسيحي هناك على حقيقته بدلا من أن يتخفى في مظهر مسلم مزيف. لذلك إذا كان لتنكري ذاك مزاياه، بالنظر إلى ما يبرره مبدئيا وإلى نجاحه في المحصلة، فقد كانت له أيضًا مخاطره المروعة. كنت أحمل دائمًا في حقيبتي صك الحكم عليّ بالإعدام. وكم من مرة تركت هذه الحقيبة في أيدي العدو. ولما وصلت إلى باريس، وجدت تلك الملاحظات المكتوبة غالبًا بقلم الرصاص متعبة جدًا وقد مُحيت بمرور الزمن لدرجة أن استرجاعها تطلب مني كل المثابرة والإخلاص الدقيق لاستعادتها من ذاكرتي وإعادة إنتاجها كأساس لملاحظاتي ومواد اكتشافاتي.

2. تافيلالت في صيف 1828

البلدة: تافيلالت هي دائرة صغيرة. وهي، مثل درعا، ولاية من ولايات إمبراطور المغرب. يدفع له سكانها بعض الضرائب، وهو يحتفظ هناك بباشا أو والي، يسكن ببلدة الريصاني في إقامة تتميز عن غيرها بباب كبير محاط بفسيفساء من قطع زليج صغيرة من الخزف بألوان مختلفة، والحائط مغطى بشكل متماثل. وتوجد قرى تافيلالت في نفس خط بلدة الريصاني، وهي متقاربة جدًا بعضها من بعض. تلك التي أتيحت لي فرصة رؤيتها لها نفس الحجم تقريبًا، ويمكن أن تحتوي كل منها ما بين ألف ومائة إلى ألف ومائتي من السكان، جميعهم ملاك وتجار. اعتاد كل مالك على إحاطة أرضه بجدار من الطوب أو بخندق. جميع القرى محصنة بالأسوار. وتلك التي زرتها لديها بوابة أمامية واحدة تغلق ليلا.

الساكنة: ينقسم السكان في هذه المنطقة إلى عدة فئات، والطبقات الاجتماعية فيها متميزة. فالعمال الذين يعملون بأجر يومي أو شهري في فلاحة الأرض أو غيرها ينتمون إلى الطبقة الدنيا. وأما أولئك الذين يعتقدون أنهم في وضع أعلى فيعاملونهم ككائنات أدنى شأنا. وهناك أيضًا العديد من العبيد الزنوج وبعض المحررين. وهؤلاء لا يختلطون بالعرب أبدا. والطفل الذي يولد إثر علاقة سرية بين عربي وزنجية لا يعد عبدا، ومع ذلك يظل دائمًا في الطبقة الدنيا من المجتمع.

كما في درعا يوجد في تافيلالت يهود يعيشون في نفس قرى المسلمين، لكنهم متسخون جدًا ولا يمشون إلا حفاة، ربما لتجنب تعب تكرار خلع نعالهم عند المرور أمام كل مسجد أو باب بيت شريف ، وهو أمر مفروض عليهم[4]. في حين نلاحظ هنا عادة معروفة في الشرق، ومتبعة بكل صرامة وهي أنه عندما يمر العربي البسيط أمام شريف يخلع نعليه كذلك ويأخذهما في يده وينحني إجلالا له. واليهود يرتدون قميصا خشنا ومعطفًا أبيض متسخًا جدًا، يمررونه من تحت الإبط الأيسر ويلصقونه بالكتف الأيمن، كما أنهم يحلقون رؤوسهم مثل العرب، لكنهم يتركون خصلة من الشعر تسقط على الجبهة. وطعام اليهود أفضل من طعام

[4] أمر لا علاقة له مرة أخرى بصحيح الدين، بدليل عيش يهود المدينة من حول الرسول صلى الله عليه وسلم من دون أية شروط تمييزية، اللهم مثل ما يُشترط في حق المسلم من آداب عند دخولهم المسجد لغرض ما.

المحمديين، فهم يأكلون الكثير من خبز القمح الذي يعجنونه ويخبزونه بأنفسهم كما يأكلون القليل من الكسكس والعصيدة، ويصنعون الجعة من الحبوب ويشربونها بالرغم من العرب. وفي موسم العنب يصنعون القليل من النبيذ.

ومثل العربيات، النساء اليهوديات يرتدين قطعة من القماش بطول اثني عشر أو خمسة عشر قدمًا، وتمر من حول حوضهن ومن فوق رؤوسهن. لديهن على جانبي الرأس بالقرب من الأذنين حزمة كبيرة من الشعر تنزل على أكتافهن ويبلغ طولها خمس بوصات ومحيطها ثلاث بوصات. وعادة ما يغطين رؤوسهن بقطعة قماش ملونة لكنها عادة ما تكون متسخة مثل بقية ملابسهم، وهن أيضا يمشين حافيات، ويوكل إليهن جلب المياه وغسل الملابس وإحضار الحطب للطبخ علاوة على جميع الأعمال المنزلية

النشاط الاقتصادي: سكان تافيلالت يدبغون الكثير من الجلود، ويصنعون منها منتوجات جيدة تحظى بتقدير كبير في التجارة وتجد رواجًا كبيرا في فاس. الناس في هذه البلدة لديهم حرف أكثر مما لاحظت في الأجزاء المختلفة من إفريقيا التي زرتها. في الأسواق، يأتي كل فرد بثمار عمله، فترى فيها بوفرة البطانيات الصوفية والوسائد والجلود المدبوغة والمآزر والأحذية والحصير والأطباق الخشبية وجميع الأشياء التي تصنع هناك.

بعض اليهود يشتغلون كتجار سلع مستعملة، والبعض الآخر كصناع يصنعون الأحذية والحصائر من جريد النخل. ومنهم أيضا الحدادون. كما أن منهم من يقرض أمواله بالربا للتجار الذين يتاجرون في السودان، وهم لا يذهبون إلى هناك بأنفسهم أبدًا. وثروتهم الوحيدة هي منازلهم، لكنهم غالبًا ما يأخذون العقارات كرهون مقابل الأموال التي يقرضونها. اليهود دائما لديهم أموال في خدمتهم، لكنهم يتجنبون الظهور بمظهر الثراء. وغالبا ما يبتزهم العرب الذين يشكون أن ثرواتهم أكبر بكثير مما يبدونه. ثم إنهم لا يقومون فقط بدفع ضرائب للإمبراطور بل يتعرضون أيضا لمضايقات من قبل الأمازيغ.

تربة تافيلالت رملية رمادية وخصبة للغاية، يزرع فيها الكثير من القمح وجميع أنواع الخضر والفواكه من أصل أوروبي[5]. ينمو فيها البرسيم بشكل جيد جدا. وعندما يجف، يتم الاحتفاظ به لإمدادات الشتاء. وفيها كل ما هو ضروري للحياة. توفر أشجار النخيل العديدة التي تحيط بكل ملكية غذاء وفيرًا وجزء كبيرًا مخصصا للتجارة، فيبيعون الكثير من التمور في جميع أنحاء البلاد، وخاصة في المدن الساحلية.

الأهالي لديهم خراف جميلة ذات صوف أبيض جدًا، يستخدمونه في صناعة البطانيات القشيبة التي تنسجها النساء. لديهم بعض الثيران، ولكن ليس بعدد تلك التي عند البدو. هناك خيول وحمير ممتازة والعديد من البغال الجيدة. الخيول في الغالب مملوكة من قبل البربر الذين يستوطنون تافيلالت بأعداد كبيرة، وهم أقل نهبًا من بربر درعا، لكنهم مخيفون في الحقيقة للأجانب فحسب. ويربي السكان الكثير من الدواجن التي هي بحجم دواجننا، ويأكلون بيضها مسلوقا. ولديهم حمام لكن بأعداد صغيرة. بعض الأفراد لديهم كلاب وقطط يطعمونها بالتمر.

يقوم الأهالي في هذا البلد بتجارة كبيرة مع السودان[6]. يرسلون إلى هناك أوراق التبغ التي يزرعونها في بلدهم. كما يقومون بنقل البضائع القادمة من أوروبا وذلك مقابل الذهب والعاج والصمغ وريش النعام ومصنوعات محلية وكذلك العبيد. وأقولها مع الأسف، هذه التجارة المشينة، هي في هذا الجزء من إفريقيا مزدهرة بالكامل.

يرسل التجار البضائع إلى تمبكتو عن طريق البدو العرب الذين يمكن اعتبارهم متخصصين في خدمات النقل في الصحراء، وينقلونها بواسطة جمال البربر الذين يؤجرونها مقابل تعويض، ذلك أن البربر لا يقومون، مثل العرب، برحلات كبرى في بلدان الزنوج. وبدون هذا الاحتياط الحكيم من التجار قد تنهب قوافلهم من قبل الأقوام المتوحشة كما يحدث أحيانًا مع الطوارق. عرب تافيلالت يذهبون في الغالب للاستقرار في تمبكتو، مثل الأوروبيين الذين يذهبون إلى العالم الجديد[7]، من أجل جمع ثروة هناك. و بعد خمس سنوات أو ست من البقاء هناك يشترون الذهب والعبيد ويعودون إلى وطنهم ليعيشوا فيه آمنين ومطمئنين.

---

[5] أو بالأحرى كتلك التي توجد في أروبا

[6] لعل المقصود بالسودان هنا وعند باقي المستكشفين في تلك العصور هو مالي الحالية جنوب شرق السينغال، وليس بلد السودان الحالي.

[7] يعني أمريكا.

3. مدينة صفرو في صيف 1828

في اليوم 11 من أغسطس من سنة 1828، وصلنا إلى صفرو حوالي الساعة الثانية بعد الظهر. نزلنا في فندق ثم زرت هذه المدينة التي هي أجمل ما رأيته حتى الآن. هذه بلدة محاطة بأسوار ويوجد فيها مسجد جميل نوعًا ما مبني من الطوب ومغطى بالكلس. نافورتان جميلتان لوضوء المؤمنين تزينان فناءه. وتفاجأت بشكل فريد برؤية ساعة سيئة معلقة في مئذنته. والشيء الأكثر روعة الذي رأيته فيها هو طاحونتين يحركهما تيار المياه. البيوت فيها من الطوب ومؤلفة من طابق واحد. الشوارع ضيقة وقذرة. ولكن العديد من الجداول التي تنحدر فيها من الجبال، والبساتين الجميلة التي تحيط بها، تجعل الإقامة فيها ممتعة. خارج المدينة الطريق مرصوف بالحصى على طول ثلاثة أرباع ميل تقريبًا ومظلل بعروش أشجار التين ومحفوف بالحدائق الجميلة.

تقع البلدة في سهل كبير وجميل، حجري للغاية، لكنه خصب. أراضيها مزروعة بالذرة وبأشجار الزيتون الجميلة. وتوجد بالقرب من المدينة بساتين فاتنة جدًا تحيط بها أسيجة، وتحوي العديد من أشجار الفاكهة. الكثير من الكروم تتسلق الأشجار وتعطي عنبًا لذيذًا. ويقام السوق هناك يوما واحدا كل أسبوع. يأتيه الكثير من الغرباء. ولليهود فيه متاجر. وتباع فيه اللحوم المشوية في الفرن.

4. مدينة فاس في صيف 1828

الحاضرة: سأحاول أن أقدم عن فاس نظرة تفصيلية ودقيقة بمقدار ما سمح لي قصر إقامتي فيها. فاس هي أجمل مدينة رأيتها في إفريقيا. يقطن فيها حوالي عشرين ألف نسمة من التجار والعمال. ويوجد بها أربعة قضاة ونواب ونفس العدد من المسؤولين عن الأمن. الحكم فيها موكول إلى باشا. وتضم حاميتها خمسة آلاف جندي من جنود السلطان.

كانت فاس في السابق عاصمة الإمبراطورية. وتقع على جنبات جبال عالية ومشجرة بكثافة تنحدر منها عدة تيارات مياه كبيرة تسقي أريافها وتزودها بمياه جيدة للغاية. لذلك توجد في جميع مساجدها نوافير مياه، والعديد من شوارعها مزودة بحنفيات لإطفاء عطش المارة. كما توجد فيها عدة طواحين مائية لسحق الحبوب.

وعلى حد علمي ومن خلال النظر إليها من أعلى جبل، فإن فاس قد تحتوي على أربعة آلاف مئذنة. وهي محاطة بجدار مزدوج ومشيد من الطوب الجيد الصنع. يبلغ ارتفاعه من اثني عشر إلى ثلاثة عشر قدمًا. فيه باب كبير فاجأني انتظام بنائه ويشكل قوس نصر يوجد تحته العديد من تجار المأكولات.

البيوت في فاس كلها مبنية من الآجر المشوي في الفرن والجيد الصنع. ولها أسطح مثل تلك الموجودة في تمبكتو. ولها بشكل عام طابق واحد من فوق الطابق الأرضي، ولا يدخلها الهواء إلا من خلال فناء داخلي. نوافذها المطلة على الطريق صغيرة ومربعة وبها مشربيات. من الخارج جدران جميع هذه المنازل مطلية بالجير الأبيض، لكنها سيئة الصيانة. الشوارع مرصوفة غير أنها ضيقة ومتعرجة ومظلمة وقذرة للغاية. رأيت في بعضها جثثًا متعفنة لكلاب وقطط ميتة منذ مدة، وتنبعث منها روائح كريهة. هذه الطرقات هي عبارة عن دهاليز طويلة مغطاة بتعريشات أو مسقوفة ببناء البيوت. الأمر الذي يمنع الهواء من الدوران فيها، ويحشر روائحها النتنة فيجعل من المدينة بيئة غير صحية للعيش تماما.

النشاط الاقتصادي: تصنع في فاس البطانيات الصوفية والبارود والمحاريث والمجارف الخشبية للعمل في الأرض والخزف والزليج ورقاقات البلاطات. وفيها صناع الأقفال وصناع المُديات وصانعو الأسلحة وصانعو النعال والخياطون والبنائون والحدادون والسراجون. جودة بنادق البلد بعيدة كل البعد عن جودة بنادقنا. ضواحي المدينة، على بعد ميلين أو ثلاثة أميال، مزروعة بشكل جيد. هناك العديد من أشجار الزيتون وأشجار التين والصبار والكروم وأشجار الإجاص وأشجار التفاح. بالقرب من جدرانه توجد أشجار التوت التي ترتفع عالياً. لقد رأيت مزارعي الزهور الذين باعوا في السوق عدة أنواع من نفس الزهور التي تزين أسرتنا في فرنسا.

وفي معظم أحياء فاس توجد متاجر مليئة بجميع أنواع المواد الغذائية الجافة وغيرها، مثل الخبز واللحوم والزبدة والمعجنات والفواكه والخضروات. التجار يقومون بتجارة كبيرة في الأقمشة الأوروبية التي يتم تصديرها إلى تافيلالت و تمبكتو،

وكذلك في المناطق الجبلية المحيطة. المسافرون الذين لا علم لهم بالمدينة لا يملكون وسيلة أخرى غير شراء طعامهم من هذه المحلات والذهاب لتناوله في المسجد أو في الفندق[8]، لأنه لا توجد مآوي[9] بالمدينة.

في فاس السوق يعقد يوميا ويأتيه عدد كبير من الزوار من أماكن بعيدة لبيع منتجاتهم. يتم فيه إحضار الكثير من التمور والجلود المدبوغة من تافيلالت. أما سكان الجبال فيزودونه بالعسل والشمع الذي تصنع منه الشموع للاستهلاك المحلي والتي تُرسل منها كميات كبيرة إلى المدن الساحلية.

يقام هذا السوق في شارع تكسوه التعريشات والقش. يحتل فيه التجار دكاكين صغيرة بمساحة خمسة أو ستة أقدام مربعة ومرتفعة حوالي ثلاثة أقدام فوق سطح الأرض. يجلسون هناك طوال اليوم مثل جلسة الخياطين على طاولة متجرهم. ومن أجل أمن المحلات يتم إطلاق الكلاب كل ليلة في ممرات السوق. هذه الحيوانات المدربة تؤدي خدمتها بحماسة شديدة لدرجة أنها قد تفترس المارة الذين تقودهم الصدفة أو بعض الأعمال إلى المكان الموكول إليهم حراسته.

المعالم العمرانية: لا توجد بفاس معلمة تذكّر بروعة البلاد القديمة وبسابق عظمة غزاة إسبانيا. هناك العديد من المساجد تعلو كل منها صومعة مربعة ويبلغ ارتفاعها حوالي مائة قدم ويعلوها علم أبيض وقت الصلاة. إنها مبانٍ مربعة الشكل كبيرة وطويلة. تصميمها الداخلي ممتاز. دخلت إلى أحد هذه المساجد وكان أجملها، أرضيته مرصوفة بقطع صغيرة من الخزف بألوان مختلفة مقطوعة ومرتبة بذوق رفيع لتشكيل رسوم معينة. جدرانه مغطاة من الأسفل حتى مقدار ارتفاع قدمين ونصف بنفس الشكل من قطع خزف. وأقواسه التي تدعم القبو مشيدة بشكل أفضل بكثير من تلك الموجودة في المساجد الأخرى. ولاحظت فيه وجود قوسين مدعومين بأعمدة رخامية منحوتة جيدًا والباقي مصنوع من الآجر المطلي بالجير. سقفه مغطى بألواح من البلاط المطلي باللونين الأصفر والأحمر. شريط عريض من اللون الأصفر الجميل، الشبيه بلون الذهب يزين محيط السقف.

رأيت ثريا جميلة معلقة في وسط القبة المذهبة. وتنتشر العديد من المصابيح المعلقة في باقي أنحاء المنشأة لتوفيرالإضاءة للمصلين. وتوجد نافورة جميلة للغاية في الفناء الداخلي الجميل تعمل على إطفاء عطش الأجانب الذين يأتون للنوم هناك في جو بارد كل يوم. لا يوجد نزل أو مأوى في فاس. لا توجد فيها سوى فنادق مثل تلك التي تحدثت عنها سابقا، يأوي إليها المسافرون مع ما ليديهم من الدواب التي تحمل أثقالهم. وينامون فيه على الأرض بجانبها، ومنها يتزودون بالعلف والشعير لإطعامها. أما هم فيذهبون عادة لتناول وجباتهم في المسجد ويقضون معظم اليوم هناك وينامون فيه إذا سمح لهم بذلك. يحصل أصحاب الفندق ستة فلوس عن كل رأس من الماشية. في خارج المدينة ومن على جبلين يطلان عليها، يرى حصنان صغيران بهما فتحات لكن من دون مدافع فيهما سجناء. وعلى مسافة ما من المدينة يوجد عدد من الأضرحة الصغيرة حيث تم دفن الشرفاء الأكثر تميزًا.

5. متاعبي بمدينة الرباط

وصلنا بالقرب من ذراع بحر[10] وكان علينا عبوره للوصول إلى الرباط. رأيت فيه عدة سفن برتغالية. المناطق المحيطة بالرباط بها حقول مزروعة والكثير من كروم العنب. بمجرد دخولنا المدينة ذهبت مع دليلي إلى الفندق. بعد الاستراحة خرجت للتجول في المدينة بحثا عن منزل القنصل الفرنسي لأنني افترضت وجوده هناك. وكنت أحمل معي بضعة شلنات[11]. فتوسلت إلى العديد من المغاربة لاستبدالها بالعملة المحلية، وأنا مقتنع تمامًا بأنهم لن يفعلوا، وكنت أتوقع منهم أن يدلوني على مسيحي لاستبدالها، فأتحدث معه دون إثارة الشكوك[12].

وبالفعل أول من خاطبته دلني على المسيحيين، فانتهزت الفرصة لأطلب من أحدهم أن يدلني على منزل القنصل الفرنسي بحجة أن العملة التي كنت أنوي استبدالها فرنسية. فلما شك في أمري لبى طلبي. طرقت الباب، وأنا جد مسرور بمقابلة أول فرنسي. لكن يهوديا، يتحدث الإنجليزية، فتح الباب وأخبرني أن القنصل ذهب لمقابلة السلطان وأنه سيعود قريبًا. فذهبت بعيدًا لأنتظره. وبعد حين عدت فقدمني نفس اليهودي إلى القنصل الفرنسي في الرباط. يا إلهي! كم كنت مرتبكا عندما أدركت أنه يهودي! ارتبكت لدرجة أنني بقيت دقيقة من دون أن أفتح فمي. ومع ذلك، تحدث معي بلغة فرنسية جيدة إلى حد ما، وسألني عما

[8] الفندق هنا هو مأوى للمسافرين مع بهائمهم.
[9] والمأوى هو الفندق الخاص بالمسافرين فقط.
[10] يتعلق الأمر بنهر أبي رقراق.
[11] عملة إنكليزية.
[12] أجنبي متنكر في هيئة مسلم ويسأل عن قنصل فرنسا كان من شأنه يفتضح به أمره فيقتل.

أريده منه. وسرعان ما تعافيت قليلاً من دهشتي، وعرضت عليه شلناتي وتوسلت إليه أن يغيرها من أجلي. فتركني مع تاجر إنجليزي كان معه، والذي أفشيت له سري، فطمأنني قائلا إنه يمكنني أن أبلغ بكل ثقة اليهودي بالموضوع الذي أوصلني إليه. فأخبرت اليهودي بأنني فرنسي وأنني أتيت من السودان[13] وأرغب في العودة إلى بلدي، وطلبت منه الحماية من أجل موضوع يهم ملك فرنسا. فسألني إذا ما كانت لدي أوراق، وإذا ما كنت قد أرسلت من قبل الحكومة. عندما أجبت على جميع أسئلته، أظهر لي خطابًا من القنصل العام لملك فرنسا بطنجة يعلن فيه تعيينه في منصب الوكيل القنصلي في الرباط. وأفهمني أنه لا يتقاضى أجرًا على ذلك وأنه لا يجب أن أتوقع منه الكثير. ثم أبعدني من بعد ما حذرني وأوصاني بالحرص على عدم افتضاح أمري إن كنت لا أرغب في قطع رقبتي، مضيفا بأن المغاربة لا يمزحون في أمور الدين.

من دون وسيلة للوصول إلى طنجة، عدت إلى اليهودي وتوسلت إليه أن يقرضني ما أستأجر به دابة، واعدًا إياه بسداده بمجرد وصولي إلى القنصل. لكن اليهودي، خوفًا بلا شك من عدم رضا رؤسائه، رفض باقتضاب. وبعد أن أدركت أنني لا أستطيع الحصول على أي شيء من هذا الرجل، ولو المساعدة على ركوب سفينة برتغالية متوجهة إلى جبل طارق، قررت أن أكتب إلى القنصل العام نفسه. وعندما كنت أحرر رسالتي تلقى اليهودي رسالة من طنجة تبلغه بوفاة هذا القنصل العام. لذلك كتبت الرسالة مخاطبا نائبه. لكن في انتظار إجابته، سنحت لي فرصة الذهاب إلى طنجة لما استأجرت حمارًا ليحملني إلى هناك، لأنني لم أعد أستطيع الوقوف على قدمي.

في اليوم الثاني من شهر شتنبر 1828 غادرت الرباط مع صاحب الحمار، الرجل الأشد قسوة الذي رأيته في هذا البلد. الحيوان المسكين الذي كان سيحملني على ظهره كان منحنيًا بالفعل تحت ضغط حمولة ثقيلة. وكان يسير على رمال ناعمة على حافة البحر، وكان يغرق فيها حتى العرقوب. فاضطررت للنزول. بالكاد استطعت جر نفسي. ومع ذلك، تولى صاحب الحمار زمام المبادرة للسير مسرعا. وهكذا قطعت نصف الرحلة سيرًا على الأقدام، على الرغم من أنني دفعت ثمنها للسفر راكبا.

6. متاعبي ثم خلاصي في طنجة

أخيرًا ، وصلت إلى طنجة مريضًا ومرهقًا في 7 سبتمبر عند حلول الظلام. وبما أنني دخلتها سيرًا على الأقدام لم يقل لي الحارس شيئًا، مما وفر علي إزعاج استنطاق محافظ المدينة الأمر الذي كان من شأنه أن يجعل رحيلي من هذا البلد أكثر صعوبة، وربما تسبب في هلاكي. فذهبت إلى الفندق وأخذت حقيبتي، وركضت في الليلة نفسها إلى المدينة محاولا العثور على القنصلية الفرنسية.

رأيت الكثير من السفن. لكن مع الظلام، لم أستطع العثور بينها على سفينة من وطني. وقد كانت لحظة حرجة للغاية بالنسبة لي. لم أجرؤ على مخاطبة المسلمين، الذين ما كانوا سيتأخرون عن طلب إخبارهم عن علاقتي بالمسيحيين[14]. وإذا اكتشفوا حقيقة أمري، فسأفقد الأمل إلى الأبد في رؤية وطني مرة أخرى. فنمت في الفندق، حيث قضيت ليلة مضطربة للغاية. وفي اليوم التالي، ذهبت في جولة بالطرقات حتى رأيت بابًا مفتوحًا وكان هناك مسيحي بالقرب منه. اقتربت من بعد ما تحريت بدقة ما إذا كان أحد قد رآني، وسألته باللغة الإنجليزية عن مكان إقامة القنصل البريطاني. فأجاب: "هذه هي". لكن خوفًا من جذب انتباه الفضوليين إذا تكلمت كثيرا عند الباب، أردت أن أدخل المنزل لأطلب منه إقامة القنصل الفرنسي. لكن هذا الرجل، الذي أعتقد أنه كان خادمًا، اعترضني وصدني بقوة، لأنني كنت قذرًا ودميما. لكنه في نفس الوقت اتصل بيهودي، هو الذي دلني على باب نائب القنصل الفرنسي، وبفضول سألني من أكون وماذا أريد من مسيحي. فابتعدت عنه من دون رد وأنا أرجف خوفا من أن يكشف أمري.

ولما انسحب من كانوا ينظرون إليّ، عدت إلى باب القنصلية الذي كان مفتوحًا ودخلت. حينها دعت امرأة يهودية نائب القنصل الذي استقبلتني بحرارة، وسرعان ما أخذني إلى شقة حتى لا يراني أي شخص. ففهمت من مخاوفه عليّ مدى المخاطر التي لا تزال تحيط بي ومدى الصعوبات التي ستعترض إخراجي من هذا البلد. لكنه سرعان ما وضع قلقه علي جانبًا ولم يفكر إلا في تفجير فرحته برؤيتي بأعجوبة، وقد نجوت من مخاطر هذه الرحلة الشاقة. وفي غمرة سروره ذهب إلى حد معانقتي وتقبيلي من دون أن يظهر أدنى اشمئزاز سواء من سوء حالي أو من الخرق القذرة التي كنت أرتديها. ومع ذلك، على الرغم من أسفه

[13] وهو مالي الحالية حيث توجد مدينة تمبكتو.
[14] وقد كان لا يزال متنكرا في زي مسلم.

علي، وجدت نفسي مضطرًا لمغادرة المنزل، من دون أن نكون قادرين على تدبير أي شيء لإخراجي من هذا االحرج الذي وجدت نفسي فيه.

وعندما وطأت قدماي الشارع، شعرت بالانزعاج من مصادفة سائق البغال الذي سألني من أين أنا آت عندما رآني أغادر هذا المنزل. في البداية شعرت بالحرج قليلاً. لكن سرعان ما تعافيت منه وقلت له إن في هذا المنزل مرابط صالح وفاعل خير قدم لي ةبجو غداء. فعدت إلى الفندق ولم أخرج منه طوال اليوم حتى لا أجلب انتباه أحد. والناس الذين رأوني سألوني عما إذا كنت مرتدًا[15].

في اليوم التالي عند حلول الليل، عدت للقاء نائب القنصل مرة أخرى. لما دخلت لم تتعرف علي الخادمة، فانسحبت وأطلقت صرخة عالية. على الفور دخل مخزني القنصلية الجالس في الشارع ووضع يده على كتفي وسألني ماذا أريد ومن أكون. كنت مرتبكًا بشكل فريد لما نزل نائب القنصل وتعرف عليّ، لكنه تظاهر بالغضب مني، وحتى أنه وجه لي كلمات قاسية كي لا تثير الشكوك من حولي، لما قال للمخزني: "اترك ذلك الكلب المتسول يبتعد" وقال لي " ماذا تريد؟ انصرف". وظل الجندي يسألني ما الذي أريده. للخروج من هذا المأزق تظاهرت بالرجل الذي أخطأ المقصد وقلت: "أليس هذا منزل سيدي محمد؟" فاعتقد أنني مخطئ حقا وانسحبت، لكنه تبعني. وبما أن الليل كان مظلما تيسر لي التخلص منه.

فعدت إلى الفندق ثم بعد ساعة عدت إلى القنصلية من جديد، على أمل أن يرسل نائب القنصل من يجدني ليطمئنني. لكني لم أر أحدا. وعندما حل النهار جلست عند باب إسكافي فقير أنتظر اللحظة التي يمكنني فيها دخول القنصلية من دون أن يراني أحد. فتعرفت عليّ الخادمة اليهودية التي خافت مني بالأمس وذهبت لإخبار نائب القنصل الذي حضر على الفور ودعاني للدخول. واعتذر لي عما حصل منه بالأمس ولم يخف عني مخاوفه من بقائي في هذا الوضع لفترة أطول. وما كان يعرف كيف ينقذني. لكن من دون مساعدته لا يمكنني مغادرة هذا البلد. ولما رآني مصمما على الخروج بسرعة من حالة الضيق والقلق هذه، سارع بالكتابة إلى الضابط قائد البحرية الفرنسية المرابطة في قادس[16]، ووصف له بكل وضوح المخاطر التي أتعرض لها بسبب مكوثي لفترة أطول في طنجة. فاقتنع القائد بوجاهة مبررات هذه الطلبات الملحة، وأرسل سفينة شراعية من سفن الملك لاصطحابي ونقلني إلى فرنسا. حينها حدد لي نائب القنصل وقتًا من الليل يمكنني فيه دخول القنصلية ولن أخرج منها سوى للإبحار نحو أوروبا.

عدت إلى الفندق حيث أمضيت بقية اليوم. وعندما حل الظلام لففت حقيبتي في بطانيتي لإخفائها عن كل العيون وذهبت إلى المكان المحدد. وبعد لحظة رأيت نائب القنصل برفقة يهودي جاء ليأخذني إلى الملجأ المخصص لي. فدخلت القنصلية من باب خلفي حيث خصصت لي غرفة جيدة. أمر نائب القنصل على الفور بإحضار بعض الملابس الأوروبية من أجلي فخلعت بكل سرور الخِرَق القذرة التي كانت تغطيني. ثم جاءني وأظهر لي أكبر قدر من الارتياح لرؤيتي في أمان. وبحمد الله، نمت أخيرًا على سرير جيد وهنأت نفسي على تمكني من الخلاص من مجتمع يعميه الجهل والتعصب. وعلى الرغم من أنني لم أفتقر إلى أي شيء، كان من المستحيل بالنسبة لي أن أنام طوال الليل، بت أراجع ذكريات المخاطر التي نجوت منها. وطوال الوقت الذي مكثت فيه في القنصلية كان نائب القنصل يأتي لرؤيتي عدة مرات في اليوم وللتحدث معي. لقد عاملني مثل ابنه. باختصار، لقد أغدق عليّ هذا الرجل الرائع كل رعاية الأب المحب.

خادم يهودي، كان على علم بسر عزلتي. ورغم أنه فرنسي فقد كان مشبعًا بمبادئ طائفته. لا يرى شيئًا فوق المصلحة الشخصية. فنصحني ببيع ثمار رحلتي إلى إنجلترا التي كانت تقدم 25000 جنيه إسترليني كمكافأة عن ثمار الرحلة إلى تمبكتو. فأجبته بأنني فرنسي، وأن مكافآت حكومتي لن تكون بلا شك كبيرة بنفس القدر. لكنني لن أتردد لحظة واحدة في أن أشرف بلدي وملكي بالاستفادة من أعمالي المتواضعة.

وفي اليوم 27 من شتنبر 1828، قبل غروب الشمس بقليل، ارتديت ملابس بحار بقصد التخفي بشكل أفضل. وسألني مغربي مسؤول في الميناء عن هويتي، قائلاً إنه لم يرني أنزل من السفينة مع الآخرين. فأجاب اليهودي الذي رافقني أنني فرنسي قادم من تطوان وأنني عائد إلى فرنسا. فلم يقل المسؤول شيئًا. وركبت على متن المركب الشراعي الفرنسي وأنا محموم ومريض للغاية. فأمر القائد بإعطائي كل ما أحتاجه في وضعي. وفي يوم الموالي وبالضبط على الساعة السادسة صباحًا، أبحرنا برياح

---

[15] الأوروبيون كانوا يقصدون بالمرتد في المغرب المسيحي الذي أسلم.
[16] مدينة بجنوب إسبانية مطلة على البحر المتوسط قبالة المغرب.

مواتية ومرضية كثيرًا. ثم سرعان ما غابت طنجة عن رؤيتنا. فتركتني الحمى بالكامل تقريبًا لما عافاني منها هواء البحر النقي. ووصلنا إلى فرنسا بعد عشرة أيام من سفر سعيد للغاية.

المستكشف الألماني أوسكار لانز

أوسكار لينز[1] (1848- 1925) هو الألماني النمساوي عالم جيولوجي ومستكشف. حصل في عام 1870 على الدكتوراه في علم المعادن والجيولوجيا من جامعة لايبزيك. وبعد ثلاث سنوات حصل على الجنسية النمساوية والتحق بالمعهد الإمبراطوري للجيولوجيا في فيينا. قام بأول رحلة استكشافية عبر الصحراء ، من المغرب إلى السنغال بين عامي 1879 و 1880 أساسا بهدف الدراسة الجيولوجية للمنطقة والبحث عن رواسب خام الحديد.

كان في هذه المناسبة هو رابع أوروبي يزور مدينة تمبكتو حيث لقي ترحيبا حارا، على الرغم من الغارات الفرنسية في النيجر انطلاقا من السنغال والجزائر. وبدأ رحلته بالمرور من الغرب. وعند عودته إلى أوروبا عام 1887، شغل منصب رئيس قسم الجغرافيا في جامعة تشارلز في براغ وألف كتابه عن رحلته بلغته الألمانية الذي تمت ترجته إلى الفرنسية تحت عنوان: "تمبكتو: رحلة إلى المغرب والصحراء والسودان"[2] والذي منه ترجمنا إلى اللغة العربية المقتطفات المختارة أسفله.



صورة الرحالة أوسكار لانز

وبفضل تدخلات الهيئة الدبلوماسية الألمانية بالمغرب حصل الرحالة أوسكار لانز على رسالة من السلطان مولاي الحسن، تحث كل رجال المخزن بالبلاد التي يمر منها، بحمايته وتوفير كل ما يحتاجه من مساعدات مادية وغيرها، وتحملهم مسؤولية تعرضه لأي سوء أو خصاص. وهذه صورة للرسالة السطانية مع ترجمتها إلى الفرنسية كما وردت في ترجمة كتابه إلى اللغة الفرنسية.

Dieu soit loué !

Nous ordonnons à tous nos amils, ainsi qu'à toutes *les personnes qui sont sous* nos ordres, à nous l'élu de Dieu, et qui verront cette lettre, de faire accompagner son porteur, le savant allemand, par des gens appropriés à son but; de l'aider et *de le protéger, aussi longtemps qu'il* voyagera dans leurs districts pour rassembler les plantes dont il a besoin; de lui donner de bonnes recommandations; de le traiter avec tous les égards convenables pendant *son voyage dans leur* territoire; de veiller constamment et avec soin à sa sécurité de jour et de nuit; de ne pas le conduire dans des contrées dangereuses; de l'en prévenir, et de *l'empêcher d'y pénétrer*; après la fin de son voyage dans leurs districts, de le faire conduire à l'amil de la première tribu chez laquelle il désirera se rendre.

Paix (avec vous) !

Le 30 Zil-Hedjeh 1296.

وهذا نص الرسالة كما هو تقريبا، استعنا بترجمته إلى اللغة الفرنسية لفك رمزه بقدر ما استطعنا.

[1] *Oskar Lenz*

[2] *Timbouctou : voyage au Maroc, au Sahara et au Soudan*

نامر الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا المعتز بالله، أن يوجه مع ماسكه الحكيم الألماني من فيهم الكفاية من أهل الخبرة والجد من إخوانه، ويقفون معه ويحرسونه حتى يطوف ببلاده ويجول فيها، ويأخذ من نبتاتها ما يصلح له، و أن يستوصي به خيرا ولا يقصر في الاعتناء بشأنه والبر به خلال تجواله بأرضه، ويكون على بال من حراسته ليلا ونهارا، ولا يتركه يصل لمحل المخاطرة ويبينها له ويمنعه من الوصول إليها، ويوجه معه من يوصله لعامل القبيلة المجاورة له التي يريد التوجه إليها. والسلام

في متم دي الحجة عام 1296[3]

1. الغرض من رحلتي إلى المغرب.

خلال خريف عام 1879 تلقيت من الجمعية الأفريقية لألمانيا مهمة القيام برحلة إلى المغرب للمساهمة قدر الإمكان في المعرفة المتعمقة لسلسلة الأطلس. لكن كنت مصمما على منح مهمتي امتدادًا أكبر. ولما صار بإمكاني القيام برحلة عبر الصحراء نحو تمبكتو تلقيت من الجمعية بسخاء كبير منحة تكميلية.

والجزء الأول من كتابي يتعلق بوصف رحلتي عبر المغرب. فيه دراسة للأوضاع الحكومية والسياسية والاجتماعية بهذا البلد، والتي من المحتمل أن يجد فيها القارئ الكثير من المعطيات الجديدة. وما كان بالإمكان تحديد مساري إلا عن طريق البوصلة. كما استخدمت البارومتر لقياس الارتفاعات. شكوك الساكنة بلغت معي حدا كبيرا. فغالبًا ما كنت أدون مذكرات السفر فقط في الليل لما يكون الجميع نائمين.

2. العلاقات المتوترة مع أوروبا.

المغرب، كما نعلم، إلى جانب الصين أقل البلدان انفتاحا على الأوروبيين. لطالما أظهرت الحكومة مهارة كبيرة في إبعاد السكان عن تأثير الحضارة الغربية. وتتجلى هذه السياسة في مجموعة من الإجراءات الإدارية التي تعمل بأكثر الطرق تقييدًا على تجارة الأوروبيين وأسفارهم.

كما يشترك المغرب مع الصين في كون ممثلي مختلف الدول الأوروبية لا يعيشون في العاصمة مقر صاحب السيادة، ولكن في ميناء بعيد. هكذا لسيت للقناصل علاقة مباشرة بالحكومة؛ فيتراسلون معها من خلال مبعوث مغربي مقيم في طنجة.

بطبيعة الحال، فإن طريقة العمل هذه فيها مضايقة كبيرة لسير الأعمال. وتضر كثيرًا بالأوروبيين المستقرين في المغرب. من ناحية أخرى، في ظل الوضع الحالي، يكاد يكون من المستحيل على القناصل الأوروبيين الإقامة في فاس، مقر إقامة السلطان. المغرب كله ليست فيه طرق صالحة لسير السيارات. لذلك تستغرق الرحلة من طنجة إلى فاس ثمانية أيام أو عشرة ، فيكون لها دائمًا طابع الرحلة الاستكشافية.

[3] موافق 14 دجنبر 1879م

قبل الانطلاق يجب على المسافر أن يتزود بالخيام والسرج والدواب وعدد كبير من الخدم. بالإضافة إلى ذلك، ليست هناك رغبة في وجود أي أوروبي بداخل البلاد. فلن تكون هناك ضمانات كافية للأمن على حياة السفراء المسيحيين، إذا كانوا سيعيشون في فاس بالقرب من السلطان. المغاربة يبدون مسالمين في العلاقات العادية، لكن من السهل جدًا دفعهم إلى القيام بصنيع من أعمال التعصب الديني.

في الوقت الحالي، هناك ثماني قوى أوروبية ممثلة في المغرب، على الرغم من أن بعضها ليس لديها ما تحميه فيه. بلدان إنجلترا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال وإيطاليا وألمانيا وبلجيكا والولايات المتحدة، لهم سفراء وقناصل عامون في طنجة، علاوة على نواب قناصل في عدد قليل من الموانئ. عهدت النمسا إلى إنجلترا برعاية مصالحها الدبلوماسية، وتحتفظ أيضًا بقنصل في طنجة. إن القوى التي تحظى بأكبر قدر من المصالح في المغرب هي إنجلترا وفرنسا وإسبانيا. يسعى مبعوثوهم باستمرار إلى الحصول على تأثير راجح على الشؤون الداخلية للبلاد.

إنجلترا: تعتقد إنجلترا أن لها حقوقًا في المغرب، لأن طنجة كانت تحت سلطتها بالفعل. إلى جانب ذلك، كما هو الحال في كل مكان، اكتسب رأس المال الإنجليزي موطئ قدم في البلاد. بعد حرب المغرب مع إسبانيا عام 1860، أقرضت إنجلترا السلطان على الفور مبلغًا كبيرًا لدفع تكاليفها. وتقوم بتسليم معظم الأسلحة التي يحتاجها الجيش المغربي والحصون. والوزير الحالي في إنجلترا، مولود في البلاد وخبير في عادات ولغة الناس وكذلك في الأعمال التجارية، فهو لا يزال يمارس التأثير الأكبر في البلاط.

سياسة الإنجليز هي نفسها في كل مكان في البلدان المحمدية. يتظاهرون بحماية الأهالي، حتى يحولوا دون أدنى تأثير للدول الأخرى. فمن المؤكد أنهم يشجعون السلطان وحكومته في المغرب على الإبقاء على إقصاء باقي الدول الأوروبية، ويحذرونهم من عروضها. هكذا يتمكنون تشيئا فشيئا من تعزيز نفوذهم. إن الموقف المتشنج الذي لا يزال المغرب يحتفظ به تجاه الدول الغربية يرجع حقًا إلى السياسة الإنجليزية. ومن الطبيعي أن تهتم إنجلترا كثيرًا بالمغرب لأنه يقع على مضيق جبل طارق ، ومن شأنها أن ترى بأسف شديد مدافع طنجة تقطع منه طريق سفنها إلى قناة السويس والهند.

إسبانيا: بعد إنجلترا، إسبانيا هي الأكثر اهتمامًا بالتعامل مع المغرب. جوارها معه وامتلاكها لسبتة ووجود الكثير من الإسبان الذين يعيشون في موانئه، يفسر رغبتها في التمكن من التحكم فيه. تسود اللغة الإسبانية في المغرب من بين جميع اللغات الأوروبية الأخرى. يتم تداول العملة الإسبانية هناك في كل مكان ويتم قبولها في قرى الجبال البعيدة. إسبانيا لديها حتى إرساليات وكنائس في هذه الإمبراطورية المحمدية. وكانت لحربها الأخيرة مع المغرب، بشكل عام، نتائج جيدة، ولم يبق للإسبان إلا القليل لاحتلال مدينة تطوان الثرية والمهمة.

يعيش في هذا البلد العديد من المجرمين الإسبان الهاربين من العدالة، ولا يمكن استلامهم لأنه لا توجد معاهدة تسمح بذلك. لهذا كل تحرك في إسبانيا من أجل احتلال المغرب يتم اتباعه دائمًا بحماس. فلا شيء هناك أكثر شعبية من الحرب مع هذا البلد. ورجال الدولة الإسبان، إذا كانوا عقلاء، سوف يحرصون على عدم إثارتها من دون سبب. بصرف النظر عن كل عواقبها الوخيمة فإنها ستتطلب منهم جيشًا قويًا وستثير انتفاضة في كل المغرب. علاوة على كل ذلك، لن تبقى إنجلترا وفرنسا على حياد من مشاهدة إسبانيا وهي تقوم بأي استعدادات جادة لغزو المغرب. إن الانقسامات والمنافسة بين مختلف القوى الأوروبية هي الأسباب الوحيدة التي جعلتها تحافظ حتى الآن على استقلال هذا البلد. وستحتفظ به بلا شك مستقبلا لبعض الوقت[4].

فرنسا: فيما يتعلق بفرنسا، فإن احتلال المغرب سيحقق لها امتيازا هائلا. وسيكمل لها إمبراطورية استعمارية قوية في البلدان المحمدية بشمال إفريقيا لما تجمع فيها بين تونس والجزائر والمغرب. كان في ذلك شيء مغري لرجال الدولة الفرنسيين منذ وقت ليس ببعيد. هم يلقون أعينهم على المغرب الأقصى، كما يسمي العرب المغرب. الحدود بين الجزائر وهذا البلد غير مؤكدة إلى حد كبير. وتحدث انتهاكات حدودية في كثير من الأحيان من كلا الجانبين. والفرنسيون، مثل الإنجليز ، لديهم ضباط عسكريون منتدبون كمدربين في الجيش المغربي ويسعون من خلال الاستطلاع الطوبوغرافي على الحدود، إلى وضع الأسس لحملة عسكرية محتملة.

[4] وقد تحقق توقعه بعقد الحماية سنة 1912.

يوجد تجار فرنسيون وإنجليز في الموانئ. لكن، بالمقارنة مع الإسبان، فإن عددهم صغير. تنحصر السياسة المغربية في تطويق أطماع هذه الدول الثلاثة قدر الإمكان، وذلك مع الحرص على اجتناب العداوة مع أي منها، وتحاشي منح أي منها شيئا أكثر من اللازم. فبالكاد يخشى أن يلتقي الثلاثة في وجه السلطان. عدم الثقة فيما بينهم كبير للغاية. هكذا تتمتع الحكومة المغربية بوضعية مؤقتة مقبولة للغاية وبما فيها من المزايا كلها. فتظهر السياسة الشرقية في كل مكان على أنها أكثر مهارة من تلك التي يتبناها الغربيون. قد تتكافأ في بعض الحالات من حيث عدم وجود الأحكام المسبقة. ولكن فيما يتعلق بفن التسويف، وترك الأمور معلقة، وتقديم مجرد الوعود للتهدئة، لا يمكن مضاهاة المحمديين.

باقي القوى الأوروبية: باقي القوى الأوروبية الممثلة في المغرب لا تهتم بالبلد فلا تمارس فيه تأثيرًا كبيرًا على مسار الأعمال. صارت النمسا على وجه الخصوص تتحدث عن ذلك. فمنذ أن أصبحت مؤخرًا مملكة، صارت تسعى إلى التميز في كل مكان، لكن من دون أن تنجح حقًا. ويوجد عدد قليل جدًا من الإيطاليين في المغرب، ومعظمهم في أكثر الظروف بساطة.

أما البرتغال فقد نسي تمامًا أنه كان يمتلك هناك مدنا مزدهرة. فمنذ معركة القصر الكبير الرهيبة في عام 1578، التي فقد فيها الملك الأسطوري سيباستيان حياته، لم يحتفظ أبدًا في المغرب بوضعية مهمة[5]. لقد دمرت تلك المعركة أيضًا النفوذ المسيحي هناك ولا شيء استطاع حتى الآن استعادته. ويوجد عدد غير قليل من التجار البرتغاليين الصغار، خاصة في موانئ الأطلسي.

بلجيكا لديها عادة وزير مقيم في طنجة، ولكن من دون فائدة تذكر. ألمانيا أيضًا تحتفظ حتى الآن بوزير مقيم في المغرب، ولسبب وجيه. على الرغم من أن عدد التجار الألمان المقيمين في البلاد ليس كبيرًا مثل عدد رجال الأعمال الإنجليز أو الفرنسيين إلا أنهم تمكنوا مع ذلك من اكتساب تقدير كبير حيثما استقروا، وتحظى تجارتهم بتطور مع فأل أفضل. يوجد البعض منهم في طنجة والدار البيضاء وآسفي وموكّادور. وليس من شك في أن المغرب سيوفر منفذاً جيداً للمقاولات الأوروبية بمجرد انفتاحه على النفوذ الغربي. فهو غني بالمنتجات الطبيعية بمختلف أنواعها والتي لا يزال يحظر تصديرها بشكل عام.

3. تهافت المغاربة على الحمايات القنصلية.

إن سوء إقامة العدل في المغرب والتهور وانعدام الضمير عند معظم الولاة والمسؤولين بشكل عام، وسوء استخدامهم للسلطة، أدت كلها إلى ظهور مؤسسة أخرى لها جانبها المظلم أيضًا. فالعديد من رعايا السلطان، من بين المسلمين واليهود، وبخاصة في الموانئ، وضعوا أنفسهم تحت حماية بعض القناصل، وبالتالي أصبحوا بشكل ما من رعايا دولهم.

الدافع من وراء ذلك التصرف هو حصولهم على حماية أكثر أمانًا وتمثيلًا أكثر نشاطًا لمصالحهم من قبل القنصل الذي يحميهم أمام السلطات المغربية. فوجدت هذه الحكومة نفسها تواجه العديد من الصعوبات، لأن بعض القناصل الذين ليس لديهم ضمير، لا يتوانون عن الدفاع بقوة عن موكليهم من خلال التهديد بتعقيدات دبلوماسية، حتى في حال ما كانوا مخطئين.

وغالبًا ما ينظر بعض الديبلوماسيين الأوروبيين إلى هذا النوع من الحماية على أنه مصدر ربح وفير وثابت، مما يدفعهم إلى التصرف وفقًا لذلك. وفي الحقيقة، نسمع في طنجة، شئنا أم أبينا، عن مجموعة من مثل هذه التجاوزات التي لها هذا الأصل. وعليه، يسعى غالبية القناصل حاليًا إلى تنظيم نظام تلك الحماية أو حتى إلغائها.

4. بعض مظاهر الحياة في طنجة سنة 1879

الساكنة والزوار: يبلغ عدد سكان طنجة حوالي 20 ألف نسمة. ثلثهم من اليهود الإسبان، والبقية موزعة بين العناصر الأكثر تنوعًا، من العرب والبربر واليهود والزنوج وكذلك المسيحيين من أصول مختلفة، وخاصة من جنوب أوروبا. وتوجد في طنجة عدة مدارس يهودية وعربية. والطبقات الوسطى من السكان تحسن القراءة والكتابة.

الساكنة في طنجة متكدسة للغاية، لأنه لا يمكنها أن تتجاوز التحصينات. الفقراء على وجه الخصوص محشورون في الأزقة الضيقة. ولا يوجد في هذه المدينة حي يهودي خاص بهم، كما هو الحال في معظم مدن المغرب الأخرى. يعيش اليهود

[5] من الظاهر أن هذا الرحالة يجهل أن البرتغاليون ظلوا في بعذ المدن المغربية حتى عهد سيدي محمد بن عبد الله الذي أجلاهم عنه نهائيا.

مختلطين بباقي السكان. وخلال فصل الشتاء كثيرًا ما يصل السياح الأوروبيون إلى طنجة ويقضون فيها عدة أشهر. وغالبًا ما يأتيها الزوار أيضًا من جبل طارق، ويقيمون حملات للصيد في المنطقة المحيطة.

ويعيش في طنجة حشد كبير من المتسولين والمقعدين الذين يجوبون الشوارع يشحذون العطف والصدقات. وبما أن المسلم محسن بشكل عام، فإن البؤساء الذين يعيشون من التسول يعدون بالمئات. وقد اشتد البؤس بشكل خاص في العام الذي سبق وصولي، لما سادت مجاعة رهيبة في جميع أنحاء المغرب من بعد موسم حصاد سيئ[6]. في طنجة وحدها، مات المئات من التعساء من الجوع، وذلك على الرغم من الكثير الذي فعلته الجالية الأوروبية المقيمة فيها للتخفيف من شدة ذاك الوضع المحزن.

كبار أعيان المغاربة بطنجة: للسلطان ممثل في طنجة يعتبر حلقة وصل بين فاس العاصمة ومبعوثي القوى الأوروبية. في السنوات الأخيرة، تم نقل هذه المهمة إلى سيدي برگاش، وهو رجل عجوز مليء بالنوايا الحسنة، اكتسب ذات مرة ثروة كبيرة من خلال التجارة النشطة مع جبل طارق، وبهذه الطريقة اكتسب وضعية مهمة. والوالي الحالي هو أهم الشخصيات بين السكان العرب بطنجة.

أما الحاج عبد السالم شريف وزان الذي اكتسب شهرة أوروبية منذ رحلة گيرهارد رولفس[7]، فإنه يعيش أيضًا في طنجة ويتمتع بتأثير معين على جزء كبير من عامة الناس. لكن لم يعد من الصحيح القول إنه يحتل بطريقة ما مقام البابا المغربي. بصفته شريفا، لديه بطبيعة الحال اعتبار معين، لكنه بالكاد أكبر من اعتبار بقية الشرفاء. ومن المؤكد أن لديه ممتلكات شاسعة للغاية، والتي نماها مما جناه مؤخرًا من خلال جولاته المتكررة في الجزائر. لكنه فقد الكثير من شأنه كشريف بسبب تطبعه ببعض العادات الأوروبية بعد زواجه من امرأة مسيحية، كانت مربية إنجليزية سابقا في طنجة، وأنجب منها عدة أطفال.

لم يعترف العديد من أقارب الشريف بهذا الزواج وسعوا بكل الوسائل الممكنة لتدمير التأثير الضئيل الذي يمكن أن تتمتع به زوجة من ديانة معادية. وهي تعيش اليوم مع أطفالها في منزل صغير يقع على هضبة المرشان الصغيرة في جنوب غرب المدينة، حيث توجد أيضًا بعض الفيلات الأوروبية. هناك تعيش مهملة ومحرومة من كل النواحي، كما هو متوقع من التصور الشرقي للزواج، حتى أنها تتعرض اليوم لضائقة مالية. وقد شكل الوضع المزري لهذه المرأة مصدر إزعاج للحكومة المغربية في مناسبات عديدة.

كبار الأعيان الأوروبيين بطنجة: مناخ طنجة صحي من جميع النواحي ويوصى به بشكل خاص للأشخاص الذين يعانون من أمراض الصدر أو الربو والذين يرغبون في قضاء فصل الشتاء في منتجع جنوبي. في طنجة يمكن للمرء أن يعيش بشكل مريح وممتع ورخيص للغاية.

الحياة الاجتماعية للجالية الأوروبية المقيمة في طنجة نشطة جدا. فهم يستمتعون يوميا وبصفة مسترسلة بمختلف أنواع المتع من صيد ونزهات وحفلات موسيقية ورقص، ولا سيما بين مختلف الوزراء الذين يرحبون دائمًا بسهولة بكل أجنبي راقي جدًا. المنتزه المعتاد للأوروبيين هو الشاطئ الرملي للبحر. فكل يوم قرب المساء يُرى رجال ونساء مجتمع طنجة الأوروبي مشياً على الأقدام أو على ظهور الخيل. ومن بين رحلاتهم المفضلة بضواحي المدينة رحلة رأس سبارطيل، على بعد بضعة أميال غربا. ولا يوجد أوروبي زار طنجة من دون أن يعود من سحرذلك المكان مفعما بالغبطة والسرور.

في المنطقة المجاورة مباشرة للمدينة، يتقلص عدد وحيش الصيد بالتأكيد إلى الحد الأدنى. ولا بد من المشي لساعات لرؤية زوج من الحجل. علاوة على ذلك، توجد منطقة صيد كبيرة، حصل عليها الوزير الإنجليزي، وحيث يوجد العديد من الخنازير البرية بشكل خاص، ينظم الوزير عدة مرات في العام عمليات صيد كبيرة، حيث غالبًا ما يتم اصطياد الخنزير من على ظهور الخيل باستخدام الرمح، كما هو معتاد بين الضباط الإنجليز في الهند. يتطلب الأمر يدًا ماهرة وحصانًا جيدًا للمشاركة في عمليات صيد بالرمح هذه، والتي غالبًا ما تكون مناسبة للحوادث الصغيرة. عادة ما يكون أكبر عدد من الضيوف راضين بلعب دور المتفرج البسيط، ويتركون للرياضيين البارعين مهمة خرق الخنازير البرية. وخلال هذه المناسبات

---

[6] مجاعة 1878.

[7] فريديريك غيرهارد رولفس *Gerhard Rohlfs* (1831 - 1896 م)، رحالة ومستكشف ألماني، تعلم العربية بالجزائر وزار المغرب حيث صار الطبيب الخاص لشريف وزان ثم انطلق في استكشاف البلاد والصحراء متنكرا في زين مسلم. وألف كتبا بلغته الألمانية ومن بينها كتابا تحت عنوان *Reise durch Marokko* أي "رحلة في ربوع المغرب"

الممتعة، يكون الوزير كريمًا جدًا في دعواته، وعادة ما يمكث ضيفوه، رجالا ونساء، ثلاثة أيام أو أربعة في الخارج وهم يقطنون في الخيام.

موقع المنارة خلاب للغاية. تقع على تلال صخرية يزيد ارتفاعها عن خمسمائة قدم فوق الأمواج، عند حدود بحرين، وتوفر مظهرًا لا يضاهى، ومن السهل أن نفهم أن جالية طنجة الأوروبية تقوم برحلات متكررة إليه بكل سرور. كل واحدة من تلك الخرجات من قبل عدة أشخاص تأخذ شكل نزهة سعيدة. يتزودون بالطعام والشراب بشكل طبيعي، لأن سكان هذه المنشأة المكشوفة لديهم فقط ما هو ضروري.

علاقات الأوروبيين بالأهالي في طنجة: علاقات الأوروبيين بالسكان العرب في طنجة جيدة جدًا. وتندر الخلافات بينهم. لذلك، فإن الإقامة في المدينة آمنة نسبيًا. عدد المسيحيين واليهود يكاد يساوي عدد العرب. علاوة على ذلك، في حالة حدوث اضطرابات، فإن موقع طنجة على حافة البحر يجعل من الممكن العثور على ملجأ سريع على الأراضي الإسبانية.

ويعتمد السكان العرب بشكل شبه كامل على السكان المسيحيين الذين يدينون لهم بالعمل وكسب الرزق. ومع ذلك، لا يمكننا أبدا الثقة بالمحمديين. في حالة ظهور تهديد على وحدة أراضي البلد أو ضد مصالح الإسلام، فإن المغاربة الذين يبدون هادئين وودودين، سيصبحون عنيفين وقاسين.

إذا كان في بلد مثل مصر، التي كانت لسنوات عديدة تحت التأثير التام للنظام الغربي ، والتي ازهرت ثرواتها ونمت على نطاق واسع بفضل هذا النظام، مقارنة بجميع الدول الإسلامية الأخرى في شمال إفريقيا، أقول إذا كان في هذا البلد يمكن أن تحدث أحداث مثل مذابح المسيحيين في يونيو 1882، فإنه من المرجح في بعض الحالات أن المغاربة، الذين لهم علاقات مع أوروبا أقل بكثير، قد يعرفون انتفاضات بسبب التعصب السياسي والديني أكثر عنفا وقسوة.

منارة طنجة: المنارة عبارة عن بناء جميل ومتين وشيق للغاية. بها سلم حديدي حلزوني يؤدي إلى الأعلى حيث توجد المصابيح. تم بناؤه من قبل الحكومة المغربية، تحت ضغط قوي من القوى الأوروبية وتحت إشراف مهندس فرنسي. تساهم عشر قوى في صيانتها وفي تكاليف الإضاءة وأداء رواتب الموظفين من خلال مساهمة سنوية قدرها 1500 فرنك.

يشكل المندوبون الأجانب في طنجة مجلس إشراف على المنارة، ويتولى أحدهم، الذي يتغير كل عام، الإدارة المالية. لكن نقل هذا المنصب إلى الوزير الألماني ومستشاره منذ عدة سنوات يفي بتفاصيل هذه المهام التي لا يسارع السفراء الآخرون إلى إقالته منها.

كانت هذه المنارة لفترة طويلة تحت حراسة رجل اكتسب شهرة معينة في المغرب، وهو سكسوني الأصل ويُدعى وينزل[8]، جنح إلى هناك بعد حياة مليئة بالمغامرات الرائعة. أطلق عليه العرب لقب "سيدي بنزل". ولم تكن وظيفته سهلة، لأن مساعديه من الإسبان، كما نراهم كثيرين في المغرب، غادر معظمهم بلادهم هربًا من الخدمة العسكرية وكانا بعيدين عن الشعور بالدقة والنظام الضروريين في وضع حيث المسؤولية كبيرة جدا.

قبل وصولي إلى المغرب بعام ، تخلى "سيدي بنزل" عن منصبه. وهو يعيش الآن في ميناء على المحيط حيث وجد عملاً في بيت تجاري. إن معرفته الطويلة بالبلد وبعاداته ولغته جعلته شخصية مفيدة للغاية في التعامل مع الأهالي. وخليفته ألماني من بوهيميا واسمه كُومبيرت[9]. هو نجار ماهر عاش أيضًا في المغرب لفترة طويلة ويمارس مهنته في أوقات فراغه. يتقاسم مهمته في المنارة مع اثنين من مساعديه، كل منهما يحرس المنشأة لمدة ثماني ساعات متتالية. كما أنه يحتفظ فيها بترتيب مثالي. كل شيء في المحطة الصغيرة ينضح بالنظافة والنظام ويسود فيها العمل بصرامة. وكل يوم تقريبًا يجلب الحارس كُومبيرت الطعام الأساسي من طنجة على ظهر دابة.

اللباس في طنجة: ملابس المغاربة أنيقة للغاية[10]. فوق القفطان يرتدون عمومًا الحايك الأبيض الناعم الملقى فوقهم بمهارة كبيرة، بحيث يتم لفه في ثنايا منسجمة. بالنسبة للأوروبي، ليس من السهل استخدام مثل هذه الملابس غير المريحة.

---

[8] Wenzel
[9] Gumpert

[10] هنا يتحدث بلا شك عن علية القوم الذين كان يخالطهم.

ويُغطي المغربي رأسه عمومًا بطربوش تونسي أحمر اللون ملفوف بعمامة كبيرة بيضاء كالثلج، وهي قطعة قماش من ثوب دقيق جدًا طولها ستة إلى ثمانية أمتار. ملفوفة بمهارة كبيرة. ومن فوق العمامة غالبا ما يكون غطاء الجلباب أو البرنس العسكري.

اعتاد عرب طنجة على ارتداء الجوارب البيضاء والنعال الجلدية الصفراء المستخدمة في جميع أنحاء البلاد، المصنوعة من الجلد المدبوغ والمصبوغ على الفور. إن المغربي، لشدة نفوره من التطور، لا ينتعل الأحذية. والفقراء عادة ما يرتدون فقط القميص مع سروال قصير من تحت جلباب من ثوب غليظ بني أو رمادي اللون.

ملابس النساء مخفية عن أنظار الأوروبيين. في الشوارع، يخرجن ملفوفات بالكامل بقطعة كبيرة من القماش الخشن، لا ترى من تحته على الأكثر سوى بريق العيون السوداء. ملابس النساء العربيات، وخاصة من الفئات الميسورة، غنية جدًا، لكنها لا ذوق لها. يتزين بكمّ من المجوهرات الفضية والمرجانية المصنوعة بطريقة بدائية، ويتحزمن بحزام بعرض قدم، وغالبًا ما يكون مزينًا بتطريز ذهبي وفضي، وتحيط به طيات قفطان من القماش الفاخر. ومن نافلة القول أن النساء الفقيرات، وخاصة بالريف، أبسط بكثير في زيهن.

ويرتدي اليهود من إسبانيا بشكل عام جلبابًا من قماش أزرق، من تحته صدرية مغلقة من الأعلى بعدد من الأزرار، وسروال قصير من نفس الثوب، وجوارب بيضاء وأحذية أوروبية وقبعة سوداء صغيرة. واليهوديات يُقصصن شعرهن، كما نعلم، وقت الزواج ويضعن من فوقه الشعر المستعار. ويرتدين ملابس احتفالية فاخرة للغاية، مزينة بتطريز ذهبي غني. إنها عبارة عن قطع أثرية تنتقل من جيل إلى جيل.

النشاط الاقتصادي بطنجة: العمل الرئيسي لساكنة طنجة هو التجارة. والمدينة بعيدة كل البعد عن كونها مركزا تجاريًا بسيطا. بفضل وضعها المتميز، كان من شأن الأعمال التجارية فيها أن تكتسب أهمية أكبر لو لم تقيد فيها الحكومة المغربية، بسبب العماية غير المفهومة، تصدير المنتجات الطبيعية. الواردات التي يتم التعامل معها من قبل التجار الأوروبيين وكذلك عدد من الدور التجارية اليهودية مهمة للغاية وتزداد عاما بعد عام. في الواقع، إن احتياجات العرب من المنتجات الغربية تتنامى كل يوم. وهي تتشكل قبل كل شيء من مختلف أنواع الأثواب والأقمشة والسلع الخفيفة مثل الشموع والسكر والشاي، والتي يتم استيرادها بكميات كبيرة إلى ميناء طنجة.

يتم فرض رسوم جمركية بنسبة 10 في المائة على قيمة البضائع الأوروبية المستوردة. وتعد عائدات الجمارك للسلطان أكبر بشكل ملحوظ مما كانت عليه في الماضي، وذلك على الرغم من أنه يجب تسليم نصفها إلى إسبانيا، كدفعة مقدمة على تعويض الحرب لعام 1860، من خلال وحدات التحكم الإسبانية. والصادرات قليلة. الحبوب والخيول والفلين بالإضافة إلى مجموعة من المنتجات الأخرى يمنع تصديرها على الإطلاق. يمكن بيع الجلود والأصواف والخضروات والفواكه وما إلى ذلك، إلى الخارج. لكن تصدير الثيران مقيد، بحيث يحق لممثل كل دولة أوروبية أن يصدر منها كل عام عددا معينا. والقناصل ينقلون حقوقهم إلى مواطنيهم الذين يتاجرون في المغرب. من السهل توقع أن طريقة العمل هذه يجب أن تكون مصدر تجاوزات جسيمة.

يتم تزويد الحامية الإنجليزية لجبل طارق بالكامل تقريبًا انطلاقا من طنجة. في كل يوم يتم نقل كمية محددة بعقود من اللحوم والدواجن والبيض والخضروات بأنواعها إلى جبل طارق الذي يعتمد كليًا على المغرب في طعامه، لأن صخوره ضيقة جدًا بحيث لا تسمح بأي نوع من الزراعة أو بتربية لمواشي.

شارع طنجة الرئيسي مليء بالكامل بمتاجر صغيرة ودور تجارية عربية ويهودية، تُستخدم في الوقت نفسه كأوراش صناعية. إنها غرف صغيرة على ارتفاع بضعة أقدام فوق سطح الأرض، وتبلغ مساحتها أربعة أو خمسة أقدام مربعة، ويمكن إغلاقها من الخارج بباب ذي ضلفة واحدة. التاجر يجلس هناك طوال اليوم، ويتمكن من وضع يده على كل بضاعته من جميع أنحاء محله من دون الحاجة للقيام. وعادة ما تكون هذه المنتجات من الداخل، وتشارك طنجة في تصنيع القليل منها. ويستقدم معظم تلك المنتجات من تطوان وفاس. هناك تتوفر بكثرة المصنوعات الجلدية المختلفة كالنعال والأحزمة وأحزمة الخرطوش، ولجام الفرس، إلخ. وهناك أيضا البسط المغربي الجميل الذي يأتي بشكل أساسي من الرباط، إضافة إلى جميع أنواع الحلي والأواني الفاخرة، وصواني الشاي الكبيرة المصنوعة من النحاس المنحوت بشكل مثير للإعجاب، والعديد من الأشياء الأخرى.

بالنسبة للسياح الذين لا يغادرون المدينة من دون أخذ هدايا تذكارية من الصناعة المحلية، فإنهم يقصدون سوقين مجهزين تجهيزا جيدا يديرهما يهود لاقتناء احتياجاتهم. الأسعار هناك مرتفعة بشكل عام. وتأتيهما غالبية السلع من باريس، حيث توجد، كما نعلم، مصانع كبيرة للتحف والأشياء الفنية الشرقية. يجب على أي شخص يريد شراء أشياء حقيقية من طنجة ألا يبحث عنها بمفرده أو مع مترجم من الأهالي، بل عليه أن يبحث عن وساطة من تاجر أوروبي مستقر بالمغرب.وعادة ما يقدم وساطته بسخاء. وبيع البضائع بالمزاد قوي جدًا في طنجة، حيث يتجول الوكلاء المعتمدون بشكل خاص في الشوارع، ويعلنون الأثمان المعروضة ويشجعون المزايدة عليها، من دون أن ينسوا تمجيد البضائع المقترحة للبيع بأكبر قدر من الإسهاب.

خدمات البريد بطنجة: الخدمات البريدية بين طنجة وأوروبا منتظمة عندما لا تكون العواصف عنيفة بما يكفي لمنع جميع الاتصالات مع الساحل الإسباني. يوجد مكتبان للبريد في المدينة، أحدهما في منزل الوزير الإنجليزي حيث يتم حمل الإرساليات مباشرة إلى جبل طارق ومن ثم إلى إسبانيا، أو بواسطة باخرة إلى إنجلترا. كما يوجد مكتب آخر في المفوضية الإسبانية. تنقل الرسائل إلى سبتة، ثم عبر الجزيرة الخضراء إلى قادس. تلك التي تصل إلى طنجة لا يتم تسليمها لأصحابها بمنازلهم. فيضطرون لسحبها بأنفسهم من المكاتب.

أسلم شيء بالنسبة للأوروبي هو أن تكون مراسلاته دائمًا موجهة إلى قنصلية أمته، أو من خلال دار تجارية كبيرة، يُعرف خدمها في مكاتب البريد. كما أقام الإسبان أيضًا اتصالًا بريديًا بين سبتة وطنجة وسواحل المحيط الأطلسي، حتى موكَادور، وتنتقل الرسائل من مدينة إلى أخرى بواسطة سعاة بريد مرفوقين عادة بعدد قليل من الجنود. بصرف النظر عن السفن البخارية القادمة من جبل طارق والتي تحمل الرسائل، يصل كل يوم تقريبًا "فلوشو" من طريفة، وهي سفينة إبحار صغيرة، تعمل أيضًا كساعي البريد. ومن المدهش رؤية الطقس الرهيب الذي تعبر فيه هذه القواقع المضيق في كثير من الأحيان.

الديانات والتدين بطنجة: طنجة بها ستة مساجد. ولا يتميز أي منها من الداخل برونق معماري حقيقي. إنها منشآت كما نراها في كل مكان في المغرب. الفناء الداخلي مرصوف بالخزف الجميل. يتدفق الماء عادة من نافورة حيث يتوضأ المسلمون قبل الصلاة. ونادرًا ما تُرى النساء في المساجد على الرغم من عدم استبعادهن منها على وجه التحديد.

ويحظر على الأوروبيين دخولها بشدة وحزم هنا وفي المغرب كله. بالكاد نرى شخصًا غريبًا فضوليًا يتوقف أمام أحد هذه المباني للنظر إلى داخلها. حتى في طنجة، حيث ما يقرب من نصف السكان ليسوا من المسلمين، فمن الخطر الدخول إليها. الفضوليون سيتعرضون، على أقل تقدير، للارتباك بسبب إهانات حشد سريع الغضب. لتفادي أي إزعاج من هذا النوع، والذي يأتي أساسًا من الجهل بعادات الناس، تفضل السلطات المحلية تكليف أحد عناصر المخازنية لإرشاد المسافر الأوروبي ومنعه من أي انتهاك للعادات.

حشود الأوروبيين، وخاصة الإسبان الذين يعيشون في طنجة، دفع المغاربة إلى السماح لهم ببناء كنيسة كاثوليكية يخدمها الرهبان الفرنسيسكان. وهل من الضروري التذكير بأن الفرنسيسكان لم ينجحوا في تنصير لا العرب ولا يهود إسبانيا؟ كل فرد من هؤلاء يتميز بأرثوذكسية خاصة جدًا وبتعصبه الديني. وتساهم القوى الكاثوليكية في جنوب أوروبا كل عام في صيانة هذه الكنيسة. علاوة على ذلك، توجد كنيسة أخرى في تطوان. وهما الكنيستان الوحيدتان في المغرب. ويستطيع البروتستانت سماع الوعظ من وقت لآخر عند القنصل الإنجليزي، يلقيه معتمد أنكَلكاني يأتي من جبل طارق.

الخدمات الصحية بطنجة: إلى جانب الكنيسة الكاثوليكية، يوجد في طنجة مستشفى، تم بناؤه من قبل الدولة. تم تأسيسه عن طريق تعويض الحرب الذي حصلت عليه فرنسا عام 1844 بعد حملتها على المغرب. والدول الأخرى الممثلة في طنجة تساهم اليوم في صيانة هذه الجمعية الخيرية. ويترأس المستشفى طبيب إسباني. لكنني كثيرًا ما سمعت عن الرغبة في استقدام طبيب أفضل تعليماً وأكثر قدرة وتثبيته في طنجة. أنا مقتنع بأن الطبيب الألماني الذي يمتلك بعض المعرفة اللغوية سيحظى قريباً بثقة السكان.

المياه والطرق بطنجة: لا يتم تزويد طنجة بمياه الشرب بشكل جيد. وخلال فصل الصيف يقتصر جميع السكان تقريبًا على جلب المياه من الصهاريج والآبار. هناك في الجوار عين وفيرة المياه جدًا في الشتاء. ولكنها تجف تمامًا في الصيف. ومن التل الواقع إلى الغرب من المدينة، يتدفق في الشتاء ماء نهر صغير وفير وسريع، من الجبل الكبير المعروف باسم "مونتي" أو نهر اليهود. وقد حفر قاعًا عميقًا لكنه يجف بالكامل في الصيف.

في هذا الجبل، كما في الهضبة إلى الغرب من القصبة، توجد العديد من المساكن الصيفية التي تعود إلى الأوروبيين في طنجة. إنه مكان جميل مغطى بالحدائق الجميلة. يفصل نهر اليهود هذا الجبل عن المدينة. إلى جانب الجسر الحجري الحديث، الذي غالبًا ما تدمره المياه الجارفة، لا يزال بإمكاننا رؤية أنقاض جسر قديم، قد يعود تاريخه إلى فترة الهيمنة البرتغالية.

على الرغم من الازدحام المروري المتكرر في الصيف بين المدينة وجبل "المونتي"، فإن حالة الطريق تبعث على الأسف، خاصةً على مستوى مجرى النهر، فيكون المرور منه دائمًا أكثر أو أقل صعوبة. إن الحكومة المغربية لا تفعل شيئاً بشأن الطرق. وعلى الأوروبيين أن يهتموا بشأنها بأنفسهم. مع العلم أنها مهمة مكلّفة إلى حد ما لأن الصعوبات هناك كبيرة. في بعض الأحيان، كما قلت، يتضخم حجم المياه في النهر شتاء، ويلحق أضرارًا بالمباني. في أوقات أخرى تحدث الانهيارات الأرضية بشكل متكرر في طبقات تل من الرمال والطين من الدرجة الثالثة. وينبغي تمديد هذا الطريق جنوبا. على الجانب الآخر من النهر، من جهة جبل مونتي، هناك مسالك ضيقة ولكنها معبدة تمر عبر الحدائق الجميلة إلى الفيلات المختلفة.

5. بعض مظاهر الحياة في تطوان سنة 1879

مدينة تطوان عبارة عن قلعة محصنة محاطة بأسوار صلبة وعالية. ومع ذلك لا يمكنها بطبيعة الحال مقاومة المدافع الأوروبية كما سبق أن حصل، تعلوها قصبة يسكنها الوالي وتحتضن مقر السلطات.

ساكنة تطوان: يمكن تقدير عدد سكان تطوان بعشرين ألف نسمة، أو أكثر من ذلك بقليل. ربعهم على الأقل من اليهود الإسبان. ولا يعيش اليهود، كما في طنجة، مع بقية السكان بل في حي خاص وهو الملاح الذي تغلق أبوابه ليلاً. وهو ما يسمى في أماكن أخرى بالگيتو[11]. وإذا كانت الأحياء العربية فوضوية بالفعل، فإن الملاح قذر بشكل مخيف. يعيش في أزقته الضيقة آلاف اليهود، محشورين في منازل صغيرة، بطريقة غير صحية على الإطلاق.

الجالية الأوروبية قليلة في تطوان. وتتشكل من الطبقة الدنيا من الإسبان الذين يشتغلون فيها كعمال وتجار صغار وقبل كل شيء كقاطعي لحاء الشجر، لأن الغابات المحيطة بالمدينة غنية جدًا ببلوط الفلين. وهكذا يتم تهريب الفلين على ظهر السفن، لأن الحكومة المغربية لا تسمح بتصديره. وتعتبر إسبانيا البلد الوحيد الذي لديه قنصل هناك. لأنها الدولة التي لها أكبر المصالح بهذه المدينة، لذلك تولي إسبانيا اهتماما كبيرلتطوان باعتبارها دافعا لتطوير صناعتها. والدول الأخرى لديها في تطوان ما يسمى بالوكلاء القنصليين، وهم عادة تجار إسرائيليون.

معالم تطوان الحضرية والمعمارية: تنتشر في تطوان العديد من المساجد ذات الصوامع الرباعية الزوايا، وكذلك أضرحة الأولياء. في وسط المدينة توجد ساحة شاسعة، بها كنيسة كاثوليكية، وقريبا منها القنصلية الإسبانية. كما توجد بنفس الساحة صيدلية صغيرة يديرها طبيب أوروبي. أزقتها العديدة والمتشابكة بشكل غير منتظم ضيقة للغاية ومعتمة وفوضوية. تشعر بأن الهيمنة الأوروبية غير موجودة فيها. ومع ذلك، فإن العديد من الشهادات تذكر بعظمة وثروة تطوان الماضية.

العديد من المنازل جميلة من الداخل، وتلك التي تقع باتجاه النهر محاطة بحدائق جميلة، على الرغم من كونها مهملة حاليا. يسكن فيها عدد قليل من العائلات العربية الثرية التي شيدت بها في الآونة الأخيرة بتكلفة باهظة منازل جميلة بشكل مثير للإعجاب. إنها مبنية على الطراز المغاربي الراقي ومزينة بلوحات فاتنة وزخارف جصية.

لو كانت تطوان في ملكية قوة أوروبية، فإن الأمر الأكثر إلحاحًا سيكون حينها هو جرف "بوسفيكة"[12] عند مصبه وكذلك في مساره السفلي حتى تتمكن السفن من عبوره إلى بوابات المدينة ذاتها. طول المسافة يقدر بفرسخ[13] تقريبا، ولن تكون التكلفة كبيرة.

لما حاصر الإسبان تطوان عام 1860 قاموا ببناء طريق من رأس مارتيل حتى المدينة كي يتمكنوا من نقل الأسلحة اللازمة للقصف. وعندما اضطروا إلى إعادة المدينة إلى المغرب بعد السلام، تم التخلي عن صيانة تلك الطريق إلى رأس

---

[11] le ghetto

[12] *Bousfeka* هكذا في النص الفرنسي للدلالة على نهر لم نجد له الإسم باللهجة المغربية.

[13] أقل من خمسة كيلومترات بقليل.

مارتيل حيث تكون في الطقس الممطر موحلة للغاية. في المغرب كله لا توجد طرق صالحة لسير العربات. العربي ليست لديه فكرة عن شيء من هذا القبيل[14] ويذهب في كل مكان على ظهر خيوله وبغاله أو حميره.

النشاط الاقتصادي بتطوان: يتم تزويد المغرب كله من قبل تطوان بمواد معينة. صناعتها كبيرة جدا. يتم إنتاج البضائع الجلدية، وخاصة النعال والأحزمة والحقائب وما إلى ذلك بجميع ألوانها وبكميات كبيرة. البنادق الطويلة والمزخرفة بأناقة والمصنوعة هناك والمطعمة جزئيًا بالفضة وذوق رفيع مشهورة جدا. كما تشتهر المدينة بفن التطريز بالذهب والحرير وكذلك بالرسم على الألواح من خشب تطوان. توجد في القيسارية[15]، وهي مجموعة كبيرة من المتاجر الصغيرة البسيطة، أقمشة عتيقة جميلة جدًا ومطرزة بشكل رائع. وهناك أيضًا الكثير من الأسلحة القديمة والسيوف والخناجر وما إلى ذلك. كما تشتهر هناك الأواني الفخارية الجميلة والبلاطات ذات الألوان المختلفة لتغطية الأرض والجدران. فيمكن لمحبي التحف والحلي الشرقية أن ينفقوا الكثير من المال بسهولة في تطوان. ولهذا تعد تطوان واحدة من أهم مدن المغرب. فمن السهل أن نفهم لماذا يفعل السلطان كل شيء للحفاظ على مدينة مربحة للغاية بالنسبة له.

حفل تحضير وتناول الشاي بتطوان: في اليوم الذي تلا وصولي، سلمت للسلطات المغربية خطابات التوصية الرسمية المتعلق بشخصي وتم استقبالي بشكل طبيعي وبكل المودة الممكنة، لكن من دون الاهتمام على الأقل بتيسير أي من جولاتي حول تطوان. وحيث ما حللت كان لا مفر لي من أخذ ثلاثة أكواب صغيرة من الشاي مع حلويات خاصة. تلك هي العادة هنا لاستقبال الضيوف والتي من شأنها أن تجعل الوافد الجديد إلى المغرب يشعر باليأس.

يتم تحضير الشاي من قبل سيد المنزل في حضور الضيف. يحضر الخادم صينية نحاسية صفراء كبيرة لامعة وغنية بالزخارف مع أبريق[16] صغير وعدد من الأكواب الصغيرة وعلبة شاي وعلبة سكر والنعناع، بالإضافة إلى مرجل نحاسي كبير مليء بالماء المغلي. الشاي المستعمل هو الشاي الأخضر الصيني، لأن الأسود غير معروف في المغرب. يوضع على الفور في الإبريق مع بضع كتل ضخمة من السكر ويصب على الكل الماء المغلي، ثم يضاف إليه القليل من النعناع، مما يجعل الطعم الحقيقي للشاي يختفي. تمتلئ الكؤوس بالمشروب الساخن وتُحتسى بنشوة كبيرة. من المألوف أن تأخذ ثلاثة أكواب. فيجب أن يعتاد الأوروبي أولاً على هذا الشاي الحلو والعطري للغاية، لأنه يتعين عليه تحمل احتسائه عدة مرات في اليوم.

من وقت لآخر، يجول الخدم في الغرفة المزينة بعناية مع مبخرات لتنقية الهواء[17]. كما يدخل العرب بخار العطر في أكمام ثيابهم. ويتم رش الضيوف بالمياه العطرية. الأوروبيون الحاضرون يتلقونها على مناديلهم، والعرب على ثيابهم وعلى رؤوسهم وحتى على أعناقهم. ونعلم أن الشرقيين لديهم ميل كبير للعطور.

جماعة الضيوف مكونة من الرجال فقط، لأن النساء المحمديات مستبعدات تمامًا من أي احتفال يشارك فيه الرجال. ولكن هناك فضوليّات من النساء ومن الفتيات الصغيرات اللائي يحدقن بشغف في القاعة المليئة بالرجال من خلال نوافذ صغيرة بالغرف المجاورة. الذي يجذب فضولهن هو حضور الأوروبيين بشكل خاص، لأن النساء المغربيات لا يرينهم أبدًا، ويتم حبسهن دائمًا في غرفهن عندما يدخل الكافر إلى المنزل. وفي الشوارع يمشين ملفوفات بالكامل.

6. إعدام بريء بتطوان سنة 1878

قبل عام من وصولي إلى تطوان حل هناك وباء وقرر مجلس الصحة الأوروبي إنشاء طوق طبي حتى لا يدخل أحد إلى المدينة من دون استجوابه أولاً. وذات يوم حلت مجموعة من العرب وفيهم رجل شريف بالقرب من العون الصحي المتمركز أمام بوابة المدينة الذي رفض دخولهم إذا لم يقدموا أولاً إذنًا خاصًا من القنصل. وقيل أن الشريف قال لأحد رفاقه إنهم سيكونون مسلمين سيئين إذا لم يتمكنوا من أن يدخل شريف مدينة عربية من دون مشاكل. عندئذ انقض أحد العرب على العون الإسباني وأرداه قتيلا. وبعد ذلك هربت المجموعة بأكملها.

[14] بل المغربي فقط، لأنه حينها كانت البلدان العربية من الجزائر حتى عموم المشرق مجهزة بطرق معبدة لسير العربات.
[15] بهذه الكلمة المغربية ترجمنا كلمة "بازار" الفرنسية.
[16] أو البراد باللهجة المغربية
[17] بل لتعطيره.

وبناء على شكاوى قنصل إسبانيا القوية وبعد فترة طويلة تم أخيرا اعتقال رجل في طنجة، واتهم بارتكاب تلك الجريمة. وتم إعدامه في ساحة السوق بتطوان وبأكثر الطرق وحشية، حيث تم ربطه بعمود مثبت في جدار بالقرب من القنصلية الإسبانية، وكل نصف ساعة كانت تطلق عليه رصاصة موجهة بشكل سيئ لمجرد إصابته. حتى أن البائس لم يمت بعد عدة ساعات، فطالب قنصل إسبانيا بإنهاء معاناته، في تلك اللحظة أطلقت عليه رصاصة الرحمة. وقبلها ظل الرجل يحتج ويصرخ حتى النهاية معلنا براءته. وكان معظم العرب مقتنعين بها. والحقيقة أنه لم يتم القبض على الجاني الحقيقي بفضل حماية الشريف. فتم تقديم اتهام ذلك الرجل ككبش فداء لما قُبض عليه بسبب ارتكابه لذنب ربما تافه.

7. شفشاون غير الآمنة بسبب التمرد بضواحيها.

كنت أنوي الذهاب من تطوان إلى الجنوب، في البلد الجبلي المجهول تمامًا[18] والذي يشكل الحدود بين الجزائر والمغرب. وكان علي المرور أولًا من شفشاون إلى البلد الذي يحمل نفس الاسم. ولم أكد أعبر عن هذه الرغبة حتى عارضها الكل بالإجماع. وأخبرني المخزني الذي يرافقني أنه مكلف بحمايتي في تطوان وبلد أنجرا شمال المدينة لا غير.

أكد الخليفة، أو نائب العامل، أنه لا يستطيع السماح لي بذلك السفر، لأن سكان البلاد كانوا في ثورة تامة ضد السلطان وسيقتلون حتما أي مسيحي يأتي إليهم. كما قال القنصل الإسباني أن لديه نوعًا من المسؤولية تجاهي وأنه من واجبه أن يثنيني بشدة عن القيام بتلك الرحلة من دون إذن من الخليفة. وفي الأخير قال إنه بناء على طلبي المتكرر، سيرسل رسالة إلى الوزير المغربي في طنجة، سيدي محمد بركّاش، يعرض عليه من خلالها قضيتي. وإذا سمح لي الوزير فبإمكاني المغادرة وحينها سيوفر لي هو الجنود اللازمين لمرافقتي.

في هذه الأثناء التقيت في المدينة، بشريف من شفشاون. وبالطبع استغللت هذه الفرصة للتحدث معه عن مشروعي. فأخبرني أنه يؤمن بوجود الانتفاضة في الجبال المحيطة، لكن مع ذلك يسافر التجار بين تطوان وشفشاون وأنه يمكنني الذهاب إليها. حتى أنه وافق على مرافقتي إلى هناك، ثم عاد ليخبرني أنه لا يستطيع الذهاب معي. من الواضح أن الخليفة قد منعه من ذلك.

عندما وصلَت أخيرًا، في 28 نوفمبر ، الرسائل القادمة من طنجة أصبت بخيبة أمل كبيرة. عند القنصل الإسباني عُقد هناك في ذلك الصباح حول مسألة شفشاون لقاء دُعي إليه الخليفة أيضًا. وقد حذرني هذا الأخير من أن سيدي محمد بركّاش لا يرى الظروف مواتية بما يكفي للسماح لأوروبي بالذهاب إلى هذا البلد. كانت الانتفاضة تتخذ فيه أبعادا أكبر والخطر هناك سيكون عظيما، لذلك لم يسمح لي خليفة تطوان بالمغادرة إلى شفشاون.

ثم تلقيت رسائل تضمنت نفس الشيء من القنصلين الألماني والإنجليزي يؤكدان لي أن الأمر سيكون خطيرًا وأنه لا يجوز أن أعرض حياتي للخطر وأنهم سيتحمون، إلى حد ما، المسؤولية عن ذلك لو حدث ، إلخ. ! فكان هذا كافياً ليثبت لي أنني لا أستطيع الاستمرار في السفر في المغرب بالطريقة التي كنت أستخدمها حتى ذلك الحين وأن التوصيات الرسمية للسلطان قد تكون مفيدة لشخص المسافر ولكن ليس للغرض من رحلته.

8. في ضيافة قايد بمنطقة أنجرة

تتكون القرية بأكملها من ثمانية منازل كبيرة متناثرة عبر قاع الوادي وعلى منحدرات الجبل، تفصل بينها مسافات طويلة، وهي أشبه ما تكون بالحصون. ومن الصعب الاقتراب من القرية، إذ يمكن الدفاع عنها بسهولة. السكان من البربر في الغالب، اعتادوا على الاستقرار في الأماكن التي يصعب الوصول إليها قدر الإمكان من أجل أن يكونوا آمنين ضد جنود السلطان. لكن أرض منطقة أنجرا أصبحت الآن تحت حكمه بالكامل، ويتحمل السكان تواجد عامله بينهم كما هو الحال في كل مكان. والعامل لديه عدد كبير من المخازنية تحت تصرفه.

المنطقة تحتوي على سبع قرى، معظمها عبارة عن دواوير بسيطة. السكان هناك يعتنون بتربية المواشي. وحيثما تُظهر أرضهم الخشنة القليل من التربة الصالحة للحرث يزرعون فيها الشعيرالذي يعتبر الغذاء الوحيد للخيول في جميع أنحاء

[18] بالنسبة للأوروبيين

المغرب. ومنه يطحن الدقيق الذي يعجن للخبز أو يحضر للكسكسو، ويستخدم كغذاء لجزء كبير من السكان. وبشكل عام، وكما هو الحال في عموم ريف المغرب كله، السكان هنا فقراء للغاية. وتتحمل الإدارة السيئة للبلد قدراً كبيراً من المسؤولية عن هذا البؤس، لأن الفلاحين يجدون أنه من غير المجدي أن يستخرجوا من التربة الخصبة في حد ذاتها أكثر مما هو ضروري لمعيشتهم.

القايد محمد قنديا يُعتبر نسبيًا حاكمًا خيّرًا وإنسانيًا. لا يستخدم الابتزاز بشكل عنيف. وعادة ما يقضي جزءا كبيرا من السنة في طنجة حيث يمتلك عدة منازل. لقد كان رجلاً لطيفا معنا إلى حد ما واستقبلنا بشكل ودي للغاية. وبعد لحظات قليلة من الراحة تم إحضار الشاي الذي لا مفر منه، وتم أيضا استدعاء مترجمين مع المخزني الذي يرافقني. ووجد هذا الأخير في ذلك الاستقبال مكرمة عظيمة له فانحنى وقبّل بتزلف كبير يد القايد وملابسه.

وكان القايد مندهشًا للغاية لرؤية أوروبي يصل إلى هذه المنطقة النائية من العالم. فسألني عن أسباب رحلتي. وفهم بصعوبة أن الفضول لمعرفة الناس والبلد هو السبب الوحيد الذي أوصلني إلى هناك. ثم كان عليّ أن أخبره عن آخر الأحداث السياسية في أوروبا. وكان مهتمًا بشكل خاص ببسمارك[19] والحرب الفرنسية الألمانية. لقد تغلغل اسم هذا الرجل القوي في أكثر المناطق النائية بالمغرب، فكان علي أن أقول عنه الشيء نفسه في كل مكان تقريبًا.

بعد الشاي أتى عشاء وافر يتكون من الكسكسو الذي لا بد منه مع لحم الضأن، ثم الدجاج المشوي، وأخيرا كسكسو آخر، جاف هذه المرة ومرشوش بالسكر والقرفة والزبيب اليابس[20]. شربنا الماء فقط، ومنعتني اللياقة من إرسال من يأتيني بزجاجة من النبيذ في حقيبتي، لأن المغاربة لا يحتسون المشروبات المخمرة. في هذا البلد، تقدم وجبة العشاء دائمًا متأخرة جدًا في الليل، وغالبًا بعد الساعة العاشرة مساء، تحسبا لمجيء أي ضيف فجأة فلا يحصل الاضطرار لطهي وجبة أخرى.

9. الحاخام الذي رافق دو فوكو[21] في رحلته إلى المغرب.

قبل وصولي إلى طنجة، تعرفت على يهودي مشهور في باريس اسمه مردوشي أو مردخاي أبي سرور[22]، الذي عاش لفترة طويلة في تمبكتو. استقرت عائلته في مدينة أقا[23]. وقد كلفه من قبل القنصل الفرنسي السابق في موكّادور بأخذ قياسات طبوغرافية في المغرب بوسائل بدائية وتجميع معطيات من التاريخ الطبيعي[24]. وهكذا اشتهر بشكل خاص من خلال جمعه لمعشبة كبيرة من نباتات جنوب المغرب، ثم أرسلها إلى باريس. كان يجمع في مناسبات مختلفة ثروة كبيرة ثم يخسرها بسبب تعرض القوافل التي يكون فيها للنهب والسرقة.

وغالبًا ما يأتي إلى باريس لطلب المساعدة، على الرغم من أنني متأكد من أنه لا يحتاج إليها بقدر ما يزعم. العائلات اليهودية القليلة المستقرة في بلاده المتسامح معها كلها بخير كما قيل لي لاحقًا عندما التقيت بالعديد من أفراد أسرته. عندما رأيته في باريس، دلني على طريق للذهاب إلى تافيلالت عبر مراكش ووادي درعة. فيما بعد، سلكت، جزئيًا على الأقل، المسار الذي أشار إليه. لقد وجدت أن مؤشراته لم تكن دقيقة دائمًا وأنه يجب على المرء أن يقبل إرشاداته بتحفظ كبير.

لقد كان المقابلة التي أجريتها معه بالتأكيد فضل في فكرة عبوري للصحراء. كما أعطاني خطاب توصية لأخيه نظيم سرور، الذي لم أتمكن من رؤيته، لأنني لم أذهب إلى مدينة أقا نفسها. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الرسالة ما كانت لتفيدني كثيرًا، نظرًا للوضع الاجتماعي لليهود في بلاده.

---

[19] أوتو إدوارد ليوبولد فون بسمارك *Otto von Bismarck* (1815 - 1898)، هو رجل دولة وسياسي بروسي - ألماني شغل منصب رئيس وزراء مملكة بروسيا بين عامي 1862 و1890، وأشرف على توحيد الولايات الألمانية وتأسيس الإمبراطورية الألمانية أو ما يسمى بـ "الرايخ الألماني الثاني".

[20] وهو الطابق المسمى حتى اليوم باللهجة المغربية "السفة"، التي تقدم للضيوف كوجبة ثانوية في المناسبات.

[21] انظر رحلة دو فوكو في المادة التالية أسفله.

[22] مردوشي أبي سرور *Mardochai ben Serour* (1826م - 1886م)، هو حاخام ومستكشف يهودي مغربي، مراسل للجمعية الجغرافية الباريسية ودليل شارل دو فوكو في بلاد المغرب.

[23] أقا هي مدينة بإقليم طاطا في جهة سوس ماسة جنوب المغرب

[24] التاريخ الطبيعي وممارسه يسمى بالعالم بالتاريخ الطبيعي هو دراسة مختلف الكائنات الحية بما فيها النباتات والحيوانات في بيئاتها، باستخدام طرق تميل أكثر إلى الملاحظة منها إلى التجربة.

10. المؤنة الواجبة في الطريق لرجال المخزن ومن معهم.

في طريق رحلتنا ما كان عندنا من داع للقلق بشأن طعامنا. في كل مكان وفي كل مساء كنا نحصل على المؤنة الرسمية من رئيس كل قرية. ومن المستحيل تمامًا الاستغناء عنه. من المؤلم بالتأكيد لأوروبي أن يرى كيف أن أهالي القرى البائسين يُجبرون على إمداد الشخص الغريب الذي يعبر قريتهم ببعض حاجيات السفر من دون أي مقابل. كيف يُجبر هؤلاء السكان على توفير سلع أجنبية باهظة الثمن مثل الشاي والسكر والشموع التي يجب على هؤلاء الفقراء شراؤها أولاً بأسعار باهظة من عند الأوروبيين، بالإضافة إلى المواد الغذائية الرخيصة؟ لكن لا داعي للاستغراب إذا أدركنا أن ذلك من عادات وتقاليد المغاربة.

وإذا رغب الأجنبي في تعويضهم بهدية من المال، فإنه سرعان ما يتوقف دائمًا في الطريق. المخزني الذي يرافقه يستغل بكل سرور تلك الفرصة لابتزازهم أكثر حتى يسلبهم المزيد من الأشياء كخروف أو دجاجة أو مقدار من الزبدة أو أي شيء آخر، بحيث أنهم يبدون عمومًا متوجسين ومتضايقين جدا من وصول أي أوروبي مع عدد كبير من الأتباع.

لا جدوى من أن يسعى الأوروبيون للتخلي عن المؤنة. فالمخازنية ينتزعونها من الناس عنوة. ذات مرة، توقفنا ظهرا في وادٍ بضواحي فاس ليس ببعيد عن دوار، فأتيحت لي مرة أخرى فرصة ملاحظة كيف يتم نهب سكان الريف الفقراء من قبل جنود المخزن. كنت قد أحضرت من فاس مؤنًا وفيرة لتناول طعام الغداء جميعا.، وحصل اثنان من المخازنية الذين كانا برفقتي على نصيبيهما منها. بعد أن شبعوا أعلنوا أن سكان القرية المجاورة يجب أن يأتوا الآن بالمؤنة. وأضافا أنه حيثما توقف المسافر الحامل لتوصية من السلطان، كان من المعتاد أن يعتني به السكان. فدخل الجنديان التابعان لي القرية، ولم يجدوا فيها إلا عددا قليلا من النساء والأطفال. الرجال كانوا في الحقول، فانطلقت بعض النساء لإحضار شيخ القرية، واضطر في الأخير إلى تسليم المونة للجنود الذين عادوا محملين بالدجاج والبيض الخبز والعسل وما إلى ذلك، بينما كان سكان القرية الذين أقبلوا على أثرهم خارجا ينظرون إلينا بوجوه لا تنم عن المودة..

لم أتمكن من مواساة هؤلاء الفلاحين سوى بترك قليل من المال من أجل فقراء القرية. في حين ابتهج جنودي كثيراً بتلك الغنائم التي جاؤوا بها معهم إلى فاس مع ما تركت لهم من بقايا زاد السفر. إن حقائق من هذا النوع ومما هو أسوأ منها، تتكرر كثيرًا، وتفسر مقدار البغض الذي يكنه أهل الريف المغربي لجنود المخزن وللكفار الذين يسافرون تحت حمايتهم.

إن معظم الأراضي تعود ملكيتها إلى السلطان الذي يطلق فيها يد المخازنية. قبل وصولي إلى سوق حد الغربية بفترة وجيزة، تم نقل أربعين رجلاً من القرى المجاورة إلى طنجة. ربما كانوا قد ثاروا على ابتزازات العامل ومرؤوسيه. علاوة على ذلك، فقد سمعنا في اليوم السابق، إطلاق نار عنيف. ربما كان جنود المخزن لا يزالون في حالة حرب مع القرى البربرية المتمردة.

انعدام الأمن في هذا البلد على الممتلكات يمنع الأهالي بالريف من زراعة أكثر مما هو ضروري لعيشهم. وهؤلاء البدو البسطاء لديهم احتياجات قليلة للغاية. كل ثرواتهم تكمن في ماشيتهم. والنزعة المشتركة بين جميع شعوب الشرق التي تتمثل في إخفاء ثرائهم الحقيقي وإظهار الفقر المدقع تساهم في إضفاء هذا الجانب البائس على أحوالهم. وما دامت هذه الشعوب موجودة، فإن أصحاب السلطة سوف يستخدمون نظام الابتزاز القاسي تجاههم. وهكذا فإن العديد من يهود أوروبا لم يتخلوا بعد عن هذه العادة القديمة في الشرق التي تجعلهم يخفون مظاهر رغد عيشهم.

في صباح يوم 25 ديسمبر[25]، عندما أردنا الانطلاق إلى فاس، واجهتنا صعوبات مع السكان الحاقدين بقرية مجاورة. أصبح أحد خيولنا غير قادر على حمل أمتعتنا، ولم يكن عند هؤلاء القرويين استعداد لاستبداله بآخر، بالرغم من أنني عرضت عليهم مبلغًا مهما لكرائه. عدم ثقتهم كان كبيرا جدًا، فقد كانوا يخشون ألا يرد إليهم حصانهم. أوقعنا ذلك في حرج كبير. وكانت مياه مطر الليالي الأخيرة قد بلل قماش الخيام والأشياء الأخرى وأثقلها بحيث لم تعد دوابنا الأخرى قادرة على حملها والسير بها على الطين المبلل. ومن حسن حظنا في هذه الحالة أن كان معنا مخازنية. أمسك أحدهم بأول ساكن وكبّل يديه وجعله يجثو على ركبتيه وهدده باحتجازه حتى يتم جلب حصان. فكان لهذا التهديد تأثيره الإيجابي، وسرعان ما تمكنا من المغادرة.

[25] من سنة 1879

وعندما وصلنا إلى لقصر لكبير كان على اليهودي الذي استأجر منه الخيول أن يجد واحدا ليحل محل الحصان المريض. وتم إرجاع الفرس المستأجر في اليوم السابق إلى صاحبه الذي رافقنا. ومن الواضح أنه كان سعيدًا جدًا لتمكنه من استعادة حصانه. كان يخشى أن يؤخذ منه بالقوة إلى فاس. لقد اعتاد هؤلاء التعساء على أعمال العنف هذه، وعلى العديد من الوعود الكاذبة من جميع الأنواع من قبل المسؤولين، لدرجة أنهم يشكون فيهم للغاية.

11.سوء أحوال مدينة لقصر الكبير سنة 1879

من بعيد، يبدو مظهر لقصر الكبير جميلا مثل جميع مدن الشرق. الجدران والمنازل المخفية بين كتل كثيفة من أوراق أشجار التين والزيتون التي يعلوها عدد قليل من أشجار النخيل وصوامع المساجد تظهر كدعوة لاستقبال المسافر المرهق. لكن في الداخل، يعبر المدينة جدول صغير تنفث مياهه الموحلة والقذرة زفيرا نتنا ومسموما لأنه وعاء لكل نفايات المدينة. وعندما يتوقف تدفق المياه تمامًا يتم نقل هذه الأكوام من الطمي والطين إلى خارج المدينة حيث تخلق، مرة أخرى، عندما تجف جوًا مزعجًا. تشكل كتل من هذه القمامة تلالًا كاملة حول لقصر لكبير ولا بد أنها ظلت تتراكم منذ قرون.

بشكل عام يتمتع المغرب بحالة صحية جيدة. بالكاد وجدت مكانًا هناك يمكن أن يقال إنه كان مؤذيا لصحتي. لكن بلدة لقصر لكبير غير صحية للغاية ومعظم سكانها يعانون من الحمى. عندما عدنا إلى خيامنا، وجدنا عددا كبيرا من الناس أتوا من المدينة وهم يعانون من الحمى ويطلبون الدواء. لم يكن لدي أي شيء آخر أفعله سوى إعطائهم القليل من الكينين، على الرغم من أنني كنت شديد الحرص على حفظ هذه المادة الثمينة.

الأزقة ضيقة جدًا في لقصر لكبير لدرجة أن رجلين لا يستطيعان عبورها معا سوى بصعوبة. وهي أيضًا مغطاة عموما بحصائر تمنع وصول ما يكفي من الهواء والضوء، وأرضيتها مكسوة في وقت المطر بطبقة سميكة من الطمي الموحل. بينما يتطاير منها غبار رهيب في الطقس الجيد.

المنازل المهددة جميعها تقريبًا بالسقوط والمكسوة بجير متسخ صغيرة ومنخفضة. السكان بائسون وقذرون، خاملون ومحمومون. باختصار، هذه شهادة حزينة على تدهور أحوال بلدة كانت ذات يوم مدينة تجارية كبيرة ومزدهرة، يبدو أن موقعها في منتصف الطريق بين فاس والساحل الشمالي للإمبراطورية قد صنع منها مركزا تجاريا.

يجوب أزقتها حشد من البؤساء المساكين من عرب الطبقات الدنيا الخاملين الذين يرتدون الخرق، ومن تجار ومهربين يهود قذرين، تقف نساؤهم وفتياتهم على أبواب أكواخهم وهن يتبادلن الملاحظات حول الغرباء ويضحكن، بينما تحدق فيهم النساء المحمديات بفضول عبر الفتحات الضيقة للمنازل أو من أعلى الأسطح.

كما زرت البازار، وهو تجمع من المتاجر الصغيرة حيث تُباع جميع أنواع البضائع المحلية والأجنبية، وخاصة من قبل اليهود، الذين يشاهَدون هنا بكثافة. ويبدو أنهم يعاملون معاملة حسنة كما هو الحال في طنجة، لأنهم ليسوا محشورين في ملاح كما هو الحال في معظم مدن الداخل، بل على العكس يعيشون بين العرب وليسوا مجبرين على السير حفاة كما في فاس ومراكش[26].

يبلغ عدد سكان المدينة اليوم عشرين ألف نسمة على الأكثر، ولكن لابد أنه كان أكبر بكثير في الماضي، كما تدل على ذلك الأسوار القديمة. عدد المساجد مثير للدهشة في هذه المدينة الصغيرة نسبيًا. هناك منها ما لا يقل عن اثني عشر مسجدا. تمشيت في الضواحي لزيارة آثار التحصينات القديمة التي يزعم الأهالي أنها من أصل روماني. وسيكون من المثير للاهتمام إرسال بعثة علمية لدراسة تلك الآثار في المغرب فتحقق ربما العديد من الاكتشافات المهمة بالقصر الكبير. العرب ليست لديهم أي فكرة عن مثل هذا البحث. لا تثير مثل تلك الأثار اهتمامهم، اللهم في حال ما ظنوا أنها تحتوي على كنوز مخبأة تحتها.

[26] أمر غريب جدا، كرره المؤلف في كتابه عدة مرات. فتحريت عن صحة هذا الخبر بقدر ما أستطيع على الشبكة العنكبوتية بالعربية وبالفرنسية ولم أعثر على شيء يذكر، سوى مشيهم حفاة أو نزولهم من على دوابهم للسير بالقرب من المساجد والأضرحة. وليس في صحيح الدين ما يبرر ذلك، وقد عاش الرسول صلى الله عليه وسلم ومن كان حوله من المسلمين مع اليهود بالمدينة المنورة من دون أن يجبرهم أحد، وكما ينبغي، على شيء من هذا القبيل، لا في عموم الفضاء العام ولا بالقرب من المسجد النبوي، الذي كانوا أحيانا يدخلونه لغرض ما وفي حضرة الرسول الكريم من دون أي شرط مهين.

لقد حدثت هناك المعركة الرهيبة بين العرب والبرتغاليين، والتي قُتل فيها، منذ أكثر من ثلاثمائة عام، الملك سيباستيان[27]. وقد كانت هذه المعركة مفيدة في تقرير مصير المغرب. ومع اختفاء تأثير المسيحية في هذا البلد حتى اليوم يظل المغرب إحدى الدول المحمدية في شمال إفريقيا الذي عرف كيف ينفلت من تأثير الحضارة الغربية. ولا شيء يذكر اليوم في هذا السهل الطيني بمعركة مهمة للغاية بنتائجها. غالبية الشعب المغربي اليوم بالكاد تعرف أن بلدها مدين بوجوده مستقلا لانتصار عبد الملك في القصر الكبير. ولا حجرة ولا دليل يذكر بأن ما يقرب من ثلاثين ألف رجل دفنوا هناك. ولا أحد يستطيع أن يقول ما كان سيحدث للمغرب لو انتصر سبستيان وخضعت للنفوذ البرتغالي.

12. أحوال فاس سنة 1879

ساكنة فاس: يصل تعداد الساكنة المحمدية بفاس إلى حوالي مائة ألف نسمة. تتشكل أساسا مما نسميه الطبقات الوسطى، أي التجار والحرفيين. وتتشكل إجمالا من العرب والموريسكيين المطرودين من الأندلس ومن البربر السكان الأصليين المعروفين بلون بشرتهم الفاتح وبملامحهم الجميلة المميزة، والذين يعملون كتجار مهرة هادئين وأصحاب مروءة في تصرفاتهم، ويشكلون طبقة برجوازية مسالمة تؤدي ضرائبها.

الطبقات الدنيا من العمال والحمالين والتجار الصغار هم إلى حد كبير عبيد زنوج محرّرون وخليط من الزنوج والعرب. أما الطبقات العليا من المسؤولين الحكوميين حتى السلطان فيتكونون في الأساس من الملونين. بعض الولاة هم من دماء الزنوج الصافية، ويدينون بمناصبهم لأهواء السلطان. فهم بالأساس من صنائعه ويعتمدون عليه بالكامل.

نساء فاس: لا توجد المرأة في دولة محمدية منفصلة تمامًا عن العالم الخارجي كما هو الحال في المغرب. بمجرد مغادرتهن المنزل ودخولهن الشارع فإنهن يشبهن دمية متحركة أكثر من كونها مخلوقا بشريا. ووجوههن ملفوفة بقطعة قماش بيضاء ولا يظهر منها سوى العينين. جسدهن كله ملفوف في قطعة قماش كبيرة على شكل ملاءة سرير، بحيث يرى منها العينان والنعلان الحمراوان فقط. الباقي كله مغطى بإحكام. نساء الريف الفقيرات وكذلك الإيماء الزنجيات هن الوحيدات الأقل تلفيفا.

نادراً ما ترى رجلاً يخاطب امرأة في الشارع. فهذا أمر يعتبر تصرفا غير لائق. ومن الواجب على الأوروبي الذي يصل إلى المغرب أن يحرص على عدم التحديق في النساء اللواتي يلتقي بهن. على العكس من ذلك، يحسن صنعا أن يبتعد عنهن أو يتجنبهن تماما. في البداية كانت لدي رغبة جامحة في رؤية شيء من الوجوه المحجبة، لكن سرعان ما حذرني بعض الأصدقاء العرب من سوء هذا الصنيع ومن عواقبه.

القليل منهن متعلمات، إذ من النادر أن تتمكن إحداهن من القراءة أو الكتابة. وقليلاً جدًا ما يشاركن الرجال في أداء الشعائر الدينية. وبما أن التجار المغاربة غالبًا ما يقومون برحلات طويلة وبعيدة المدى، يترك معظمهم من ورائهم منزلًا فيه فقط زوجة وأطفال في مدن مختلفة. فتشعر تلك المرأة بالضيق عندما لا يرسل الزوج المسافر في الوقت المحدد المعونة الشهرية التي وعدها بها. حينها قد تلجأ إلى البحث عن وسائل أخرى للعيش، كالاسترزاق في فاس مثلا بممارسة تطريز الحرير بالذهب والفضة.

نحن نعلم أن القرآن يسمح بالزواج من أربع نساء، ولكنه لا يحرّم العناية بالمزيد. إنها قبل كل شيء مسألة قدرة مالية. وهناك أيضًا العديد من الرجال الذين يقنعون بزوجة احدة. إن مصير النساء المسنات محزن بشكل عام. وبما أن تطليق الزوجات المحمديات أمر يسير، فغالبًا ما يحدث أن يقوم الأزواج ببساطة بتطليق زوجاتهم مع دفع نفقة صغيرة وغير كافية للغاية أو على الأكثر مع دعم ضئيل، فيواجهن صعوبة في العيش. ونادرا ما يحدث مثل هذا الأمر في الطبقات العليا. تبقى المرأة المتروكة تعيش ببساطة في المنزل، وعادة ما تتعاشر جيدًا مع من يخلفونها. بل يحدث في كثير من الأحيان أن المرأة التي ترى أن وقتها قد مضى، هي نفسها تبحث لزوجها عن فتاة صغيرة مناسبة له وتوصيها به كزوجة[28].

[27] يتعلق الأمر بما يعرف في المغرب بمعركة وادي المخازن أو معركة الملوك الثلاثة، التي قامت في 4 أغسطس 1578م.

[28] هؤلاء الرحالة ليسوا بعلماء اجتماع. وهم يدونون في كتبهم أفكارهم المسبقة وما سمعوه من دون القدرة على التحقق من صحتها. ومع ذلك تجدهم يستعملون عبارات من مثل "غالبا ما.... وقل ما..." وكأنهم قاموا بإحصائيات دقيقة. فنحن نورد تلك الأقوال كما هي على أساس أنها، بما لها وما عليها، تعتبر جزءا من تاريخ المغرب. بعبارة أوضح الذين زاروا وأقاموا في المغرب وأفكارهم كيف ما كانت هم في النهاية جزء من تاريخ البلاد. فمن المفيد أن نعرف كيف كانوا يفكرون ويتصرفون ويحكمون على الأشياء سواء بحق أو بباطل.

لدى النساء عاطفة كبيرة نحو أطفالهن، على الأقل عندما يكونون صغارًا. فقد اعتدن على حملهم على ظهورهن ملفوفين بمعطفهم الأبيض الكبير. وتنتشر عادة إرضاع الأطفال من الثدي لفترة طويلة بحيث يُرى الأولاد والبنات الذين تتراوح أعمارهم بين أربع وخمس سنوات يتغذون بهذه الطريقة. عندما يكبر الأولاد، فإنهم يتحررون بسرعة كبيرة من نيْر الأمومة، وسرعان ما يتصرفون تجاه النساء وحتى أمهاتهم تصرفات مؤلمة بالنسبة للغرباء بقدر ما فيها إهانة لهن. فمنذ الطفولة ينشأ الأولاد على مبدأ أنهم أفضل من البنات[29].

الأوروبيون في فاس: بشكل عام، يلاحظ أن قدوم المسيحيين إلى العاصمة أمر غير مرغوب فيه. طبعا لا يمكن طردهم، لكن يتم جعل إقامتهم فيها غير مريحة بقدر الإمكان. تلك سياسة ذكية للغاية من قبل الحكومة المغربية. بها تمكنت بسهولة أكبر من تجنب الخلافات التي لا مفر منها ولا حصر لها وتحدث في البلدان الإسلامية الأخرى وتنتهي حتما بالتسبب في الأذى للأهالي. في اليوم التالي لوصولي إلى فاس وصل أيضا أوروبي آخر، وكان من أقارب ترجمان من المفوضية الفرنسية بطنجة، وادعى أنه تعرض في الطريق لسرقة مبلغ كبير فأحرج الحكومة المغربية بمطالبتها بالتعويض.

في 9 يناير 1880 رغبت في القيام برحلة إلى موقع إنتاج الملح شمال غرب فاس. وعلى الرغم من أنه كان ينبغي فقط ركوب فرس فقط في بلد آمن تمامًا إلا أن الاستعدادات كانت معقدة نوعًا ما بسبب تماطل السلطات. فلعدة أيام كنت قد أعربت عن رغبتي في زيارة هذه المنطقة، واضطررت إلى الحصول على إذن أولا من العامل والمسؤولين الآخرين، وقد حصلت عليه بشكل طبيعي لكن كان عليّ أن أقبل برفقة اثنين من المخازنية من نفس المنطقة وكانا مسؤولين عن سلامتي.

توجد في غرب فاس ينابيع مياه معدنية كبريتية مخصصة للولي مولاي يعقوب، المعروف في جميع أنحاء البلاد. تتم زيارتها بشكل متكرر للعلاج من قبل بعض المرضى. ونظرًا لأن محيطها مقدس لم يُسمح لي بالذهاب إلى هناك، الأمر الذي دفعني إلى اصطحاب جنديين مسؤولين عن منعي من الذهاب إلى أي مكان قد أتعرض فيه كمسيحي لإهانات السكان المتعصبين. وكان عليّ أن أدفع لهما ثمن تلك الحماية.

هكذا أدركت مرة أخرى وبوضوح شديد أن الأوروبي هو مجرد سجين في المناطق الداخلية من المغرب. لا يستطيع أن يخطو فيها خطوة من دون إخطار السلطات والحصول على إذن منها. تشعر الحكومة المغربية بأنها ملزمة باتخاذ الإجراءات اللازمة لضمان سلامة المسافر الأجنبي، لأنه بحسب التجربة لما يحدث شيء ما لمسيحي في المغرب فإن ممثلي الدولة الأوروبية المعنية يثيرون ضجة كبيرة على الفور وفي أفضل الأحوال يصبح من الضروري تسوية الأمر عن طريق التعويض المالي. وهكذا، ومن أجل تفادي أي تعقيدات دبلوماسية، يتم استخدام نظام المراقبة في حق الرومي إلى أقصى الحدود. وهذا هو السبب في أن حوادث المسافرين في المغرب أكثر ندرة نسبيًا منها في البلدان المحمدية الأخرى. فالمغرب يدين باستقلاله لنظام الإبعاد الذي يمارسه سكانه بصرامة اتجاه الأوروبيين، وإلى المراقبة والحراسة المزعجة لحمايتهم التي يمارسها عليهم المخزن.

تزلف الهيئة الديبلوماسية في فاس: إن الهدايا التي تكاد تكون عديمة الجدوى في أغلب الأحيان تُرسل من القوى الأوروبية العظمى إلى صاحب السيادة بالمغرب. والشعب المغربي يرى باندهاش واعتزاز أمراء أوروبا المتحضرة يتنافسون على التزلف لسلطانهم حتى لا يتعرضوا لتبرم جلالة الملك الشريف منهم. وبالنسبة للجزء الأكبر منهم، يتعلق أمر تلك الهدايا بإبرام معاهدة تجارية مواتية. لذا، لا نعجب من الكيفية التي يتم بها استقبال السفراء الأجانب بالمغرب.

يستقبلهم السلطان دائمًا ممتطيا ظهر جواده من بعد أن يكونوا قد انتظروه لساعات طوال ورؤوسهم عارية تحت أشعة الشمس المحرقة. ومن بعد التفوه ببضع كلمات تافهة يستدير ويتركهم. وقد ذهب أحد عبيده إلى أبعد من ذلك لما لم يجد من الوقاحة إلا أن يقول: "مثلما يستقبل الملوك الأوروبيون السفراء الأجانب جالسين على عروشهم، فمن حق السلطان أن يفعل الشيء نفسه على ظهر حصانه لأن ذاك الحصان هو عرشه!".

[29] كل هذه تبقى مجرد أفكار مسبقة كاريكاتورية لا دليل ملموس على حقيقتها بذلك الشكل الفج. ووضع المرأة بالنسبة للرجل كان ولا يزال فيه تمييز ضدها في العالم كله، وإن بدرجات متفاوتة ومتطورة. ففي بريطانيا مثلا وفي غيرها ناضلت النساء من أجل الحصول على حق التصويت، وخرجن في مظاهرات وهن يصرخن "لا لدفع الضرائب من دون الحصول على الحق في التصويت" وبعبارات بسيطة مثل تلك التي تقول بالفرنسية *"Pas de vote pas d'impôt"*. ولا يخلو اليوم بلد من بلدان العالم من جمعيات نسوية لا تزال تطالب بالمساواة في الحقوق والواجبات.

هذه حقا مواقف مهينة! والأمر سيكون أبسط بكثير من ذلك وأكثر جدية لو أن القوى الأوروبية المعنية أرسلت بكل بساطة زورقًا حربيًا يهدد طنجة أو موكّادور. هذه هي الطريقة التي يستطيع بها العظماء إقناع السلطان وشعبه بأن المغرب لم يعد من أقوى الإمبراطوريات في العالم.

أحوال المياه والنظافة في فاس: ترتفع منازل مدينة فاس القديمة على ضفتي الوادي، وتشكل على كل منها سطوح. وكان على مياه نهر فاس أن تتدفق في أسفل الوادي بوسط المدينة، ولكن ليس هذا هو الحال. على العكس من ذلك، لا نرى أي أثر لمجرى مياهه في أي مكان. ففي الواقع يتم توزيعها على العديد من القنوات قبل أن تصل إلى المدينة، ثم تتوزع مياه هذه القنوات بدورها على آلاف الأنابيب الصغيرة التي تمر عبر وسط المنازل. وجميع الحدائق والمباني بها كذلك أنابيب المياه الطبيعية هذه. ولا يوجد سوى عدد قليل من المدن التي تتمتع بالمياه الطبيعية مثل فاس.

لكن، مع الأسف، لا يعرف السكان مطلقًا كيف يقدرون ويستفيدون من هذه النعمة، لأن مدينتهم بشكل عام قذرة. يقول لودفيك بيتش[30]، وبحق، عن رحلته مع السفارة الألمانية عام 1878، وعن إقامته في المنزل الجميل الواقع وسط البساتين والذي قدمه السلطان للألمان أثناء إقامتهم في فاس: "ما يميز سحر هذا المنزل وميزاته هو كمية المياه الجارية فيه، وكذلك في المدينة بأكملها. إنها بذلك تتميز على العديد من العواصم الأخرى في العالم، باستثناء روما وڤيينا. وكما هو الحال في روما الخالدة بتلالها السبعة، يتدفق عنصر الحياة هذا في كل مكان بكرم حقيقي. لكن السكان لا يقدّرون قيمة هذه الهبة الثمينة. إنها تجتهد كثيرًا في تبذيرها وفي تسميمها، بعيدًا عن الاستفادة من مزاياها. هذه المدينة التي تتواجد فيها المياه بكثرة هي أيضًا، من بين المدن الأكثر قذارة والأكثر إثارة للاشمئزاز، تنبعث منها رائحة ملوثة للماء وللجو. لقد جادت عليها الطبيعة ببركاتها مثل المناخ الطيب والتربة الخصبة والبلد الذي لا يضاهى جماله، إنه جمال تسهم وفرة المياه في جزء كبير جدًا منه. لكن السكان يتصرفون بشكل يجعل هذه الهدايا من السماء عديمة الفائدة".

وعندما تمر مياه فاس عبر جميع المنازل وجميع الحدائق تلتقي القنوات التي تجري فيه مرة أخرى في شرق المدينة لتتدفق ليس بعيدًا عن هناك في وادي سبو، النهر الكبير بالمغرب. هناك أمثلة قليلة من هذا النوع الذي يتم فيه تحريف مسار مجمل مياه نهر من أجل إيصالها لكل ساكنة مدينة يبلغ تعدادها ما يقرب من مائة ألف نسمة.

إذا كان هناك شعب عاش مثل هذا الماضي العظيم والمجيد، فهو بلا شك الشعب العربي. لكنه اليوم غير قادر على إيجاد أي شيء جديد. وهو أعمى بما يكفي كي يقبل بتقدم الحضارة الغربية. فلا يعرف حتى كيف يحافظ على بقايا فترة التقدم الكبير نسبيًا. النظافة كلها مركزة عنده داخل البيوت. إذ يحاول كل فرد من أفراد البيت أن يستمتع في بيته بقدر ما تسمح به إمكانياته من وسائل الراحة، لكن من دون أن يقلق كثيرًا بشأن ما هو خارجه. إن تغطية الأرضية وجزء من الجدران ببلاطات صغيرة مرتبة على شكل رقعة الشطرنج، تعطي المنازل مظهرًا من النظافة. السجاد الجميل، والوسائد المطرزة بشكل غني، والستائر المخملية والمتلألئة بتطريز ذهبي والتي يتم وضعها على الجدران، تضفي على الغرف مظهرًا أنيقًا للغاية. هكذا هي بيوتهم جميلة ونظيفة. وبملابسهم البيضاء في الغالب يبدون نظيفين جدًا ومهذبين جدًا. لكن تجدهم مع كل ذلك غير مهتمين بالنظافة في مدينتهم، وغير مبالين بما يغطي طرقاتها من أكوام القذارة المختلطة بجثث الحيوانات المتعفنة، ويتعين عليهم تحمل روائحها النتنة في الحي كل يوم.

الصناعة والتجارة بفاس: فاس هي أهم مدينة تجارية وصناعية في المغرب. تمثل كميات البضائع الأجنبية ومنتجات الصناعة الوطنية التي يتم نقلها هناك كل عام رأس مال مهم للغاية. يقوم فيها اليهود الإسبان بأهم الأعمال. إذ أن استيراد المواد الأوروبية على وجه الخصوص متمركز في أيديهم. بينما يشتغل العرب في التجارة الصغيرة، أو يقومون بالتجارة بواسطة القوافل مع الجنوب حتى تمبكتو. وتعتبر التجارة بين فاس ومجموعة واحات تافيلالت ذات أهمية خاصة. تربط بينهما طريق جيدة منها يتم جلب كمية كبيرة من التمور كل عام. وتتمتع جودة تمور تافيلالت بشهرة خاصة.

إن تنمية بعض فروع الصناعة مهمة للغاية في فاس. ولا يزال هناك العديد من أصناف الصناعة الأصلية كصناعة الأقمشة والتطريز والخزف والجلد والمعادن. شفرات خناجرها مزينة بنقوش فنية. بنادقها والمسدسات مزينة بترصيعات فضية أنيقة. السلع الجلدية، خاصة السروج وما إلى ذلك لها أشكال أصيلة وألوان متنوعة. صواني الشاي الكبيرة على وجه الخصوص أنيقة وأصلية للغاية. إنها مصنوعة من النحاس الأصفر اللامع المصقول، ومغطاة بزخارف الأرابيسك المحفور والزخارف المختلفة، وخاصة تلك التي توجد في ختم سليمان.

[30] Ludwig Pietsch

فخار فاس تغلب عليه الألوان الزرقاء. المزهريات العادية وأباريق الماء وما إلى ذلك مصنوعة من الطين الأصفر الفاتح المسامي وهي ذات أشكال رشيق ومزخرفة للغاية. مجوهرات النساء هي بشكل عام من الفضة وفي بعض الأحيان من الذهب، علاوة على مجوهرات المرجان الأصيلة في الشكل ولكنها خشنة التصنيع.

كان من غير المجدي البحث عن بقايا تلك الأواني الفخارية الموريسكية القديمة، وتلك الزهريات والأطباق ذات اللمعان المعدني الخاص والتي يتم الاحتفاظ بها اليوم كروائع نادرة في المتاحف. القليل من كل ذلك الذي جلبه معهم العرب الذين طردوا من إسبانيا إلى المغرب جمعته السفارات المختلفة للقوى الأوروبية التي عرف المغرب تواجدها على أراضيه منذ بداية هذا القرن[31]. إذا كانت لا تزال هناك بقايا من هذه التحف الفنية القديمة والمليئة بالأصالة والذوق الرفيع، فلا يمكن أن تكون موجودة إلا في الأندلس. صحيح أن السائح يجد في غرناطة عند تجار التحف كمًا من الأواني الفخارية الموريسكية القديمة، لكن موطنها الأصلي في باريس أو لندن.

في فاس، الحرفيون والصناع موزعون على أحياء المدينة. يوجد في كل حي من هذا النوع فندق أو أكثر وهي المباني الكبيرة التابعة للدولة والمزودة بالمخازن والأوراش والإسطبلات والمساكن وغيرها. وفي كل منها مساحات مخصصة لعمال الجلود والنجارين والصاغة وصناع الأسلحة إلخ... نفس الشيء في البازارات والأزقة الضيقة المليئة بالمحلات التجارية الصغيرة. البازار الرئيسي في وسط المدينة عبارة عن مبنى كبير مقسم إلى عدد من الأفنية بها عدد لا يحصى من الحوانيت. ويحل البازار محل المقاهي بالمدن الأخرى، وفيه تُعقد اللقاءات الاجتماعات.

لا توجد متنزهات عامة أو حدائق في أي مدينة في المغرب. المغربي عموما لا يعرف ما هو السير للتنزه. عندما لا يكون في المنزل، يذهب إلى البازارات أو الفنادق للدردشة مع أصدقائه. علاوة على ذلك، يوجد في كل سوق من أسواق فاس مقاهي متجولة، أي مواقد صغيرة متنقلة يتم عليها تحضير القهوة السوداء القوية، والتي تُباع في أكواب صغيرة جدًا. غالبًا ما جلست لساعات على منضدة حانوت صديق عربي أتناول كوبًا من الموكا وأفكر في الحياة والنشاط السائد في البازار.

التعليم بفاس: يوجد في فاس مائة وثلاثون مسجداً. عشرة منها مهجورة، وما تبقى لا يزال يمارس فيها التدريس. فهي في الوقت نفسه مدارس دور عبادة. يكتفي تلاميذ معظم هذه المدارس الدينية بتعلم القراءة والكتابة، وكذلك حفظ القرآن عن ظهر قلب. في بعض المدارس العليا يتم أيضًا الاهتمام بالعلوم الأخرى مثل الفقه والتاريخ وعلم التنجيم والطب والخيمياء والشعر. لكن كلها مدارس ما تزال في مرحلة التطور التي كانت عندنا في العصور الوسطى. ليست للعرب أي فكرة عن مدى تطور وحال مدارسنا.

13. أحوال مكناس سنة 1880

فور وصولي إلى مكناس نزلنا أنا والمترجمان المرفقان لي في ضيافة العامل. إنه رجل زنجي مثل معظم كبار المسؤولين المغاربة. لقد تقلد هذا المنصب فقط منذ فترة قصيرة. ومن الواضح أنه لم ير أوروبيًا من قبل. كان كريمًا جدًا في استقباله، وكان مندهشًا جدًا من كل المستجدات التي رآها بحوزتي. وأثار جديد سياسات الغرب فضوله بطبيعة الحال. لم نتمكن من إنهاء أحاديثنا حتى حان موعد تناول وجبة العشاء معه.

لكن قبل ذلك لما استقبلنا في مكتبه، كان جالسًا مع خليفته الذي كان يفتح الرسائل الرسمية ويقرأها ويجيب عليها مع وضع ختم الوالي على تلك الجوابات. هذا العامل، مثل معظم كبار المسؤولين، لا يقرأ ولا يكتب. إنهم يعتبرون تلك المهارات عديمة الجدوى لأن نوابهم يتكلفون بها. وخلال مقابلتنا تناولنا العديد من القضايا، بدأت بمناقشات مع بعض شيوخ الضواحي. ثم دخل مخزني منقبض الوجه، وجالبا معه رجلًا بائس المظهر والذي بقي متوجسا عند باب هذه الغرفة الأنيقة وفي وجود عدد من كبار القوم، ليسمع في صمت حكم العامل الصادر في حقه وفق مضمون تقرير المخزني. والعقوبات المعتادة للجرائم غير السياسية هي الجلد بالعصا والسجن.

مكناس المدينة: مثل كل المدن المغربية، مكناس مقسمة إلى ثلاثة أجزاء. القصبة حيث مساكن الشخصيات الرسمية، والحي البرجوازي حيث بالبازارات والملاح منطقة اليهود. يبلغ عدد سكانها اليوم خمسة وعشرين ألف نسمة على الأكثر.

[31] القرن التاسع عشر.

والمدينة مبنية على مساحة هائلة لا علاقة لها بعدد سكانها. وعلى عكس فاس فإن طرقاتها واسعة جدًا. وتوجد بها العديد من الساحات الكبيرة التي توفر الهواء والضوء. وحتى الملاح يوجد على جنبات شارع واسع وطويل يمتد على طول سور المدينة ومرتب بطريقة لا يمكن معها ولوجه إلا من خلال بابين يغلقان في الليل.، وهو في الحقيقة يفتقر إلى النظافة.

وقد اتخذت مكناس مرات عديدة كإقامة دائمة أو مؤقتة من قبل السلاطين. وهي المكان المليء بالعديد من بقايا المباني الكبيرة والحدائق المحاطة بالجدران والمهجورة. وذلك على غرار باقي مدن شرق المغرب. ففي كل مكان هناك تشاهد المنازل التي تم البدء فيها، نصفها مكتمل وأخرى تتساقط حيطانه ببطء ولكن بثبات.

يهود مكناس: كما هو الحال في جميع المدن المغربية، يشكل اليهود جزءًا مهمًا جدًا من السكان في مكناس. وتبدو حالتهم أقل عسرا. كما أن العلاقات بين المسلمين واليهود أكثر نشاطا وأقل قسرا. ويبدو أن وجودهم في مكناس أفضل حالا بفضل عيشهم في شارع واسع وجيد التهوية، وغير محشوين، كما هو الحال في فاس وأماكن أخرى، في أوكار بائسة وسط انبعاث روائح مياه آسنة وفي أقبية مظلمة مليئة بالقمامة. لو كانت لليهود المغاربة فكرة بسيطة عن النظام والنظافة لأعطى الملاح انطباعًا لطيفًا.

يستأثر اليهود بالتجارة الصغيرة والصناعة وتتركز أنشطتها في أيديهم. المتاجر متراصة مع بعضها جنبا إلى جنب. وغالبًا ما يكون كل ما يحتاجون إليه هو حصيرة مبسوطة لإنشاء ورشة عمل حيث يجلسون طوال اليوم في حالة إجهاد كبير. ونادرًا ما تجدهم منشغلين بشيء غير عملهم. صانعو الأحذية والخياطون والحدادون والنجارون وصانعو السروج وصائغو الذهب والفضة وعمال تطريز الحرير وما إلى ذلك، كلهم هم من اليهود الإسبان على وجه الحصر تقريبًا.

وغالبًا ما توجد عند صائغي المجوهرات اليهود مجوهرات قديمة من الذهب أو الفضة من الأعمال الأصلية للغاية التي تعود إلى زمن ازدهار مكناس عندما كان يقيم هناك حشد من الأثرياء والأعيان. وبما أن اليهود يقومون بالإقراض أيضًا فقد سقطت في أيديهم وبقيت هناك العديد من الأسلحة الفاخرة ومجوهرات النساء المرهونة عندما تنفد المؤن التي يزودهن بها أزواجهن قبيل سفرهم.

الأوروبيون بمكناس: يعتبر أهل مكناس متعصبين للغاية. وليست مواكب الزوايا المختلفة بمناسبة المهرجانات المحمدية الكبرى، ولا سيما تلك المرتبطة لادة محمد[32]، شرسة وصاخبة في أي مدينة مغربية كما هو الحال هنا. وقد بقيت المدينة لفترة طويلة من دون أن يمر بها المسافرون الأجانب. فقط في السنوات العشر الماضية تضاعفت زيارتها عدة مرات بمناسبة رحلات الفراء إلى بلاط السلطان. في كل عام تقريبًا ينتقل ممثلو القوة الأوروبية برفقة حاشية مهمة وبهاء عظيم من طنجة إلى فاس ويعودون من هناك عبر طريق آخر مرورا بمكناس. وهكذا أصبح سكان مكناس معتادين إلى حد ما على الأوروبيين منذ بداية رحلات السفارات هذه. ومع ذلك، ينبغي الحذر للغاية هناك وقبل كل شيء تجنب المشي في الشوارع من دون صحبة مخزني.

النشاط الاقتصادي بمكناس: مكناس ليست مدينة تجارية على الإطلاق. والانطباع العام الذي يظهر هو الشعور بشبه عزلة. في معظم المتاجر يتم بيع المواد الغذائية فقط. بخصوص الصناعة الموريسكية لا توجد سوى مصانع رائعة للفخار وقطر الزليج الصغيرة من الخزف الملون لتزيين الشقق، فضلاً عن أوراش المصنوعات الجلدية الملونة.

على العكس من ذلك، تبدو تجارة الفاكهة والخضروات والزيوت مهمة للغاية. وتتميز مكناس بكونها مدينة حدائق حقيقية، فلم أر مثلها في أي مكان بالمغرب. أنواع مختلفة من اللفت والقرنبيط والفاصوليا والبطاطس والملفوف والطماطم والرمان والعنب والتين واللوز والتمر والبرتقال والليمون الحلو والعديد من الأنواع الأخرى، لا تزال تزدهر وتكثر هناك ، بحيث تزود أسواق فاس العاصمة بمنتجات بساتين مكناس. يتم الاعتناء بالحدائق بشكل جيد، كما تولى عناية كبيرة لنظام الري الخاص بها.

والجدير بالإشارة أن العرب هم، أو بالأحرى كانوا، بارعين في فن مد أنابيب المياه واستخدامها، لذلك يتم تزويد المدينة بالمياه الجارية بفضل سهريج كبير موجود بالخارج. وتعتبر بساتين الزيتون الشاسعة هي الثروة الرئيسية للسكان. تبدأ هذه

---

[32] والمقصود هو عيد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم.

الغابات بالقرب من بوابات المدينة وتمتد شمالًا إلى جبال زرهون الطويلة، التي تشكل منحدراتها الجنوبية أيضًا غابة واحدة ضخمة من أشجار الزيتون وكأنه جبل حقيقي من الزيت. يمتلك العديد من سكان المدينة الأثرياء عقارات بها بساتين زيتون.

تُزرع الكروم قليلًا نسبيًا على الرغم من أن المناخ يناسبها جيدًا. وبما أن المغاربة ملتزمون للغاية بالحظر المفروض على المشروبات الروحية، فإن العنب لا يستخدم إلا وهو جاف. على العكس من ذلك، فقط اليهود يحضرون من وقت لآخر تلك المشروبات التي لا علاقة لها بجودة بنبيذنا.

أحوال المآثر العمرانية بمكناس سنة 1880: خارج المدينة الحقيقية تبدأ حاضرة منفصلة[33]، يتم الدخول إليها من باب عظيم محاط ببرجين مرتكزين على أعمدة قرفصاء قوية[34]. هذه الأعجوبة المعمارية المزينة بالزليج من الخزف الرائع والمزخرف بالفسيفساء الساحرة، تدل من ناحية على مدى تطور الحس الفني بالمغرب قديما، ومن ناحية أخرى على مدى بلاهة الجيل الحاضر المتجلية في اللامبالاة بهذه الآثار الرائعة وهو يراها تتداعى.

ومن الصعب وصف ما يسمى بالإقامة[35]. فللوهلة الأولى ترى مجموعة من الساحات الشاسعة المهجورة، مفصولة عن بعضها بجدران تظهر من خلالها صوامع المساجد وأسطح المنازل. تغطي هذه المجموعة من الساحات نطاقا واسعا يستغرق الالتفاف من حوله ساعات على ظهور الخيل. من يلج هذه المساحات المهجورة وشبه الفارغة سيجد قصورًا مخربة ومخبأة في وسط حدائق ممتعة، تمرح فيها شلة من النعائم والظباء وما إلى ذلك. وسيجد فيها أيضا اسطبلات كبيرة مليئة بالخيول الجميلة، ومساكن للعبيد، وأبراج محصنة كانت بمثابة مخازن كنوز وقنوات مائية، وأخيراً نظام ممرات تحت الأرض مقببة وواسعة ومعقدة للغاية، تستعمل كمخازن لحبوب السلاطين.

وبقدر ما يمد المرأ نظره بقدر ما تمتد معه في الأفق الجدران العالية التي صارت مذهبة اللون بمرور الزمن. في بعض الأماكن تستخدم على الأقل كأسوار لمزارع أشجار الزيتون. ومن بعيد يمكن رؤية أنقاض كبيرة. في إحدى النقاط الأرضية مليئة بأعمدة رخامية ذات تيجان رائعة جلبها السلطان مولي إسماعيل من إيطاليا لاستخدامها في تشييد القصر. اليوم ترقد ممتدة على الأرض مغطاة بالقمامة ومكسرة إلى عدة قطع، ولا أحد يقلق من رؤيتها كذلك. لا يوجد مكان تظهر فيه علامات الانحطاط بشكل ملموس أكثر مما تظهر على حطام تلك المآثر الكلاسيكية. لقد أظهرت أن الملوك الأقوياء كانوا قادرين على جعل الفنون والعلوم تزدهر لفترة قصيرة من الزمن، ثم تختفي من بعدهم.

مولاي الحسن صاحب السيادة الحالي لا يقيم في مكناس أبدًا. إنه يمر في رحلته السنوية مباشرة من فاس إلى مراكش. لكن الإسطبلات الرئيسية لا تزال في مكناس. يتم فيها تربية الخيول البربرية النبيلة. وعادة ما يتلقى سفير دولة أوروبية إحداها كهدية عندما يستقبله السلطان. ويبدو الآن أن مخازن الحبوب الكبيرة تحت الأرض لم تعد قيد الاستخدام. لقد وجدتها شبه فارغة وغالبًا ما تكون ألواح أبوابها مكسورة.

14. سوق النخاسة بالرباط سنة 1880.

على الرغم من وجود جميع القنصليات الممكنة في الرباط، إلا أن العبيد من الرجال والنساء ما زالوا يُباعون علانية هناك. جميعهم من الزنوج والزنجيات، ومعظمهم من السودان. لكن لا ينبغي أن نعطي اسم العبد هنا نفس المعنى الذي يذكرنا بالروايات المبالغ فيها إلى حد ما عن مآسي العبيد في أمريكا. في المغرب، هم خدم يتم إطعامهم جيدًا ويعاملون بشكل ممتاز، وغالبًا ما يحتلون مقامًا مؤثرًا جدًا في المنزل. لكن مع ذلك يبقى للسيد الحق في بيع هؤلاء الخدم والخادمات متى ما شاء، ويكلف عادة بذلك أي نخاس.

سألت بدافع الفضول عن ثمن زنجية برفقة طفل كبير بقدر ما. فعلمت أن السيد يطلب فيهما ستون دورو. من الواضح أن يكون الانطباع الذي نشعر به موجعا عندما نرى هذه المخلوقات البشرية تجلس في السوق وهي تنتظر المشتري الذي يرغب في شرائها. لكن لا ينبغي أن نفترض فيها نفس مشاعر الكرامة الإنسانية وحب الحرية التي نشأت ونمت عند العبيد

[33] قد يتعلق الأمر بالمدينة العتيقة.

[34] قد يتعلق الأمر بباب المنصور لعلج بساحة الهديم. وقد صمم هندسته مهندس أوروبي اسمه أحمد الإنجليزي والملقب بأحمد العلج فأضيف لقبه " العلج " إلى اسم الباب.

[35] لعلها مقر إقامة السلطان التي كانت حينها مهجورة.

ببلداننا. من المؤكد أن وضع العبيد البيض، في الحضارة الأوروبية المتطورة جدا، هو أكثر حزنًا وتعاسة من وضع السود في البلدان المسلمة.

15. أحوال مدينة فضالة سنة 1880

اليوم، انحدر وضع فضالة إلى رتبة فندق[36] حكومي بسيط. من خلال الجدران التي لا تزال قائمة جزئيًا يصل المرء إلى مساحة شاسعة حيث يجد بعض المباني البائسة لإيواء القوافل التي تمر من هناك. ولا يزال فيه عدد من الخيام. كنا نفضل إقامة خيامنا خارج المدينة. ولكن للمزيد من الأمان كان علينا الاستقرار في الداخل. وكان بالفعل هناك العديد من الجمال والخيول والبغال. بحثنا عن مكان منعزل قدر الإمكان. لكن الكم الهائل من الحشرات التي احتشدت هناك جعل إقامتنا فيه لا تطاق.

في النصف الثاني من هذا القرن[37]، تأسست مدينة في هذا المكان، وسرعان ما تطورت بشكل سريع لأنها على كل الساحل المغربي هي النقطة الأكثر ملاءمة لتشييد ميناء. ثم سُمح لها بتصدير الحبوب من سهل الغربية الخصب. وكانت بالخصوص شركة تجارية إسبانية هي التي قامت بأعمال مهمة في فضالة.

هذه الشركة التي تم تأسيسها في مدريد حصلت على امتياز تصدير الحبوب عبر مينائي فضالة والدار البيضاء ومن ثم عبر ميناء مازاكّان. فقامت ببناء مبنى رائع من الحجر الرملي في فضالة، لم تبق منه سوى الجدران الخارجية والباب الجميل. وبدا أن مكانًا مهمًا للتجارة كان سيظهر هناك. لكن بعد وقت قصير فضالة التي نشأت بسرعة كبيرة سرعان ما هوت في الانحدار، فقد انقلبت وجهة التجارة إلى الدار البيضاء ومازاكّان، فتحولت بذلك أبنية المدينة الجميلة والمسجد وقصر السلطان وقصبة القائد والأسوار العالية إلى أطلال.

فضالة اليوم هي مدينة بائسة وبالكاد يقطنها ألف نسمة. خارج المدينة، قريبا جدًا من البحر، توجد أيضًا بقايا مبانٍ، ربما كانت مباني ملحقة بالميناء أو بالقصر. يقال إنهم وجدوا هناك منذ بعض الوقت مائدة رخامية عليها نقش برتغالي. وتم إيداعها في مزاكّان.

أصبح الميناء اليوم غارقا في الرمال. وعندما وضع آخر السلاطين عقبات في طريق علاقات الأوروبيين مع المغرب، من خلال حظر تصدير الحبوب، عاد هذا الموقع إلى وضعه البدائي الموحش. والمباني المدمرة تذكر بعدم قدرة الأهالي على فعل أي شيء مهم في بلد غني وخصب في حد ذاته.

16. مدينة القايد زطاط[38] في الشاوية سنة 1880

وصلنا إلى مدينة القايد زطاط الصغيرة التي تنتمي إلى قبيلة الشاوية. الكل فيها يترك انطباعًا ممتعا. منازل كبيرة وجميلة، حدائق فاتنة، ساحة كبيرة محاطة بأسوار من أجل القوافل، وقايد ودود استقبلنا استقبالا جيدًا، كل هذا جعل من هذا المكان مخيما لطيفًا.

وقف القايد معنا لفترة طويلة وهو يطلب منا بفضول الأخبار عن أوروبا. ثم أخبرنا بطريقة غامضة أن شحنات كبيرة من البارود تم إرسالها من مراكش إلى تطوان وعبرت من هنا. وأخبرنا أيضا، وبطبيعة الحال تحت ختم السرية، أن السلطان أعلن الحرب، لكن لم يكن يعرف على من، إسبانيا أم فرنسا؟ من الواضح أن كل هذه القصص كانت مجرد شائعات. فربما أثارت إحدى الدولتين بعض المشاكل الحدودية كما كان يحدث غالبًا.

في صباح اليوم التالي، قمنا بزيارة بساتين البرتقال الرائعة والتي كانت في ملكية القايد. كان مشهدًا مثيرًا للإعجاب أن ترى هذه الآلاف من الأشجار ولون ثمارها العطرية المذهب والبارز من خلال الأخضر الداكن للأوراق. ونظرًا لعدم وجود

---

[36] وهو ما كان يسمى بنزالة. وهي ومؤسسة اجتماعية تابعة للمخزن، كان الهدف منها حفظ الأمن، خاصة أمن الطرق، وتسهيل مهمة المسافرين ومبادلات التجار.

[37] القرن التاسع عشر.

[38] انظر معنى "الزطاط" عند دو فكو أسفله. ومسار الرحلة يشير إلى أن الأمر يتعلق بمدينة سطات الحالية. فيكون أصل التسمية هو لقب زطاط الذي كان يحمله قايد المدينة. هكذا جاء أسمها في النص هنا بعبارة "مدينة القايد زطاط".

طريقة لتصدير الفائض من هذه الفاكهة، فإن كمية كبيرة منها يكون مصيرها التلف. ولم أفهم سبب عدم استخلاص الزيت الموجود في قشرتها. ويبدو أن المغاربة لا يشكون في أن لها قيمة معينة.

17. في ضيافة قايد قصبة مسكين[39].

كان أقرب هدف لنا هو قصبة المسكين (الفقير). كنا قد مررنا بالقرب من قبر المرابط "سيدي سخان"[40]. في المنطقة المجاورة توجد أنقاض مدينة عربية قديمة. ولا تزال هناك، بكميات كبيرة، بقايا جدران وأحجار مكسورة. ولسوء الحظ، لم أستطع معرفة أي شيء عن هذه المدينة. ربما دمرها السلطان ذات مرة لمعاقبة السكان المتمردين. وتتجول فيها بعض الغزلان المروضة، بالإضافة إلى عدد من الماعز الجبلي[41] الرائع، بحجم غزال تقريبًا وذا قوة كبيرة. لم أر قط هذه الحيوانات التي تعيش في البرية بالأطلس.

قبل أن نصل إلى هذا المكان، التقينا بالعديد من الأطفال الذين قدموا لنا لوحات صغيرة مكتوبة وطلبوا منا نقودا. كانوا تلاميذ نوع من المدارس المغلقة[42]. أظهروا لنا تقدمهم في كتابة آيات القرآن الذي من شأنه أن يجلب لهم بهجة تسلم بعض القطع من الفلوس، وهي عملة من النحاس المنصهر.

يُدعى قائد قصبة مسكين، وهي أيضا زاوية، حميد بن شرفي. أصيب هو وخليفته بالحمى. أعطيتهم القليل من الكينين وكبريتات الصودا. والرجل من هواة جمع الأشياء غير العادية هناك، مثل الساعات وغيرها من الآلات. إنه نوع من الترف الذي قل ما يوجد بين المغاربة المعتادين على اللامبالاة.

قبل مغادرتي صباح يوم 10 فبراير عشت مرة أخرى تجربة غريبة، وقد يعتبرها البعض مغامرة شيقة، وذلك أنه في المغرب، يُنظر إلى كل أوروبي تقريبًا على أنه طبيب وينبغي أن يقدم نصائحه ورعايته لجميع أنواع المرضى. هكذا في الصباح طلب مني القايد الذي سبق أن أعطيته شيئا من الكينين ألا أغادر بعد، لأن إحدى زوجاته كانت مريضة وأرادت استشارتي.

إذا فكر المرء في حالة الحبس التي تعيش فيها النساء في المغرب، وبخاصة نساء الأعيان اللواتي لا يسعهن المشي في الشوارع إلا ووجوههن مغطاة بإحكام وأجسادهن ملفوفة بالكامل وبشكل رهيب بقطعة قماش كبيرة مثل ملاءة السرير، وإذا كان يجب على الأوروبي الامتناع عن النظر إلى مخلوق اعتاد على العيش على هذا النحو وأن ينظر بعيدًا أو يتجنبه، فمن اليسير أن يفهم المرء أنني فوجئت قليلاً بهذا الطلب من هذا القائد. على أي حال كان من الضروري للغاية أخذ الأمر على محمل الجد. كانت الاستعدادات والتدابير الاحترازية التي اتخذت قبل هذه المشاورات ذات طبيعة متنوعة للغاية. وقد تمت تسوية كل هذه الأمور بشكل واضح في الليلة السابقة في مجلس العائلة.

أخذني بعض أقارب القايد أنا ومترجمي إلى القصبة حيث انتظرنا بعض الوقت في إحدى الباحات. وظهر أخيرا خصي عجوز، مشلول إلى حد ما وعيناه مفقوعة. كان هو الوصي على الحريم. قادنا عبر عدة باحات أخرى إلى منزل كبير بابه مبطن بالحديد ومغلق بإحكام. ولما فتح الأقفال المختلفة جعلنا ندخل وننتظر في بهو. ثم أحضرت أمة سوداء كرسيا وأمرتني باستخدامه بالطريقة الصحيحة. بعدها سرعان ما ظهرت، بصحبة خادمة سيدة في منتصف العمر غنية الثياب وجهها غير محجوب بشكل كامل مع كمامة بيضاء ضيقة على فمها. وبينما كانت تتحدث، رفعت عقالها قليلاً بأصابعها المزينة بخواتم فضية. واشتكت من ألم شديد في الجانب الأيسر من صدرها. لقد أصبحت القضية كبيرة. فكرت في توصية المترجم بعدم الإضرار بشرف المحمدية[43]. ونصحت السيدة، من دون إجراء أي فحص، بفرك الجزء المصاب بماء الحياة الممزوج بالكافور، والذي كنت أنصح به ضد أي ألم عنيف كلما كنت في حالة إحراج. لكن السيدة لم تكن راضية عن ذلك، فلم أستطع الخروج من هذا المأزق بهذه السهولة. فكان علي لمس مكان هذا الألم العنيف، ووجهت هي يدي هناك.

---

[39] مسار الرحلة يشير إلى أن الأمر يتعلق بقصبة "بني مسكين" كما تسمى اليوم المنطقة جنوب شرق مدينة سطات.

[40] "Sidi Sechan"

[41] mouflon

[42] شبه الكُتّاب القرآني بما عنده في بلاده من معابد مغلقة ينعزل فيها الرهبان عن الحياة العادية.

[43] بمعنى المسلمة.

لقد تعاملت مع الأمر بجدية بالغة. ولاحظت أن نفس وسيلتي العلاجية كانت فعالة بشكل غير عادي مؤكدا أنني عالجت بها أمراضًا مماثلة. ولسوء حظي كنت مضطرا لأقول كل هذا من خلال مترجمي. لكن السيدة التي كانت تشاهدني وتقرأ معاني كلامي على شفتي صارت مطمئنة أخيرًا ووعدت باتباع وصفتي الطبية. فأعطيتها زجاجة من ذاك الماء وأخبرتها بكيفية استعماله. وهكذا كنت سعيدًا بالخروج من هذا الوضع الشائك إلى حد ما.

اختفت السيدة مع خادمتها. وعاد الخصي الأعمى إلى الظهور وأخرجنا من المنزل وأغلق من ورائنا الباب الثقيل واصطحبنا أشخاص آخرون حتى وصلت أخيرًا إلى خيمتي. كان كل شيء على استعداد للمغادرة عندما ودعنا القايد الممتن وأمر خليفته الذي كان لا يزال يحمل آثار الحمى، وقد اضطررت على الأقل إلى لمس الموضع الذي كان مصدرا لمثل هذا الألم العنيف، ووضعت يدي هناك.

لقد تعاملت مع الموقف بجدية بالغة، وأعلنت أن كل شيء يجب أن يحمل على محمل الجد. لكنني لاحظت في نفس الوقت أن وسائلي العلاجية كانت فعالة بشكل غير عادي، (وترتبط بالرسوم المتحركة كيف عالجت أمراضًا مماثلة بهذا العلاج).(عبارة غير مفهومة)

الرحالة الفرنسي شارل دو فوكو

شارل دو فوكو[1] رحالة وراهب وقسيس كاثوليكي فرنسي. ولد في 15 سبتمبر 1858 بمدينة ستراسبورغ الفرنسية واغتيل بجنوب الجزائر في 1 ديسمبر 1916. كان ضابط سلاح الفرسان في الجيش الفرنسي ثم صار مستكشفًا وجغرافيًا، ثم متدينًا كاثوليكيًا. استقر في الجزائر في مايو 1882. وهناك صار يستعد لرحلته الاستكشافية والاستخباراتية بالمناطق المغربية الخارجة عن سيطرة المخزن، والتي لم تكن معروفة للأوروبيين.

درس اللغة العربية والإسلام لمدة عام، بالإضافة إلى اللغة العبرية. ولكونه مسيحيا ما كان بإمكانه التجوال في القبائل المتمردة على المخزن من دون خطر على حياته. وحتى يتمكن من دخول البلاد من دون أن يكتشف أحد حقيقة ديانته انتحل صفة حاخام يهودي واتخذ من الحاخام المغربي مردخاي أبي سرور مرافقا ومرشدا له في رحلته. وعاش لفترة في الحي اليهودي بالجزائر العاصمة حيث نمى لحيته وجعّد شعره ولبس الزي اليهودي التقليدي واكتسب تصرفات اليهود.

بدأت الرحلته المحفوفة بالمخاطر في 10 يونيو 1883. وأطلق شارل دو فوكو على نفسه اسم الحاخام جوزيف أليمان، مدعيًا أنه ولد في مولدافيا وطرده الروس من بلاده ويسعى لزيارة الجالية اليهودية في المغرب حتى يتمكن من الحصول منهم على مساعدة مالية. وحمل معه جميع أدوات الاستكشاف الجغرافي والطبوغرافي اللازمة لرحلته، مثل آلة السدس الفلكية والبوصلة وآلة قياس الضغط الجوي، وميزان قياس الحرارة والخرائط المتوفرة والأقلام والأوراق. ظل يسهر على إخفائها في أمتعته على بغله ولا يستعملها سوى حين يكون على انفراد مع نفسه. وتمتع طيلة الرحلة هو ورفيقه اليهودي مردوشي أو مردخاي أبي سرور[2] بضيافة العائلات اليهودية المغربية وبحماية العديد من الأسر المغربية بمقابل ومن دونه.

كل هذه الرحلة إلى قلب المغرب في الفترة ما بين يونيو 1883 ومايو 1884، والكم الهائل من المعلومات التي تم الإبلاغ عنها، وخاصة الجغرافية والإثنولوجية، دوّنه شارل دي فوكو في كتابه الشهير تحت عنوان "التعرف على المغرب"[3]، وأكسبه الميدالية الذهبية من الجمعية الجغرافية بباريز. وفي 9 يناير 1885 حصل من جامعة السوربون على الزعانف الأكاديمية كجائزة على إنجازاته العلمية في تلك الرحلة.



شارل دو فوكو كراهب بالجزائر في آخر حياته

1. لماذا هذه الرحلة؟

يوجد جزء من المغرب حيث يمكنك السفر بدون تنكر، لكنه صغير. تنقسم البلاد إلى قسمين. أحدهما يخضع للسلطان بشكل فعّال ويُعرف باسم "بلاد المخزن"، حيث يتنقل الأوروبيون في العلن وفي أمان تام. والقسم الآخر أكبر بأربعة أو خمسة أضعاف الأول. تسكنه قبائل متمردة أو مستقلة، ويعرف باسم "بلاد السيبة"، حيث لا يسافر أحد بأمان وحيث لا يمكن للأوروبيين الدخول إلا متنكرين. لذلك فإن خمسة أسداس المغرب مغلقة تمامًا أمام المسيحيين. لا يمكنهم دخولها إلا عن طريق الخداع وهم في خطر على حياتهم.

[1] *Charles de Foucauld*

[2] مردوشي أبي سرور (1826م - 1886م)، هو حاخام ومستكشف يهودي مغربي، مراسل للجمعية الجغرافية الباريسية. ولد بمدينة أقا بإقليم طاطا في جهة سوس ماسة جنوب المغرب، ومات بالجزائر.

[3] *Reconnaissance au Maroc, 1883-1884*

هذا التعصب الشديد غير ناتج عن التشدد الديني، بل له مصدر آخر في الحس المشترك عند الأهالي. بالنسبة لهم، ما من أوروبي يسافر في البلاد إلا وهو مبعوث يتم إرساله لاستكشافها. إنه قادم لمسح الأرض من أجل غزوها[1]. إنه جاسوس[2]. ويقتل على هذا الأساس وليس على أساس أنه كافر. ومما لا شك فيه أن الكراهية الدينية والخرافات العرقية القديمة تجد أيضًا مفعولها في ذلك. لكن هذه المشاعر تأتي في المرتبة الثانية فقط. الخوف من الغازي عندهم أكبر من خشية المسيحي.

هكذا عشية الشروع في رحلتي إلى المغرب توجب عليّ الجواب على سؤالين: أي طريق ينبغي أن أسلكه؟ وما هي الوسائل التي يجب اتخاذها للتمكن من السير فيه؟ قد تم حل المشكلة الأولى بشكل طبيعي، فقد كان من الضروري، قدر الإمكان، أن أمرّ فقط عبر المناطق غير المستكشفة، وأن اختار من بينها تلك التي يبدو أنها تحظى بأكبر قدر من الاهتمام، إما من حيث تضاريسها أو من حيث سكانها. وقد كان هذا هو الغرض الذي حددته لرحلتي.

فبقي علي الجواب على السؤال الثاني: ما هي الوسيلة لتحقيق ذلك الغرض؟ هل يمكنني القيام برحلتي كأوروبي، أم ينبغي أن أقوم بها متنكرا؟ وقد كان هناك سبب للتردد، فمن ناحية كنت أمتعظ من السفر بغير هويتي الحقيقية، ومن ناحية أخرى، وجدت أن أهم المستكشفين الأوروبيين للمغرب دخلوه متخفين وأعلنوا أن هذا الاحتياط ضروري. وقد كان ذلك أيضًا رأي العديد من المسلمين المغاربة الذين استشرتهم قبل رحيلي. فقررت السفر متنكرا. وفي الطريق، إذا شعرت أن التنكر ضروري فسأحتفظ به وإلا سأضطر إلى التخلص منه. وكل ما تبقى هو الاختيار بين التنكرات التي يمكن اتخاذها.

لا توجد في المغرب سوى ديانتين. كان عليّ أن أتنكر في إحداهما بأي ثمن. هل ينبغي أن أرتدي العمامة أم القبعة السوداء؟ رينيه كاييه[3]، وكل من رولفس[4] ولينز[5] اختاروا العمامة. وقد قررت عكس ذلك اختيار القبعة. بدا لي أن المشي محنيا بهذا الزي سيجعلني غير مثير للفضول ويمنحني المزيد من الحرية. ولم أكن مخطئا. احتفظت طوال رحلتي بهذا التنكر ولا يسعني إلا أن أهنئ نفسي عليه. إذا كان يجلب لي أحيانًا إهانات صغيرة، فقد تم تعويضي عنها بدوام سهولة الاشتغال طيلة الرحلة، فقد يسّر لي خلال النهار بالملاح إجراء ملاحظاتي الفلكية واستكمالها وكتابتها فيه بالليل من دون جلب انتباه أحد. ولا يرضى أحد التحدث مع اليهودي الفقير الذي كان منهمكا في استخدام آلياته الاستكشافية من بوصلة وباروميتر ومحرار. وفي جميع الأماكن، حصلت من أبناء عمومتي، كما يُطلق على يهود المغرب فيما بينهم، على معلومات صادقة ومفصلة عن المنطقة التي كنت فيها. على أي حال، لم أثر سوى القليل من الشكوك كانت لهجتي السيئة أحيانا سببا لها. ولكن ألا يعلم الجميع ان هناك اسرائيليين قادمين من كل البلدان؟

وقد اكتمل تنكري أيضًا بوجود يهودي أصيل يرافقني، وهو الحاخام مردخاي أبو سرور المعروف بإقامته بالسودان. اتخذته لخدمتي واحتفظت به طوال رحلتي. كانت وظيفته في البداية هي أن يقسم في كل مكان أنني حاخام ثم أن يقدم أمامي في جميع التعاملات مع السكان الأصليين، حتى يتركني في الظل من ورائه قدر الإمكان. وأخيرا، كان عليه أن يجد لي دائمًا بيتًا منعزلا حيث يمكنني القيام بملاحظاتي بشكل ملائم. وإذا لم يكن ذلك ممكنًا، فإنني أبتكر أروع القصص لتفسير وتبرير معرض أجهزتي.

وعلى الرغم من العديد من الاحتياطات، لا أدعي أن كل ذلك التمويه كان غير قابل للاختراق. في الأماكن الأربعة أو الخمسة التي مكثت فيها لفترة طويلة، لم تكن هناك أية فائدة لا من غطاءي الأسود أو من "النواضر"، وهما خصلتا الشعر الطويلتان اللتان يتركهما اليهود المغاربة تنبت بالقرب من الصدغ، ولا من قسم الحاخام مرافقي. عاجلاً أم آجلاً، ما يلبث السكان اليهود أن يدركوا أنني كنت من بينهم أخًا في الدين مزيفًا. ولكن مرة واحدة فقط أحسست بالتعرض لخطر جسيم. بشكل عام، غالبية اليهود المغاربة تجار يعملون بشكل متكرر في الموانئ كرجال أعمال ويلتقون فيها بقناصلنا. ولديهم مصلحة أن يكونوا على علاقة جيدة بالمسيحيين، وخاصة مع الفرنسيين. لذلك احتفظوا جيدا بالسر الذي اكتشفوه. إذ لا شيء يخرج من الملاح. بل

---

[1] وهذا مصدره الهجمات المتكررة على البلاد منذ فترة سقوط الأندلس، واحتلال بعض موانئها ومن بينها سبتة ومليلية وطنجة. وقد تعزز ذلك الشعور منذ احتلال الفرنسيين للجزائر سنة 1830.

[2] وكذلك كان هو نفسه، وباعتراف منه.

[3] رنيه كاييه *René Caillié* (1799-1838) كان مستكشفا فرنسيا. وهو أول أوروبي يعود على قيد الحياة من بلدة تمبكتو في دولة مالي الحالية.

[4] فريديك غيرهارد رولفس *Gerhard Rohlfs* (1831 - 1896 م)، هو رحالة ألماني.

[5] أوسكار لينز *Oskar Lenz* (1848- 1925) هو جيولوجي ومستكشف ألماني نمساوي.

كانوا متحفظين حتى معي فيعاملونني كواحد منهم. بل كانوا مستعدين لتزويدي بكل المعلومات التي كنت أطلبها منهم. أما بالنسبة للمسلمين، فنادراً ما حصل أن جعلتهم متشككين في.

2. الزطاط والزطاطة للحماية من قطاع الطريق[1]

2 يوليوز 1883

كنت أرغب في مغادرة تطوان إلى فاس في أقرب وقت ممكن، لكنني أردت الذهاب إلى هناك من خلال مسار محدد. بدأت في البحث عن دليل، فواجهتني عقبات جمة. القبائل التي أردت عبور أراضيها كانت متمردة ومشتهرة بقطاع الطرق. لذلك تتخذ القوافل الحيطة لتجنب المرور من أراضيها. ولا يجرؤ سُعاة البريد على المرور من هناك، فقد كانت تُنتزع منهم الرسائل وكانوا يُجردون من ملابسهم. حتى الطّلبة[2] ما كانوا يغامرون بالمرور من هناك، اللهم في حال ما كانوا شبه عراة. باختصار، على الرغم من بحثي ومن عروضي، لم أتمكن من بعد ثمانية أيام من العثور على أي شخص يتولى قيادتي.

قمت بمحاولة أخيرة عندما عزمت على مخاطبة "الشرفة" والمرابطين بأضرحة تطوان، فلربما كان لهم نفوذ ما أو أصدقاء في هذه المناطق لنتمكن من عبورها تحت حمايتهم. وفي كل مكان كانت الإجابة بالنفي. لكن قيل لي في الوقت نفسه أن ما هو مستحيل من هنا يصبح يسيرا من فاس. هناك أشخاص من السهل عليهم جعلي أسافر إلى هذه القبائل. هذه الكلمات الأخيرة، التي أدركت لاحقًا أنها الحقيقة، جعلتني أقرر عدم الاستمرار في الإصرار والذهاب إلى فاس عبر الطريق العادية، وهي طريق القصر الكبير.

من تطوان إلى شفشاون كان علينا عبور أراضي ثلاث قبائل. الأولى والثانية كانتا خاضعتين للمخزن، فسافرنا فيها بمفردنا وفي أمان. أما الثالثة فلم تكن كذلك. فعندما اقتربنا منها اتخذنا جميع احتياطاتنا. إنها "بلاد السيبة". لا يمكننا الذهاب أبعد من ذلك بمفردنا. عند الثالثة والنصف صباحًا انطلقنا برفقة شاب من القرية التي قضينا فيها الليل. والده، الذي منحنا "عنايْتو" (أي حمايته) مقابل أجر زهيد، سمح له بخدمتنا بصفته زطاط[3].

كانت طريقة السفر هي نفسها في جميع القبائل المتمردة في المغرب، وكذلك في تلك التي لم يتم بعد إخضاعها بشكل كامل. إذ يقتضي الأمر أن تطلب من أحد أفراد القبيلة أن يمنحك "العْناية" بمعنى الحماية، كي يرافقك في أمان إلى مكان كذا وكذا. ويوافق على القيام بذلك مقابل دفع مبلغ مالي تناقش معه مقداره كثمن الزطاطة (الحماية). حين يتم الاتفاق على مبلغها يقودك إلى المكان المتفق عليه أو يكلف بذلك رجلا أو أكثر. وعند الوصول تُترك في أيد أمينة مع الأصدقاء الذين تم الاتفاق معهم على العناية بك. وهؤلاء سيقودونك أو يكلفون من يقودك في باقي الطريق بنفس الشروط: عناية جديدة... وزطاطة جديدة... وهكذا دواليك. وتنتقل بهذه الطريقة من يد إلى يد حتى تصل إلى نهاية سفرك.

الرجال الذين يشكلون تلك الرفقة الحامية يطلق عليهم "الزطاطا". عددهم متغير للغاية. في بعض الأحيان يكون رجل واحد كافيًا، بينما في مكان آخر وبالرغم من قصر المسافة فلا يكفي خمسة عشر زطاطا. لعْناية التي يُطلق عليها أيضًا لفظ مزراڭ[4]، تشكل أحد مصادر الدخل الرئيسية للعائلات القوية. تلك العائلات التي يفضل المسافرون خدماتها على غيرها.

الشرط الأول في الزطاط هو القوة البدنية لضمان احترام المحمي. وهناك صفة ثانية لا تقل أهمية والتي ينبغي أن تتوفر فيه، ألا وهي الإخلاص. بالمناطق التي لا توجد فيها قوانين ولا قوة عمومية من أي نوع، وحيث يعتمد كل واحد فقط على نفسه، يمكن للزطاط أن ينهب ويذبح في الطريق المسافرين الذين وعد بحمايتهم. ولا أحد يجرؤ على تنيه ولا على عتابه على صنيعه. لا يوجد هناك شيء يضمن الحماية من مثل تلك المخاطر. بمجرد أن تصير مع زطاط على الطريق تصبح تحت رحمته بالكامل. لذلك عليك أن تختاره بأكبر قدر من الحذر. وقبل أن تطلب من الرجل حمايته عليك أن تتحرى بعناية عن سمعته.

---

[1] من أجل التفاصيل الوافرة انظر كتاب عبد الأحد السبتي "بين الزطاط وقاطع الطريق، أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار" دار توبقال للنشر، 2009

[2] هم مرة أخرى حفظة القرآن الكريم الذين غالبا ما يسترزقون بتعليم الصغار بالكتاتيب القرآنية.

[3] لا نعلم للكلمة أصلا في اللغة العربية. ولا تزال مستعملة في الدارجة المغربية بمعنى القادر على الخروج من مأزق صعب أو النجاح في مهمة صعبة. فيقال "زطط راسو" أي استطاع فعل ذلك. وقد يكون اسم مدينة سطات بالشاوية مشتق من نفس كلمة زطاط. لكن لا شيء موثق، على حد علمنا، يؤكد ذلك.

[4] مزراڭ يعني "رمح". في القبائل الموحدة والمتماسكة، فإن الشخص الذي يمنح العناية لغريب لا يرافقه بنفسه، فيدفعه إلى أحد أبنائه، أو يكتفي بتسليمه شيئًا يعرفه الجميع على أنه من ممتلكاته، ويثبت لهم أنه تحت حمايته. في السابق كان ذلك الشيء رمحا. وهكذا أصبحت الكلمتان مترادفتان.

ونرى من جهة أخر، عددًا كبيرًا جدًا من الذين يخونونك بنهبك بأنفسهم إما علنًا أو بالحيلة عن طريق السطو عليك من قبل غيرهم من بعد الاتفاق على ذلك معهم. وهناك آخرون يتخلون عنك في الطريق من بعد أن تكون قد دفعت لهم أجورهم، أو يتوقفون ولا يوافقون على الاستمرار في مرافقتك حتى النهاية ما لم تدفع لهم المزيد من المال.

كل هذه الأنواع المختلفة من الخيانة مرت عليّ من دون استثناء. لكن هناك أيضًا رجال أمناء، بعضهم من باب العزة والشرف، والبعض الآخر بالحرص على سمعتهم التي هي مصدر العديد من الفوائد. فلا يؤدّون فقط مهامهم بكل أمانة حتى النهاية بل يُظهرون لك أكبر قدر من التفاني الذي يذهب إلى حد المخاطرة بحياتهم للدفاع عنك.

3. ذبيحة حماية الغريب ببلاد السيبة.

إذا كانت التقاليد في القبائل المستقرة أو قبائل الرحل تحمي بشكل أو بآخر كل فرد من أهاليها، فلا شيء يحمي الغريب[1] في أي مكان داخل حدودها، حيث تكون حُرُماته مُستباحة، ويمكن سرقته ونهبه وحتى قتله، ولن يدافع عنه أحد، وإذا ما قاوم يهاجمه الجميع.

مع هذه الوضعية كل التجارة وكل العلاقات مع الغرباء من شأنها أن تكون مستحيلة إذا لم يتم علاجها بواسطة عُرف خاص. هذا العرف موجود منذ العصور العتيقة، وموجود في كل مكان تقريبًا في المغرب[2]. وهو ما أطلق عليه العرب القدماء اسم الجيرة[3]، والمسمى هنا بالذبيحة. الذبيحة تعني في ذلك العرف ذبح شاة يضع من خلاله المرء نفسه تحت الحماية الدائمة لرجل من القبيلة أو للقبيلة بأكملها. وهي عناية طويلة الأمد.

لنأخذ مثالا على ذلك. غريب يدخل قصرا[4] أو مخيم رُحّل، ويكون قد وصل إلى هناك مع شخص من البلدة أو من القبيلة، رافقه كزطاط، بعد أن منحه عنايته التي تسمى أيضًا مزراڭ. إذا كان الغريب مارّا فقط، فهذه الحماية كافية لسلامته. أما إذا أراد البقاء مقيما، فلا تعود صالحة. العناية أو المزراڭ تضمن حماية مؤقتة. تم إنشاؤها خصيصًا للمسافرين. أما من يرغب في الإقامة لبعض الوقت، ولو لمدة شهر فقط، فعليه الحصول على ضمانة أخرى. عليه أن يطلب حماية مؤبدة من شخص أو من القبيلة بأكملها. وتسمّى "الذبيحة عليه" أي على الطرف الحامي للغريب. أصل هذا التعبير من العادات القديمة التي لا يتم اتباعها اليوم إلا في ظروف خطيرة. وتتجسد هنا في ذبح شاة على عتبة بيت الرجل الذي تُطلب منه الحماية.

إذا وافق الشخص الذي طُلبت منه العناية، كما يحدث عادةً، يُدعى على الفور كاتب خاص لكتابة عقد يشهد على أن المسمى كذا وكذا قد ذبح شاة على الشخص كذا وكذا من هذه القبيلة، وأنه حاليا تحت حمايته. وفيما يلي المفردات التي يُكتب بها مثل هذا العقد. آخذ على سبيل المثال إحدى الذبيحات الخاصة بيّ أنا في قبيلة إدا وبلال.

> بمشيئة الله ذبح الحاخام يوسف الجزائري[5] على أحمد بن حيون الحرزلاوي ليحميه من إخوته بمكرز. بعد أن حصل على ثمن الذبيحة من اليهودي أصبح مسؤولاً أمامه عن جميع الأضرار التي قد تلحق به من قبل مكرز. فيتحمل مسئوليتها ويعيد له ما أخذ منه. من جهته، يلتزم اليهودي كل عام بدفع عشرة أذرع من القماش القطني لأحمد بن حيون. وقد تم قبول هذه الشروط من قبل الطرفين. مكتوب بحضورهما.
>
> في 26 محرم 1301[6]
>
> من قبل عبد الله العلي، حامد بن محمد الحداد العمراني.

عادة ما يتم دفع ثمن هذه الحماية، كما ترى، برسوم سنوية ضئيلة. فقط عدد قليل من السادة الكبار يجعلون من التعفف عن طلب المقابل مسألة عزة وشرف. ويتضح من محتوى العقد أنه بمجرد القيام بذلك، ليس للمحمي ما يخشاه من أفراد عشيرة

[1] والغريب هنا هو كل من لا ينتمي للقبيلة سواء من داخل المغرب أو من خارجه
[2] في بلاد السيبة بخاصة وحتى بداية القرن العشرين.
[3] بمعنى الاستِجارَة، أي طلب الأمن والحماية.
[4] القصر هنا هو قرية في الصحراء محصنة بسور.
[5] الصفة التي تنكر فيها شارل دو فوكو في رحلته إلى المغرب
[6] موافق 26 نونبر 1883

وليّه، ويمكنه العيش بينهم بأمان. والهجوم عليه يعني الهجوم على وليّه. كما أن جميع القوانين التي تحمي عشيرته تحميه أيضًا، وهكذا يصبح تحت حمايتهم بفضل الذبيحة على وليّه. وبمقتضى هذه الذبيحة يندمج بطريقة ما في القبيلة.

القانون السائد هنالك هو قانون الغاب. فينبغي إذا عليك كطالب للحماية الحرص على أن تتخذ كوليّ رجلًا يحظى بتقدير كبير ومن عائلة قوية وبخاصة صاحب عزة وكبرياء وشجاعة، فلا يطيق الاعتداء على مواليه. يجب عليك أن تختار أيضًا رجلاً أمينا ومخلصًا، لأنه إذا كانت الذبيحة تؤمّن حُرماتك من ظلم عشيرة الولي، فلا تحميك من ظلمه هو. ومن النادر أن يغدر الولي بمولاه، ومن يفعل ذلك يصبح محل احتقار عام، وحتى إخوته لن يساندوه.

في كل مكان يريد الغريب البقاء فيه لفترة من الوقت لغرض ما، كشراء السلع أو إنشاء مستودعات للبضائع، عليه أن يعقد ذبيحة على شخص ما لحمايته. ولهذا تجد أصحاب التجارة الواسعة يعقدون عددًا كبيرًا منها. في قبائل الرحل، يتخذ طلاب الحماية رؤساء العائلات المهمة كحماة. أما بالقصور ووفق العرف فينبغي التوجه إلى الشيخ. وعقود الذبيحة تبقى جزءا من تركة الحامي من بعد وفاته في ذمة الورثة. فيظل أبناؤه مرتبطين بمواليه وملتزمين بما التزم لهم به. هناك شيئان فقط يمكنهما إلغاء عقد الذبيحة، وهما توقف المحمي عن دفع ما عليه من رسوم، أو غدر الوليّ.

وكما هو الحال بين الأفراد، فإن عقد الذبيحة موجود بين القبائل. كي تضع قبيلة نفسها تحت حماية قبيلة أخرى، هناك طريقتان: إما الذبيحة على أحد أفرادها أو على القبيلة بأكملها. وبما أن كل فرد متضامن مع إخوته يكون لأي من الذبيحتين نفس النتيجة. الأفراد والمجموعات الصغيرة، مثل القصور المعزولة، عادة ما يضعون أنفسهم تحت حماية شخص واحد. وعلى العكس من ذلك، فإن التجمعات الكبرى والقصور الكبيرة تذبح على القبيلة بأكملها.

أولئك الذين ترعاهم قبيلة يكونون أقل حماية ممن يرعاهم شخص بعينه. فلو اعتدى رجال مثلا على موالين لقبيلتهم، فإن الجريمة مدانة، ومن واجب مجلس القبيلة الحامية تحقيق العدالة لصالح مواليهم الذين تمت الإساءة إليهم. لكن لا أحد في المجلس لديه مصلحة شخصية في القيام بالواجب. لذلك، لا أحد يأخذ الأمر على محمل الجد، بل على العكس تماما. فما هو الأمر المشتكى منه؟ فلان نهب قافلة أو مسافرا منفردا؟ يوجد في المجلس العديد من أقارب الجاني. التخلي عنه يكلفهم كثيرا، خاصة إذا كانت القافلة محملة بوفرة. ويشعر أولئك الذين ليس لهم نصيب في الغنيمة أن مثل هذا الأمر يمكن أن يحدث لهم في اليوم التالي. فيخشون أن يحاسَبوا يومها إن هم حاسبوا مذنب اليوم. وأخيرًا، الاستيلاء على غنيمة ثمينة يعد إنجازا يغري بالاعتزاز عند القبيلة بأكملها.

وعندما يكون الطرف المشتكي قوياً وتُنتظر منه ردود فعل انتقامية خطيرة، ينبغي الامتثال لمطالبه. لكن تتم جرجرة الأمور والبحث عن ألف ذريعة لرد أقل مما أخذ منه، بل لرد أقل قدر ممكن. أما إذا كانت القبيلة المصابة ضعيفة أو بعيدة، فلا يخشى من انتقامها. ولا يُرد لها ما سلب منها إلا بعد وقت طويل، بل حتى لا شيء تقريبًا.

4. سوء حال مدينة القصر الكبير

4 يوليوز 1883

خلال اليوم الأول من السير في الطريق من تطوان إلى فاس قررت الاقتصار على التوقف بالفندق الذي سبق لي أن مررت من أمامه بين طنجة وتطوان. دفعت لسائق بغال ثمن أخذي معه إلى فاس. وانطلقنا هذا الصباح برفقته. وكانت قافلتنا صغيرة، تتكون من عشرة دواب لحمل الأمتعة وسائق البغال وابنه وخادم، وأخيرا مردخاي[1] وأنا.

من هنا حتى الوصول إلى فاس لا يوجد ما نخشاه في الطريق. سنكون باستمرار في بلاد المخزن وفي أراض مأهولة بالسكان، لذلك، لا حاجة لنا في اتخاذ مرافقين للحماية. كان الفندق الذي نقضي الليل عبارة عن سور مربع كبير تتوسطه حظيرة. يستقر المسافرون تحت هذا المأوى مع الحيوانات التي تبقى في الوسط. يتقاضى صاحب المكان مبلغا قليلا على الحيوانات والناس، بالإضافة إلى بيع الشعير والقش. مؤسسات من هذا النوع، نادرة في المغرب بالبوادي ولكنها كثيرة جدا في المدن. يعلو الحظيرة طابق حيث توجد غرف صغيرة قابلة للقفل، يتم تأجيرها للزبائن. تلك هي النزُل الوحيدة الموجودة بالبلاد. يبدو أن

[1] وهو اليهودي الجزائري الناطق بالعربية الذي رافق المؤلف في رحلته إلى المغرب. مع العلم أن المؤلف نفسه كان متنكرا في زي يهودي حتى لا يتم رفضه وتعريض نفسه للخطر بين المغاربة الذين كانوا في ذلك الوقت معادين لكل مسيحي، اللهم في حال ما كان محميًا من قبل المخزن في المناطق الواقعة تحت سيطرته.

الفندق الذي نحن فيه كثير الإقبال عليه. في المساء اجتمع فيه ما يقرب من خمسين مسافرًا. وفناؤه ممتلئ بالخيول والحمير والبغال والجمال التي تتزاحم هناك مع قطعان من الثيران والأغنام.

7 يوليوز 1883

سأستغل هذا اليوم لزيارة المدينة. كانت تستحق في الماضي اسم القصر الكبير (القلعة الكبرى). أما اليوم فليست كبيرة ولا محصنة. إنها سيئة البناء للغاية، مع منازلها غير المبيضة التي تضفي عليها جوًا من القذارة والحزن، إنها أبشع المدن التي رأيتها في المغرب. تفتقر إلى الماء. تضطر الساكنة لجلبه على بعد نصف ساعة تقريبًا بالقرب من نهر اللوكوس. عدد السكان فيها يبلغ ما بين 5000 و6000 نسمة، بما في ذلك ألف يهودي. كانت هذه الفئة في السابق محبوسة في الملاح. وبما أنه أصبح ضيقًا جدًا سُمح لأهاليه الآن بالعيش في جميع أنحاء المدينة. وعلى الرغم من ذلك كان من الصعب إيجاد سكن فيها. لقد واجهت كل المشاكل للعثور على غرفة. ويا لها من غرفة! لم أصدق أبدًا أن الكثير من العناكب والفئران يمكنها أن تجد متسعا للتعايش في مثل هذه المساحة الصغيرة.

أما التحصينات القديمة فلم تعد توجد لها آثار تذكر. أجزاء قليلة من الجدران المهدمة من الطوب السميك للغاية قائمة هنا وهناك على مشارف المدينة. هذا كل ما تبقى منه. أحد الأشياء الرائعة في هذا المكان هو العدد الذي لا يحصى من طيور اللقلق. لا يوجد منزل بدون عش لهذه الطيور. أعتقد أن عددها يكاد يقارب عدد السكان. القصر هو مقر إقامة الحاكم خليفة قائد العرائش. بالقرب من المدينة توجد بساتين كبيرة. لقد لاحظت وجود بساتين برتقال جميلة، تمت صيانتها بعناية وترويها النواعير. لكن هذه استثناءات. بشكل عام هذه الحدائق أكثر مساحة من كونها مزدهرة. تنتج القليل من الفاكهة. معظم الذي يتم تناوله منها هنا يأتي من طنجة أو تطوان.

5. مدينة تازة تحت رحمة ونيْر قبيلة غياثة

هناك طريقان رئيسيان للذهاب إلى تازة. أحدهما أقصر لكنه لا يسلك أبدًا. ينطلق من واد إناون ويمر من قبيلتي الحيايْنة وغياثة[1]. الآخر الذي يسلك عمومًا، يعبر قبائل الحيايْنة وتسول ومكناسة، متجنبا لأطول فترة ممكنة أراضي قبيلة غياثة التي لا يتم الاضطرار لعبورها سوى عند بوابة تازة.

الحياينة وتسول ومكناسة يشكلون جزءاً من بلاد المخزن. لكنهم لا يخضعون له بالكامل. بلدهم غير آمن. تتنقل فيه القوافل من دون زطّاطة. لكن الأجانب بالكاد يسافرون هناك فرادى. أما أهل قبيلة غياثة التي تقع تازة على أراضيها، فهم مستقلون تماما، ويشتهرون بالعنف وبقطع الطريق. لا يمكن للمرء أن يخطو بأرضهم من دون أن يدفع ثمن لعْناية (الحماية) لأحد أفراد القبيلة. ويتعين عليك اختيار رجل قوي وأمين. وهو أمر ليس بالهين، خاصة بالنسبة لأجنبي.

بالنسبة لي، سأسافر في أفضل الظروف في هذه الأماكن التي لا يملك السلطان فيها سلطة. هناك رجل قوي. إنه سيدي الرامي، وهو مقدم الزاوية العظيمة لمولاي إدريس. نفوذه الهائل على الحْيايْنة وعلى غياثة، يمتد إلى أبعد من ذلك. جميع القبائل تستجيب لأدنى رغباته. وإذا كان لديهم غرض في فاس فهو الذي يتكلف به. وإذا أراد السلطان شيئاً من أحدهم يلجأ إلى نفس الرجل.

سأغادر فاس في ظل هذه الحماية القوية. بناء على طلب السيد بن سمحون[2]، أعطاني سيدي الرامي أحد العبيد الموثوق بهم ليقودني إلى تازة. سنتخذ أقصر طريق، الطريق الذي لا يجرؤ أحد أبدًا على السير فيه من دون مثل هذه الرعاية. التقينا فيه بعدد قليل جدًا من الناس. لم نر فيه قوافل. كمسافرين، رأينا عددا قليلا من الفرسان يحملون كلهم بنادق وسيوفا. لا يوجد أحد في الحقول. أربع أو خمس مرات لاحظت وجود دوريات مسلحة بالقرب من الطريق. كانت هناك لحماية المحاصيل، وأحيانًا لسرقة الغرباء.

[1] قبيلة غياثة قبيلة بربرية الأصل بشمال شرق المغرب، وتتوسط أراضيها مدينة تازة.
[2] التاجر الفاسي اليهودي الذي تم طلب وصايته بالمؤلف من قبل القنصل الفرنسي بطنجة.

لم نلتق بشخص على طول الطريق من دون أن يُظهر أعمق احترام لمرشدي[1]. حيّوه كلهم وتحدثوا إليه، وقبّل معظمهم يده. البلد الذي عبرناه قليل السكان وسيئ الزراعة. الخيام فيه جميلة جدا، لكن القرى لها مظهر بائس ومكونة من أكواخ وليس من منازل. في الدواوير يوجد عدد كبير من الخيول المعتنى بها جيدًا، وهي علامة على كون أهاليها فرسانا محاربين.

أما تازة المدينة التي وجدها المسمى علي باي العباسي[2] قبل ثمانين عامًا مزدهرة وسعيدة للغاية والأطيب مقاما في كل المغرب فقد جعلتها الفوضى الآن الأكثر بؤسًا. تازة محاطة بجدران مزدوجة في عدة أماكن. في السابق كانت هذه التحصينات أكثر أهمية وتشهد على ذلك الآثار المتناثرة في ضواحي المدينة. أما اليوم فلا قيمة عسكرية للأسوار الحالية. يبدو أن عدد سكان تازة يبلغ من ثلاثة إلى أربعة آلاف نسمة، بما في ذلك مائتا يهودي مكتظين في ملاح صغير جدًا. هناك أربعة مساجد واثنان أو ثلاثة فنادق واسعة، لكنها فارغة ومتداعية. تحتوي معظم المنازل على صهاريج بمياه عذبة ومثلجة؛ لكنها غير كافية لحاجيات السكان وخاصة الماشية. لذلك، يتم تعويض النقص بجلب الماء من المجرى. وتحيط بتازة من جميع الجهات حدائق خلابة.

تازة تخضع صوريا لحكم السلطان. يُحتفظ فيها بقايْد ومائة مخزني، لكنهم يعيشون محصورين في المشور الذي لا يجرؤون على الخروج منه خوفًا من رجال قبيلة غياثة. سلطة القايْد منعدمة، ليس فقط خارج المدينة بل حتى بداخلها، وتنحصر مهامه في الفصل في الخلافات بين الأهالي من المسلمين واليهود.

وفي الواقع تقع المدينة تحت نيْر قبيلة غياثة القوية والمتمردة على المخزن والتي جعلت منها المدينة الأكثر بؤسًا على وجه الأرض. رجال غياثة يتعاملون مع هذه المدينة وكأنها منطقة محتلة. لا أحد يجرؤ على مغادرة جدرانها من دون أن يرافقه زطاط غياثي. وأي شخص يغامر بالخروج منها من دون زطاط، حتى على بعد مائة متر قد يتعرض للسرقة وسوء المعاملة وربما القتل.

ومن وقت لآخر تستبيح قبيلة غياثة تازة بشكل منظم. هكذا بمجرد أن يحصل أحد السكان على بعض المال، يسارع إلى إرساله إلى مكان آمن بمدن أخرى. إنه لمنظر غريب أن نرى هؤلاء الرجال يتجولون في المدينة وهم مسلحون، ويتصرفون هناك على مدار السنة وكأنهم في مدينة معادية يوم الهجوم. فمن الصعب التعبير عن الرعب الذي يعيش فيه السكان.

أثمان المواد الغذائية الأوروبية في تازة تعادل ضعف الأسعار بفاس، كنتيجة طبيعية لصعوبة الاتصالات. وا حسرتاه على الحدائق الجميلة التي كان علي باي يسمع فيها هديل الحمام واليمام. لم تعد اليوم سوى مصدر أسف مرير لأهالي المدينة. ما تزال خضراء كما كانت في زمن ذلك الرحّالة، وترقرق فيها نفس الجداول ويغني فيها العندليب على الأشجار. لكن غياثة استولت عليها كلها.

قبل حوالي سبع سنوات، قرر مولاي الحسن[3] إخضاع غياثة. فسار ضدهم في حملة عسكرية. لكن هُزمت قواته. هو نفسه قُتل حصانه من تحته في الموقعة ونجا منها بصعوبة مشيا على الأقدام. دارت المعركة في الجبال على ضفاف واد بو كُربة. وقيل أن غياثة شيّدوا سدودًا تلية ثم قاموا فجأة بهدمها، فاندفعت مياهها بكل قوة وجرف السيل جزءا من جيش السلطان. منذ ذلك الحين لم يحاول أخذ الثأر لهذا الفشل.

6. روعة وبهاء مدينة صفرو

20 غشت 1883

في هذا الوقت الطريق من فاس إلى صفرو آمنة، لكن ليس الحال كذلك دائما. القبائل المحيطة بفاس تكون أحيانًا مطيعة وأحيانا أخرى متمردة. هكذا تكون الطرق المؤدية إلى صفرو ومكناس آمنة في بعض الأحيان، ومحفوفة بالمخاطر في أخرى. في الوقت الحاضر كلا الطريقين آمنين.

وصلت إلى مدينة صفرو على الساعة العاشرة صباحًا. تحيط بها جدران بيضاء هائلة. تبدو نظيفة وبهيجة. ومن خلال التجوال فيها تنبهر بما يسودها من رخاء رخاء لا مثيل له في أي مدينة أخرى بالمغرب. في غيرها لا ترى سوى آثار الانحطاط، أما هنا فكل شيء مزدهر ويعبّر عن التقدم. ليست فيها أطلال ولا أراض خالية ولا مبانٍ مهجورة. كل أحيائها مأهولة

---

[1] عبد سيدي الرامي مقدم ضريح مولاي إدريس الذي ائتمنه على المؤلف في رحلته إلى تازة.
[2] انظر الفصل المخصص له أعلاه.
[3] هو السلطان العلوي مولاي الحسن الأول (1873 - 1894)

ومكسوة بمنازل جميلة ومتعددة الطوابق وذات واجهات جديدة ونظيفة. معظمها مبني بالطوب الصلب المطلي باللون الأبيض. على الشرفات التي تعلوها، زرعت كروم تتسلق الحيطان كي تشكل مظلات. ويمر من وسط المدينة بصبيب سريع للغاية نهر صغير مياهه صافية وعذبة، وثلاثة أو أربعة جسور تسمح بعبوره. يبلغ عدد سكان صفرو حوالي ثلاثة آلف نسمة، ومن بينهم ألف يهودي. يوجد فيها مسجدان وزاوية مليئة بالمريدين من أحفاد سيدي الحسن اليوسي[1]. كما تُرى فيها الكثير من العمائم الخضراء كإشارة إلى مريدي درقاوة.

تستمد صفرو ثروتها من عدة مصادر: أولاً وقبل كل شيء من التجارة التي تقوم بها مع القبائل المحيطة، حيث تبيع لها المنتجات الأوروبية وتشتري منها الجلود مع كميات هائلة من الصوف التي تشغّل جزءًا كبيرًا من السكان، فتباع في فاس وأحيانًا تصدر مباشرة إلى مرسيليا. ومنها تمر قوافل تافيلالت والتجارة التي تقوم بها مع الجنوب. وثانيا، تصدّر بساتينها إلى مدينة فاس كمية كبيرة من مختلف أنواع الفاكهة كالزيتون والليمون والعنب والكرز وغيرها. إنتاج العنب فيها غزير لدرجة أنهم يصنعون منه نبيذًا ممتازًا. وأخيرًا، هناك العوارض والألواح الخشبية التي تتلقاها من جبل آيت اليوسي والتي تقوم بشحنها إلى مدن الشمال. ولا توجد المدينة على أراضي أية قبيلة. يحكمها قايْد خاص تابع لإقليم فاس. صفرو هي المكان الذي ينتهي فيه هذا الإقليم. ومن النقطة التي تنتهي عندها حدائق صفرو بالجنوب، تبدأ أراضي آيت ليوسي.

7. محنة البدو مع المخزن ببلاد المخزن

23 غشت 1883

تبدأ بلاد السيبة عند أبواب مكناس، ويمتد فيها الطريق حتى تادلة. تادلة نفسها واحدة من بلاد السيبة. وهكذا نكون قد غادرنا بلاد المخزن منذ فترة طويلة. بلاد المخزن منطقة حزينة يدفع فيها الناس للحكومة ثمناً باهظاً مقابل مجرد الأمن الذي لا تقدمه لهم. بين سندان اللصوص ومطرقة القايْد، لا توجد فيها راحة للأغنياء ولا للفقراء، فالسلطة لا تحمي فيها أحدًا، بل تهدد فيها أموال وممتلكات الجميع. الدولة تجمع دائمًا الضرائب من دون أن تنفق منها أبدًا من أجل صالح البلاد[2]. يُباع فيها العدل كما يُشترى الظلم. ولا طائل فيها من وراء العمل. أضف إلى ذلك الربا وسجن المدينين المفلسين. هذا هو المخزن.

في بلاد المخزن تشتغل خلال النهار وعليك أن تبقى مستيقظا في الليل. وبمجرد أن تغمض عينيك للحظة فإنك ستفاجأ باللصوص يختطفون ماشيتك ومحاصيلك. فطالما استمر الظلام فهم المسيطرون على البوادي. لذلك عليك اتخاذ حرّاس. ولا تجرؤ على مغادرة القرية أو دائرة الخيام، فتبقى دائما في حالة تأهب. ومن بعد الإرهاق والعناية بعملك، جنيت المحاصيل وأدخلتها. لكن يبقى عليك إخفاؤها للحيلولة دون سرقتها من طرف القايْد. فتسارع إلى طمرها، ثم تشكو البؤس، وتشكو من ضعف المحصول. لكن المبعوثين يتجسسون عليك. لقد رأوك عائدا من السوق من دون شراء حبوب. إذن لديك منها ما يكفي. فيتم الإبلاغ عنك.

في اليوم التالي يأتيك حوالي عشرين مخزنياً يفتشون بيتك ويأخذون القمح ونحوه. لديك ماشية، لديك عبيد؟ تؤخذ منك في الوقت نفسه. في الصباح كنت غنيا، ثم ها أنت في المساء تصير فقيرا. ومع ذلك، عليك أن تعيش. سيكون من الضروري أن تزرع العام المقبل. يوجد ملجأ واحد فقط لذلك، وهو اليهودي. إذا كان رجلاً أمينًا فسوف يقرضك بفائدة سعرها ٪60، بل أكثر من ذلك بكثير. وهكذا ينتهي الأمر. في السنة الأولى من الجفاف تتعرض لمصادرة أراضيك وتدخل السجن. فيكتمل خرابك. هذه هي القصة التي يسمعها الزائر وتُكرر له عند كل خطوة وفي أي بيت يدخله.

الكل متحد ضدك، ويتواطأ بعضهم مع بعض حتى لا تفلت. القايْد يحمي اليهودي المُرابي مقابل دفع رشوة، والسلطان يحافظ على القايْد الذي يدفع له كل عام إيرادات هائلة، ويرسل له باستمرار هدايا ثمينة. أما القايْد فيجمع في النهاية فقط لسيّده. لأنه عاجلاً أم آجلاً سيصادر كل ما يملك، إما خلال حياته أو عند وفاته. الناس يخشون القايْد ويكرهونه. وهكذا يسود بينهم حزن عميق وإحباط كبير.

---

[1] أبو علي الحسن بن مسعود بن محمد ويسمى كذلك نور الدين اليوسي، فقيه مالكي، أديب، صوفي، يُنعت بغزالي عصره، من بني يوسي بالمغرب الأقصى.

[2] ونذكر هنا بأن هذا الإشكال قديم. انظر بهذا الخصوص رسالة تظلم أبي علي اليوسي إلى السلطان مولاي إسماعيل ضد جُباته لما قال "فلينظر سيدنا، فإن جُباة مملكته قد جرّوا ذيول الظلم على الرعية، فأكلوا اللحم وشربوا الدم وامتشوا العظم وامتصوا المخ، ولم يتركوا للناس دينا ولا دنيا. أما الدنيا فقد أخذوها. و أما الدين فقد فتنوهم عنه. وهذا شيء شهدناه لا شيء ظنناه. ثم إن أرباب الحقوق قد ضاعوا ولم تصل إليهم حقوقهم. فعلى السلطان أن يتفقد الجباة ويكف أيديهم عن الظلم ولا يغتر بكل ما يزيّن له الوقت. فإن كثيرا من الدائرين به طلاب الدنيا، لايتقون الله تعالى ولا يتحفظون من المداهنة والنفاق والكذب". مقتطف من كتاب أبي عبد الله محمد المهدي "النوازل الصغرى المسماة المنح السامية في النوازل الفقهية"، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1992، الجزء الأول، الصفحة 406.

8. قبائل زيان المتمردة.

زيان، مثل كل جيرانهم، أحرار. صحيح أن للسلطان "قايْد" عندهم. لكنه "قايْد" في منطقة متمردة، لا يخطر على باله أبدًا أن يطلب من أهاليها فلسا واحدا كضريبة أو جنديا للخدمة في الجيش. بل يكون سعيدا للغاية بأن يسمحوا له بالعيش بينهم في أمان. وغالبًا ما يوجد قواد من هذا النوع عند الفصائل الأقل خضوعًا. يتسامح السكان مع وجودهم بأكبر قدر من الاستخفاف والازدراء. يعرفون أنه لا هم ولا سيّدهم يمكن أن يشكلوا لهم مصدر إزعاج.

الشخصية النافذة في زيان هي الشريف مولاي الفضيل. يتمتع بسلطة كبيرة على أجزاء القبائل الثلاث المجاورة لمقر إقامته، لكن لا توجد أي منها في يده بالكامل. تمتد منطقة زيان بعيدًا باتجاه الجنوب الشرقي، وأهالي هذه المناطق يعرفون الشريف مولاي الفضيل أقل من غيرهم.

عائلة أخرى من الشرفاء لديها أيضًا نفوذ في هذه المنطقة، ولكن بدرجة أقل. إنها عائلة العمراني. كل من هذه العائلة وعائلة مولاي الفضيل شرفاء أدارسة، أو إدريسيون. شرفاء المغرب مقسمون إلى عائلتين: الإدريسيون وهم أحفاد مولاي إدريس الدفين بزرهون، والعلويون من نسل مولاي علي الشريف الذي جاء من ينبوع بشبه جزيرة العرب ودفن في تافيلالت. وسلالة السلطان الحالي علوية.

يهتم السلطان كثيرًا بالبحث عن صداقة هذه البيوت المهيبة التي يتعذر الوصول إليها بأعالي جبالها وتستطيع أن تتسبب في أي وقت في الدفع بسيول من الغزاة على بلاد المخزن. كثير منها قوي لدرجة أنه من شأن حنقها عليه أن يطيح بعرشه. ويمكنها أن تدعمه بحسن إرادتها معه. لضمان صداقتها، أليس من الأفضل أن يبادر هو بتقديم الهدايا لها وبتكريمها؟ كل شيء بيدها، حتى أنه يتفضل عليها بالمصاهرة من عائلته. هكذا زوج إحدى شقيقاته من سيدي محمد العمراني سيد العائلة التي تحمل هذا الاسم. كما أن للسلطان أفضل العلاقات مع مولاي الفضيل. بفضل هذه السياسة، يمكن أن يحصل أحيانًا على مساعدة من أسلحة زيان بالرغم من استقلالهم عنه. هكذا، في حملته العسكرية ضد تادلة وزعير ساعده مولاي الفضيل بقوات كبيرة إلى حد ما. زيان، وكذلك زمور يتكلمون تامازيغت. لكن اللغة العربية شائعة جدًا بينهم. فمن المعتاد أن يستخدمها كل من يتمتع بمكانة عالية، حتى النساء والأطفال. أما العامة من أبناء الطبقة الدنيا فلا يتحدثون بهذه اللغة.

9. سيدي بن داود صاحب السيادة بتادلة المتمردة.

4 سبتمبر 1883

تادلة التي دخلت إليها اليوم ليست قبيلة. بل هي منطقة تسكنها عدة قبائل مختلفة. جميعها من البدو الرحل الذين يعيشون فقط في الخيام. هم أغنياء ويمتلكون قطعانًا هائلة من الإبل والأغنام وعددًا كبيرًا من الخيول. يزرعون ضفاف نهر أم الربيع الخصبة. هم متمردون على المخزن باستثناء بني مسكين التي يحكمها قايْد مقيم في قصبة. الباقي كله بلاد السيبة. لا يُعترف فيه سوى بسلطة واحدة فقط، وهي سلطة سيدي بن داود بزاوية بوجّعد. ويمتد نفوذه حتى على جزء من زيان.

أتواجد هنا على بعد ثلاث ساعات فقط سيرًا على الأقدام من مدينة بوجّعد. المسافة القصيرة المتبقية محفوفة بنفس القدر من الخطر الذي كان في كل الطريق الذي قطعته حتى يومنا هذا. هنا لا تنفع لا "عناية" ولا "زطاطة". كل ما يمر منه ينهب. في هذا الموسم بخاصة البلد مهجور. تأتيه جماعات من اللصوص من جميع قبائل تادلة، وأحيانًا من إشقرن، كل منها مشكل من أربعين حتى ستين فارسا، مستعدة للانقضاض على أي إنسان يغامر بالمرور من هناك. حتى القوافل المحروسة بخمسين بندقية لا تجرؤ على ذلك.

لكن هنالك طريق للخلاص. من لا يحترم شيئا يحترم سيدي بن داود. عندما لا تحمي الأسلحة من الهجوم، فإن رفع أحد أفراد عائلة الولي مظلة الأمان كاف لدرء أي خطر. لذا، سواء أراد مسافر منفرد أو قافلة كبيرة الذهاب إلى مدينة بوجّعد فإن لديهم طريقًا واحدًا فقط، عليهم أن يطلبوا من سيدي بن داود أن يرافقهم أحد أبنائه أو أحفاده. تكلف تلك الحماية مبلغا مّا قليل أو كثير بحسب عدد المسافرين وحجم القافلة. دعونا نسارع إلى القول بأن عائلة الولي بعيدة كل البعد عن الجشع. بل تنتفع باعتدال شديد من هذا الامتياز وتشجب الوضع الذي مكنها منه. مهما كان نفوذها كبيرا فقد ظلت عاجزة عن الحد منه. ما أمكنها فعل أي شيء ضد ممارسة مثل هذه الصعلكة العتيقة التي يعتز بها بعض البدو الرحل.

أرسلت إلى سيدي بن داود رسالة من الذي أوصاه بي، أطلب منه إرسال من يرافقني تحت حمايته. كلفت شخصا بتلك المهمة. فانطلق شبه عاري. تلك كانت الطريقة الوحيدة للعبور بأمان. ثم عاد برفقة أحد أحفاد سيدي بن داود. كان شابا وسيما يبلغ من العمر حوالي تسعة عشر عامًا. وصل راكبًا على بغلته رافعا في يده مظلة الولي، مظلة الأمان، ويتبعه عبد واحد. فانطلقنا على الفور.

"هنا لا سلطان ولا مخزن، لا شيء إلا الله وسيدي بن داود". هذه هي الكلمات التي وجهها إليّ مسلم عندما دخلت إلى بوجّعد. وهي تلخص وضع المدينة. سيدي بن داود هو السيد الوحيد والسيد المطلق هنالك. يستمد نفوذه من سلطته الروحية التي قد تصبح زمنية متى ما شاء ذلك، بفضل المنافع التي تعلق القبائل المجاورة أمالها على نيلها من بركته. يمتد نفوذه من حول مكان مقامه إلى مسيرة يومين تقريبا. من جميع النقاط الموجودة في هذا النطاق يسارع الناس باستمرار إلى بوجّعد حاملين كمّا من الصدقات إلى الزاوية. تمتلئ المدينة دائمًا بالزوار. يأتون ملتمسين بركة السيد الولي. في المقابل يتوخون الانتفاع بدعواته.

يوم الخميس هو يوم السوق. يتزايد فيه عدد الزوار. في الأسبوع الماضي، بلغت كمية الصدقات من القمح وحده حمولة مائتي جمل. الصدقة الأخيرة فاقتها بأربعمائة أخرى. وهناك صدقات كبيرة نقدية وأخرى عينية من الماشية والخيول. ليس الأفراد فقط هم من يقومون بواجب هذه الشعيرة، بل في كل عام تأتي القبائل المجاورة واحدة تلو الأخرى وبكثافة تلتمس بركات جماعية من السيد الولي مقابل تقديم الصدقات لزاويته. يتم دفعها بانتظام من قبل جميع قبائل تادلة، ومن جل قبائل الشاوية، ومن بعض الفصائل من آيت سرّي، وهي جزء صغير من إشقرن.

وغني عن القول أن الزاوية ثرية. سيدي بن داود لديه ثروة هائلة. يشارك أفراد عائلته الآخرون في تلقي الصدقات من الزوار بحسب درجة ولاية وصلاح كل منهم. البعض غني جدا، والبعض الآخر أقل ثراء. لكن الجميع يعيشون فقط على الصدقات التي يتلقونها. جميعهم متعلمون، والقليل منهم علماء. ومع ذلك، فإن سيدي بن داود لديه مكتبة جميلة، ولكن نادرًا ما يتم الرجوع إليها. يستفيد الأولياء من الخيرات التي أنعم الله بها عليهم ليقضوا حياتهم في الاستمتاع بطيبات العيش الشرعية. وفي المقابل الرب يبارك لهم في كل شيء.

لكن ما هو مصدر هذه المكانة؟ سيدي بن داود ليس شيخ طائفة دينية. كما أنه ليس شريفا من أحفاد النبي محمد. لكن أصله ليس أقل قداسة. ينحدر من سلالة الخليفة عمر بن الخطاب. أسلافه الذين استقروا في المغرب على مدى ثلاثة قرون ونصف سرعان ما اكتسبوا من خلال شمائلهم ومجد نسبهم الوقار والقوة التي نراها يتمتع بها سيدي بن داود اليوم. بالإضافة إلى ذلك، لا توجد في زاويته طائفة دينية ولا مريدون مرابطون ولا طريقة خاصة في التدين. ليس هناك سوى كبير العائلة الموقرة من نسل سلالة مباركة، استحقت نعمة خاصة من السماء اكتسبتها بفضل دعوات الأسلاف، ويُكرم فيها المنبت النبيل. يؤمن الناس ببركته التي تُخصّب الأرض في الدنيا وتضمن شفاعة الخليفة عُمر وجميع أفراد ذريته النبلاء يوم الحساب، وتفتح أبواب الجنة.

منذ تأسيس مدينة بوجّعد على يد سيدي محمد الشرقي[1]، ظلت هذه المدينة موطنًا لأحفاده. سيدي بن داود بن سيدي العربي، شيخهم الحالي، يبلغ عمره ما يقرب من تسعين عاما. على الرغم من كبر سنه فهو يتمتع بكامل قواه. إنه شيخ وسيم وذو وجه شاحب ولحية بيضاء طويلة. في ملامحه تعبير نادر عن الوداعة واللطف. يمشي بصعوبة، لكنه يتنقل كل يوم على بغلته. أيا كان المكان الذي يوجد فيه، يكون محاطا دائمًا بأكثر من مائة فرد يجلسون متكئين على الجدران في انتظار لحظة خروجه لتقبيل ركابه أو أهداب جلبابه. فهو ليس مبجلا فحسب، بل إنه محبوب للغاية. الجميع يثني على عدله ولطفه وعلى جوده وكرمه.

عائلة سيدي بن داود كبيرة. قيل لي إن لديه ما لا يقل عن ثلاثين ولدا وبنتا من زوجاته وإمائه. أكبر أبنائه هو سيد الحاج العربي، وهو حاليا برفقة السلطان. والثاني هو سي عمر، وهو رجل يبلغ من العمر 55 إلى 60 عامًا. يقال إنه ذكي للغاية ومتعلم. وإلى جانب نسله المباشرين، فلسيدي بن داود عدد كبير من الإخوة وأبناء الإخوة. باستثناء اليهود وعدد قليل من الحرفيين، فإن المدينة بأكملها مأهولة فقط بالأقارب القريبين أو البعيدين من السيد مع عبيدهم وخدمهم.

[1] ه أبو عبيدة محمد القاسم الشرقي العمري الذي ولد سنة 926هـ أو 928هـ ،وتوفي بأبي الجعد سنة 1010هـ موافق سنة 1602م، ودفن هناك بزاويته.

من سيكون وريث سيدي بن داود؟ لا أحد يعلم. لا يوجد ترتيب لخلافته. كل وليّ، عندما يشعر باقتراب الموت، يختار لخلافته أحد أبنائه. والذي يختاره يرث من أبيه كل تركته الروحية والزمنية. ولا يمكن التنبؤ مسبقا بمن يكون. لا يتم في ذلك اتباع الترتيب بتاريخ الميلاد. كان الولي سيدي بن داود من بين أصغر أبناء أبيه سيدي العربي.

السيّد على علاقات جيدة مع السلطان. على الرغم من قوته لم يُظهر أبدًا لا هو ولا أسلافه أي عداء باتجاه حكومة الشريف. السلطان مولاي الحسن يرسل كل عام هدايا ثمينة إلى بوجّعد. في المقابل، كلما سافر السلطان ما بين فاس ومراكش، يرافقه السيد أو أحد أبنائه ما بين الدار البيضاء وأم الربيع أو واد العبيد. هكذا هو حال الحاج العربي حاليا برفقة السلطان.

10.محنة المخزن مع قبائل بني ملال.

منشآت قصبة بني ملال، مثل كل ما رأيته منذ 17 سبتمبر، مشيدة من الطوب. في وسط القرية يوجد السوق. المنتجات الأوروبية المعروضة للبيع تأتيها إما من الدار البيضاء أو بالأحرى من مراكش. كل أسبوعين، تصل قافلة من دزينة جمال من هذه العاصمة. تستغرق الرحلة أربعة أيام فقط.

تبدو المدينة نظيفة وغنية. شوارعها واسعة وبيوتها جديدة ومبنية بشكل جيد. ويعود الفضل في ازدهارها إلى بساتينها الشاسعة التي تُصدَّر ثمارها إلى أماكن بعيدة. حدائق قصبة بني ملال، مثل تلك المنتشرة في نفس الوضع عند سفح الأطلس، غنية بشكل مدهش. تتكون هذه الثمار من العنب والتين والرمان والخوخ والليمون والزيتون. فواكه متميزة من حيث الجودة والوفرة.

قايْدان اثنان يقيمان هنا. لكنهما قايْدان من دون نفوذ، مثل قواد زيان وقصبة تادلة. ومع ذلك، ومنذ وقت ليس ببعيد، كان للسلطان في هذا المكان عدد لا بأس به من الأنصار. لقد حدث هنالك أمر لاحظته في مناطق متمردة أخرى، خاصة تلك الغنية والمشتهرة بالتجارة. بالنظر لما تتسبب فيه الفوضى من معوقات أمام ازدهار البلاد، فإن جزءا من السكان متضايق دائما من استمرار خراب أراضيه نتيجة الحروب مع القبائل المجاورة ومن مدى صعوبة حركة المرور بسبب انعدام الأمن على الطرق. لذلك فهم يرغبون في نظام عيش آخر. يرغبون في الخضوع لحكم المخزن. هذه الأفكار كان يتبناها لبعض الوقت ثلث أهالي قصبة بني ملال. لكن البقية ظلت متمسكة باستقلالها وترفض أي تفكير في الاستسلام.

في غضون ذلك، قبل نحو خمسة أشهر، اقتحم السلطان مولاي الحسن على رأس جيشه منطقة تادلة حتى وصل أمام قصبة بني ملال. عند اقترابه منها كل من كان معاديًا له ترك المدينة وانسحب إلى الجبل. وما بقي فيها سوى أنصاره. فأرسلوا له مندوباً عنهم ليؤكدوا له إخلاصهم وولاءهم. لكنه رد على ذلك بفرض غرامة على بني ملال قدرها خمسون ألف فرنك. والحاضرون سيدفعون عن الغائبين. فلا داعي للقول إنه منذ ذلك اليوم لم يعد هناك في القصبة حزب يناصر المخزن.

لقد قلت سابقا إنني وجدت في أجزاء أخرى من المغرب قبائل على استعداد لمقايضة استقلالها بمزايا الإدارة النظامية. وهكذا في عام 1882 خضعت عدة قبائل من السوس الأعلى للسلطان من تلقاء نفسها. لكن النتيجة كانت هي نفسها في كل مكان. لا يستغرق الأمر وقتًا طويلاً حتى يظهر أن المخزن ليس هو نظام الحكم المأمول. حيث لا أمن أكثر من ذي قبل. بل عدد اللصوص زاد أكثر من أي وقت مضى. في النهاية يظهر أن نهب القواد لمدة عام يكبد البلاد خسائر أكبر من تلك التي تكبدها عشر سنوات من الفوضى والحرب. لهذا فإن حكم قواد السلطان لا يدوم. بعد عامين أو ثلاثة من الصبر، وغالبًا أقل من ذلك، ومع رؤية أنه لا يوجد شيء يبعث على الأمل، يتم التخلص من نيْرهم واستعادة الاستقلال عنهم.

قبل مغادرة تادلة، سألخص بعض المعلومات التي جمعتها عن الحملة العسكرية الأخيرة لمولاي الحسن إلى هذه المنطقة. كل عام أو كل عامين يقود السلطان بنفسه الجيش وينطلق لشن الحرب على بعض مناطق المغرب. تهدف هذه الحملات في بعض الأحيان إلى إخضاع الفصائل المتمردة، وأحيانًا إلى فرض تعويضات الحرب على القبائل القوية جدًا من أجل إضعافها وإخضاعها، لكن فقط في الأوقات التي تكون فيها ضعيفة جدًا أو مفككة للغاية، بحيث لا تتمكن من منع التوغل المؤقت في أراضيها.

والحملة العسكرية من هذا النوع هي التي قام بها السلطان مولاي الحسن للتو في تادلة. الطريقة التي يتبعها في هذه المناسبات ثابتة. يسير خطوة بخطوة من قبيلة إلى قبيلة، ويعرض على كل منها عند الوصول إليها الاختيار بين أمرين: إما نهب

الأرض أو أداء فدية نقدية. بين هذين الأمرين، بل بين أهون الشرين، غالبًا ما يتم شراء السلم بالسعر المطلوب. وهذا هو ما كان يأمله السلطان.

لكنه كان في بعض الأحيان يتعرض لنكسات. في بعض الأماكن تتم مقاومته بنجاح، ويشهد على ذلك حال قبيلة غياثة. في تادلة تم أخذ مناورة ثالثة. وكانت بالنسبة له تجربة مريرة. مع اقترابه اكتفت القبائل، وجميعها من البدو، بحزم الأمتعة والرحيل. منها من لجأت إلى جبال آيت سيري، وأخرى إلى جبال زيان. هنالك كانوا بأمان. وبقي السلطان وحيدًا مع جيشه، يتجول وسط السهل المهجور. كانت حملة كارثية. لم يتمكن من الحصول إلا على بعض المال من القصبات الصغيرة المنتشرة هنا وهنالك في المنطقة. فحصل على عائدات ضئيلة في مقابل تعبئة قوات كبيرة. "تعب بلا ربح"، هكذا كان السكان يصفون هذه الحملة.

11. الهياكل السياسية بقبائل بلاد السيبة

من بين المناطق المستقلة عن المخزن، توجد تلك الواقعة في الجنوب من الأطلس الكبير. وهي مختلفة في تنظيمها الاجتماعي مع تلك الموجودة في الشمال. في هذه الأخيرة، توجد وحدة اجتماعية فريدة وهي القبيلة، ونظام سياسي وحيد وهو الديمقراطية. ولا توجد فيها روابط بين مختلف القبائل.

القبيلة هي عبارة عن عائلة كبيرة بتقسيماتها الطبيعية، خيمة أو منزل، دوار أو قرية، أو دائرة مشكلة من عدة مراكز مأهولة، وما إلى ذلك. تزداد تقسيمات القبيلة بمقدار ازدياد عدد أفرادها. كل مجموعة على حدة تتمتع بحكم ذاتي وفق ما تراه مناسبًا، عن طريق مجلس ممثلة فيه كل عائلة. وهي الجماعة باللغة العربية والأنفاليز باللهجة الأمازيغية. وغالبًا ما تسود في المجلس هيمنة قليل من الرجال، لكن من دون لقب ولا امتياز معترف به.

تتم تسوية شؤون القبيلة كلها على أساس نفس المبدأ. القبائل الصغيرة تجتمع بكل أعضائها للتداول. أما في الكبيرة، حيث تكون الوحدات التي تشكلها هي نفسها كبيرة والتي غالبًا ما تكون غير متحدة فيما بينها، فإن هذه الوحدات تتشاور وتقرر بشكل منفصل، باعتبار أو من دون اعتبار للمواقف التي تتخذها باقي الوحدات.

في بعض القبائل توجد هناك قوانين، أو مدونات قوانين، ملزمة لجميع أهاليها ولمجلسها. لكنها تغيب في باقي القبائل. المجالس لا تهتم بالأفراد. كلهم أحرار. إذا نشأت الخلافات سواء بين العائلات أو بين الفصائل تتم تسويتها بمنطق نيران البندقية. هنا، مع الحرية الكاملة والانقسامات اللامتناهية تجد الشقاق في أعلى درجاته. وهناك، مع قليل من النظام والوحدة، تسود دائما الديمقراطية المطلقة. مختلف القبائل ليست لها من علاقات أخرى غير الحروب والتحالفات التي تربط فيما بينها بصفة مؤقتة.

أما في جنوب الأطلس الكبير فنجد ثلاث وحدات اجتماعية وهي القبيلة والقرية والدائرة التي تتشكل من مجموع عدد من القرى. يجمعها رابطان وهما الاتحاد والتبعية، ويحكمها نظامان سياسيان وهما الحكم العائلي الوراثي والحكم الديمقراطي.

تتواجد القبيلة عند كل من الأمازيغ والعرب بتقسيماتها الطبيعية والتي هي نفسها في كل مكان. وتوجد بجانبها قرى منعزلة لا علاقة لها بها. يسكن بعضها مزيج من الشلوح والحراطين[1]، وبعضها الآخر يسكنه أفراد من قبائل مختلفة، والبقية يسكنها الشرفاء أو المرابطون بالزوايا. عدد قليل من بين هذه القرى لا يزال معزولا. ولمقاومة غزوات القبائل المجاورة يتحد معظمها فيما بينهم في مجموعات بعدد معين، فتشكل ما سنسميه الدوائر[2].

تتحد القبائل والقرى المعزولة والدوائر فيما بينها من خلال نوعين من الروابط. الأول هو الاتحاد. ويتكون من العديد من هذه الوحدات الاجتماعية، كيف ما كانت، لتشكيل كتلة أكثر إحكاما. وغني عن القول أن هذه الاتحادات عرضة للتغيير في تشكيلاتها. في بعض الأحيان تنفصل عنها مجموعة، وأحيانًا تنضم إليها مجموعة أخرى. الرابطة الثانية التي تحدثنا عنها هي نوع من التبعية. تعلن القبائل والدوائر نفسها تابعة إما لرئيس أو لقبيلة أكثر قوة في مقابل دفع رسوم سنوية. ويتعهد الوصي في المقابل بضمان توقير الأشخاص وممتلكاتهم. وعلى ذلك تقتصر الالتزامات المتبادلة بين الطرفين.

[1] ذهب المؤرخ المغربي الناصري في كتابه "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى" إلى أن لفظ "الحرطاني" يعني العتيق، وأصله "الحر الثاني"، كأن الحر الأصلي "حر أول". ومع كثرة استعمال عبارة "الحر ثاني" تحولت إلى "الحرطاني" من باب التخفيف في النطق.

[2] *districts*

القبائل والدوائر والقرى، بعضها يعيش في ظل نظام استبدادي، والبعض الآخر في ظل نظام ديمقراطي. الأولى تحكمها عائلات تكون فيها السلطة العليا، في يد شخص الشيخ أو أمغار، وتكون وراثية. سلطة هؤلاء المشايخ ليست ثقيلة على رعاياهم. كأقارب قريبين إلى حد ما من عدد كبير منهم، يضطرون إلى حسن معاملة هؤلاء الحلفاء الطبيعيين. علاوة على ذلك، من مصلحتهم عدم إزعاج أي شخص. يتركون لرعاياهم حرية كبيرة ويطلبون منهم ثلاثة أشياء فقط. أولها الالتزام بدفع رسوم رمزية. ثانيها هو ضرورة السير معهم عند شن الحرب، وثالثها هو الالتزام بعدم الاقتتال فيما بينهم، وباجتناب النهب وسرقة بعضهم البعض. تلك أمور مسموح بها فقط مع الغرباء. أما ما عدى ذلك فلهم الحرية الكاملة. هذا هو ما أسميته أنا في جنوب المغرب، وفي غياب اسم آخر، النظام الاستبدادي.

أما بخصوص النظام الديمقراطي، فإن القبائل أو الدوائر التي تتبناه تمتلكه بأشكال مختلفة. يسود بعضها النظام الذي تم إنشاؤه في الشمال. القبائل والدوائر والقرى يحكمها مجلس مشكل من جميع أفرادها. في أماكن أخرى يحتفظ المجلس بالسلطة السيادية ويعهد بالسلطة التنفيذية إلى شيخ ينتخبه. أحيانًا يبقى هذا اللقب لفترة طويلة في نفس الأسرة. وأحيانًا أخرى ينتقل باستمرار من وأسرة إلى أخرى.

تنقسم بعض القبائل إلى فصائل تترأس كل منها عائلة يكون منصب الشيخ فيها وراثيا. في بعض الأحيان تكون قوة هؤلاء القادة كبيرة بما يكفي. وأحيانًا يقتصر امتيازهم الوحيد على قيادة إخوانهم في القتال. وأخيرًا هناك نظام خاص بقبائل معينة. وهو نظام "شيخ العام". يتم فيه انتخاب الشيوخ لمدة سنة واحدة[1]. تحكَم فيه القبائل عن طريق المجالس. ولكن في كل فصيل وفي كل دائرة تكون السلطة التنفيذية بيد شيخ يتم انتخابه كل عام.

إذا كان هناك تنظيم سياسي أكثر اكتمالا في هذه المناطق مقارنة بما عليه الوضع في الشمال، فلا ينبغي أن يُستنتج من ذلك أن النظام العام فيه أفضل. تتم الإدارة الداخلية لكل قرية بشكل منتظم إلى حد ما. لكن هذا كل شيء. الحروب مستعرة باستمرار من قبيلة إلى قبيلة ومن فصيل إلى فصيل ومن دائرة إلى أخرى ومن قرية إلى قرية. حروب أسبابها ثلاثة. فيما بين الأهالي المستقرين هناك خلافات حول المياه وقنوات الري. وفيما بين البدو الرحل هناك النهب الظالم للأتباع الذي يفرض الشرف الانتقام لهم. وبين المستقرين والبدو الرحل هناك جشع هؤلاء الذي يدفعهم إلى مهاجمة الأوائل لنهبهم. لم أتواجد أنا في منطقة واحدة جنوب الأطلس من دون أن أجد فيها حربا لأحد هذه الأسباب الثلاثة، إما بينيّة أو مع الجيران.

[1] الأمر الذي يذكر بالانتخاب السنوي لقناصل الجمهورية الرومانية العتيقة .

الطبيب العسكري الفرنسي فرناند ليناريس

فرانسوا فرناند جان ليون ليناريس[1] (1850-1938) هو طبيب عسكري فرنسي ومستكشف. تم تعيينه في منطقة البيّض بجنوب الجزائر عام 1875. ثم كان عضوا في البعثة العسكرية الفرنسية إلى المغرب سنة 1877. وتميز حينها بمحاربة وباء الكوليرا بمدينة وجدة عام 1878.

فعينه السلطان مولاي الحسن ليعمل بجانبه كطبيب وكمستشار. ورافقه منذ ذلك الحين في جميع رحلاته، وخاصة في الحملة العقابية لتافيلالت عام 1893. رحلة مرت عبر صفرو ومولوية العليا والأطلس وقصر السوق ودامت أكثر من خمسة أشهر. وبعد ثلاثة أسابيع في تافيلالت تمت العودة عبر توذرا ودادس وممر الكلاوي ووصلت إلى مراكش في 20 ديسمبر من نفس العام. وفي ظل حماية السلطان، سجل الطبيب معالم الطريق بالبوصلة وقام خلالها بالعديد من القياسات البارومترية والحرارية.

لما مات مولاي الحسن كان في إجازة بفرنسا. وكان هو أول مبعوث فرنسي إلى السلطان الجديد عبد العزيز. وعاد إلى فرنسا عام 1901 بعد أن عاش لمدة 25 عامًا في المغرب. عاد إلى قريته الأصلية، حيث انتخب عمدة لها ثم مستشارًا عامًا بنفس المنطقة من 1901 إلى 1908.

وفي عام 1932 تم نشر مؤلفه تحت عنوان "رحلة إلى تافيلالت مع جلالة السلطان مولاي الحسن عام 1893". نشرته دورية معهد النظافة المغربية. وهو العمل الذي ترجمنا منه المقتطفات التالية.

1. السلطان مولا الحسن كما عرفته

السلطان مولاي الحسن، الذي حكم لمدة عشرين عامًا، بلغ لتوه الستين في عام 1893. والده، السلطان سيدي محمد، الخصم السيء الحظ للجنرال بوجود[2] في معركة إيسلي[3]، لديه سبعة أبناء. أربعة منهم معروفون في تاريخ المغرب. وهم إسماعيل وعرفة ورشيد والحسن. جميعهم من نفس العمر تقريبًا، بحكم تعدد الزوجات الذي كرسه القرآن. لقد نشأوا بعناية وحزم في جامعة فاس. وعندما بلغوا الرشد، عين والدهم من بينهم الأمير الحسن وليا لعهده أشركه رسميًا في تدبير الإمبراطورية من أجل إعداده للحكم.

بفضل هذا الاحتياط، لما انتقل السلطان سيدي محمد إلى رحمة به في عام 1873 تمكن الأمير الحسن من اعتلاء العرش من دون منازع. وأمر على الفور علماء فاس بالاجتماع على وجه السرعة في مسجد مولاي إدريس للتصديق على توليه الحكم. وافق عليه علماء الشريعة[4] بالإجماع. في حين أن علماء الدين[5]، الأكثر تحفظًا، اجتمعوا على حدة للمصادقة بالاقتراع السري على تولي منصب أمارة المؤمنين من بعد وفاة السلطان سيدي محمد. فحصل الإمبراطور الجديد مولاي الحسن على الأغلبية الكافية لانتخابه خلفا لوالده أمير المؤمنين بشمال وشرق إفريقيا. وها هو حاكم مطلق بسلطتين روحية وزمنية، شرف مزدوج أكثر إحراجًا مما هو مفيد لسلطان المغرب العصري الذي عليه تسوية القضايا الفرنسية المغربية. تمكنت من إدراك ذلك لما تعلق الأمر بالواحات الصحراوية (القورارة وتوات وتيديكلت)[6].

---

[1] François Fernand Jean Léon Linarès

[2] توماس روبير بيجود بالفرنسية: Thomas Robert Bugeaud المعروف بالدوق دي زلي (784 -1849) حارب قبل مجيئه إلى الجزائر في إسبانيا وأشتهر هناك بالعنف.

[3] معركة إسلي هي معركة قامت في 14 أغسطس 1844 بالقرب من مدينة وجدة بين فرنسا وجيوش المغرب بقيادة الأمير محمد بن السلطان عبد الرحمن بسبب مساعدة المقاومة الجزائرية واحتضان الأمير عبد القادر. الأمر الذي دفع الفرنسيين إلى مهاجمة المغرب عن طريق ضرب ميناء طنجة حيث أسقطت ما يزيد عن 155 قتيل ثم ميناء تطوان ثم ميناء أصيلة. انتهت المعركة بانتصار الفرنسيين وفرضهم شروطا قاسية على المغرب. تمثلت هذه الشروط في استيلاء فرنسا على بعض الأراضي المغربية عقابا له، وفرضت غرامة مالية على المغرب وتمنع المغاربة من تقديم الدعم للجزائر.

[4] Les Docteurs légistes قد يتعلق الأمر بكبار القضاة.

[5] les Docteurs de la religion

[6] ثلاث واحات على الحدود بين المغرب والجزائر بحسب موقع ويكيبيديا.

بصعوده درجات العرش الشريف، كان مولاي الحسن، البالغ من العمر أربعين عامًا، يعلم جيدًا أن المهمة لم تكن سهلة. للامتثال لتوصيات والده، كان عليه أن يحافظ على ثروة خزينة الدولة الشريفة وأن ينميها ما أمكن وأن يحافظ دائمًا على علاقات ودية مع جارته في الشرق[1]، حتى يتمكن من الحفاظ على الأراضي الإمبراطورية سليمة. لذلك حرص العاهل الجديد على الفور على احتواء القبائل العربية والبربرية الخاضعة لسلطته من أجل الحفاظ على هدوء نسبي. قبائل، على الرغم من اختلافاتها في العرق، كانت مضطربة بنفس القدر، خاصة إثر كل مناسبة يتم فيها تغيير الحاكم.

ولتحقيق هذه الغاية، أخضع مولاي الحسن نفسه لحياة ترحال مؤلمة ولكنها واجبة. وتتمثل في القيام كل عام بحملة من الربيع إلى نهاية الخريف. يتنقل فيها تباعا، على رأس جيشه، بين مختلف مناطق الإمبراطورية، لاستخلاص الضرائب المتأخرة عن طيب خاطر أو بالقوة، ولمراقبة كبار ملاك الأراضي، الخاضعين له بالاسم أكثر مما هم عليه في الواقع، والذين يميلون دائمًا إلى التهرب من الالتزامات والإتاوات المترتبة عن تبعيتهم له، من خلال إظهار الرغبة في الاستقلال بأراضيهم على حد زعمهم.

خلال فصل الشتاء، يظل البلاط الشريف مستقرا في إحدى العواصم الثلاث للمملكة، وهي فاس ومكناس ومراكش. لكن الراحة التي يمكن أن يتمتع بها السلطان هناك هي إلى حد ما مجرد وهم. في الواقع، الحكومات الأوروبية في علاقات التجارة أو الجوار مع المغرب، لديها دائمًا عدد لا حصر له من المسائل التي يلزم حلها بخصوص موضوع الرسوم الجمركية والحماية[2] والحوادث الحدودية.

أحصل على هذه الأسرار من مولاي الحسن شخصيًا، في لحظة حزن شديد، سببه مشاكل دبلوماسية، يطلب مني رأيي فيها. كل تلك الخلافات تؤدي بشكل عام إلى طلب تعويضات مالية يجب على السلطان دفعها للمطالبين بها، إذا أراد تجنب المضاعفات الخطيرة دائمًا، لأن ميزان القوة ليس دائمًا لصالحه. وعلى هذا النمط ظلت حياة مولاي الحسن طيلة أربع سنوات من خلال اتباع توصيات والده بدقة. فتمكن من ضبط قبائل شعبه المضطربة، من دون تألق ربما، ولكن أيضًا من دون فشل، كما تمكن من الحفاظ على حدود إمبراطوريته كما تسلمها من والده.

في الوقت الحاضر (1893)، يرى كبار المسؤولين وكبار رجال الحاشية الشريفة، أن السلطان وصل إلى أوج عهده بعد أن احتفظ بكل قواه الجسدية والمعنوية، على الرغم من بلوغه الستينيات من العمر ومن متاعب حياة الترحال ونشاطه اليومي. كل هذا المديح صاغته، في رأيي، شخصيات غير كفؤة، لأنني مدة أكثر من عشر سنوات التي تمكنت خلالها من رؤيته كثيرًا ورأسا وعن كثب، من أجل صحته أو الأعمال، يجب علي القول بأن جلالة الملك الشريفة متعبة حاليا.

يجب أن أشير أخيرًا، من دون إيلاء أهمية كبيرة لما سأشير إليه، إلى المبالغة في الحماس الديني الذي يظهره اليوم مولاي الحسن. وهو الأمر الذي يتكرر بين النخبة المسنة والذي يمكن تفسيره في الوقت الحاضر بالحاجة إلى أن يكون للرحلة إلى تافيلالت طابع ديني بحت. تلك الرحلة التي بدأ الحديث عنها في المدينة.

2. بداية رحلة السلطان إلى تافيلالت

فاس، 24 أبريل 1893.

الأمور حسمت. أقيم مخيم السلطان صباح اليوم بالقرب من مدينة فاس على الأرض المحاذية لطريق صفرو باتجاه الجنوب الشرقي. بذلك يكون قد تم قرار الرحلة إلى تافيلالت رسميًا. وسيكون من المثير للاهتمام أن نرى التأثير الناتج عنه على السكان وخاصة على كبار المسؤولين في المخزن وكبار شخصيات الحاشية الشريفة. أعطتني عنه جولة على الفرس في شوارع فاس معلومات كافية. في الأسواق كان يتم توقيفي من أجل الإعراب لي عن متمنيات برحلة سعيدة إلى بلد البربر الذي قد لا أعود منه أبدًا ... كنت أضحك من هذه المزحة اللطيفة وأجيب أنني لا أعرف ما إذا كنت سأكون في هذه الرحلة، فيجيبون: "ستكون هناك، ولربما من سوء حظك".

ألن يكون من الأفضل البقاء بسلام في فاس بدلاً من تعريض النفس إلى الوقوع في مثل تلك الكمائن التي كاد أن يموت فيها السلطان مولاي سليمان؟ هكذا يتحدث الفاسي العادي، الذي تجده دائما على استعداد لانتقاد كل تصرفات الحكومة. وتحت

[1] وهي فرنسا المحتلة للجزائر.
[2] حماية مواطنيها الموجودين أو المقيمين بالمملكة.

هذه الانتقادات البسيطة، تكشف مرة أخرى الخوف الأصلي الذي يشعر به العرب من البربر. وهو ما يمكن أن نطلق عليه "رهاب الأمازيغ".

أنا أتجه الآن نحو القصر لأتمكن من إدراك رأي الشخصيات أصحاب العمائم الكبيرة الذين تظاهروا حتى يومنا هذا بعدم تصديق حصول هذه الرحلة. في مكاتب كل من الصدر الأعظم (صاحب السياسة الداخلية) وسكرتير الجيش (صاحب الإدارة العسكرية) ووزير الخارجية (المكلف بالعلاقات الخارجية) حيث أقوم عادة بزيارات متكررة من أجل المجاملة والفضول، أجد الوجوه تعكس خيبة الأمل والتعليقات المتقاربة تعبر عن نفس المخاوف: "كيف سيتم التعامل مع آيت يوسي الذين سيتعين عليهم تبرير قتلهم للقايد علي بمنطقتهم؟ وآيت سخمان الذين اغتالوا عام 1888 مولاي سرور عم السلطان؟ وهل يمكن تحصيل متأخرات الضرائب من قبائل الأمازيغ في الأطلس من دون صعوبة كبيرة؟ كل علامات الاستفهام هذه لم تمنح الأمل برحلة متعة خالصة. ولكن بما أن كل الأمور بيد الله، كنا نرفع الجلسات متمتمين: "ما شاء الله! الله أكبر!" ونقوم لنتناول وجبة الغذاء.

فاس، 25 أبريل 1893.

ذهبت هذا الصباح إلى مكتب سكرتير الجيش، فعلمت أن القوات المرافقة لصاحبة الجلالة الشريفة إلى تافيلالت ستتألف من كل الجيش النظامي والمشاة وسلاح الفرسان والمدفعية والفرق القبلية من شمال الإمبراطورية المنتقاة خصيصًا للمشاركة في هذه الحملة. وقال لي السكرتير وهو لا يبالي "الأمر الذي ستتم به تعبئة حوالي ثلاثين ألف رجل من الماشين على الأقدام و الراكبين". فأجبته: "إنه جيد جدًا". ومر شهر مايو من دون أطلاق. وفي حوالي 10 يونيو عاد الحديث عنه مرة أخرى. في هذا التاريخ أبلغ السلطان وزراء فرنسا وإسبانيا وبريطانيا العظمى المقيمين في طنجة والذين لهم مدربون عسكريون في خدمته، لإعطائهم الأمر بالذهاب من فاس إلى مراكش حيث ينتظرون عودة المخزن، لأن الحج إلى تافيلالت استلزم فصل العنصر المسيحي مؤقتًا عن حاشية السلطان.

وبما أنني لست مدربا عسكريا فالأمر الشريف لا يعنني ويمكنني أن أبدأ تحضيراتي للمغادرة. من بعد تهييئ وفحص معدات الرحلة الخاصة بي سلمت إلى سكرتير الجيش قائمة الدواب اللازمة لنقلها. وتم تعيين عدد كافٍ من الجنود لمساعدة خادميّ المخلصين، وهما قدور الطباخ وبن عزوز القيم على الاسطبل أثناء الرحلة. وأخيرًا، بعد أن ارتديت، كما أوصاني السلطان بذلك، الزي العربي كما ينبغي، انطلقت بعد ظهر يوم 29 يونيو ، مزودا بالمعدات الأربع التي استخدمتها في جميع رحلاتي، وهي مقياس الحرارة والبوصلة ومقياس الضغط الجوي والساعة. هذه الآليات الثلاث الأخيرة لها نفس الشكل ونفس الحجم فيمكنني الرجوع إلى قياساتها عند إلقائي نظرة على الساعة[1]. أجد نفسي الأوروبي الوحيد المدرج في الوسط المسلم لعدة أشهر.

في صباح الأحد 2 يوليوز، بعيدًا جدًا عن فاس، استعرض جلالته قوة سلاح الفرسان. وبعد ذلك تم توزيع المنحة المعتادة على الجنود كمكافأة على مشاركتهم في الحملة. وكان من الحكمة عدم تسليمها بفاس مخافة الهروب من الخدمة فور التوصل بها مسبقا.

3. تصفية الحساب مع قبيلة آيت إزدك[2]

عند النقطة التي وصلنا إليها في هذه الحملة، يبدو من المناسب التحدث مرة أخرى حول تسوية الأسئلة المتعلقة ببرنامجها. تأتي الشخصيات المسؤولة عن تنفيذه للجلوس على السجاد في المكاتب المختلفة، وذلك بعد صلاة العصر (4.30 مساءً). في خيمة سكرتير الجيش، سمعت أن أكبر حساب ينبغي تصفيته هنا هو قضية آيت إزدك. آثامهم عديدة وخطيرة. في المقام الأول طردوا بمجرد وصوله القايْد إبراهيم الشرادي الذي تم تعيينه ليحكمهم. بذلك ارتكبوا خطيئة عصيان وازدراء السلطة الشريفة. وفي المرتبة الثانية، تمردوا عام 1890مع القبائل المجاورة ضد محمد ولد الطالب قايْد قبيلة آيت يوسي وشاركوا في حصار تيت نورمس وفي أعمال انتقامية وحشية تسببت في مقتل هذا القايْد المخلص للسلطان مولاي الحسن. فهذه أمور خطيرة للغاية. لكن يبقى أن نرى ما إذا كانت كل هذه الاتهامات مبررة تمامًا وما إذا كانت لآيت إزدك بعض الحجج كي تقدمها للدفاع عن نفسها.

[1] وذلك لاستبعاد شك من حوله في أنه يتجسس.

[2] آيت أزدك هي اليوم جماعة قروية تابعة لإقليم ميدلت ضمن جهة درعة تافيلالت.

في دوائر المخزن يقال إن آيت إزدك قلقون وأن ثلاثة من الشرفاء وهم مولاي قاسم ومولاي الحسن من أوطاط ومولاي هاشم من تالوين وصلوا إلى المعسكر مكلفين من هذه القبيلة بطلب الأمان من جلالة السلطان. كما يقال إن اتحاد آيت يافلمان أرسل للتو إلى مولاي رشيد والي تافيلالت وعم السلطان مندوبين مكلفين بطلب الأمان وبالتأكيد على أنهم بمجرد الحصول عليه سيتم قبول وتنفيذ جميع الشروط التي يفرضها عليهم السلطان. فردت جلالته على المتشفعين الثلاثة بأنه سيعلن عن أوامره في وقت قصير.

وليس من دون سبب أن السلطان اختار سهبب الروح لبحث المآخذ على آيت إزدك في سعة من أمره. هذه المنقطة محايدة بين طرفين متحاربين، وهذا يعني أنها استراتيجية بين التابعين والسيد. تأتي الرسائل من دون صعوبة كبيرة من تادلة ومن بين الزيانيين فيها معلومات عن الحالة السياسية لقبائل هذه المناطق التي تتأثر بحملة السلطان بشكل أو بآخر وفقًا للمسار المخطط لها أو ينبغي التخطيط له.

جاء مندوبو آيت إزدك لتحية السلطان قبل وصوله إلى المعسكر التالي. ولما وصل واستقر فيه ذبحوا ستة ثيران أمام بطاريات المدافع، وذبحوا أخرى في معسكر المشاة ومعسكر الشاوية. فأخبرهم السلطان أنه جاء ليعيدهم إلى رشدهم، لكن بما أنهم تابوا واستسلموا فهو على استعداد لأن يعاملهم بإحسان.

وفقًا لسي فضول سكرتير الشؤون الخارجية، فإن جلالته الشريفة تدرك تمامًا أنه مع هؤلاء آيت إزدك الذين يقف من وراءهم اتحاد آيت يافلمان، من الضروري المضي قدمًا بأكبر قدر من الحذر (وهذه هي الحقيقة عن طريق الصدفة). لكن من المهم أيضًا الحفاظ، على الأقل في الظاهر، على هيبة الإمبراطورية. لهذا كان السلطان، بحسب سي فضول، يشرح إرادته لوفد آيت إزدك على النحو التالي حيث قال :

"منذ أن أتيتم لمقابلتي للتكفير عن خطاياكم والتماس الأمان، فأنا مقتنع كما أنا مطمئن، بأنكم اندفعتم إلى طريق التمرد من قبل سي محمد بن العربي الدرقاوي ، المشاغب الذي أنقذكم الله منه أخيرًا(توفي في ديسمبر 1891). لذلك فإن أخطاءكم أقل خطورة مما لو كنتم قد تصرفتم بمحض إرادتكم. ومع ذلك، يجب عليكم دفع ثمن الأخطاء التي ارتكبتم. لقد قتلتم محمد ولد الطالب اليوسي لأسباب محددة يدينها القرآن. لكنكم لستم قضاة حتى تتصرفوا كما فعلتم. الشيء الأكثر جدية، لقد طردتم من قبيلتكم وبدون سبب القايد إبراهيم الشراردي. ماذا فعل لكم؟ لذلك سيتعين عليكم دفع غرامة قدرها مائة ألف دورو كدية قتل محمد ولد طالب وإهانة إبراهيم الشراردي. ذلك بغض النظر عن الضرائب التي يتعين عليكم دفعها والمحددة بعشرين ألفًا دورو التي لا أقبل بها من الغنم أو الماعز. سيكون عليكم تقديمها من الثيران والأبقار والخيول والبغال".

على هذه الأوامر، كان المندوبون قد أجابوا بأنهم سيذهبون إلى مختلف مكونات القبيلة وإلى منطقة تيعلالين[1] لتحصيل مبالغ الضريبة والغرامة التي طلبتها صاحب الجلالة الشريفة. لكن قصة سي فضول أذهلتني. علمنا لاحقًا أن آيت إزدك لم يطمئنوا تمامًا للإجابة التي أعطاها لهم السلطان بعد استقبالهم في المعسكر. لقد وعدوا بتجميع نصيبيهم من الجنود إحضاره إلى المعسكر الشريف. لم يتم تنفيذ هذا القرار الجيد. وقد تم التأكيد على أن آيت إزدك المثيرة للاهتمام، بدلاً من القدوم إلى المعسكر، اعتبرت أنه من الحكمة الانسحاب باتجاه تيعلالين على المنحدر الجنوبي لجبل عياشي من حيث قد يأتون بنصيبيهم من الجنود الذي يرغب فيه السلطان أو لا يأتون. المسألة ليست واضحة جدا. وهل سننتظر هنا وصولهم أم سنتأكد من انشقاقهم بالكامل؟

يوم السبت ، 29 يوليوز، من بعد التوقعات المتشائمة التي صيغت أمس حول الخضوع غير المؤكد لآيت إزدك لرغبات جلالته الشريفة، يبدو أنهم يفضلون دفع ما يُطلب منهم بدلاً من إعلان أنفسهم متمردين. وهم بلا شك يرون أن التمرد الفعلي في وجود هذا الجيش الجرار يمكن أن يتسبب لهم في أضرار جسيمة من نهب وتدمير قصورهم حيث تتكدس محاصيلهم وأشياؤهم الثمينة. ثم هم يعلمون أنه من بعد ذهاب السلطان سيستعيدون بسرعة جميع حرياتهم واستقلالهم المعتاد.

وهم بالتأكيد ما كانوا ليستسلموا لو أنهم كانوا من البدو الرحل. لكن المنطقة الباردة التي يسكنونها لا تسمح لهم بالعيش في الخيام. لكل هذه الأسباب الوجيهة، فإن آيت موسى أوعلي وآيت أوفلا، الذين يسكنون إلى حد كبير في القصور[2] والذين نصيبيهم من الغرامات المفروضة عليهم من طرف السلطان هو واحد وعشرون ألف وخمسمائة دورو، قد شرعوا في تسديده بالفعل

[1] آيت عتو تيعلالين هي اليوم إحدى مشيخات المملكة المغربية، تتبع جغرافيا لإقليم ميدلت وإداريًا لغرس تعلالين بجهة درعا تافيلالت.
[2] قرى محصنة

تسديدا جيدًا. في الغالب يقدمون الخيول والبغال إلى مقرات المخزن حيث يقدر المسؤولون الماليون قيمة كل حيوان ويسجلون السعر. إذا فعلت القصور الأخرى في آيت إزدك الشيء نفسه، فسيكون ذلك فوزا حقيقيًا للسلطان. لكنه فوز إداري فقط، لأنه من الناحية المالية، فإن الغرامة المفروضة على هذه القبيلة لن تغطي سوى جزء صغير من نفقات الحملة.

يوم السبت 5 أغسطس آيت أوفلة الذين هم تحت قيادة القايْد الحسن ولد الطهارة ما زالوا لم يدفعوا مبلغ ستة وعشرين ألف دورو التي تم المطالبة بها منهم. أما قبيلة آيت إزديك في المنطقة التي يحكمها القايْد علي أوالحاج فقد دفعت حصتها البالغة ستة وعشرين ألف دورو أيضًا. وذهب هذا القايد إلى وادي زيز ليرى مواطنين آخرين وترك قيادته إلى ولد يسومور.

يوم الخميس 24 أغسطس أرسل آيت إزديك بعض الخيول المسنة وقطعان ماشية هزيلة لتقدير قيمتها. فبقيت مدينة للسلطان بمبلغ إثنان وسبعون ألف دورو. بهذه الوثيرة التي تسير بها الأمور فسنبقى هنا لفترة طويلة إذا كان علينا انتظار السداد الكامل للغرامة. ويبدو واضحاً أن السلطان لا يستطيع التفكير في مغادرة هذه المنطقة إلا من بعد أن يظهر أنه راسخ في قراراته. إذا لم يصر على هذا السلوك، فسيتم اعتبار مغادرته هروبا. والقبائل التي ستترك من دون استخلاص الضرائب، لن تتأخر في الاعتقاد أنه تركهم وشأنهم خوفا منهم. . لذلك فإن تماسك السلطان ضروري.

يوم الجمعة 25 أغسطس أصيب القايد عمر اليوسي بجروح خطيرة في إقليم ألميس حيث أرسله السلطان لاستلام الضرائب. وبحسب ما ورد نُقل المصاب إلى إنجيل في حالة خطيرة. وزُعم أنه أصيب على يد شريف احتُجز في تيط نورميس يوم 3 أغسطس عندما هاجم القصبة بأمر من السلطان. فيبدو أن هذه الواقعة تشير إلى أن آيت إزديك لا تريد بأي ثمن أن تكون تحت قيادة اليوسي.

4. تصفية الحساب مع قبيلة آيت عياش[1]

إن مآخذ جلالته الشريفة ضد قبيلة آيت عياش خطيرة ومتعددة. فمن الضروري الشروع في تصفية الحسابات معها. بصفتها عضوا في اتحاد آيت يفلمان فقد شاركت في قتل القايْد محمد ولد الطالب. وبعد وفاة هذا الأخير نزعت ملابس الجنود النظاميين الذين كانوا تحت إمرته ونزعت أسلحتهم. علاوة على ذلك، شاركت عام 1888 مع قبيلة آيت سخمان في مقتل مولاي سرور عم السلطان. وفي نفس التاريخ الذي كانوا ما زالوا متحالفين فيه مع آيت سخمان هزمت طابور سي محمد الصغير، سكرتير الجيش. هذه هي المآخذ. فما هي العقوبات؟

طلب السلطان بإعادة كل البنادق المسروقة من الجنود بحامية قصبة المخزن التي توجد أمام معسكرنا. بمجرد تنفيذ هذا الأمر، يمكن إعطاء الأمان وتعيين قايْد مأخوذ من القبيلة كما هي تطالب بذلك. لكن إذا كانت الأعمال الانتقامية ستقتصر على ذلك، فلا جدوى من القدوم إلى هذه المنطقة. لذا نأمل أن يظهر السلطان قوة أكبر في الردع.

5. عاقبة سطو آيت يوسي على قافلة مخزنية

يوم الجمعة 21 يوليو استولى رجال من قبيلة آيت يوسي على قافلة مكونة من أحد عشر بغلًا محملة برزم من الملابس القماشية كانت مخصصة للشرفة في تافيلالت. قيل لي إن السلطان غاضب، وهناك ما يبرر ذلك. فأعطى الأمر على الفور لعمر ولد طالب، القايْد المؤقت لهذه القبيلة التي لا تحترم سلطة الشريفة، بالذهاب فورًا للقبض على اللصوص وإحضارهم إلى المعسكر، وكذلك البغال مع حمولتهم. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن يأتي باقي رجال قبيلة آيت يوسي ويستقروا على جنبات طول الطريق التي تمر من أراضيهم ليضمنوا سلامة المسافرين المتجهين من معسكر الشريف إلى فاس والعكس. هكذا وكما اللصوص أو على الأقل إخوانهم سيصبحون دركيين.

وأرسل السلطان القائد عمر ولد طالب إلى هذه القبيلة لمعاقبة لصوص البغال المحملة بالثياب. فهاجم القايد قصر[2] إنجيل[1] حيث كان الجناة لاجئين، وتم القبض عليهم. ثم أضرم النار في القصر. وننتظر عودة القايْد بعد هذا العمل الرائع. بعد الظهر وصل سجناء إنجيل تحت حراسة سعيد قايْد الشرارة.

---

[1] آيت عياش هي اليوم قرية أمازيغية وجماعة قروية وسط غربي المغرب بإقليم ميدلت جهة درعة تافيلالت.
[2] القصر هنا هو قرية سكنية محصنة بسور.

صحيح أنه بفضل مبدأ المسؤولية الجماعية المتبع في البلاد، فإن القبيلة بأكملها مسؤولة أمام السلطة الشريفة عن مختلف الأفعال السيئة التي قد تحدث في أراضيها. تُظهر حوادث من هذا النوع بوضوح النقائص المرتبطة بسلطات إقليمية واسعة النطاق في الأقاليم الأمازيغية. ليس هناك من شك في أن تجزيئهم من شأنه أن يسهل التحكم فيهم.

وقد غادرت للتو مجموعات من الجنود تحت إمرة القواد العسكريين إلى فاس ومكناس والرباط من أجل البحث عن الجنود الهاربين الذين عادوا إلى هذه المناطق منذ بداية الحملة وإعادتهم إلى المعسكر. لأنه إذا كان المرء يتعرض للجلد بسبب الإضرار بالخزينة فلا توجد عقوبة محددة على الهروب من الخدمة العسكرية.

6. حادثة غياب الفحم لطبخ شاي نساء الحريم

عند دخول الخيمة الإمبراطورية وجد السلطان هؤلاء السيدات من الحريم في اضطراب شديد. لم يتمكن من احتساء الشاي عند الساعة الخامسة، لأنه لم يكن هناك ما يكفي من الفحم لتزويد المواقد. فغضب وتلقى منه الحاجب سي أحمد اللوم الشديد الذي نقله بدروه إلى سي طاهر الكُراري المكلف بالإمدادات. وتحت خيمة سكرتير الجيش خلال الأحاديث المعتادة تم إعلامي بهذا الخبر الذي سيتم بالتأكيد التعليق عليه بشدة في جميع الخيام الكبيرة لكبار المسؤولين. ومتابعة للحديث حول هذا الموضوع، أخبرت محاوري بقصة انتحار ڤاتيل[2] حتى ينجو من التعرض لعار الطعن في شرفه المهني.

فيبدأ الحوار الصغير بيننا. فقلت:

– هل تعتقد أن الكُراري سيكون قادرًا على تقليد ڤاتيل؟"
– لا، لأن الانتحار من أجل مثل هذا الأمر الصغير سيكون فعلا مجنونا.
– أنا متفق معك. لكن لو حدث الشيء نفسه في زمن مولاي إسماعيل (السلطان المعاصر للملك لويس الرابع عشر)، هل تعتقد أن الكُراري ما كان ليُقطع رأسه؟
– هذا ممكن، لكننا لم نعد في زمن مولاي إسماعيل رحمه الله!
– تقصد أن الظروف قد تغيرت؟
– نعم، والحمد لله!

لكنني علمت بشكل غير مباشر أنه منذ مغادرتنا فاس، لم يتأخر الكُراري مطلقًا في إرسال كل يوم إلى سكرتير الجيش والعديد من الشخصيات الكبيرة الأخرى إمداداتهم من الفحم. ومن هنا جاء العجز في تزويد الخيمة الإمبراطورية وتعاطف الكبار مع المذنب.

7. مصاهرة زعيم زيان مع جلالة السلطان

الثلاثاء 25 يوليو في آيت أوعتو حوالي منتصف النهار نرى مجموعة من حوالي ثلاثين فارسا يصلون إلى المعسكر على الخيول في هيئة مهيبة يرافقون موكبًا فخما. في المنتصف، جمل طويل ورائع يقوده زنجي جليل من الرسن، يسير بخطوات إيقاعية ويحمل هودجا مغطى بعناية بأقمشة ذات ألوان زاهية. الهودج يحتوي بلا شك على واحدة أو اثنتين من السيدات الجليلات.

خلف الهودج تأتي، مثبتة على بغال باهظة الثمن، سيدتان نحيفتان ملفوفتان بثوب أبيض ناعم ومحجبات بشكل صارم. يتبعهم اثنان من الزنوج على الأقدام، ويحملان على الكتف الأيسر غطاء من القماش الأحمر والأخضر لتغطية كل سرج بمجرد أن تنزل من فوقه الفتاة التي تمتطيه. وأخيرًا ينتهي الموكب بثلاث بغال، يعلوها ثلاث خادمات محجبات مثل سيداتهن. موكب شبيه بذلك الذي رأيت مثله بالفعل خلال الرحلات السابقة.

---

[1] إنجيل هي اليوم بلدة صغيرة وجماعة ريفية في ولاية بولمان في جهة فاس مكناس المغربية.

[2] كان السويسري فرنسوا ڤاتيل في القرن السابع عشر هو المشرف على استقبال ضيوف أحد كبار النبلاء الفرنسيين. وبمناسبة ضيافة الملك لويز الرابع عشر وحاشيته تأخر تقديم طابق الأسماك. واعتقد ڤاتيل أن الأسماك لم يتم تسليمها أصلا للطباخ. الأمر الذي اعتبره إهانة لشرفه المهني. فحبس نفسه للتو في غرفته وطعن نفسه بسيفه.

من خلال المعلومات التي حصلت عليها علمت الأمر يتعلق بإظهار جديد للإخلاص والطاعة المطلقة للزعيم الأكبر للزيانيين موحا أو حمو المستقل بشكل أو بآخر. أرسل إلى السلطان فتاة صغيرة من عائلته للحريم الإمبراطوري. ترافقها والدة وجدة عروس المستقبل. فتم استقبال هؤلاء السيدات الثلاث. وقد جئن بهذه المناسبة بهدايا مؤلفة من خمسمائة رأس من الماشية والخيول والبغال والثيران والأغنام. وكالعادة، قدمت الخطيبة الشابة لمولاي الحسن رسالة اعتذار من جدها متوسلةً لجلالته الشريفة بأن تعفو عنه إذا لم يأت شخصياً للتعبير عن مشاعر الولاء المطلق، لأنه سنه الكبير ومرضه يلزمانه البقاء في البيت. ويعلم الجميع هنا أن الزعيم الكبير لزيان بقي في المنزل لأنه يعرف خطورة عرض الاستسلام عن قرب شديد. وقد تم إرسال الفرسان المرافقين لهؤلاء السيدات مع القطيع إلى معسكر المشاة حيث سيتم إيواؤهم على نفقة السلطان.

الأربعاء 26 يوليوز في تمام الساعة الرابعة مساءً، دخلت قافلة من البغال المعسكر محملة بمهر العروس أرسلها موحا أو حمو ووصلت أمس. إنها عبارة عن صناديق وطرود من جميع الأنواع مغطاة بسجاد رائع من الصوف العالي وأبراش رفيعة من ألياف النخيل القزم ومطرزة بتصميمات صوفية بألوان مختلفة.

يوم الاثنين 31 يوليوز، الزيانيون الذين أتوا بالفتاة التي قدمها موحا أو حمو غادروا المعسكر برفقة جنود وفرسان بأمر من السلطان. وأهدى جلالته حصانا جميلا لابن أخ وربما خليفة زعيم زيان العظيم. ليس هناك من شك في أنه بفضل إهداء ابنته إلى السلطان قد حسّن الزياني من علاقاته مع مولاي الحسن بشكل كبير. بعد المعارك التي دارت بين الزعيم الزياني وابن أخيه حل السلام. لكن الانتصار ظل مع هذا الأخير. ومن المحتمل جدًا أن تضمحل هيبة موحا أو حمو تمامًا لصالح ابن أخيه المنتصر. علاوة على ذلك، يُقال أن الزعيم الزياني مريض جدًا بالزحار وفقًا للبعض، وبسبب التسمم بحسب آخرين. وهو ما يفسر بالتالي الاستقبال الطيب الذي قدمه السلطان لابن شقيق الزعيم الكبير، الذي من المحتمل أن يرث التراث السياسي لعمه. ونحن نعلم أن الأحداث لاحقا لم تؤيد هذه التوقعات. فقد قُتل موحا أو حمو عام 1921 في قتال.

ويقال إن موحا أو حمو قد أخبر السلطان أن إشكيرن كانوا في هذه اللحظة متهيجين للغاية. مزقوا الرسائل المرسلة التي وجهها إليهم بواسطة ابن أخ أوبا محمد شرقي. وفي ظل هذه الظروف، اعتبر موحا أو حمو أن صاحب الجلالة ينبغي ألا يذهب إلى تافيلالت قبل أن معاقبتهم. وهذه نصيحة لن يتبعها السلطان وهو يعلم من هو صاحبها.

وفي المساء تم الإعلان عن اختفاء عدد من الجنود الذين غادروا المعسكر للتوجه إلى القش والخشب[1]. ويُعتقد أنه قد تم قتلهم على يد بني مكْيلد الذين توجد دواويرهم في الجوار. فتم نصحي بعدم السماح لخدمي بالذهاب إلى القش على انفراد. لكن الجنود الذين يُفترض أنهم قتلوا بالأمس أعيدوا إلى المعسكر من قبل بني مكْيلد. فبدلاً من الذهاب إلى الخشب والقش توقفوا في الدوار وتحرشوا بنسائه.

8. الزطاطة في بلاد السيبة

تم نقل جثتي يهوديين وأخريين لمسلمين إلى المعسكر صباح اليوم. من المحتمل أن تكون هذه العملية قد ارتكبها قطاع الطرق من آيت إزدك. تم أخذ معالم وأوصاف الجثث في محاولة لإثبات هويات أصحابها ومعرفة من هم الزطاطة[2] الذين كانوا تحت حمايتهم ربما آيت إزدك.

بحسب العرف في المناطق الأمازيغية المتمردة، يجب على أي يهودي يحتاج إلى السفر لأي سبب من الأسباب الالتزام بأن يكون مصحوبًا بزطاط مقابل دفع مبلغ متفق عليه مسبقًا، وجعله في مأمن من أي عدوان، وحمايته والدفاع عنه إلى درجة المخاطرة بالحياة. وعندما تتم الرحلة ذهابًا وإيابًا بسلاسة، يجب أن يدفع المحمي المبلغ المتفق عليه للحامي. وإذا لم يستطع تحرير نفسه، يأخذ الزطاط على الفور رهنًا عقاريًا عامًا على جميع ممتلكات المحمي. ويستقر في منزله ويصبح سيده المطلق ويصبح اليهودي خادمًا للدائن البربري. وقد يصل بحق التملك إلى حد تكوين حريم مع زوجة المدين وبناته في سن الزواج.

---

[1] ربما لقضاء حاجاتهم

[2] الزطاط هو الشخص الذي يعبر بالناس ويحميهم في طرق بلاد السيبة. انظر عبد الأحد السبتي، "بين الزطاط وقاطع الطريق. أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار"، الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، 2009.

ونتيجة لهذين العاملين المختلفين للغاية في الإنجاب، كثيرًا ما يجد المرء في العائلات اليهودية في الأطلس العديد من الأطفال من ذوي التكوين والمزاج المعاكسين تمامًا فيتشاجرون باستمرار.

9. تعبئة عامة بمعسكر السلطان

يوم الأحد 6 أغسطس كان معسكر السلطان في بوكّمة. وأمضينا فيه ليلة تافهة للغاية. تعبئة عامة والجميع واقف على قدم وساق وكل المشاة يحملون السلاح على الجرف والمدافع على البطارية موجهة صوب معسكر تيط نورميس. كل الشخصيات الكبيرة مجتمعة تحت خيمة المسجد في مجلس وزراء دائم. لماذا؟

كان مع القايد العسكري مولاي الأمين في معسكره بتيط نورميس فصيلان من آيت اليوسى. تشاجرا بسبب قش للدواب، فاقتتلا بالسلاح. وهذه هي الطريقة التي بدأت بها ثورة آيت يوسي خلال حملة للسلطان مولاي سليمان وفي نفس المنطقة التي نتواجد فيها. ونتج عنها نهب محلة هذا السلطان. هكذا يبدو لي أن هذا هو ما يثبت أن المؤرخ ينام بعين واحدة فقط، وأن المخزن ليست لديه ثقة كبيرة في الجيش المرفق له والمكون من ثلاثين ألف رجل.

لكن "رهاب الأمازيغ" لا يمكن تبريره. مولاي الأمين، الذي نزل في تيط نورميس مع فرقته المتنقلة رأى من معه من غرباوة وآيت مسعود قد حملوا السلاح وصاروا يقتتلون فيما بينهم. فاعتبر أنه من الحكمة إبلاغ جلالته الشريفة الذي من دون تردد أمر بالتعبئة العامة في معسكره. لكن لما الجيش كله هنا لا يزال تحت السلاح الكل كان نائما في معسكر مولاي الأمين. وذلك من بعد ما تكبد غرباوة خسارة قتيلين وثلاثة جرحى مقابل قتيل وأربعة جرحى عند آيت مسعود. فتم استبدال قايد غرباوة بالقايد حدو من أسرة بريبرا العريقة شديدة الولاء لعمر يوسي المشتبه في أنه كان من وراء هذه القضية. وغادر غرباوة معسكر مولاي الأمين ليأتوا ويخيموا مع بني لحسن.
ويوم السبت 11 نوفمبر بدأ صراع في المخيم بين مجموعة من آيت عطا ومجموعة من عرب سبيا. النتيجة ثلاثة قتلى وعدد قليل من الجرحى من كلا الجانبين. لكن بما أن أصغر الأسباب يمكن أن تنتج آثارًا خطيرة، فإن المخزن في حالة اضطراب. يجب أن يكون على أهبة الاستعداد ليلا. يتم إخراج المدافع والجنود ليلا من المعسكر لحمايته. ذكر المؤرخ الرسمي (هو دائما!) أنه كانت تقع في الحملات الشريفة مناوشات شبيهة بتلك التي نشهدها اليوم ثم يعقبها هجوم على المعسكر من قبل الخصمين المتصالحين. لذلك من الضروري اتخاذ جميع الاحتياطات. ويبدو لي أن هذا التكتيك لنهب المعسكر سمة مميزة تمامًا للعقلية الأمازيغية تجاه المخزن المستبد.

10. القبض على شريف مدغرة

سي محمد بن أحمد كان الملازم الرئيسي للراحل سي محمد بن العربي الدرقاوي، الشيخ الكبير لزاوية مدغرة حتى عام 1891. بعد وفاة نقيبها، حاول سي محمد دون جدوى لمّ شمل ابني المتوفى وتوحيدهما من أجل الحفاظ على الزاوية وعلى نفوذها القوي. لكن الأبناء طالبوا بتقسيم أملاك والدهم وغادروا زاوية المدغرة، التي صارت اليوم منسية تقريبا من طرف أتباع الطائفة.

وأبلغني مخبري أن سي محمد بقي هناك في مدغرة رغم كل شيء "مثل كلب في منزل مهجور". بقي فيها يواصل الدعوة إلى أفكار السيد الكبير المتوفى مع الزوار النادرين ويحثهم على نشر كراهية طائفة درقاوة للغزاة الأجانب (النصارى) وضد مندوبهم الملقب مولاي الحسن. لذلك كان من اللازم على للسلطان أن يضع حداً لمثل هذا الوضع.

فتم إرسال عملاء مختارين وأصحاب الولاء الثابت إلى مدغرة لإقناع سي محمد بن أحمد ، بصفته رئيسًا للزاوية أنه من مصلحته القدوم إلى المعسكر لتحية السلطان والترحيب به في البلاد. وبذلك سيتم نسيان كل المشاكل القديمة بين المخزن ودرقاوة. الأمر الذي سيعود بالفائدة الكبيرة على الزاوية وعلى القيم عليها. لم يكن الدرقاوي الساذج والمغرور بحاجة لأن يُرغّب في ذلك. فجاء إلى المعسكر فوضع في السجن فور وصوله. وهكذا عمامته الخضراء الكبيرة وبطنه المنتفخ كانا يتناقضان بشكل ملحوظ مع الخرق المهترئة للذين يشاركونه في السجن.

11.رسالة المقاوم الجزائري قدور بن حمزة[1]

يوم الثلاثاء 29 أغسطس تلقيت بريدي لكن من دون جرائد. بلا شك في أن وزنها قد يشكل عبئًا ثقيلًا على مسيرة "الرقاص"[2]. ولا شيء جديد خلال النهار. في الساعة الثامنة مساءً، اتصل بي سي فضول سكرتير الشؤون الخارجية. دار الحديث بيننا أولاً حول أشياء تافهة مثل ما يروج من ثرثرة في المعسكر. فاستمعت إليه من دون تركيز، وأنا أظن أن سبب دعوتي يتعلق بشيء أكثر جدية. وأخيرا قرر التحدث إلي بصراحة وقال لي:

– لقد استلم جلالته الشريفة لتوه رسالة من سي قدور بن حمزة، بتاريخ 1 صفر 1311 (الموافق ليوم الاثنين 14 أغسطس 1893)، والتي عبر فيها هذا الأخير عن عظيم التحية والتقدير الواجب لمولاي الحسن وطلب منه قبوله كأحد رعاياه. وقال إنه مستعد للذهاب إلى الأراضي المغربية تحت حماية مهيبة من السلطان، الذي كما تعلم أنه في حيرة شديدة ولا يعرف ماذا يجيب. إنه يخشى، في اعتقادي، من تجدد المشاكل التي تسبب له فيها سابقاً سي سليمان بن قدور وأولاد سيدي شيخ بشكل عام. وعلاوة على ذلك، فإنه لا يريد أن يكون مسيئا للعلاقات مع للحكومة الفرنسية. ما رأيك ؟

– أعتقد أنه من الحكمة، قبل الرد على هذه الرسالة، معرفة الأسباب التي جعلت سي قدور بن حمزة يوجه مثل هذا الطلب إلى جلالته الشريفة.

– هذا كل شيء. سأقوم على الفور بإبلاغ السلطان بهذا الرأي. شكرًا لك! ".

وانصرف سي فضول مبتسما، ورجعت أنا على الفور إلى خيمتي لأبلغ القائم بالأعمال[3] في طنجة هذه المعلومات التي قد تهم الحاكم العام بالجزائر.

يوم الأحد 17 سبتمبر طلب مني وزير الشؤون الخارجية الحضور بعد الظهر لإعلامي بمختلف الأخبار التي تلقاها للتو. أولها أنه سيتم استبدال رئيس بعثتنا العسكرية (يعني الفرنسية) بقائد سرب المدفعية. بالأمس واليوم تقوم جميع قوات المشاة بمناورات صباحًا ومساءً بتوجيه من المدربين المحليين الذين مكثوا بضعة أشهر في ألمانيا أو في إنجلترا. وربما يكون صاحب الجلالة الشريفة مقتنع بأنه سيكون في المستقبل قادرا على الاستغناء عن المدربين الأوروبيين. أما الخبر الثاني فمفاده أن وزيرا إسبانيا وبريطانيا العظمى قد أعلنا عن زيارتهما لمراكش بمجرد عودة صاحب الجلالة الشريفة إلى هذه العاصمة. الأمر الذي، في اعتقادي، ليس من شأنه أن يرضي السلطان كثيرًا.

12.الحملة على آيت مغراد[4]

يوم الأربعاء 23 أغسطس الرغبة في ملء الصناديق بآيت مغراد جعلت السلطان يقرر القيام بالتفاف كبير ضاعف ثلاث مرات من المسافة التي تفصلنا عن قصر السوق. ويوم الخميس 5 أكتوبر عند الفجر تم إرسال كتيبتين برفقة رجال مدفعية معهم مدفعان جبليان لمهاجمة قرية آيت مغراد الواقعة على بعد ثلاثة كيلومترات شمال غرب المخيم. تقدم الحملة قائد شريف من آيت مغراد يرافقه عدد قليل من الفرسان. وتعين عليه التوقف على بعد كيلومتر واحد من القصر[5]. بعد ذلك، أرسل فرسانا للتفاوض مع المتمردين قبل بدء الهجوم. تلك كانت الأوامر المعطاة وهكذا سارت الأمور.

عندما وصل الفرسان إلى القصر لم يجدوا من يتحدثون إليه. فأدركوا أنه يمكن البدء بالهجوم الذي تم بالفعل ومن دون أي خطر. جواسيس الساكنة حذروهم من وصول الصوكَة[6]. وكان لدى رجال القرية الوقت للهروب إلى الجبل مع قطعانهم والنساء

[1] آخر زعماء المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي من أولاد سيدي الشيخ.
[2] ساعي البريد أو حامل الرسائل بالدارجة المغربية
[3] الفرنسية
[4] قبيلة أمازيغية تنتمي الى اتحادية قبائل أيت يافلمان، وتحدها شرقا قبيلة أيت زديك، وشمالا قبيلة أيت حديدو، وغربا وجنوبا اتحادية قبائل أيت عطا، وهي موطن مدينتي كلميمة وتينجداد، وتعتبر أراضيها ممرا للقوافل القديمة التي تسلك الى الأراضي الجزائرية، وقد أصبح هذا المسلك حاليا طريقا رئيسية تربط بين مدن الجنوب المغربي ومدن الشرق المغربي، وخاصة فيكيك والراشدية
[5] قرية سكنية محصنة.
[6] الفرقة العسكرية المكلفة بتنفيذ مهمة.

والأشياء الثمينة. بعد أن خاب أمل المهاجمين نهبوا وأضرموا النار في القصر المهجور. وعادت الصوكة المنتصرة إلى المعسكر. وجلبوا معهم المغراديين الخمسة التعساء الذين بقوا في القرية للتغطية على هروب أهاليهم. تتكرر أعمال الحرب من هذا النوع خلال حملات السلطان الشريف. وفي المساء طلب المؤرخ الرسمي من السلطان التوقيع على تدوين هذه الحدث اليوم كإعلان انتصار على آيت مغراد.

13.متاعب المخزن مع سي علي أمهاوش[1]

يوم الاثنين 21 أغسطس تشاجر سي علي أمهاوش مع آيت إشقرن. ويقال إن آيت سخمان قد أخرجوه من بينهم فلجأ إلى آيت حديدو الذين يعرف أنه يستطيع الاعتماد عليهم. والسلطان الذي لا يريد التنازل عن الضريبة المستحقة له على آيت حديدو أرسل إليهم للتو قائد آيت مغراد علي بن يحيى الذي طلب أربعة أيام لإنجاز المهمة. تعهد هذا القايْد بجلب مندوبين من آيت حديدو إلى المعسكر ومعهم الضريبة المطلوبة. كما تعهد بجلب علي أمهاوش حياً أو ميتاً إلى السلطان. وكان يقال سرًا أن المهمة الأولى لعلي بن يحيى ربما ستنفذ، لكن الثانية مشكوك في تحقيقها للغاية، لأن سي علي أمهاوش ماكر وسيكون من المدهش إذا ما سمح لنفسه أن يؤخذ.

ويوم الثلاثاء 3 أكتوبر كان السلطان مريضًا أو يشعر بالملل الشديد. خرج من خيمته في الساعة السابعة صباحًا والرابعة والنصف مساء ليصلي في خيمة المسجد. ثم عاد وقد أنجز واجباته الدينية، من دون التوقف عند خيمة الاستقبال. وهو الأمر الذي أثار دهشة كبار المسؤولين. هل وصلته أخبار سيئة من آيت حديدو؟ أو عن سي علي أمهاوش؟ أو ربما تناول جلالته الشريفة دواء ما بكل بساطة؟ فسادت الفرضيات والغموض.

ويوم الخميس 5 أكتوبر لا أخبار من آيت حديدو ولا عن سي علي أمهاوش. وفي يوم السبت 14 أكتوبر، عرض السلطان على الشخصيات الكبيرة من آيت حديدو التي كانت في الحديد مع السجناء إعفاءهم من دفع 100 ألف دورو المطلوبة منهم علاوة على جميع الضرائب المتأخرة التي ما زالوا مدينين له بها إذا قبضوا على سي علي أمهاوش وجلبوه إليه حيا. فوعدوا بإحضاره. وأكد السلطان أنه يريده حياً[2].

14.متاعب المخزن مع آيت حديدو

هذا الصباح من يوم الاثنين 21 أغسطس تم إعفاء كبار المسؤولين بالمعسكر من الذهاب إلى المخزن. ربما صاحب الجلالة غير مستعد لذلك. ووصل وفد من آيت مغراد بعد الظهر. هؤلاء المندوبون يسيرون على الأقدام ويبدو لي أنهم رجال أقوياء. كما أرسل آيت يحيى وفدا. ويقال إن آيت حديدو مترددون. قد لجأ إليهم سي علي أمهاوش من بعد خصامه مع آيت إشقيرن.

ويوم غد الثلاثاء 22 أغسطس عاد القايد علال ولد بو شلوح الأعور من آيت حديدّو. لا يبدو أنه مسرور بنتيجة مهمته. والأحد 24 سبتمبر علمت أنه قد تم الليلة الماضية إرسال سوكًا مكونة من كتيبة مشاة إلى آيت تسيغوشين، وهي قبيلة ترفض دفع الضرائب التي طلبها السلطان. في المنطقة التي نجد أنفسنا فيها، يُنظر إلى الإحسان على أنه ضعف، والعنف وحده يثبت القوة. ويعتقد أن هذه السوكًا ستثير خوف آيت حديدو التي يقام فيها حاليا سوق العام (المعرض السنوي) الذي يستمر ثلاثة أيام، وحيث انتشرت شائعة بأن السوكة قد نهبت قريتين للمتمردين وأن نائب قائد المدفعية سيرسل غدا محاصيل هجومه إلى المعسكر.

ويوم الأحد فاتح أكتوبر جرى الحديث بشكل غامض عن إرسال سوكًا إلى آيت شخمان أو آيت حديدو. والسلطان الذي لا يريد التنازل عن الضريبة المستحقة له على آيت حديدو أرسل إليهم للتو قائد آيت مغراد علي بن يحيى الذي طلب أربعة أيام لإنجاز المهمة. تعهد هذا القايْد بجلب مندوبين من آيت حديدو إلى المعسكر ومعهم الضريبة المطلوبة. كما تعهد بجلب علي أمهاوش حياً أو ميتاً إلى السلطان.

[1] علي أمهاوش (1844–1918) هو زعيم ديني انضم لجماعتين مُتمردتين ضد الحكومة المغربية وقاتل في وقت لاحق الفرنسيين، ثم أعلن عن الجهاد "الدفاعي" ضد فرنسا خلال حرب زيان قبل أن يُفارق الحياة بشكل طبيعي عام 1918.

[2] وهنا انتهت في هذا الكتاب قصة متاعب المخزن مع علي أمهاوش. ولم يعلق المؤلف على هذا الحدث كما فعل مع موحا او حمو الزياني. فبما أنه توفي سمة 1932 فهو يعرف أن سي علي أمهاوش مات موتة طبيعية سنة 1918.

ويوم الجمعة 6 أكتوبر عند المغرب (غروب الشمس) وصل أخيرا وفد كبير من آيت حديدو إلى المعسكر، وتم الإعلان عنه بواسطة طلقات هائلة من بنادق المشاة. ربما نقترب من حل الخلافات بين هذه القبيلة الشهيرة لاتحاد آيت يفلمان والسلطان. فقد حان الوقت لنرى نهاية الأمر.

وفي يوم السبت 7 أكتوبر تم وضع كبار آيت حديدو الذين وصلوا بالأمس في الحديد. وكان السلطان قد طلب منهم دفع نصيبيهم من الغرامة المفروضة على اتحاد آيت يفلمان بسبب قتل محمد ولد طالب. وردوا قائلين أنهم يحتاجون مدة شهرين لجمع المبلغ المطلوب. وأمهلهم السلطان عشرة أيام. لكنهم أصروا على القول بأن الشهرين ضروريان بالنسبة لهم. لذلك، تم استخدم الوسائل الكبيرة وتم وضع مائة نائب في السلاسل كرهائن حتى سداد المبلغ المطلوب. علاوة على ذلك، وبسبب مشاركتهم في مقتل مولاي سرور عم السلطان، تم سحب الأمان الذي كان قد مُنح لآيت حديدو. زيادة على ذلك وصلت يوم الثلاثاء 10 أكتوبر مساءً إلى المعسكر سلسلة من سجناء آيت حديدو وجدوا فارين باتجاه تودرا.

وفي يوم السبت 14 أكتوبر، عرض السلطان على الشخصيات الكبيرة من آيت حديدو التي كانت في الحديد مع السجناء إعفاءهم من دفع مائة ألف دورو المطلوبة منهم علاوة على جميع الضرائب المتأخرة التي ما زالوا مدينين له بها إذا هم قبضوا على سي علي أمهاوش وجلبوه إليه. فوعدوا بإحضاره. وأكد السلطان أنه يريده حياً[1].

يوم الأحد 15 أكتوبر لا شيء جديد. فأخبر السلطان آيت حديدو أنهم إذا لم يسرعوا في دفع الغرامة فإنه سيأخذ الرهائن كسجناء. ويوم الاثنين 16 أكتوبر يقال إن آيت حديدو في طريقهم إلى معسكرنا حاملين معهم جزءًا مما هو مطلوب منهم. وفي صباح يوم الثلاثاء 17 أكتوبر وصلت فعلا قافلة من البغال والماشية إلى المعسكر قادمة من آيت حديدو وتضم 72 حصانًا وبغالًا و 26 ثورًا أو بقرة. وقدر خبراء الخزانة المبلغ الإجمالي بـ 1254 فرنكًا. بعد هذه الخبرة، سأل السلطان الرهائن عما إذا كانوا يريدون دفع الغرامة أم لا. فأجابوا بأنهم بعيدون عن قبيلتهم لفترة طويلة فهم ليسوا على دراية بالتوجيهات التي اتخذتها الجماعة. فتقرر بعد ذلك نقل الرهائن إلى تافيلالت إلى حين تبلّغ القبيلة نواياهم إلى جلالته الشريفة[2].

15.قصة حشرة "الدويبة"

يوم الجمعة ، 12 أكتوبر حوالي الساعة التاسعة صباحًا ، اتصل بي سكرتير الشؤون الخارجية سي فضول بأمر من سيدنا لفحص بعض ما يسمى بحشرات الدويبة الموجودة في ورقة مطوية بعناية. طلبت رؤيتها وبالنظر عن كثب على ضوء الشموع، وجدت حشرتين صغيرتين للغاية وطويلتين تشبهان "ثقاب الأذن" الشائعة[3]. كان سي فضول تلهث فقال

– هل هي؟
– فماذا؟
– ميكروب بوكْليب (الكوليرا)؟

فحدقت في محدثي لأدرك سلامة حالته العقلية فبدت لي سليمة. وبصعوبة كبحت جديتي، وأجبته قائلا :

– لا.
– فماذا يجب أن أقول؟
– يمكنك القول إن هذه الحشرات الصغيرة لا علاقة لها بميكروب بوكْليب. ولا يمكنها أن تزعج إلا عند نموها الكامل من خلال دخولها الأذنين. لذلك من الحكمة وضع كرات قطنية في قناة الأذن في المساء عند الخلود إلى الفراش. من خلال القيام بذلك سوف نتجنب أي مشكل.

وتركت وزير الخارجية مطمئنا تمامًا. فلا بد أن سيدات الحريم قد تلقين صحفًا من القاهرة تتحدث عن الكوليرا.

[1] وكما تقدم لم يعلق المؤلف على هذا الحدث كما فعل مع موحا او حمو الزياني. سي علي أمهاوش مات موتة طبيعية سنة 1918.
[2] وهنا انتهت في هذا الكتاب قصة متاعب المخزن مع آيت حديدو.
[3] وهي إبرة العجوز الأوروبية أو أبو مقص الأوروبي. إسمها العلمي هو Forficula Auricularia. هي نوع من الحشرات يتبع جنس فورفيكولا من فصيلة فورفيكيوليدي من رتبة أبو مقص، تُعتبر من الحشرات الضارة التي تلتهم المحاصيل الزراعية وتغزو المنازل، تعيش في أوروبا وغرب آسيا وشمال أفريقيا.

16.اعتقال علي بن يحي قايْد آيت مغراد

يوم السبت 21 أكتوبر، الحدث الكبير هو اعتقال القايد علي بن يحي من آيت مغراد. هذا الشخص هو سليل مباشر للشخص الذي جاء مولاي سليمان ليقيم معسكره عنده. فهو أهم رجل في منطقة الأطلس بأكملها التي عبرناها للتو من القصابي إلى تافيلالت.

قايْد السلطان على أيت مغراد، كان في نفس الوقت هو الرئيس الكبير لاتحاد آيت يافلمان. فكان يناور فيه كما يشاء عن طيب خاطر أو بالقوة. ولهذا فإن مسؤوليته كبيرة جدًا سواء في مأساة تيط ناورمس وفي مقتل مولاي سرور عم السلطان الذي كان بإمكانه منعه لو أنه أراد ذلك. وفي يوم الأحد 22 أكتوبر وجدت عنده خيمة مولاي سرور. وقد أهداها آيت سخمان، من بعد مذبحة الشريف، للزعيم الكبير الذي قد يحتاجون يوما إلى دعمه. في تيط ناورمس نفذ بلا شك أوامر الدرقاوي. لكنه نفذها بحماسة مبالغ فيها، لأنه كان منذ فترة طويلة يطمع في اكتساب النفوذ الكبير بآيت اليوسى. وهكذا، من بين الزعماء الأمازيغ العظماء الثلاثة: محمد ولد طالب وعلي بن يحيى ومحا أو حمو، لم يبق سوى الزياني. فمتى سيأتي دوره؟

مولاي الحسن يواصل القتال ضد الزعماء الكبار الذين ما زالوا يميلون إلى الاستقلال. لكن هذا الصراع الدؤوب يتم بحذر يبدو أنه مبالغ فيه وبمناورات مربكة لحسابات البربر نفسها. هذا النهج الذي نجح حتى الآن يمكن أن يؤدي في يوم من الأيام إلى كارثة.

علي بن يحيى سيتم توجيهه تحت حراسة مشددة إلى مراكش حيث سينهي أيامه في السجن. في الواقع، بقي القائد علي بن يحيى مدة عامين وثلاثة أشهر فقط في سجن مراكش. ثم عاد إلى غريس. لكنه يترك عشرة أبناء الذين سيتعين على خلفاء مولاي حسن أن يحسبوا لهم حسابهم.

يوم الثلاثاء 24 أكتوبر قيل إن السلطان عوض علي بن يحيى بأربعة قواد (فرق تسود)، وأن آيت عطا مسرورون بالقبض على المغرادي، وأنهم عبروا عن فرحتهم من خلال منح مرافقة الأسير جماعة غفيرة.

17.قلق المخزن من توسع آيت عطا[1] المتواصل.

الجمعة 3 نوفمبر قيل إن السلطان قلق للغاية بشأن قضية درقاوة آيت عطا. وأنا لست مندهشا من ذلك، لأن الوضع المتصور عدة مرات في المحادثات مع أصدقائي المغاربة هو إلى حد ما ساخن. يغزو آيت عطا منطقة تافيلالت شيئًا فشيئًا ولكن بشكل مستمر. أدنى شجار أو نزاع بين الفيلالي والعطاوي هو نقطة البداية لصراع مسلح تكون فيه دائمًا اليد العليا لعشيرة آيت عطا الأكثر عدوانية والأكثر تماسكًا من عشيرة الفيلالي. وثمرة الانتصار هو استيلاء الغالب على قصر[2] المغلوب.

نحن نشاهد بالفعل نتائج الصراع بين البربر الأصليين وغزو آيت عطا. فقد تم أخذ قصر بوسعيد من آيت إزدك من قبل آيت عطا. كما لاقى قصر أولاد يحيى الذي كان أيضا لآيت إزدك نفس المصير. وتم أيضا طرد الشرفة من زاوية أملكيس[3] من قبل آيت عطا. أما دوارالجرامنة[4] الذي كان سكنه الشرفة ذات يوم فيسكنه الآن آيت عطا.

واحة تودغا، التي يقال أنها تضم ثمانية وستين قصرا[5]، كانت مأهولة بالكامل من قبل قبيلة تودغا. لكن شيئًا فشيئًا، طغى عليها توسع آيت عطا. في البداية اشترى فيها الغزاة أرضا وبنوا فيها قصورا. ثم اقتتلوا مع الأهالي الأصليين واغتصب آيت

[1] آيت عطا هي اتحادية قبائل أمازيغية، مرتبطة جغرافيا بالجنوب الشرقي للمغرب، في مجال الأطلس الصغير وتافيلالت ودرعة، أو ما يوافق الأقاليم الحالية لورزازات و لزاكورة وأزيلال والرشيدية وتنغير. و يسمى المنتسبون إليها بالعطاويين. لغتهم الأم هي أمازيغية الأطلس المتوسط. اشتهرت بمقاومتها للاستعمار الفرنسي في ثلاثينات القرن العشرين، والتي تجلت في معركة بوكافر سنة 1933بقيادة عسو أوبسلام.

[2] قرية سكنية محصنة

[3] زاوية أملكيس هو دُوَّار يقع بجماعة أوفوس، إقليم الرشيدية، جهة درعة تافيلالت

[4] الجرامنة هو دُوَّار مغربي، يقع بجماعة أوفوس، إقليم الرشيدية، جهة درعة تافيلالت

[5] القصر هو قرية سكنية محصنة

عطا المنتصر قصور المغلوب. هذه هي القاعدة في هذه المنطقة. وفي دادس، كما هو الحال في المنطقة بأسرها، قام آيت عطا، على مدى ستين عامًا، بطرد الملاكين الحقيقيين للقصور من أجل الاستحواذ عليها.

مولاي الحسن يتحدث اليوم عن هذا الوضع المقلق. لقد صار من الملح إن أمكن وضع حد نهائي للمد المتصاعد لآيت عطا باتجاه الشمال. لذلك تم اقتراح نقل مائتي خيمة عطاوية إلى الجنوب الشرقي من تافيلالت، من أجل إضعاف الغزو بنفس القدر. لكن هذه الوسيلة لا تبدو لي حلا جذريا. وسنرى!

18. نجاتي من فضيحة تواجدي كنصراني بتافلالت

يتألف سكان تافيلالت، خاصة هنا، من أحفاد العائلات الشريفة السابقة المنفية هناك. وهم اليوم في حالة حماس لا توصف بوصول مولاي الحسن. يبدو أنهم يعتقدون أن الدم المتدفق في عروقهم هو دم السيد الموجود أمامهم. فقط بسبب هذه العقلية يمكننا تفسير الجسارة التي يبدونها وتصفها حاشية مولاي الحسن بأنها قلة احترام.

قائد المشور وجنوده في مواجهة مع الشرفة المقدسة أشخاصهم لا يستطيعون استخدام العصي الطويلة التي عادة ما يسوطون بها الحشود المبتذلة. فلا حول لهم ولا قوة لاحتوائهم وهم يسعون لتقبيل ركائب فرس أمير المؤمنين وأهداب ردائه. حتى أننا رأينا شريفًا، من دون خجل، يتجرأ على أخذ لجام الحصان الإمبراطوري لإجبار خليفة النبي على التوقف. نحن مندهشون، لأن نفس الفعل لو قام به مسلم عادي لكلفه ضربة سيف يقطع معصمه ولربما رأسه.

يستغرق هذا الهذيان وقتًا طويلاً كي يهدأ. لكن هذا الحشد، على الرغم من أنه يتكون من الشرفاء، ليس متجانسًا تمامًا. فهو يتشكل من عشائر وعائلات معادية فيما بينها، وتريد توجيه تحيات الترحيب إلى ابن العم والسيد.

ونتيجة للحشود المتدفقة تقسم موكب السلطان. كنت مع وزير الجيش عندما اضطررنا إلى التوقف لانتظار إخلاء الطريق. وهنا وقع حادث صغير مسل. فقد وقف فيلالي، ليس بشريف، لكنه ربما درقاوي، أي متعصب، أمام سي محمد الصغير ليقول له بلهجة متغطرس: "يوجد في موكب السلطان ناصري". فرد سكرتير الجيش قائلا "أنا مندهش جدا!" واجتمع من حوله ضباط مرافقون بشكل كثيف وزاد يقول له "أنا مندهش للغاية من أن من بيننا ناصريًا. إذا كنت تعرفه فأريني إياه. توقف الناس الفضوليون والمحاور يحدق إلينا الواحد تلو الآخر، ثم حدق بي نظرة لا يشك في أنها صائبة، وصاح مشيرًا إليّ: "هذا هو". فبدأ سي محمد في الضحك وتبعه في ذلك ضباطه، كما قلدهم الفضوليون. وقال له "تحدث معه، وسترى ما إذا كان ناصريًا". بدوري حدقت في هذا المتزلف، وقبل أن يفتح فمه قلت بصوت عال: "لعن الله الأرواح الشريرة والكذابين مثلك". كل الضاحكين كانوا إلى جانبنا. فانصرف المتملق غارقا فيما ناله من السخرية الحضور، ورأسه لأسفل وهو يتمتم: "إنه يعرف اللغة العربية ، لكنه ناصري".

وفي غضون ذلك، تم إخلاء الطريق. وعدنا أنا وسكرتير الجيش بوتيرة سريعة لنأخذ مكاننا بالموكب. وفي فترة ما بعد الظهر، استقبلت العديد من الزوار القادمين لتهنئتي على رباطة جأشي وحسن ردي. لكن ما كان هناك أي شيء يستحق كل ذلك.

19. تحضير التمور في وسط غيمة من الذباب

جني التمور على قدم وساق. تقوم النساء، وخاصة الزنجيات، بجميع الأعمال هنا. إنهن يجلسن حول أكوام من هذه الفاكهة يبلغ ارتفاعها عدة أمتار. يأخذن تمرة في كل يد ويضغطون عليها مع دحرجتها في راحة اليد لإطالتها ثم يرمينها خلفهن. هذه التمور، التي تم تمريرها في هذا القالب، يتم أخذها من قبل نساء أخريات اللائي تقمن بفرزها حسب الفئات وبوضعها في أقفاص ملفوفة بسعف النخيل، وتأخذها القوافل إلى القرى والمناطق الجنوبية.

تتم كل أعمال المناولة والتعبئة هذه تحت أشعة الشمس الساطعة وتحت غيوم من الذباب الذي يطن فوق أكوام الفاكهة الكبيرة ويهبط على اليدين والذراعين ووجه العاملات. إنهن لا يتحملن العناء عديم الفائدة لمطاردة هذه المليارات من الحشرات اللهم هز الرأس والزفير بقوة. منذ أن أعطيت لي فرصة حضور إعداد هذه التمور صار لدي ذعر منها.

20. قدوم الصحفي الإنڭليزي والتر هاريس[1] إلى معسكر السلطان

السبت 18 نوفمبر حصل أمر غريب. الإنڭليزي السيد هاريس الذي أعرفه منذ فترة طويلة والمستقر في طنجة، وصل إلى المعسكر بعد ظهر اليوم. وهو يحمل رسالة تقديم من بو بكر الخنجاوي، المتمتع بالحماية الإنڭليزية ويعيش في مراكش، من أجل سي فضول وزير الخارجية.

يقال أنه مبعوث من طنجة من قبل وزير إنڭلترا. وأعتقد أن هاريس، مراسل "التايمز" بطنجة، يأتي إلى هنا للحصول على أخبار من أجل صحيفته. على أي حال، لا يبدو أن وزير الخارجية مسرور بمجيئه إلى المعسكر، ولا سيما مع الرسالة الشريفة حول إبعاد العنصر المسيحي عن حاشية جلالته، لأنه لما يتم إبلاغ السلطان بهذه الزيارة ، فإنه من المحتمل أن يتلقى سي فضول توبيخًا شديدًا.

السيد هاريس وجد نفسه مريضا فسأل عني. بذهابي لرؤيته وجدته ملتهب الحلق في البداية. لكن يبدو لي أن الشخص حريص جدًا على البقاء في المعسكر لمعرفة ما يحدث هناك. وصفت له وصفات ساخنة، وستتم مراجعته غدًا.

الثلاثاء 21 نوفمبر تمت دعوتي في تمام الساعة الخامسة مساءً من طرف السيد هاريس الذي وجدته يعاني من التهاب حاد في الحلق. ضحيت في الحال باللوزة واللهاة اليسرى. وحاله الآن أفضل من بعد تدفق القيح[2]. يوم الجمعة 24 نوفمبر تسلم السيد هاريس أمرا بالمغادرة في اليوم الموالي إلى مراكش. يوم الاثنين 20 نوفمبر اتصل بي سي فضول. لديه ألم في المثانة. لا أعتقد أن مرضه خطير للغاية. قد يكون نتيجة توبيخ من السلطان.

[1] الإنڭليزي والتر بيرتون هاريس Walter Burton Harris (1866– 1933) كان صحفيا وكاتبا ورحالة. حقق شهرة بسبب كتاباته عن المغرب، وخصوصا كتابه "المغرب كما كان". وقد عمل مراسلا خاصا لصحيفة ذي تايمز. عاش في المغرب منذ أن كان عمره 19 عاماً، وأستقر معظم حياته في طنجة.

[2] هنا تتوقف قصة هذا الصحفي في هذا الكتاب. وندرج أسفله مقتطفات من كتابه عن المغرب كشاهد على حقبة من تاريخه.

المصوّر الفرنسي ڭابرييل أنطوان ڤير

ڭابرييل أنطوان ڤير[1] هو مخرج ومصور فرنسي. ولد في مدينة سبتييم بفرنسا في فاتح فبراير 1871 وتوفي بالدار البيضاء في 13 يناير 1936 عن عمر يناهز خمسة وستين عاما. قام برحلتين في وظيفته كمصور سينمائي في بدايات هذا الفن مع مخترعيه المهندسين الأخوين لوميير. قام ڤير برحلة أولى إلى أمريكا اللاتينية ما بين 1896-1897. وفي عام 1898 شرع في رحلة ثانية إلى كندا ثم إلى آسيا عبر اليابان والصين والهند الصينية. وعرض أفلامه وصور في المعرض العالمي لباريس عام 1900.

رحل ڤير إلى المغرب واستقر فيه ما بين عامي 1901 و1907 بطلب من سلطان المغرب الشاب مولاي عبد العزيز من أجل تعليمه فن التصوير. وأصبح المصور والمخرج الرسمي بالقصر. وكان في الوقت نفسه مراسلًا لصحيفة *L'Illustrator*. سنة 1905 نشر عملاً بعنوان "في خصوصية السلطان"[2]. ثم انتقل إلى الدار البيضاء حيث اشتغل في عهد الحماية كرجل أعمال. وأنتج شريطا وثائقيا عن المغرب سنة 1934 ومات في غضون السنة الموالية.



صورة لڭابرييا ڤاير

1. التتويج الغريب للسلطان مولاي عبد العزيز

مولاي عبد العزيز، الذي جعلتني صدف المغامرة أعيش بالقرب منه، كان هو الخامس من بين ستة أبناء السلطان مولاي الحسن. والدته للا رقية شركسية. اشتهرت بجمالها الفائق فشغفت السلطان حبا في السنوات الأخيرة من حياته. ولما أنجبت منه هذا الابن، وهو الأول الذي حصل عليه منها، سماه "عبد العزيز" لكونه ابن جاريته المحبوبة.

وخلافة عرش المغرب لا تكون بالضرورة من نصيب الإبن الأكبر. فلا شريعة النبي ولا العادات تتطلب ذلك. السلطان نفسه هو الذي يعيّن من يخلفه قبل وفاته. الشرط الوحيد المفروض عليه هو أن يكون وريثه شريفًا، أي سليلًا أصيلًا للنبي. فعندما يتحقق هذا الشرط، فعرش الإمبراطورية يعود إلى الشخص الذي منحه السلطان البركة.

مهما كان تأثير لالة رقية، والدة الأمير الشاب، هل كان مولاي الحسن سيفضل عبد العزيز على باقي أبنائه؟ من يستطيع أن يعرف ذلك؟ في عام 1894 كان السلطان في حملة عسكرية ضد قبيلة متمردة. وهو أمر معتاد إلى حد ما في المغرب. فأصيب بوعكة صحية مفاجئة قضت عليه في غضون ساعات قليلة. وكما هو معتاد، كانت كامل حكومته برفقته.

وكان وزيره الأكبر باحماد رجلاً ذا طموح غير محدود ومستعدًا لفعل أي شيء من أجل تحقيقه. بالكاد نعرف متى ستساعده الظروف وإلى أي حد ينبغي التوقف عن الشك فيه. أقل ما يمكن أن يقال، هو أنه أمام هذا الموت المفاجئ كان أول ما فكر فيه هو الاستفادة من هذه الصدفة للحفاظ على النفوذ الكبير الذي ظل يتمتع به لفترة طويلة في عهد السلطان الحسن الذي لم يكن من السهل الهيمنة عليه. فصار يفكر في ما إذا بقيت لديه الوسائل للتمتع بنفس النفوذ في عهد السلطان القادم.

[1] *Gabriel Antoine Veyre*
[2] *Dans l'intimité du Sultan*

وهكذا أمام الجثة الهامدة التي لم تبرد بعد، خطرت بباله خطة لا تخلو من دهاء. هذا في حال ما افترضنا أنها لم تكن مخبأة في ذهنه من قبل. يتعلق الأمر باستبعاد أبناء الإمبراطور الأربعة الأكبر سنا من اعتلاء العرش، واستدعاء طفله عبد العزيز الذي كان في الرابعة عشرة من عمره لاعتلائه حتى يحكم هو باسمه على الأقل إلى حين بلوغه سن الرشد.

على كل حال، يبدو أن موت الحسن المفاجئ قد أخذ شيئا ما الوزير باحماد على حين غرة. فكان عليه تصحيح هذا الخطأ من القدر. هذا في حال ما كان بالفعل هناك خطأً أم حنكة عالية وحزم في اتخاذ القرار وسرعة في التنفيذ، تشرّع بطريقة ما لنجاح دسيسته.

كان عبد العزيز في الرباط عندما لفظ والده أنفاسه الأخيرة. فصار من الضروري إبقاء هذه الوفاة سرية فترة تكفي للسماح للأمير الشاب، الذي تم إرسال من يجلبه على عجل، بالمجيء قبل معرفة الحقيقة. وصار من الضروري أيضا الاحتفاظ بكامل المعسكر في حالة ترقّب إلى حين وصول الطفل. وذلك من بعد ما انتشرت بالفعل شائعة مرض السلطان. وتم الحرص على جعل الجميع يصدق احتمال إرسال السلطان نفسه في طلب ابنه المولى عبد العزيز لما شعر بالقرب من نهايته كي يسلمه بركته. فما كان مكياڤيلي ليقلل من شأن مثل هذا التخطيط.

ومع ذلك لم يخل تنفيذ الخطة من تعقيدات. فما أن تتسرب الحقيقة حتى تفشل وتنتهي دسيسة باحماد. مجرد شك ضئيل متداول بين الجنود كان بإمكانه أن يفسد كل شيء. في فاس اليوم، وقد كنتُ شاهدا على ذلك أكثر من مرة، يكفي السلطان الذي تمت رؤيته قبل يوم مبتسما وفي أحسن أحواله، ثم لا يظهر من بعد يومين أو ثلاثة، حتى تنتشر على الفور شائعة وفاته. لكن الجيش بأكمله في المعسكر كان يعرف أن صحة مولاي الحسن كانت متدهورة لعدة أيام من قبل. كما كان بالإمكان أن تصل هذه الأخبار إلى فاس قبل الأوان. فاس حيث يقيم مولاي محمد الملقب بـالأعور. وهو الابن الأكبر للسلطان الراحل وولي عهده المرتقب. حينها يصبح كل شيء موضع تساؤل.

لدرء هذا الخطر المحدق، لجأ باحماد إلى حيلة ماكرة. باسم الإمبراطور استدعى الجيش للاستعراض. وبحجة مرض مولاي الحسن أعلن أن السلطان سوف يمر من أمام القوات مستلقيا على سريره. ومن بعد تأكده من تواطؤ الحاشية المباشرة للملك المتوفى معه بالترغيب والترهيب، تم لف الجثة التي بالكاد بردت، في قماش أبيض. ثم وُضعت على سرير متنقل من فوق وسائد سميكة. وتم تمريرها فوق الأكتاف من أمام الصف الطويل للقوات وهي تتأرجح بشكل بائس بفعل خطوات العبيد العسكرية الذين كانوا يحملونها. فلم يلاحظ أحد أو لم يشأ أحد أن يلاحظ هذه الخدعة المروعة.

ولما أعيدت الجثة الهامدة إلى خيمتها، كان أمام ابن لالة رقية متسع من الوقت للوصول. في حين ظل المعسكر بأكمله يتمنى استعادة صحة سِدْنا. ومن بعد يومين تم استعراض الجيش من أمام عبد العزيز بوصفه السلطان الشريف الجديد خلفا لأبيه مولاي الحسن. وظل الوزير القوي باحماد لصيقا بالعاهل الجديد كما لو كان ظله. باحماد الذي بنفوذه ودهائه جعل منه ملك البلاد الجديد والجليل. الملك الطفل الذي ظل بين يديه مثل الدمية الطيعة طيلة ست سنوات.

حينها بفاس، سرعان ما علم مولاي محمد بوفاة والده وأكد على الفور حقه في خلافة مولاي الحسن. أكده ربما من قبل أن يعرف الأحداث التي أعقبت الوفاة وإعلان أخيه الصغير سلطانا، أو قرر تجاهلها. وقد كان محمد قويا إلى حد القسوة. كان من النوع الحقيقي للسلاطين قاطعي الرؤوس المتعطشين للدماء من أجل فرض استبدادهم واحترام قوتهم. فأكد أنه الجدير بخلافة مولاي الحسن. أكد ذلك بقناعه الشرس الذي دمره الجدري والمليء بالبثور والذي لا يلمع فيه سوى بريق عين واحدة. ومع ذلك فقد كان محبوبًا جدًا. ومن بعد أن تجمّع من حوله عدد معين من الأصدقاء المخلصين والمستعدين لأي تضحية من أجله، صارت لديه الوسائل الكافية لدعم مزاعمه.

لكن قوة الشخصية هذه بالتحديد وهذه الشعبية المتزايدة هي التي كانت مصدر قلق باحماد. ولكل هذا بالذات اتخذ الثعلب العجوز بعناية جميع احتياطاته. فقبل أن تتشكل حركة جادة لصالح الأمير الطامع في العرش والذي ظهر فجأة في وجه مخططه، بادر الوزير الأعظم باختطافه وبسجنه في مكناس.

في الماضي، عندما لم يكن هناك حدث خطير يزعج سلامتهم، كان سلاطين المغرب يقطنون دوريا بقصورهم لمدة عامين في كل من العاصمتين فاس ومراكش. لكن في عهد مولاي عبد العزيز، ما كان باحماد يجرؤ على القدوم مع السلطان إلى فاس. ظل قلقًا يتوجس من الاستقبال الذي سيُقدَّم له وللإمبراطور الشاب صنيعته، من بعد أن سجن بأمره مولاي محمد. باحماد الذي كان يعرف أن فاس ظلت وفيّة بكل صدق للأمير الذي جرده من العرش.

2. ارتقاء ثم سقوط الوزير المهدي المنبهي

خلال الأشهر القليلة التي سبقت وفاة باحماد، كان يُرى أحد كتابه يمشي ذهابا وإيابا في قصر مراكش. ذلك هو المهدي المنبهي. كان شابًا لا يزال يتمتع بطلعة بهية وعيون لامعة وغريبة، مثل عيون وحش مفترس صغير. كان هو الوسيط المعتاد بين الوزير الأعظم القوي وبين سيّده الشبح. كان يجلب الرسائل والأوراق والوثائق يوميًا ويسلمها للعبيد ويطلب التوقيع ويعيد الإجابات. من وقت لآخر كان سيدنا يتكرم عليه باستقباله وبالحديث معه بخصوص بعض الشروح الشفوية. فاعتاد السلطان مولاي عبد العزيز على رؤية الشاب المهدي الذكي والعفوي، وأعجب به. وتلك كانت بداية حسن حظه.

عندما كان طفلًا بقبيلة المنابهة، كان نكرة من بين عموم الناس. كانت بداياته غامضة. بدأ حياته كجندي من جنود المخزن في حملة عسكرية. مستواه التعليمي متواضع. كان يجيد فقط القراءة وبالكاد كان يكتب. لا أعرف بالضبط كيف وصل إلى بيت باحماد. لكن هناك بدأ تكوينه. هل كان يجرؤ حينها على الحلم بالمصير اللامع الذي كان ينتظره وبمسيرته الحافلة بالأحداث؟ مسيرته المتأرجحة بين الفوز بالامتياز الأكبر والسقوط غير المستحق؟ أمر بعيد الاحتمال. فقط مصادفته لحدث من الأحداث اليومية هو الذي حدد مصير حياته. ألا وهو وفاة الوزير باحماد.

بمجرد وفاة الصدر الأعظم، كان من الطبيعي أن يكون المنبهي هو الذي يتلقى التعليمات بالذهاب لإخبار السلطان. اختفاء رجل لعب دورًا في المخزن مثل ذلك الذي لعبه باحماد كان ينذر بعواقب وخيمة وبأن يكون مؤشرًا على حدوث تمرد جديد.

يمكننا أن نتخيل حالة ذعر واستياء العاهل عبد العزيز لما وصله الخبر. السلطان الشاب الذي كان محجوبا من قِبل الرجل الرهيب والذي غادره للتو، تركه بشكل ممنهج في جهل تام بكل ما يتعلق بالسياسة وبإدارة الإمبراطورية. فلم يكن مستعدًا بأي حال لممارسة أية سلطة. ربما ما فكر أبدًا في احتمال أن جزءًا، مهما كان صغيراً، من المسؤولية قد يؤول إليه في يوم من الأيام. وما كان المنبهي هو من يكون في الوضع الذي يسمح له بتوجيهه وتنويره بشأن واجباته. هذا الشاب كان محصوراً في وظيفة ثانوية ككاتب وساعي بريد، فلم يتابع هو أيضًا إلا من بعيد تشغيل الآلة الحكومية البدائية التي يُحكم بها المغرب. ومع ذلك كان هو أول من طلب منه السلطان رأيه لما قال له: "ما العمل ؟". فأجاب المنبهي : "استعرض قواتك يا مولاي".

لم يكن ذاك مجرد رأي الجندي السابق المولع بالمسيرات والعروض العسكرية، أو الذي غامر بمجرد نصيحة غامضة بدلاً من التزام الصمت. بل من تحدث هكذا كان رجلاً حكيمًا، يعلم جيدًا أن هذا الاستعراض سيسمح للإمبراطور بفحص نبض الجيش وقادته وللوقوف على موقفهم منه. وسي المهدي وضع نفسه رهن إشارة سيده كي يقوم له بكل شيء. فما كانت تنقصه مهارات التعامل مع الآخرين. فقط كان يفتقر إلى الفرص لإثباتها.

فتمكن سي المنبهي من إبقاء موت باحماد طي الكتمان قدر الإمكان، كما سبق أن فعل هذا الأخير مع وفاة السلطان مولاي الحسن[1]. وفي اليوم التالي، ولأول مرة وصل السلطان الشاب أمام جنوده بمفرده وسط حاشيته ومن دون أن يحجب ظلّه فوق الرمال ظلُّ وزيره الأكبر السابق والمستبد. وسارت الأمور على ما يرام حتى انتهى الحفل بأكبر قدر ممكن من السلاسة، وإن كان من الواضح أن السر المكتوم قد تسرب قليلاً على الرغم من كل الجهود.

ومع ذلك، وللمزيد من الاحتياط، وبالاتفاق مع عبد العزيز الذي كان سعيدا جدًا بأن وجد فيه مرشدًا أقل استبدادًا، أمر المنبهي بالقبض فورا على أخوي الوزير الراحل باحماد. أحدهما، وهو محمد الصرير، كان وزير الحرب. والثاني كان وزير المالية. وكالمعتاد في مثل هذه الحالة، تمت مصادرة كل أموال المحتجزين. وأميل إلى الاعتقاد بأن سي المهدي قام هكذا بأول قراراته بضربتين حاسمتين من ضربات رجل متمرس. من جهة أزاح خطر الغريمين ومن جهة أخرى عرض عليه السلطان على الفور خلافة أحدهما وهو محمد الصرير. وما كان ليرفض. وجد نفسه في الثانية والثلاثين من عمره وزيرًا للحرب مع التمتع بكامل الثقة والتفضيل المولويين.

لكن لن أقسم على أن منصبه الجديد بقلب دار المخزن كان دائمًا مريحا ويسيرا. أصوله الغامضة كانت تُنسب إليه أكثر من مرة كجريمة من قبل زملائه المتعلمين والمثقفين الذين كانوا كلهم من القبائل النبيلة ومن عائلات كبيرة. ومع ذلك فقد ثبّت

[1] انظر أعلاه قصة التتويج الغريب لمولاي عبد العزيز

نفسه وانتصر باستعمال الدبلوماسية كلما كان ذلك ممكنًا وباستعمال العنف عند الضرورة. لقد كان قاسياً مع الخصوم الذين لو كانوا مكانه ما كانوا ليرحموه. وقد انتقموا منه في الأخير بكل قوة. لكن قبل ذلك فقد أزال من حوله كل الذين كانوا يزعجونه واستبدلهم بأصدقائه. ولقد كان لديه الكثير منهم في ذلك الوقت.

منذ تلك اللحظة صار المغرب بيد رجلين، السلطان عبد العزيز ومُفضله المنبهى. وكان ينقصهما ما يلزم من الخبرة لحكمه. فصار على كليهما أن يتعلم فن الحكم بالممارسة. إلا أن وزير الحرب الجديد الذي تولى زمام الأمور ارتكب خطأ فادحا. قرر الاستمرار في ضَلال باحماد المشين. قرر هو كذلك إبقاء سيده بعيدا عن شؤون الدولة والسيطرة عليه بحسن العناية به وبتشجيعه على خموله وعلى ميولاته التافهة والمتوافقة مع عمره[1] وعلى المزيد من التسلية حتى لا يلتفت إلى واجباته، فيترك المجال مفتوحًا لأصحاب المطامع الخسيسة. لكن هل يمكننا الحكم بإنصاف على الرجال هناك وفق أخلاقنا؟

إرساله في سفارة إلى الملك إدوارد السابع، بمناسبة تتويجه[2] شكل ذروة سعد المنبهي. كان وقتها، إذا ما سُمح لي بالقول، هو أبرز رجل في المغرب من بعد السلطان. كان لديه مواليه، بالمعنى الروماني للكلمة، وكان له بلاطه. صار بإمكانه فعل كل شيء. حتى كانت أوروبا نفسها تتودد إليه. أعني الدول الأوروبية التي كانت تطمح للعب دور في المغرب وكانت تستعد له بمهارة.

لكن، كما يقول المثل: "الغائبون مخطئون". وقد جرّبه المنبهي جيدا على حساب سعده. ما أن غادر الشاطئ المغربي حتى بدأت تحاك ضده الدسائس. لم يحتل رجل بالقرب من صاحب السيادة وضعًا مشابهًا لما كان عليه المنبهي من دون أن يجلب له حظه وحده الكثير من المتاعب. قيل للسلطان أن وزيره المفضل، عند مغادرته البلاد، أخذ معه الذهب، بل الكثير من الذهب المسروق بطبيعة الحال من الخزينة، والذي سيضعه في أمان بالبنوك الأوروبية. وأصر خصومه على مزاعمهم لدرجة أنهم انتزعوا في حقه من الحاكم الضعيف أمرًا بالسجن. وكان من المقرر تنفيذه بمجرد نزول سفارته في مازاڭان[3].

لكن لحسن حظ المنبهي، كانت المفوضية الإنكليزية على أهبة الاستعداد لما علم القنصل البريطاني في مازاڭان بما صدر في حقه. فتوجه إلي باشا المدينة المسؤول عن تنفيذ القرار الشريف وأخبره بلهجة حادة أن إنكلترا ستأخذ بنظرة سلبية للغاية هذا الاعتقال، مضيفًا علاوة على ذلك، أن سي المهدي لم يبلّغ بعدُ السلطان فحوى مهمته بالقرب من الملك إدوارد السابع، وأن الرد الملكي الذي كان مسؤولاً عن إبلاغه لعبد العزيز يشكل بالنسبة له بطاقة أمان التي تضعه بشكل ما تحت حماية إنكلترا. عندما علمت شخصيا بتفاصيل هذه القصة، سألت نفسي وسألني المنبهي نفسه ذات يوم، ما الذي كانت ستفعله فرنسا ومفوضيتها لو حدث كل هذا عند عودة مثل هذه البعثة الدبلوماسية المغربية من باريس.

ثم اتخذ المنبهي قرارًا صعبًا للغاية. قرار يكشف بشكل لافت للنظر عن طبيعة شخصيته الجريئة. لم يفكر للحظة واحدة في الهرب من العقاب الذي يهدده ولا في الذهاب بالمال الذي اتهم بسرقته ليعيش في اطمئنان تام بمكان مّا تحت دفئ شمس إفريقيا. ومن دون الخوض عن بعد في دفاع غير مجدي عن نفسه قفز على صهوة جواده، ومن دون أدنى خفر سوى كاتب أمين، ركدا معا في رحلة واحدة نحو مراكش حيث كان سيغامر بحريته بل برأسه. قطع مائتي كيلومتر في أربع وعشرين ساعة. فوصل في الليلة التالية إلى منزله المجاور للقصر. وفي صباح الغد الباكر تقدم بنفسه إلى باب ما يسمى باحة الملاهي، حيث كان السلطان يأتي كل صباح. لم يجرأ أحد على منعه من الدخول.

ولما ظهر عبد العزيز ألقى بنفسه عند قدميه وقال: "أنا عبدك سيدي. افعل بي ما تريد. لكن لا تدينني من دون الاستماع إليّ". عبد العزيز، الذي كان لوحده من دون أي أحد يحرضه ضد المتهم، ومستسلما لميولاته الطبيعية للعطف، أقامه واستمع إليه ثم عفا عنه. فاستعاد المنبهي للتو مكانه في المخزن. لكن بقي من ذلك شيء في نفس السلطان. فقد تم اتهام المنبهي بالفساد والابتزاز. ومن أجل الدفاع عن نفسه فقد وجه بدوره وبلا شك نفس الاتهامات ضد الآخرين. عبد العزيز، الذي من الواضح أنه لم ينتظر حتى هذه اللحظة كي تتولد عنده بعض الشكوك في هذا الصدد، صار عنده فجأة اليقين أن كل واحد ممن حوله كان يتنافس مع الآخرين على سرقة أمواله وعلى خيانته.

هو الواثق جدًا كعادته في غيره، والكثير الجود معهم، وغير المكترث بمسألة المال إلى حد الإسراف في إنفاقه، وجد نفسه فجأة من دون دفاع في قبضة عصابة من الجوارح الكواسر. شعر بسبب تصرفاتهم بألم حقيقي. ومع ذلك، عندما تعلق

[1] وقد كان عمره، حينها سنة 1900 اثنين وعشرين سنة.
[2] التتويج الذي تم في 9 أغسطس 1902
[3] مدينة الجديدة

الأمر بإيجاد علاج لهذا الوضع المؤسف، فقد اتخذ منهم موقفا لا يخلو من نوايا حسنة ومن وفاء ومن شفقة عليهم وغيرها من الأحاسيس الرقيقة التي كان من شأنها أن تنزع الرغبة في المقاومة حتى من الرجال الطيبين. ولكنها تشهد له أيضًا ببراعة نادرة جدا.

استدعى جميع الوزراء إلى القصر، ووجه إليهم اللوم الأبوي، وناشد ما بقي عندهم من مشاعر طيبة، وأخبرهم أنه قد تجاوز عن خطاياهم القديمة، وفتح معهم صفحة جديدة. ثم جعلهم يقسمون في جو مهيب على القرآن أنهم سوف يتخلون مستقبلا عن ممارساتهم الجانحة ولن يقبضوا من الآن فصاعدا أية رشوة من وراء الأوامر التي يُطلب منهم تنفيذها باسمه. فأقسم الجميع على ذلك باقتناع. هكذا من بين الكل، تمت تبرئة الوزير المنبهي من كل أخطائه الحقيقية أو المفترضة، واستعاد مقامه بالقرب من السطان وهو أقوى مما كان. واستمر جوه صافيا من دون غمام، إلى حين خرج الروكي بوحمارة متمردا.

صار بو حمارة يتقدم على الأرض. وحينها فقط سُمح لعبد العزيز بمعرفة جزء يسير من الحقيقة. لكن الوضع كان قد ازداد سوءا. فاجتمع كبار رجال المخزن في مجلس للتداول في الأمر، والروكي ما يزال يتقدم. ولم يعد هناك ما يكفي من المال لدفع رواتب الجنود وشراء الذخيرة. فجاءت اللحظة التي اتضح فيها أن مقاومة المتمردين صارت مستحيلة. حينها فقط تم الاتفاق على أنه أصبح من الضروري الاعتراف بكل شيء لسِدنا. ولكن مَن ذا الذي سيتولى هذه المهمة المحفوفة بالمخاطر؟

كانت تلك لحظة عاصفة من المداولات. دافع كل من الحاضرين عن نفسه وألقى بمسؤوليات ما يقع على الآخرين. لكن سرعان ما برز إجماع مثير ومتوقع ضد المنبهي كوزير للحرب. وأصبح فجأة هو كبش الفداء. ألم يكن هو صاحب التأثير الأكبر على السلطان الشاب لما كان يشجعه على الانغماس في التسلية وفي إهدار المال، أو على الأقل كان يتسامح معه في كل ذلك وعن قصد ؟ لذا كان عليه أن يعترف بذنبه. هكذا، إذا جاز لي القول، فقد تحالفوا واتفقوا على ضرب عصفورين بحجر واحد. من جهة، سيضعون أنفسهم في موقف سليم مع السلطان حين يخبرونه أخيرًا بالصعوبات التي لم يعد من الممكن إخفاؤها عنه. ومن جهة ثانية سيورّطون خصمهم اللدود في حبال مكيدة محبوكة بعناية عندما يكلفونه بعبء تحمل المهمة الخطيرة. وكان أكثر من واحد من بين هؤلاء المتآمرين يأملون أن عبد العزيز، في لحظة الغضب الأولى، سيسجن على أقل تقدير مبعوثه البئيس ويخلصهم أخيرًا من ذلك المفضل عليهم عنده. لكن المنبهي بتحديه المعتاد وبشجاعته قبل بالمهمة.

حظ سعيد جعلني شاهدا على مقابلة السلطان مع وزيره. وهذا المشهد القصير لا يُنسى بالنسبة لي. كان عبد العزيز في ذلك الصباح في باحة الملاهي على عتبة ورشة العمل التي كنت أشتغل فيها. وكان يشاهدني، وأنا أقوم بذلك، بمرح من دون هموم أو منغصات، لما تقدم إليه المنبهي وطلب التحدث إليه. لم يكن هناك شيء من مظاهر الجو الرسمي في المقابلة. في بضع جمل قصيرة، أوضح المنبهي ما كان سيقوله. وفجأة صار السلطان جاداً. لقد استمع من دون أن يقطع سرد هذه الاعترافات وهذه الوقائع. لم يقم بإيماءة ولا ملاحظة واحدة ولم يطرح سؤالاً. ولما انتهى المنبهي من عرضه، بينما ظل سِدنا صامتا، انحنى وسأل:

– ما العمل؟ أؤمرني.
– اذهب على رأس القوات، ولا تعاود الظهور أمامي إلا ومعك الروكي.

أعتقدُ أنه من غير الضروري إخبارك أيها القارئ أن القائد العام الشجاع لقوات جلالة السلطان الشريف قد عاد إلى فاس سالمًا ومعافى. لكن عندما عاد من الصيد، من صيد الروكي، من دون القبض عليه، فقد المنبهي علو مقامه بجانب سيده. وأخذ مكانه بجانب عبد العزيز شخص آخر من المقربين منه. وقد كان هو الحاج عمر التازي شقيق وزير المالية.

استأنف المنبهي تسيير وزارة الحرب، لكن من دون حماسة ولا اقتناع. وصار يشعر يومًا بعد يوم بتزايد إهماله من قبل سيده. لقد أصبح مجرد وزير كغيره من الوزراء. كان السلطان يرسل من وقت لآخر في طلبه لكن فقط لاستشارته كمجرد خادم من درجة أعلى قليلاً من غيره. فعاش لمدة ثمانية أو عشرة أشهر مرهقًا وحزينًا، وعلاوة على ذلك كله، عاش متدمرا من تشفّي زملائه الذين تأكدوا أخيرًا من تغلبهم عليه.

صار يرى الساعة التي سيكتمل فيها سقوطه فلم ينتظرها. بل، مثل بطل الدراما الرومانسية، أراد أن يختفي حتى لا يذوق مرارة انهياره. فطلب الإذن للقيام برحلة إلى مكة. لم يتردد عبد العزيز للحظة في منحه إياها. وقد كان ذلك في حقه بمثابة الضربة القاضية. لا سيما إذا ما كان يغذي سرًا الوهم بأنه سيُحتفظ به في اللحظة الأخيرة. فلا بد من أن سي مهدي قد أصيب بخيبة أمل قوية. وبرحيله ذاك ارتكب خطأ لا يمكن إصلاحه. في اليوم التالي حل محله في وزارة الحرب سي الكَباس، ابن عم بن سليمان وزير الخارجية.

ومع ذلك لم يتخلَّ عن الأمل في العودة إلى النعمة. وصار يخطط لذلك من بعيد. حاول ألا يترك العلاقات الضعيفة التي ما زالت تربطه بالسلطان تنكسر تمامًا. كان يفكر في طرق للاستحواذ من جديد على عقل سيده. وكما في الماضي لما كان مهتمًا بالبحث عن آليات اللعب واللهو التي كانت تأسره، اشترى من أجله مطبعة كاملة من القاهرة كهدية يقدمها له عند عودته. وكان يكتب إليه في مناسبات مختلفة. وللتأكد من وصول رسائله إلى وجهتها بالضبط، تفضل عليّ أنا ومنحني ثقته لإيصالها بنفسي. كان يطلب مني تسليمها إلى السلطان يدا بيد. وهذه واحدة من آخر المراسلات البريدية التي كان لطيفًا معي بما يكفي لإرسالها إليّ، والتي تشهد على الاحتياطات التي كان يتخذها. أترجمها حرفيا، بالرغم مما يعاني من ذلك تواضعي.

"العزة لله!
إلى العزيز اللبيب، إلى العالم والمعلم الجليل ڤير، الفرنسي.
بعد السؤال عنك وعن أصدقائي، أتمنى أن تكون بخير! تلقيت رسالتك وفهمت كل ما كتبته لي. لدي ثقة كاملة في صداقتك. ربنا يحميك! تجد طيه رسالة تسلمها يدا بيد إلى جلالته مولاي عبد العزيز حفظه الله! حتى لا يعلم بذلك أحد. لقد وصلت مصر في حالة جيدة. وقريبا إن شاء الله سأكون في طنجة. وسأكتب إليك خلال يومين أو ثلاثة. ولا تنسى تقبيل يد سِدنا بالنيابة عني. شكر الله لك! والسلام.
29 صفر 1322[مواق 7 مايو 1904]
مهدي المنبهي"

على ماذا كانت تحتوي تلك الرسائل التي كنت أنا مسؤولاً عن إيصالها؟ لن أعرف ذلك أبدا. وما هو الأثر الذي كان المنبهي يأمل أن يكون لها على عقل عبد العزيز المتردد؟ كان معروفًا، على ما أعتقد، أن عودته كانت قريبة. والمكائد الشرسة بدأت من جديد تحاك ضده داخل المخزن ومع السلطان، حيث كان يمكن الاعتماد على مساعدة مفضله الجديد الحاج عمر التازي.

وصل المنهي إلى طنجة. ومن هناك كتب مرة أخرى إلى السلطان يعلن عودته وأنه رهن إشارته. عبد العزيز الذي كان في الوقت نفسه مستاء منه ومترددا، لم يجرؤ على التعبير عن إرادته. فسلم الرسالة لوزرائه وقال لهم: "انظروا ما العمل وقرروا بأنفسكم"، متخليا بذلك عن مفضله السابق بسبب ضعفه، وتاركا مصيره تحت رحمة الأحقاد المتكالبة عليه. وبالتعويل على ضعف سيدهم، تجرأ الوزراء على اتخاذ الإجراءات القصوى في حق المنبهي، وهي نفس الإجراءات التي سبق لعبد العزيز أن اتخذها عدة مرات، لكنه ظل يخشى من تنفيذها. قرروا اعتقال المنبهي ومصادرة جميع ممتلكاته.

كان سي مهدي حينها ما يزال في طنجة، وتوقع وصول جنود المخزن للقبض عليه. بينما تم اعتقال كاتبه. فلجأ إلى المفوضية الإنجليزية التي حمته مرة أخرى والتي بدأت بضمان حريته من حيث جعلته يتجول في المدينة تحت حمايتها، ومن دون القلق ولو للحظة واحدة. ثم جعلته يحتفظ بجميع ممتلكاته في طنجة واشترت منه الباقي بأثمان جيدة[1].

عندما كنت أنا أستعد للعودة إلى فرنسا، عبرت طنجة من حيث سأسافر. فذهبت لأقوم بزيارة مجاملة لهذا الرجل الذي كان دائمًا لطيفًا معي، والذي أظهر لي ثقة كبيرة. سقوطه المدوي مع حالة الإهمال التي عاشها، جعلتني متعاطفاً معه أكثر من أي وقت مضى. وجدته مستسلما لمصيره، وما يزال يكن احترما كبير وحبا دائمًا للسلطان، من دون لا مرارة ولا أحلام.

لقد رتب أموره لعيش سلمي ومريح. صارت للجندي البسيط سابقا، الابن الغامض من قبيلة المنابهة، أذواق سيد عظيم. مكوثه بضع سنوات فقط في الخدمة بدار المخزن مكنته من توفيرها وتلبيتها. دعونا من الاحتجاج باسم الأخلاق. تلك التي تسود في المغرب ليست مثل الأخلاق السائدة عندنا.

في فاس، لما كان في أوج سلطته، كان سي المهدي يمتلك أجمل منزل في المدينة. كان يعيش هناك مع زوجتيه الشرعيتين، علاوة على حوالي ثلاثين جارية، يرفلن في أبهى مظاهر الزينة. النقوش المنحوتة بدقة على الجدران بكلمات من القرآن[2] وجمل أخلاقية[3] كانت من الذهب الخالص. لم يكتف بهذا السكن الفخم، حيث الأفنية مرصوفة بالفسيفساء النفيسة، وحيث النافورات تظل تنفث خرير المياه طيلة اليوم، فقد بنى قصرًا رائعًا في الرباط. وقبيل سفره إلى مكة، حصل على أرض شاسعة في طنجة وقام على الفور بتعيين عمال لإعمارها. وفي تقاعده، واصل فيها العمل الذي بدأه.

---

[1] ومنعت بذلك مصادرتها من حيث أصبحت من ممتلكاتها بشرائها من صاحبها سي المهدي المنبهي.
[2] ويعني بذاك آيات قرآنية
[3] قد تكون أحاديث نبوية

قد تسألون عما يمكن أن يكون موقف السلطان من مثل هذه الأمور؟ عادة ما كان يجهلها. قابعا في قصره، لا يعرف مما يحدث خارجه شيئا سوى من خلال ما يُحكى له. وإن شخصيات أمثال فوكيت[1] هنا لا يدعون السلطان لحضور حفلات بقصورهم، مخافة جلب غضب غيرته منهم.
السلطان لا يخصص لوزرائه لا رواتب ولا تعويضات عن النفقات المترتبة عن ممارسة مهامهم. وهو يدرك ذلك جيدًا. فيبقى عليهم السعي لتدبير أمورهم. وما عدا ذلك فلا يهمه إن كانوا يعيشون في أكواخ أو في قصور من رخام. وينبغي أن يأتيه أحد بنوايا سيئة ليشهد بأن خادمه الفلاني قد بالغ في السرقات، بل قد يفعل ذلك عدة مرات حتى يحرك اهتمامه به. هذا بالضبط ما حدث للمنبهي.

3. السيد ماك لين، قايْد إنڭليزي بدار المخزن

كان هنري ماك لين جنديا في الجيش الإنڭليزي برتبة رقيب. سافر كثيرا. وحط أخيرا الرحال بالمغرب الذي سبق أن سمع عنه الكثير خلال فترة خدمته بجبل طارق. حل به حينها كتاجر. وقاده نشاطه إلى فاس حيث التقى مع باحامد القوي. وسرعان ما اكتسب بجانبه حظوة مكنته من دخول القصر. حصل ذلك بعد مدة قصيرة من الوقت التي زودت فيها فرنسا السلطان مولاي الحسن ببعثة عسكرية لتدريب جنود المدفعية.

ماك لين، المدعوم خفية، على ما أعتقد، من قبل المفوضية الإنڭليزية والمتأكد من الاعتماد على تدخلاتها، نجح في إقناع السلطان بالحاجة إلى إعادة تدريب مُشاته أيضًا، فقَبل بذلك. حينها وضع ماك لين في خدمته كل تجربته الخاصة وكل حماسته.

الذين زاروا المغرب حتى السنوات الأخيرة وشاهدوا جيشها عن كثب من بعد كل التقدم الذي تم إحرازه حتى الآن، يمكنهم أن يتخيلوا ما كانت عليه حالة قوات المخزن آنذاك وما هي المهمة الشاقة التي قام بها ماك لين.

لقد توفق في مهمته بشكل مثير للإعجاب. وظل يرتقي شيئًا فشيئًا حتى أخذ مكانه في بلاط الإمبراطور. ولم يمنعه بأي شكل من الأشكال نشاطه الرسمي كمدرب عسكري من مواصلة معاملاته التجارية. التجارة التي ظلت تزدهر بسلاسة بالموازاة مع ارتقاء مركزه بالبلاط الشريف إلى حين وفاة مولاي الحسن. هذا الحدث، كما نعلم، جعل كل السلطة في يد باحامد[2]. وهو صديق السيد ماك لين وحاميه والسبب الأول في سعده وثرائه. فلم يتغير شيء بالنسبة له، اللهم إلى الأفضل.

وأخيرا توفي باحامد بدوره. ولقد رأينا، من خلال اعترافات المنبهي[3]، ما هو دور السيد ماك لين في ذلك الوقت. كان هو الأول ولربما الوحيد الذي تم طلب النصيحة منه. كان يعرف الشؤون الداخلية المغربية بشكل عجيب وكان قادراً على تقديم المشورة الحكيمة. فزاد ذلك من نفوذه. وغني عن القول أنه تمكن من توظيفه بمقدار ما كانت تسمح به الظروف لخدمة المصالح الإنڭليزية.

انتفع ممثلو وزارة الخارجية البريطانية في طنجة عدة مرات من مساعي الرجل الحميدة، وهو الذي لم يكن دبلوماسيًا بصفة رسمية. لكنه كان في وضع يسمح له بتقديم خدمات جليلة لبلده. وقد أخطأوا للغاية وظلموه أولئك الذين سعوا إلى تصويره على أنه كان منشغلا دائمًا بحبْك الدسائس لصالح بلده وضد البلدان الأخرى أو ضد بلدنا نحن على وجه الخصوص[4].

تحلى ماك لين بلباقة دائمة وحقيقية. وظل يتظاهر بالبقاء بعيدًا عن السياسة. لم يكن له سعي للاعتزاز بالظهور في الواجهة. بل كان يحلو له البقاء غير مرئي من وراء الكواليس وهو في الوقت نفسه حاضر، حتى يأتيه من يستشيره ويطلب خدماته ونصائحه القيّمة بخصوص السلوك الذي ينبغي اتخاذه لمواجهة تعقيدات داخلية أو خارجية.

يا إلهي! ضعوا أنفسكم مكانه! ... بكل صدق، أعتقد شخصيا أنه كان دائمًا مهتمًا بخدمة السلطان بكل إخلاص. الأمر الذي لم يتطلب منه بالضرورة التضحية بمصالحه الخاصة، ولا بمصالح إنڭلترا. باختصار شديد، لم يسع ليكون ملاكًا، وهو أمر غير ضروري في الحقيقة، كما لم يكن في المقابل بليدا أو وحشا كاسرا.

---

[1] *Nicolas Fouquet* وزير مالية الملك لويز الرابع عشر
[2] انظر أعلاه بهذا الخصوص: التتويج الغريب لمولاي عبد العزيز
[3] انظر أعلاه بهذا الخصوص: ارتقاء ثم سقوط الوزير المهدي المنبهي
[4] ويعني بذلك بلده فرنسا

متفرغا لخدمة السلطان حصريا ومتحررا تمامًا من الالتزامات الرسمية ومستقلا عن المفوضية الإنڭليزية، ظل ماك لين على استعداد لتقديم الخدمات المطلوبة منه. لكن خدماته لم تقتصر على مواطنيه. أقول: يا له من ترحيب حار ولطيف وجدته معه شخصيًا. بالنسبة لأي أوروبي جاءه، ظل هو نفس الرجل الخدوم. لا أعتقد أن أيًا منهم قد اشتكى من سوء سلوك صدر من جانبه. بل على العكس من ذلك، كم من مرة وضعوا لطفه على المحك ولم يخيب ظنهم فيه!

بالتأكيد، أنه كان يقوم بعقد صفقات. صفقات! تلك الكلمة المقيتة التي كان الفريسيون يغطون رؤوسهم أمامها من الرعب. لكنه لم يمنع أحدا من حوله من عقدها. لم يكن يغار من أحد أو يحسد منافسيه، حتى من الفرنسيين الذين كانوا يحصلون على صفقات كان هو يتطلع إليها. وفي حال ما كان الأمر متروكًا له لإقناع عبد العزيز بإعطائها لغيره، كان لا يتردد في فعل ذلك. كان يقول: "*هناك متسع للجميع*". جمع ثروة أمراء. وقد ساعد أناسا آخرين على البدء في تشكيل وتنمية ثروتهم. لم أعرف أي شخص كان خدوما أكثر منه.

بعد وفاة باحامد أصبح ماك لين بالنسبة للسلطان ولوزيره المنبهي الرجل الذي لا يُستغنى عنه. ومن أجل إلهاء عبد العزيز، بما أنها ظلت آنذاك أيضا القضية الكبرى، لم يكن أحد أكثر منه خصوبة في الأفكار. من خلاله دخل إلى المغرب الفونوغراف ودخلت الدراجة. ودخل شيء من فن التصوير معي أنا. كان انصياعه لأهواء وإسراف العاهل الشاب بلا حدود. وكان تساهله معه لا متناهي. رأيته أنا يسيّر مناورة نفخ منطاد الهواء الساخن وترتيبه وتنظيفه على عجل، حتى لا ينتظر السلطان إصلاح الدراجة المعطوبة أو المتسخة. كل هذا كان يحصل منه فقط من باب اللطف والتفاني الخالص الذي ليس فيه لا خنوع ولا تنازل عن أي شيء من كرامته.

كان يشارك في جميع الألعاب. وكان يستقبله الإمبراطور ووزراؤه على نحو مألوف. كان يتصرف كخادم وكرفيق طيب. يستجيب بصدر رحب لأي شيء يُطلب منه. لدرجة أنه في بعض الأحيان يكون بالكاد قد عاد إلى المنزل وفي كثير من الأحيان في منتصف الليل، فيطلب منه الالتحاق بالقصر حين يكون في حاجة إلى رأي أو استشارة ضرورية قبل اتخاذ أي قرار مهم. ومن دون أن يُلح عليه أبدًا كان يقفز على صهوة جواده ويركض ثلاثة أرباع الساعة للامتثال لهذا الطلب.

وأخيرًا تسلل وارتقى ماك لين ببطء شديد. لمساعدته في خدمة جيش المخزن استطاع أن يقرب منه ضابطا إنڭليزيا، وهو الرائد أوڭيلفي وثلاثة مدربين آخرين، وأخيراً الطبيب الدكتور ڤيردون. كانت بعثة عسكرية بريطانية حقيقية في مقابل البعثة الفرنسية. كانت بعثة أقل منها اهتماما بالرتب المقامات العسكرية المقدسة. فاحتلت مكانًا كبيرًا ببلاط السلطان وبدار المخزن. كان لكل من أفرادها مداخل كبيرة وصغيرة للقصر. شارك الدكتور ڤيردون، طبيب البعثة وشقيقه الملازم ن. ڤيردون في تسلية السلطان وعاشا معه يوميًا. بينما كان ضُباطنا[1] يظهرون هناك من وقت لآخر وفقط بمناسبة الاستقبالات الرسمية.

في الواقع، يمكن القول إن البعثة العسكرية الإنڭليزية غير الرسمية التي دعاها ماك لين، كان لديها دائمًا عدد أكبر من جنود المخزن لتدريبهم مما كان لدينا. وفي اليوم الذي وجد فيه القايْد أن قواته المخزنية كانت في حالة يرثى لها ولا تشرفه، سرعان ما طلب لها أزياء عسكرية جديدة. وإن لم يكن في ذلك شيء سوى إرضاء كرامته، فقد كان أمرا مهما للغاية. وعلى ما أعتقد أنا فلربما لم تطلب البعثة العسكرية الفرنسية الرسمية يوما أي شيء، مع أن أحوال جنودها كانت في كثير من الأحيان تثير الشفقة.

في عام 1901 جاء تتويج الملك إدوارد السابع. وأرسل السلطان هناك سفيرًا فوق العادة وهو وزيره سي مهدي المنبهي. ورافقه القايْد ماك لين لتقديمه هناك بلندن. ولما عاد صار هو السيّد الشريف هنري ماك لين. لقد رفعه ملكه بذلك التشريف. الملك الذي كان حريصًا على الاعتراف بالخدمات القيمة التي قدمها ماك لين لتنمية النفوذ البريطاني في المغرب.

طيلة حياته المهنية بالقرب من مولاي عبد العزيز، أعتقدُ أن السيد الشريف هنري ماك لين ارتكب خطأ فادحًا واحدًا فقط. فهو الذي استقدم السيد هاريس مراسل التايمز الشهيرة في المغرب. كان ذلك هو الجانب الحساس الوحيد في المنصب الذي شغله في خدمة السلطان. كان بإمكانه وبإرادته فقط تقريبًا، أن يقدم له من يراه مناسبًا. لكن كان يُخشى أنه في يوم من الأيام قد يجلب له بعض الشخصيات الثقيلة الظل والمتهورة والتي تجهل احتياطاته والقادرة على إفساد كل شيء.

[1] ضباط بلاده الفرنسيون

هواة متابعة الأحداث على كرسي وثير، الذين مثل الفلاسفة يحلو لهم التعليق على الوقائع التي تتكشف من حولهم يومًا بيوم، وفقط من أجل متعة التفكّه مع غياب القدرة على فعل ما هو أفضل، سوف يتأسفون على ذلك كله. كانوا سيشعرون ببعض البهجة والفرح برؤية ما هو الإنجاز الذي أمكن أن يحققه لبلده حتى النهاية رجل ذكي وجريء ومرن مثل ما كان عليه السيد الشريف هنري ماك لين.

4. السيد والتر هاريس مستشار إنڭليزي بدار المخزن

في كل حياته المهنية مع مولاي عبد العزيز، أعتقد أن السيد هنري ماك لين ارتكب خطأ فادحًا واحدًا فقط. فهو الذي استقدم السيد هاريس، مراسل التايمز، إلى المغرب. ويوما ما من أكتوبر 1901 وصل السيد هاريس إلى مراكش، شهرين أو ثلاثة أشهر تقريبًا قبل ذهاب السلطان إلى فاس عبر الرباط. وما زلت أتذكر دخوله إلى قاعة الاستقبال في هندام براق ومزركش بالذهب وكأنه جعران سميك وعجيب. كان يتحدث العربية بإتقان. وقص أسفاره على السلطان الذي أهتم به كثيراً ولم يستنكف منه. بعد بضعة أيام رأيناه في باحة التسلية، وهو لا يزال برفقه ماك لين.

ربما كان السيد هاريس في الأربعينيات من عمره. قيل إنه كان ثريًا، على الأقل، لا ينقصه مال. وكان يشتاق إلى المجد. فكان يطمح للعب دور سياسي رئيسي في المغرب. ربما كان سينجح، لكن من سوء حظه أنه ضغط على الزر الخطأ وأطلق بذلك نابضا خطيرا.ذلك أنه تسرع إلى الخوض في مسألة كانت من مشاريع الدبلوماسية الفرنسية بالمغرب.

وبما أن تأثيره على عبد العزيز كان مؤكدًا فقد انتهز الفرصة لدفعه على طريق الإصلاح. كان أول ما تصوره هو الإصلاح الضريبي، بمعنى إنشاء نظام جبائي منتظم على النمط الأوروبي أو بالأحرى على الطراز الإنڭليزي، حتى يبدو أنه جاء خصيصا من أجل التبشير بالإنجيل الضريبي.

متأثرًا بالشطط الذي لا يمكن الدفاع عنه والذي كان ينشأ عنه نظام استخلاص الضرائب الحالي من طرف القواد، كان السيد هاريس يحلم بنظام مثالي، مثالي بشكل خاص للمغرب، حيث يدفع كل فرد بمقدار ما يتناسب مع أمواله وممتلكاته وأراضيه ورؤوس ماشيته. كان من شأن هذا الوهم أن يسحر ويستهوي عبد العزيز الطيب والمحب بالأساس وبشكل غير واضح للأفكار عن العدالة، لم يحلم أبدًا حتى بصياغتها، فما بالك بتقنينها؟ هكذا بفعل قوة حماسته الإصلاحية، أمر السلطان عام 1901 بتطبيق مجموعة من الإجراءات التي كان صديقه الجديد قد وضعها بمهارة واستفاضة.

من سوء حظ هذه الخطة الرائعة أن جلالته ما كان يتواصل إلا من بعيد مع رعاياه، بل حتى مع الأكثر ولاء من بينهم. كان بينه وبينهم القواد المهتمون بشكل مباشر جدًا بالسعي للحفاظ على الوضع القائم. ففسر هؤلاء الوسطاء المشبوهون قرارات الإمبراطور بهذه الروح وطبقوها بطريقة جعلت البلاد بأكملها تنتفض ضد ضريبة السيد هاريس. في اعتقادي أن هذا كان هو السبب المباشر في الاضطرابات التي خربت المغرب والتي لم تنته بعد.

بالطبع، كان الوزراء أول خصوم السيد هاريس. أكبر قسط من دخلهم يحصلون عليه من القواد أنفسهم. مع تواجد القلق مما يحدث، ما كان عليهم أن يلوموا أنفسهم على مخاوف مولاي عبد العزيز التي تسببت فيها كل هذه الثورات المتزايدة باستمرار. وما كانوا يتحرجون من الازدراء بصاحب الإصلاح الذي اثار استياء شعبيا.

لكن فكرته الأولى كانت قد أغرت السلطان الشاب لدرجة أنه لم يستطع إلزام نفسه بالتراجع عن قراره. بدلاً من إعادة النظر فيه، كان يحلو له الاعتقاد بأن رغباته قد أسيء فهمها. بل أسوأ من ذلك، كان يؤكد أنه قد تم تحريف تطبيقها. وأخيرًا، فقد كان من الممكن للسيد هاريس أن يفوز في النهاية بجرأته ومثابرته لو لم يرتكب في تلك اللحظة بالذات سوء التصرف الذي لا يمكن تصوره، والمتمثل في خصامه مع ماك لين. حينها لم يعد يزن الكثير! ...

ما لم تستطع أن تضع له حدا تلميحات وشكاوى الوزراء كان ينتهي بكلمة واحدة من السيد ماك لين. ربما طلب منه المخزن منذ فترة طويلة أن يدعمه ضد هاريس ومشاريعه المضرة بمصالحه. في كثير من الأحيان كان يحمل إلى أعتاب العرش مطالب وشكاوى الوزراء. المنبهي قبل كل شيء، رجل حذر وحكيم، ما كان يجرؤ على تقديم أي شيء لعبد العزيز من دون أن يكون قد أخذ مسبقًا رأي صديقه الإنجليزي فيه. ومن اليوم الذي أزعجه السيد هاريس، سحب منه ماك لين اليد التي كانت تشكل له الدعامة الرئيسة.

وذات صباح في القصر بفاس، شاع خبر مراسل التايمز الدبلوماسي الهاوي الذي غادر العاصمة فجأة. خوفه من نحس أشد سوءا من عار فشله الذي يتعذر إصلاحه، لازمه وجعله يلوذ بالفرار بذريعة وصول برقية من إنݣلترا أعطته أخبارًا سيئة للغاية عن صحة والدته. فقفز السيد هاريس فوق سرج حصانه للعودة إلى طنجة. إنه قرار حكيم. المغرب بأسره كان قائما ضد مخترع هذه الضريبة التي جعلتها مهارة مستخلصيها تثير سخطا شعبيا كبيرا. كان يكفي القليل، من دون حتى إثارة أو اقتراح، بل مجرد غض النظر عن الفتك به، حتى تكون حياته في خطر.

5. الرق والنخاسة بفاس ومراكش

ينبغي أخيرًا أن أحدثكم[1] عن العبودية. فمن يجهل أنها لا تزال موجودة في المغرب؟[2] نعم! وأصحاب النفوس المرهفة والناس الأخيار من جميع الأطياف لا يخطر الأمر على بالهم من دون الشعور بالقرف. ربما كان "تحرير العبيد" هو الإصلاح الأول الذي من الممكن أن تجلبه فرنسا للشعب المغربي، في حال ما كانت سياسة ما يُسمى "الاختراق السلمي" أكثر نجاحًا. لكنه أيضًا وبالضبط الهبة الإنسانية التي كانت من بين أسباب العداء الذي واجهنا[3]، ربما، ومن يدري، حتى من العبيد أنفسهم.

لذلك في فاس وفي مراكش، يتم ثلاث مرات في الأسبوع عقد سوق النخاسة علنا في ساحة صغيرة. وقد شاهدته عدة مرات في خضم عقد الصفقات. لكن بمجرد أن يتم التعرّف عليّ، على الرغم من زيّي العربي، يتحول فيه الحديث عن أشياء أخرى، وكأن هناك مجرد رجال ونساء يتكلمون عن شؤونهم الصغيرة أو يفكرون. أما أخذ آلة التصوير والتقاط صورة، فمن العبث مجرد التفكير فيه.

ومع ذلك، فهمت جيدًا كيف تدور الأعمال. فلا ينبغي أن نتصور فيه معرضًا كبيرا للأجساد البشرية. لا يمكن في المزاد الواحد رؤية استعراض أكثر من عشرة إلى اثني عشر عبدًا، رجالًا ونساء. الزبائن يجلسون القرفصاء من حول ساحة العرض الصغيرة في انتظار وصول البضاعة. ثم يأتي الدلّال، الذي سبق أن رأيته مرات يحمل جواهر أو ملابس قديمة للبيع بالمزاد، فيقوم بتمرير العبيد للبيع ببطء من أمام كل مجموعة من العملاء إلى أخرى، وهو يصيح معلنا عن السعر المطلوب. المشترون المهتمون يسألونه عن عمر المخلوق المسكين وعن ماضيه. هم يتخوفون من الأمراض التي يكون قد أصيب بها. ثم يتفحصون جسده باليدين من الثديين إلى أخمص القدمين كما لو كان حصانًا أو بغلًا.

أما العبد البضاعة، المستسلم لمصيره والمدرك أنه لا يستطيع يوما أن يؤدي على الكوكب دورًا غير دور العبد، فيبقى غير مبال بما يدور من حوله. ولربما تجده يدعو الله أن يكون من نصيب سيّد طيب. أما في حال ما اشتراه سيّد سيئ فلديه الوسيلة الفعالة للتملص من خدمته.

وأخيرًا عندما تتم الصفقة بعد العديد من الفحوصات والمساومات، يتوجه الأطراف الثلاثة، المشتري والدلال والعبد إلى العدول، أي الكاتب العدل المكلف بالمصادقة على الاتفاق وتحرير صك البيع. العبد يحمل دائمًا معه نوعًا من بطاقة الهوية التي تشير إلى أصله وسابق خدماته والأسعار المتتالية التي بيع بها. فلا يبقى للعدول سوى تدوين سطر واحد أو سطرين إضافيين كمؤشر على دخوله في خدمة البيت الجديد. ولا يختلف الأمر عن نمط بيع الماشية سوى أن هذه الأخيرة لا تحمل بطاقة هوية. وهذا هو الفرق الفريد بينها وبين العبد.

العبيد في أسواق النخاسة ليسوا أبدًا عبيد الأسعار الباهظة. الذين يبحثون عن عناصر مختارة ينبغي أن يتوجهوا إلى بيت التاجر. وهو يخبرهم كلما تلقى بضاعة جواري زنجيات من السودان أو من منطقة مراكش أو فتيات صغيرات تم اختطافهن مثل الماشية في حروب بين القبائل، أو من الشركسيات الجميلات اللائي يتم جلبهن بتكلفة عالية من أسواق إستانبول. والزبائن المهتمون يهرعون لاختيار ما يشتهون من بينهن من دون الحاجة لترغيبهم في ذلك.

يتم استقبالهم بشكل احتفالي في الغرفة التقليدية الممتازة. ويقدم لهم الشاي بالنعناع وحتى بالعنبر. ثم تأتيهم النساء اللواتي هن على وجه التحديد الجاريات للبيع. واحدة تجلب السكر والأخرى الأكواب والصينية، وهذه تسقي الماء وتلك تشعل نار الموقد. يمارسن بهذه الطريقة أمام العملاء وظائفهن المعتادة. ويمكن لكل منهم أن يقيّم مدى النعومة التي يبرعن في إظهارها أمامه في خدمته. وإذا جلبت إحداهن انتباهه بشكل خاص يوقفها ويتحدث معها للحظة. وبعد أن تغادر المكان إثر إشارة من

[1] المخاطبون هم القراء الفرنسيون
[2] حين مقام الكاتب فيه في بداية القرن العشرين
[3] نحن الفرنسيين

التاجر، تناقش الأسعار التي غالبًا ما تكون باهظة جدًا هناك. الشركسية المتميزة هي أغلاهن، لكنها نادرة للغاية. هن جميلات كما أنهم أفضل تعليماً من الجواري الإفريقيات اللائي تقتصر ثقافتهن بأكملها على معرفة بعض الآيات من القرآن المتعلقة بواجباتهن. هن في النهاية، على استعداد لحياة الحريم.

لا يمكن التفوه أمامنا[1] بكلمة العبودية من دون أن نستحضر على الفور أفكار المذراة والسلاسل وكل أهوال كوخ العم طوم[2]. الأمر أبعد ما يكون عن ذلك فيما يتعلق بالمغرب. من شأن العديد من الخادمات الماهرات في فرنسا أن يغبطن حالة الغالبية العظمى من الجاريات هناك. جاريات يعشن مع الزوجات الشرعيات على أساس ألفة كبيرة. الأمة تدرك أن عليها خدمة سيدتها جيدًا، وتتفانى في ذلك. لكن مقابل ما تتلقاه منها من الثقة والرفق وبعض التعلق والحميمية. في النهار الطويل والفارغ من أي شغل بالحريم، الجارية هي الصديقة المؤنسة والمقربة من سيدتها، والمتواطئة أحيانًا معها. المسافة بين مفضلات عبد العزيز[3] والجواري القائمات بخدمتهن أقل من المسافة بين سيدة بورجوازية ببلادنا[4] وخادمتها.

إذا كان من حسن حظ الجارية دخول فراش سيّدها ثم انجبت منه طفلا فإنها تصبح بفضل ذلك حرة وترتقي إلى رتبة زوجة شرعية. فتتحرر من الخدمة وتلبس بدورها الأزياء الفاخرة، وتتزين بالجواهر المرصعة بالأحجار الكريمة. وتلك فرصة الحظ السعيد التي تستحق السعي إليها.

كل عبد يشتريه أوروبي يصبح حرا. لكن أول ما يهتم به العبد الذي حصل على حريته هو التوجه للتو إلى من يبيعه مرة أخرى. وإذا ما طرده سيّده ورماه في الشارع، أو لكونه غير متعوّد ولا قادر على العيش حرا، سيكون لديه مخرج واحد فقط، وهو الذهاب على الفور إلى تاجر الرقيق أو إلى الدلال. وإذا صار في ملكية سيّد قاس، فكل ما عليه فعله هو إخبار الوزير بطريقة ما. في أغلب الأحيان يهرب ويلجأ إلى مسجد. ومهما شُددت عليه الحراسة، يبقى في إمكانه الهرب في لحظة ما. فتتم حمايته جيدًا ويتلقى سيّده أمرًا ببيعه على الفور.

ذات مرة في طنجة طلب مني خادمي أن آخذ في خدمتي زنجيًا من أصدقائه يموت من الجوع. وأكد لي أنه سيقدم لي خدمات جيدة. وافقت على ذلك من دون القلق بشأن ماضي هذا الرجل، وصدقت ما حكى لي عن نفسه. لكن عندما كنا في فاس، لم يعد بإمكاني الاستفادة من خدماته. امتنع عن الخروج من البيت. وبإلحاحي عليه اعترف أنه هرب مؤخرًا من سيّده الفاسي، ويخاف أن يجده يتجول في الشوارع ويقبض عليه ويجلده بالسياط. أبلغت بذلك وزير الخارجية الذي أمر على الفور السيّد السيئ بعرض عبده للبيع. الأمر الذي تم تنفيذه في الحال.

أنا لا أقول إن كل شيء هكذا بالمغرب هو على ما يرام، وأنه لا ينبغي لنا[5] أن نرغب في أن تتحسن الأمور في يوم من الأيام وفي أن تدخل أخيراً الحضارة إلى هذا البلد مع كل مزاياها وكل ما فيها من الأمور الجميلة. أنا فقط أشير إلى أن هناك، بجانب ما يجعلنا نثور ضد هذه الممارسات، ظروف تخفيف قاسية؛ وأن هذه تقاليد أناس معظمهم ليسوا أكثر منا[6] شراسة. أود أن أضيف أن العبودية، في الواقع، وفي المغرب على الأقل، هي نظريا أقل إثارة للخوف من تلك التي نسمع عنها بصخب من فوق المنابر الخطابية. وفي النهاية سيكون ضربا من الجنون أن نرغب في إصلاح كل هذا مرة واحدة بجرة قلم.

يمكن أن يتم ذلك بشكل تدريجي. هناك بالفعل شيء واحد يمكننا الحصول عليه بسهولة، وهو أن تتحول أسواق النخاسة العلنية اليوم إلى أسواق سريّة. ليس في ذلك من مكسب للأخلاق، لكن سيبقى معه المبدأ مصونا، مع العلم أن المغاربة يخجلون إلى حد ما من التجارة العلنية بالأجساد البشرية. بمجرد اقتراب أوروبي من سوق النخاسة يتم إيقاف المزاد. ولا يستأنف طالما بقي هناك. وفي ذلك مكسب لصالح القضية.

---

[1] الفرنسيون

[2] كوخ العم طوم هي رواية تدين العبودية في الولايات المتحدة الأمريكية للكاتبة الأمريكية هارييت بيتشر ستو. نُشر لأول مرة كمسلسل عام 1852.

[3] السلطان عبد العزيز

[4] بفرنسا

[5] نحن الفرنسيين

[6] نحن الفرنسيين

وأخيرًا، فمن النادر جدًا في المغرب أن يقوم السيّد بتزويج العبيد بالإيماء بقصد الإنجاب وبيع أطفالهم. تلك ممارسة مدانة عالميا. وفي ذلك انتصار آخر على العادات القديمة. لكن، هنا في المغرب أكثر من أي مكان آخر، يجب أن نتصرف[1] بحذر، وإلا فلن نحصل على شيء.

[1] نحن الفرنسيون

الصحفي الإنكْليزي والتر هاريس

كان والتر بيرتون هاريس[1] صحفيًا وكاتبًا ورحالة وعالمًا اجتماعيًا. اشتهر بكتاباته عن المغرب حيث عمل لسنوات عديدة كمراسل خاص لصحيفة التايمز اللندنية. انتقل إلى البلاد في سن التاسعة عشرة. وفي النهاية بنى فيلا جميلة في طنجة حيث عاش معظم حياته. سمحت له مهاراته اللغوية وهيئته بالظهور وكأنه مواطن مغربي. وتجول في مناطق من البلاد تعتبر محظورة على الأجانب. وكتب عددًا من الكتب والمقالات المعروفة عن أسفاره في المغرب وفي بلدان أخرى في الشرق الأدنى والأقصى. ومنها كتاب "المغرب كما كان"[2] بلغته الإنكْليزية والذي منه نترجم هنا مقتطفات منه كشاهد على فترة من تاريخ البلاد. ولعب هاريس أيضًا دورًا مهمًا ولكن ليس دائمًا بنّاء، في المكائد الدبلوماسية الأوروبية التي أثرت على المغرب في مطلع القرن العشرين.


الصحفي والتر هاريس

1. المخزن وحملاته العسكرية.

يعود دخولي الأول إلى البلاط المغربي إلى عام 1887، بعد أشهر قليلة من وصولي إلى المغرب. وذلك عندما تلقيت دعوة من الوزير البريطاني، الراحل السير ويليام كيربي كْرين، لمرافقته في مهمة خاصة إلى السلطان. ذهبت بعثة السيد ويليام كيربي كْرين الخاصة عن طريق البحر إلى مازاكّان على متن سفينة حربية بريطانية. ومن هناك انتقلت برا إلى مراكش. وقام السلطان كالعادة بإرسال حراسة ونقل وخيام على الساحل لهذا الغرض.

كان مولاي الحسن حينها في أوج قوته. لقد كان سلطاناً قوياً. ولربما كان قاسياً لكنه كان بالتأكيد مقتدرا. لم تضعف طاقته أبدًا. وحافظ على النظام بين قبائله الفوضوية. وقمع الثورات المستمرة مع التقدم المتواصل تقريبًا في جميع أنحاء البلاد، مصحوبًا بجيشه الوغد. فنادرًا ما أمضى ستة أشهر متتالية في أي من عواصمه. وكان لدى المغاربة قول مأثور: "الخيام الإمبراطورية لا تُخزن أبدًا".

يصعب تقدير العمل الرائع والنقل الهائل الذي تتطلبه هذه الرحلات. لم يقتصر الأمر على وجود السلطان برفقة العديد من نسائه وجميع الوزراء وأسرهم وأجنحتهم، بل كان معه أيضًا حوالي عشرة آلاف جندي ومجموعة من الأنصار. كما تنضم أعداد كبيرة من التجار المحليين إلى الحشد، لأن التجارة تنتقل إلى المنطقة التي يقيم فيها معسكر الحملة.

يمكن تخيل بعض الأفكار حول النتائج على البلد الذي تم عبوره من حقيقة أن اسم هذه الحملات في اللغة العربية هو "الحركة"، "أي النار"[3]. لا يهم ما إذا كانت القبائل في بداية التمرد أو في ثورة مفتوحة أو في سلام. كان عليها أن توفر الطعام والعلف لهذا الحشد العظيم[4] ، الذي كان دماره يشبه دمار مرور الجراد أكثر من دمار مرور البشر. لم تكن هناك الضرائب القانونية التي يمكن فرضها واستخلاصها فحسب، بل تم أيضًا رشوة تدفع لوزراء السلطان وحاشيته، بينما ينهب كل جندي

---

[1] *Walter Burton Harris*

[2] *Morocco that was*

[3] اختلط على المؤلف لفظ "الحركة" مع لفظ "الحرقة" ففسره بالنار بدلا من التحرك. وفي الواقع يتعلق الأمر بحملة عسكرية لاستخلاص متأخرات الضرائب ولمحاسبة القبائل المتمردة وعقابها بغرامات أو بنهبها لردعها وردع غيرها.

[4] وهو مان يسمى بـ "المونة" أي المؤونة الواجبة لتلبية حاجيات الحملة.

ومناصر للحملة لحسابه الخاص. عند ورود أنباء عن وصول إحدى هذه الحملات الإمبراطورية، فإن أكبر عدد من السكان الذين يستطيعون ويجرؤن على الفرار نحو مناطق أخرى يفعلون ذلك. فكثيراً ما كان السلطان يمر عبر بلد خال، إلا في حالة ما إذا كان يتعين على الحاكم وممثلي القبائل أن يكونوا هناك لصب ثروة الريف الصغيرة في الخزائن الملكية.

2. العلاقات مع أوروبا

كان المغرب لا يزال بلدًا غير معروف تقريبًا في ذلك الوقت. لم تول أوروبا اهتمامًا كبيرًا لما كان يحدث داخل حدوده. وطالما أن تصرفات السلطان لا تهدد بتعقيد الأمور الدولية، فقد سُمح له بالسير في طريقه. كان التنافس بين بريطانيا العظمى وفرنسا هو السمة الرئيسية لعلاقتهما بالمغرب، فضلاً عن الخلافات المتكررة باستمرار والحروب المحلية الصغيرة لإسبانيا مع قبائل المغرب التي تحيط بـالمواقع المحصنة على ساحله الشمالي.

لقد عاش المغرب حياته منفصلة. من المؤكد أنه كان على أبواب البحر الأبيض المتوسط ، لكن كان من الممكن أن يكون في المحيط الهادئ بالنظر لمقدار الاهتمام به. من وقت لآخر، ترسل الحكومات الأوروبية بعثات خاصة إلى السلطان خلال النزهات الضخمة في أي من العاصمتين[1]، حيث تتم أو لا تتم تسوية المطالب المعلقة. وربما تتم مناقشة معاهدة تجارية. ويتم القسم على الصداقة الأبدية حيث كانت هناك الكراهية من جهة واللامبالاة من جهة أخرى، لأن المشاعر العامة عند المغاربة تجاه الأوروبيين والمسيحيين في ذلك الوقت كانت تصل إلى حد الكراهية.

ومهما كانت دولة المغرب في ذلك الوقت متفسخة، فقد كانت يد مولاي الحسن القوية تبقي مكوناتها متماسكة وتقدم للعالم الخارجي جبهة كرامة وعظمة. في طريقها إلى مراكش سنة 1887 سافرت البعثة البريطانية بين القبائل في أمان تام، واستقبلت بكل شرف وببهجة المجاملة. كانت المجاملات تتدفق بسرعة تيارات الجبال، سعيدة في ظاهرها ورنانة عند سماع هريرها، لكنها غير صادقة تمامًا.

3. طقوس استقبال البعثات الديبلوماسية.

في جو يختلط فيه الغبار بالشمس دخلت البعثة البريطانية إلى العاصمة الجنوبية. فمرت من شوارعها الضيقة وسط حشد المتفرجين والخيول والبغال ووصلت إلى حديقة الزيتون الكبيرة والبرتقال الذي تحيط بأكشاك قصر المامونية[2]. القصر الذي أقامت فيه البعثة أثناء نزولها في مراكش.

ويشكل استقبال السلطان للمبعوثين الأجانب مشهدا في غاية الروعة. بعد بضع سنوات، تم تغيير جميع الإجراءات الشكلية. ولم يعد يتم استقبال ممثلي حكومات أوروبا كأعضاء تابعين يقدمون الجزية[3]. ولكن ما دامت الآداب القديمة سارية، فلن يكون هناك أي شك في روعة الحفل. ربما كان من المهين، بلا شك، أن يقف ممثلو القوى العظمى في أوروبا مكشوفي الرأس تحت الشمس بينما يظل السلطان على ظهر فرسه تحت مظلة قرمزية. لكن لا أحد يستطيع أن يجادل في جمال المشهد أو في عزته الشرقية.

استُقبل الوزير البريطاني والوفد المرافق له من قبل مسؤولين رفيعي المستوى بالبلاط يرتدون ملابس بيضاء، بينما كانت بالقرب من المجموعة الصغيرة من الأوروبيين الذين يرتدون الزي الرسمي صناديق هدايا مكدسة أرسلتها الحكومة البريطانية إلى جلالة الملك الشريف. في الواقع، كان الاحتفال التقليدي بأكمله مبنيًا على الترحيب بكبار خدام السلطان وعلى تقديمهم لفروض الطاعة والولاء.

ومع ظهور السلطان في المشور، انحنى الجمهور وهو يصرخ صرخة مدوية تمزق الهواء: "حفظ الله حياة سيدنا"[4]. مع اقتراب الموكب انقسمت البعثة البريطانية إلى اليمين واليسار وتقدم السلطان، برفقه خادمه ويتبعه وزراؤه. أعضاء البعثة حيوه وتم تقديم رئيسها. ثم قرأ السيد ويليام كيربي كْرين خطابه وسلم أوراق اعتماده إلى صاحب الجلالة ملفوفة بالحرير. وبعد كلمة أو

[1] فاس ومراكش
[2] كان عبارة عن حدائق محاطة بأسوار المدينة القديمة وتنتمي إلى السلطان محمد بن عبد الله العلوي وزوجته للا فاطمة. صمم السلطان الحدائق لولده الأمير مأمون وقدمها له كهدية زفاف. فسميت على اسمه حدائق المامونية التي صارت قصر المأمونية وأخيرا فندق المامونية.
[3] الجزية التي كانت تقدمها حكومات أوروبا لسلاطين المغرب في مقابل كبحه جماح القراصنة ضد سفنها وحماية مواطنيها.
[4] هكذا ترجم المؤلف "الله يبارك في عمر سيدي" وهو دعاء قديم جدا.

كلمتين ترحيبتين من السلطان التفت جلالته بحصانه وعاد إلى داخل قصره وسط هتافات شعبه وطلقات المدافع وأصوات الآلات الموسيقية.

ربما ليس من غير المناسب أن نقدم هنا وصفًا موجزًا لكيفية إلغاء هذا الاحتفال. في عام 1902، انضممت إلى مهمة البريطاني السيد آرثر نيكولسون الخاصة للسلطان مولاي عبد العزيز في الرباط. كان هناك شعور قوي لدى الحكومات الأوروبية لبعض الوقت بأن احتفالًا جديدًا يجب أن يحل محل الشكل التقليدي لاستقبال ممثلي السلطات الأجنبية. وقد تم إرسالي إلى الرباط، قبل أسبوع من البعثة، لحث السلطان على استصواب هذا التغيير.

كنت في ذلك الوقت على علاقة وثيقة وودية للغاية مع جلالة الملك. وكانت لدي فرصة كبيرة لعرض هذه الآراء عليه. لطالما كان مولاي عبد العزيز ولا يزال يمتلك الطباع الحقيقية لرجل نبيل. ووافق على الفور على أن شكل الاستقبال الرائج في بلاطه ينتقص من مقام وكرامة المبعوث الخاص لحكومة بريطانيا العظمى. في الوقت نفسه، قال إنه كان من الصعب للغاية إدخال تغييرات جذرية في البرتوكول من دون خلق شعور بالمعارضة بين أهالي البلد أو على الأقل المخاطرة بالتعرض للكثير من النقد. تردد لبضعة أيام. ولكن في اليوم السابق لوصول البعثة، أذن لي بإبلاغ السير آرثر نيكولسون أن الاحتفالية القديمة لن تُقام وأن استقبالها سيتم في غرفة في القصر. لتبرير ذلك التغيير سُمح بالهمس في المدينة بأن جلالة الملك كان مريضًا بعض الشيء وغير قادر على تحمل إرهاق الاحتفال الكبير في الهواء الطلق.

لذلك جرى حفل الاستقبال في غرفة بالطابق العلوي من القصر. جلس السلطان الشاب القرفصاء على أريكة لويس الخامس عشر زرقاء شاحبة. كان معظمها مغطى بقفاطينه الممدودة. وقف إلى جانبه وزير خارجيته ووزراؤه. فتقدم تشامبرلين الوزير البريطاني وتلا خطابه باللغة الإنجليزية وقام بالترجمة عضو من المفوضية. وهمس السلطان بإجابته لوزير الخارجية الذي رددها بصوت عال.

كان المشهد جذابًا. وبالطبع كان أكثر حميمية من الاحتفالات الكبرى في الماضي. لكنه لم يكن ينقصه أبدًا شيء من المهابة. واستغرقت الجلسة، المحصورة في هذا الاستقبال دقائق قليلة فقط، عندها انسحب الوزير وحاشيته. ولما نزلنا الدرج تم استدعائي على عجل للحضور أمام السلطان. وكان قد تخلص من العباءة البيضاء الكبيرة التي كان ملفوفًا بها كله تقريبًا وألقى عمامته الثقيلة بعيدًا. ذهب وزراؤه ورجاله ونادى علي أن آتي بسرعة وصاح "تعالى هنا معي على ظهر الأريكة حتى نكون قادرين على رؤية البعثة تخرج من ساحة القصر". وصعد ووقف على عرشه واقتداءً به صعدت إلى جانبه وشاهدنا معًا الوزير والبعثة يركبون خيولهم ويغادرون القصر على وقع طلقات المدافع.

4. الوزيران با حماد وسي فضول

في زيارتي الأولى للبلاط كان سي أحمد بن موسى، المعروف باسم با أحمد، الشخصية السائدة بين المسؤولين المحليين. شغل في ذلك الوقت منصب الحاجب الملكي. وهو منصب ذو أهمية وتأثير كبيرين، لأن حامله كان على اتصال دائم بالسلطان ويمكنه أن يكتسب أذنه الخاصة. كان مكرسًا بلا شك لمصالح السلطان ولخدمته جيدا وبإخلاص.

كان والده عبدًا في القصر. وكان هو نفسه داكن اللون للغاية وغير جذاب في المظهر. لقد كان رجلاً ليس له ذكاء خاص، بل كان ذا إرادة قوية لا تقهر. لم يدع أنه يفهم في علاقات المغرب الخارجية. وباستثناء كونه معاديًا لأوروبا لأسباب سياسية أكثر منها دينية، يبدو أنه لم تكن لديه سياسة ثابتة. بعد ذلك، عندما أصبح الصدر الأعظم في عهد مولاي عبد العزيز، اكتفى بترك مناقشة جميع شؤون السياسة الخارجية للوزراء الآخرين على الرغم من أنه كان يشارك بلا شك في القرارات المتخذة.

وزير خارجية مولاي الحسن كان هو سي فضول غرنيط. كان رجلا نبيلا وماكرا وذكيا ولا يزال على قيد الحياة. عندما سقطت الحكومة التي كان عضوًا فيها، وسقوط الحكومة في ذلك الوقت غالبًا ما كان يعني أيضًا سقوط الرؤوس، أصيب سي فضول غرنيط بجلطة دماغية واختفى في استراحات منزله. لسنوات كان من المفترض أن يكون مشلولًا وبلا شك في حالة صحية سيئة. ولكن لما حدث تغيير آخر في الوزارة بعد بضع سنوات ظهر مرة أخرى، وقد شفي بأعجوبة وبدا أصغر سنا وأكثر حدة من أي وقت مضى، ليصبح هو الصدر الأعظم لبعض الوقت. تقاعد الآن من الحياة العامة ويقيم في فاس. لا شك في أن شلله، الحقيقي أو المزعوم، أنقذ عائلته من الخراب وثروته من المصادرة، وربما أنقذه هو من السجن أو حتى من الموت.

على الرغم من صعوبة المهمة، وبقدر ما كانت مسؤوليات الوزراء في المغرب كبيرة، إلا أنهم لم يكونوا يتعرضون لمضايقات من قبل المعارضة. كما أنه ناذرا ما يبقى أعضاء الحكومة المنتهية ولايتهم على قيد الحياة. والذين نجوا منهم يقبعون في غياهب السجن.

5. إخفاء وفاة السلطان مولاي الحسن.

في عام 1893، قرر مولاي الحسن زيارة المناطق الصحراوية في المغرب، بما في ذلك تافيلالت البعيدة[1]. تافيلالت هي الواحة التي خرجت منها سلالته انطلاقا من ابن حفيد الرسول الذي استقر هناك منفيا من الشرق، وفيها عاشت قبل أن تصبح هي الأسرة الحاكمة..

كانت زيارته في الواقع حملة عسكرية فكانت تتطلب تنظيميًا يتجاوز بكثير قدرات المغاربة، مهما كانت مواردهم كبيرة. الطعام كان ينقص في المناطق الصحراوية. وكان الماء قليلا ورديئا، والحرارة مفرطة. وذلك علاوة على تمرد القبائل وما أعقبه من انتقام. خرج السلطان من فاس في الصيف ولم يصل إلى تافيلالت إلا في فصل الشتاء بجيش متصدع وقليل بشكل كبير وبوسائل نقل مهلهلة.

فعاد مولاي الحسن من تافيلالت رجلاً يحتضر. الأوجاع الداخلية التي كان يعاني منها قد أصبحت حادة بسبب المصاعب التي مر بها. لكن ما استطاع الحصول على الراحة التي تتطلبها حالته الصحية. في أواخر ربيع عام 1894 انطلق إلى قمع التمرد الذي اندلع في منطقة تادلة. فتوفي بالمعسكر في بلد العدو.

ووفاة السلطان في مثل هذه الظروف كانت محفوفة بالمخاطر على الدولة. كان ملكًا مطلقًا، ومع زواله تتهاوى كل السلطات والحكومة إلى حين تولى خليفته مقاليد الحكم. في هذه المرة، كانت الحملة في بلد معاد، وأي خبر عن وفاة السلطان كان من شأنه أن يجعل القبائل تهجم على المعسكر الإمبراطوري وتنهبه، ولا يمكن الوثوق بالقوات نفسها التي تنتهز هذه الفرصة للاغتيال والنهب. لكن ما دام الاعتقاد بأن السلطان على قيد الحياة، كانت هيبته كافية لمنع هجوم القبائل وللحفاظ على قواته متماسكة كالجسد الواحد.

لذلك كان من الضروري أن يبقى موت السلطان سرا مطلقا. كان جثمانه في خيمته المحاطة بجدار كبير من القماش. ولم يُسمح لأحد بدخولها إلا في الظروف الخاصة جدًا. لذلك اقتصر العلم بوفاته على العبيد الشخصيين وحاجبه با أحمد. وصدرت أوامر بأن السلطان سيبدأ رحلته عند الفجر وقبل طلوع الشمس. ووضعت جثته في المحمل الإمبراطوري الذي أغلقت أبوابه وسدت ستائره. وفي بداية الفجر الباهت تم إخراج المحمل بين بغلين قويين. وعلى صخب الأبواق وآلات الفرق الموسيقية. وأطلق رجال الحاشية والمسؤولون صيحاتهم: "الله يبارك في عمر سيدنا". فتشكل الموكب وانطلق بالسلطان تتقدمه الأعلام الخافقة.

لقد تم قطع مسافة كبيرة في ذلك اليوم. توقف الموكب مرة واحدة فقط عندما تم نقل المحمل إلى خيمة على جانب الطريق حتى يتمكن السلطان من تناول الغذاء. لكن فقط العبيد الذين يعرفون السر سُمح لهم بالدخول. ظل الحاجب مع الجثة. وعندما مر بعض الوقت خرج ليعلن أن جلالة الملك قد استراح وسيواصل رحلته. ومرة أخرى انطلق الموكب في مسيرة طويلة أخرى حتى المكان الذي أقيم فيه المعسكر الكبير ليلاً.

وقال الحاجب إن السلطان متعب. فلن يخرج من الخيمة ليقوم بأعماله كالمعتاد في الديوان. وتم إحضار الوثائق إلى جلالته من قبل الحاجب نفسه. ثم أخرجها مختومة مع تقديم إجابات شفهية على مجموعة من الأسئلة. بعدها استؤنفت المسيرات القسرية لأن الرحلة كانت لا تزال في بلد خطير. لكن موت مولاي الحسن لم يعد من الممكن التستر عليه. كان من شأن حرارة الصيف أن تكشف سر حالة جسده.

وبمجرد أن أصبح الجيش في مأمن من خطر تعرضه للهجوم من قبل القبائل أعلن الحاجب با حماد أن جلالة الملك وافته المنية قبل يومين وأن ابنه الصغير، مولاي عبد العزيز، الذي اختاره وعينه والده خلفا له، قد تم إعلانه سلطانا في الرباط فور وصول خبر الوفاة.

[1] وهي الرحلة التي أوردنا أعلاه مقتطفات من كتاب الطبيب الإنكْليزي الذي كان الأوروبي الوحيد الذي شارك فيها.

وبذلك كان الأمر محسوما. إن معرفة أن السلطان الجديد يحكم بالفعل، وأن الهدوء مستتب في كل مكان ، منع القوات من ارتكاب أي تجاوزات. والكثير من الجنود استغلوا المناسبة للهروب من الخدمة، لكن مثل هذا الأمر كان مألوفا، فلم يجذب سوى القليل من الاهتمام أو لم يجذب أي اهتمام أصلا. وبعد يومين وصلت جثة السلطان وهي في حالة تفسخ رهيبة، ودُفنت في الرباط[1].

كان سن مولاي عبد العزيز، وقت خلافته سنة 1894، حوالي اثني عشر أو ثلاثة عشر عامًا. وقد كان هو الابن الأصغر للسلطان الراحل، لأن العروش الإسلامية لا تعتلى بالضرورة بالأسبقية للأكبر سنا. يكاد يكون العرش اختياريا من داخل العائلة المالكة، وذلك على الرغم من أن السلطان في الواقع يعين عادة خليفته[2].

القايد ماكلين[3] الذي كان مع الجيش المغربي تمكن من سماع الأخبار التي تفيد بأن مولاي الحسن قد توفى. وتمكن من إرسالها بسرعة لا تصدق إلى ممثل بريطانيا العظمى في المغرب والمقيم بطنجة والذي اتصل بي وأخبرني أنه عازم على إرسال عميل سري. الأمر الذي سيكون بالتأكيد صعبًا وخطيرًا لأنه مع انتشار أخبار وفاة السلطان لن يكون هناك شك في حدوث اضطرابات من جميع الجهات. لقد تطوعت بطبيعة الحال لهذه المهمة وتم قبول عرضي. فتنكرت في زي وهيئة مغربي من الجبل ورحلت برفقة خادمي. وكانت جزءًا من مهمتي زيارة بعض الشرفاء من ذوي النفوذ الذين كنت أعرفهم شخصيًا من أجل حثهم على استخدام كل نفوذهم للحفاظ على السلم والنظام العام. وكانت مهمتي ناجحة. وفي 14 من شهر يوليوز كتب لي السيد إرنست ساتو لقبول طلبي بالعودة إلى طنجة. رسالته أمامي الآن ويقول فيها : "... أشعر بالتزام كبير تجاهك لأنك اضطلعت بمهمة محفوفة بالمخاطر. كنت الرجل المناسب ... شكرا جزيلا على كل ما فعلته".

6. سقوط وهلاك وزيرين.

كانت والدة مولاي عبد العزيز امرأة تركية تم إحضارها من القسطنطينية إلى المغرب. تذكر التقرير أنها كانت امرأة تتمتع بذكاء كبير وقوة شخصية كبيرة. كانت بالتأكيد أمًا مخلصة جدًا. يقال إنها لعبت دورًا في سياسة البلاد وأن زوجها استشارها في شؤون الدولة. يتضح أنها كانت تتمتع بشخصية رائعة من حقيقة أنها حافظت على نفوذها على السلطان حتى يوم وفاته. وهي ليست مهمة سهلة وسط حشد من المنافسين. وهكذا ضمنت خلافة ابنها. وكانت صديقتها ورفيقتها في الحريم سيدة تركية أخرى. وهي والدة السلطان مولاي يوسف[4]. ومن الغريب أن هاتين الأجنبيتين الموجودتين في أرض أجنبية كان مصيرهما أن يصبحن أمهات لسلاطين.

وقد كان من الطبيعي أن تثير خلافة الشاب القاصر جميع أشكال المكائد في البلاط. كان هناك فصيلان رئيسيان في القصر: حزب با أحمد الحاكم القوي من جهة، وحزب كل من المعطي الجامعي[5] الوزير الأعظم وأخيه محمد الصغير الجامعي[6] وزير الحرب من جهة أخرى. كان هذان المسؤولان الكبيران ينتميان إلى عائلة أولاد الجامعي الأرستقراطية وذات النفوذ. أما با حماد فقد كان ابن عبد زنجي وبالتالي لم يكن بإمكانه الاعتماد على أي تأثير قبلي أو عائلي. أما منافسيه، على العكس من ذلك، قد كانوا أرستقراطيين من فاس، من منبت نبيل ومدعومين من السكان ذوي النفوذ في المدن. كانوا ينتمون إلى ما يسمى عائلة المخزن، أي عائلة شغلت في الماضي مناصب حكومية، وكان لها نوع من المطالبة التقليدية بالمناصب السامية. فكان من الواضح أن المنافسة يجب أن تكون موجودة بين هذين الفصيلين.

---

[1] قصة وظروف وفاة مولاي الحسن وتتويج ابنه مولاي عبد العزيز تختلف في التفاصيل مع ما رواه أعلاه المصور الفرنسي ڤيير بسبب اختلاف مصادرها، لكنها تتفقان في الجوهر.

[2] وغالبا عند قرب أجله.

[3] الجنرال (القايد) السيد هاري أوبري دي فير ماكلين *Sir Harry Aubrey de Vere Maclean*، (1848 - 1920) المذكر أعلاه من طرف المصور الفرنسي ڤير. وللتذكير الجنرال عسكري اسكتلندي، كان مدربًا للجيش المغربي.

[4] تم تأليف الكتاب ثم نشره سنة 1921 في عهد السلطان مولاي يوسف (1912-1927) في ظل الحماية الفرنسية.

[5] المعطي الجامعي من رجالات المخزن المغربي أواخر القرن التاسع عشر، تولى منصب الصدر الأعظم بعد تدهور صحة أخيه محمد بن العربي الجامعي خلال فترة حكم السلطان الحسن الأول. والده هو العربي بن المختار بن عبد المالك الجامعي، الذي كان أحد وزراء السلطان مولاي عبد الرحمن. وكانت لالة الطام الجامعية، زوجة السلطان محمد الرابع وأم الحسن الأول، سببا في صعود أخيها المعطي الجامعي. كونه خال السلطان جعله يتقلد ويتناوب على أعلى المناصب الشريفة مع إخوته، محمد بن العربي الجامعي ومحمد الصغير الجامعي.

[6] محمد الصغير الجامعي شغل منصب العلاف الكبير أي وزير الحرب في عهد السلطان الحسن الأول، بعد أن تعاقب إخوته محمد بن العربي الجامعي والمعطي الجامعي على منصب الصدر الأعظم. وكان آل الجامعي مقربين من القصر لكونهم أخوال السلطان. وكانوا يطمحون أن يكون ولي العهد من بعده هو مولاي امحمد.

با حماد، بصفته حاجب القصر، منحه منصبه فرص التواصل المستمر مع السلطان الجديد الذي كان بسبب صغر سنه على اتصال قليل بوزرائه. لا شك في أن با حماد كان يعتمد أيضًا على نفوذ والدة السلطان. لقد كان أمين سر زوجها الدائم والموثوق به، وساعد في وضع ابنها على العرش. كما أن مصيرها كان يتوقف على بقائه هناك. فلا شك أن والدة مولاي عبد العزيز وبا حماد يعملان معا بتواطؤ.

بمجرد أن تم تنظيم الحكومة الجديدة بما يكفي للسماح لمولاي عبد العزيز بالسفر، غادر البلاط الملكي الرباط إلى فاس، العاصمة الحقيقية للبلاد. لا يمكن لأي سلطان الاعتماد على عرشه ليكون في أمان حتى يتم قبوله من قبل رجال الدين والأرستقراطيين الفاسيين ويقيم في مدينتهم. لأن فاس هي مركز الدين والمعرفة وأيضًا الدسائس وتأثير سكانها على القبائل كبير جدًا.

لذلك كان من المهم جدًا أن يصل السلطان الشاب إلى فاس في أسرع وقت ممكن. كانت رحلته عبر القبائل إلى مكناس ناجحة للغاية. وقد لقي استقبالًا جيدًا من جميع الجهات. وعند وصوله إلى العاصمة القديمة التي بناها مولاي إسماعيل، وهو معاصر للويس الرابع عشر، استقبله سكان المدينة بترحاب شعبي.

تقع مكناس على بعد حوالي ثلاثة وثلاثين ميلاً من فاس. ولم يبق هناك سوى هذه المرحلة الأخيرة للوصول إلى العاصمة. وقد كان با حماد يعي جيدا قيمة قدره ومقامه. فكان يعلم أن نفوذه سيتضاءل بمجرد وصوله إلى فاس. يمكن لخصومه الاعتماد فيها ليس فقط على دعم سكان البلدة، ولكن أيضًا على صلات السلطان في العاصمة. بالنسبة للفاسيين با حماد رجل مغرور، ولن يكون هناك بد من المؤامرات لإسقاطه، ولا رحمة عندما يسقط. فكان على با حماد إثبات وجوده الآن وإلا فلا.

بعد أيام قليلة من وصول السلطان إلى مكناس عُقدت جلسة البلاط الصباحية المعتادة. ولم تكن هناك علامة على اقتراب العاصفة. لا شك أن الأخوين أولاد الجامعي كانا ينتظران وصولهما بين أبناء شعبهم في فاس لبدء تدبير مكيدة أكثر فاعلية. وبدا با حماد نفسه مهذبًا ووديعًا مع الوزيرين النافذين.

فصعد الحاج المعطي الصدر الأعظم إلى المشور ملتحفا برداءه الأبيض ومحاطا بمؤيديه وسط انحناءات المسؤولين وتحية العسكر. وتم استدعاؤه على الفور للمثول أمام السلطان. وكان مولاي عبد العزيز بمفرده مع الحاجب با حماد عندما دخل الحاج المعطي. فانحنى الحاج وانتظر السلطان ليتحدث معه. وبصوت متخوف، سأله مولاي عبد العزيز سؤالاً. وكان رد الحاج المعطي غير مرضٍ. فبادر با حماد بإلقاء سلسلة من اللوم على الوزير، واتهمه بالخيانة والجشع والابتزاز والجرائم السياسية. وناشد السلطان فجأة وطلب منه الإذن بالقبض عليه. فحنى مولاي عبد العزيز رأسه.

بعد بضع دقائق، تم جر المخلوق الأشعث وهو يئن ويبكي وسط موجات من الضحك والسخرية عبر ساحة القصر وسط الحشود التي انحنت قبل قليل إلى الأرض تحية له. كانت ثيابه ممزقة، لأن الجنود كانوا خشنين معه وكانت عمامته ملتوية فوق رأسه. بخروجه من القصر بين بالجنود، أمسك الحارس عند الباب بعمامته البيضاء النظيفة ووضعها على رأسه ووضع على رأس المحبوس قبعة الخدمة الخاصة به. موجة من الضحك استقبلت هذا الفعل. ولم يكن شقيق هذا الوزير سي محمد الصغير وزير الحرب قد غادر منزله بعد إلى القصر حتى تم القبض عليه بباب منزله ولم يقم بأي محاولة للمقاومة وسمح باقتياده إلى السجن.

ربما كانت القصة اللاحقة لهذين الرجلين هي أحلك صفحة في عهد مولاي عبد العزيز. تم إرسالهما إلى تطوان في السلاسل. وحبسا هناك في زنزانة ببرج. مات فيه الحاج المعطي من بعد عشر سنوات. وخشي والي تطوان دفن الجثمان خوفا من اتهامه بإطلاق سراح سجينه. فكتب إلى البلاط للحصول على التعليمات. وكان الجو صيفا فكانت الزنزانة بالبرج ساخنة. لم يأت الجواب طيلة أحد عشر يومًا، ظل خلالها محمد الصغير مقيدًا بالسلاسل إلى جثة أخيه المتفسخة! . في عام 1908 أطلق سراحه بعد أربعة عشر عامًا في السجن. خرج منه رجلا يائسا ومحطما ومدمّرا. وقد تمت مصادرة كل ما كان يمتلكه. وماتت زوجاته وأولاده نتيجة الفاقة والاضطهاد. خرج من زنزانته المظلمة شبه أعمى وأعرج بسبب القيد القاسي بالسلاسل. وقيل إنه كان قاسياً أيام كان في السلطة. فيا له من ثمن باهظ ذلك الذي دفعه.

استقر في طنجة حيث كنت أراه بشكل شبه يومي. كان يعيش في فقر مدقع. لكن جميع أصدقائه ساعدوه ولم يكن يريد سوى القليل. أمة عجوز من العائلة، نجت في زاوية منعزلة، جاءت لعلاجه وتدليك معصميه وكاحليه. وأخيرا مات. وقبل يومين من وفاته رأيته للمرة الأخيرة. كان من الواضح أنه بقي له عمر قصير للغاية. جلست معه لفترة طويلة. وعندما نهضت لأتركه،

قال: "اسمع. عندما يغسلون جسدي للدفن، أريدك أن ترى يدي ورجلي في القيود والأصفاد التي كانت فيها مدة أربع عشرة سنة من عمري والتي أرغب في الظهور بها أمام الله لكي أسأله عن العدل الذي رفضه سلطاني، وحتى يفتح لي ابواب الجنة برحمته الواسعة وبعفوه". كان من المستحيل تلبية طلبه، لكنني أعتقد أنه تم خياطة رابط في كفنه. وبأقسى أشكال السخرية، تلقى دفنًا عسكريًا رسميًا، حضرته جميع السلطات والمسؤولين المحليين. فقبل كل شيء قد كان وزيرًا للحرب!

7. الأوضاع في بداية عهد مولاي عبد العزيز.

لم تكن إقامة مولاي عبد العزيز في فاس، العاصمة الشمالية، عام 1894 طويلة الأمد، حيث كان من المهم أن يتحرك البلاط جنوباً لتوطيد نفوذ العرش في هذه المناطق. وذلك بالرغم من أن شمال المغرب كان دائمًا الجزء المضطرب والمثير للفتنة من البلاد إلا أنه لم يمثل أبدًا خطرًا جسيمًا مثل ما كان عليه الأمر بالجنوب. قبائل الشمال فقيرة وذات قوة كبيرة عدديًا، لكنها دائمًا في حالة حرب بعضها على بعض. أما في منطقة مراكش فالأمر مختلف. الأرض الزراعية هناك خصبة والإنتاج الفلاحي ضخم ويجعل القبائل ثرية تمتلك خيولا ممتازة ومسلحة جيدًا وغزيرة الإنجاب.

أما من وراء السهول فتسكن في سلسلة جبال الأطلس العظيمة القبائل البربرية الملتهبة والحربية، والتي لا تنهزم لبلوغ كل المقاصد والحصول على كل الأغراض. ولحسن حظ السلاطين، هذه القبائل العظيمة التي يحكمها زعماء وراثيون، غالبا ما كانت على علاقة سيئة بعضها مع بعض. لهذا كان من أهم إنجازات حكومة الحماية الفرنسية في السنوات الأخيرة تشكيل رابطة القبائل الجنوبية. أي شخص يعرف المغرب القديم لا يكاد يصدق أن الزعماء العظماء مثل الڭلاوي والمتوڭي والڭندافي وقايد الرحامنة سيمدون أياديهم بعضهم إلى بعض ويتعاونون من أجل مصلحة البلاد. لكن الأمر هو كذلك اليوم.

استطاع مولاي عبد العزيز مغادرة الشمال في حالة سلام وأمن. وقد كانت هناك فعلا بالجنوب علامات على وجود مشاكل لا يمكن تجاهلها. فكان لوصول السلطان إلى العاصمة الجنوبية تأثير مهدئ. وشرع با حماد في العمل على إعادة النظام بين القبائل المضطربة. وتم تعيين ولاة جدد، وشعر الجميع بيد با حماد الحازمة. با حماد الذي شرع في بناء قصر لنفسه على حساب الدولة. استمر فيه البناء لمدة ست سنوات وتم توظيف جميع العمال والفنانين المتاحين. وكانت النتيجة فخمة. المبنى يسمى قصر الباهية ويشكل مقر حكومة الحماية الفرنسية.

كان لدى با حماد أشياء أخرى يفكر فيها إلى جانب قصره. ساد استياء شديد بين بعض القبائل، لا سيما بين قبيلة الرحامنة التي تقع أراضيها الشاسعة شمال مدينة مراكش مباشرة. قام الزعيم الطاهر بن سليمان وتمردت القبائل تحت نفوذه. تم اغتيال رجال السلطات المحلية أو طردهم، وأصبح التمرد عامًا. استغرقت إزالته وقتًا وكلفت الكثير من الرجال والمال. في إحدى المرات وصل المتمردون إلى أسوار مراكش واستولوا على الضواحي الشمالية للمدينة. لكنهم طردوا.

وأظهر با حماد قدرة كبيرة في قمع هذه الثورة. لم تكن قواته تقاتل بلا هوادة فحسب، بل عرف أيضًا كيف يستخدم الحسد وانعدام الثقة التي كانت لا تزال قائمة بين المتمردين. استعمل قبيلة ضد قبيلة وأحدث انقساما ضد انقسام. وقد انتصر المخزن بفضل تنظيمه المتفوق وبالوسائل المتاحة له لشراء الرجال والأسلحة والذخيرة، فتم قمع تمرد رحامنة وتم تخريب مئات الكيلومترات المربعة من أراضيها بالنار والسيف والنهب. تم القضاء على كل القبيلة تقريبًا. مات المئات منها في السجن. ووقع النساء والأطفال فريسة للجنود وتم بيعهم أو طردهم.

بعد بضع سنوات، سافرت عبر أرض الرحامنة. وكانت لا تزال مهجورة وكانت الحقول مغطاة بالأعشاب الكثيفة والشجيرات الشائكة. بقي عدد قليل فقط من الخيام السوداء الأكثر بؤسًا، مع سكان نصف جائعين، حيث عاشت قبيلة الرحامنة الغنية والمزدهرة ذات يوم. وتم القبض على الطاهر بن سليمان ووضع في قفص مصنوع من فواهات بنادق أنصاره. وهو قفص صغير بالكاد يستطيع التحرك فيه. وكان مكشوفًا للجمهور في مراكش ليتم البصق عليه وإهانته. وانتهى به الأمر بالموت في السجن.

8. وفاة الصدر الأعظم با حماد وتبعاته.

طالما بقي باحماد حيا، فإن السلطان الشاب سيبقى معزولا قصره. صحيح أنه كان يظهر في الاحتفالات والأعياد الدينية بالأماكن العامة. لكنه لم يكن كيانًا قادرا على الحكم. وحده با حماد كان يحكم المغرب. وفي سنة 1900 توفى. كنت في مراكش

وقت مرضه الأخير، حيث كان يقضي ما تبقى من عمره يومًا بيوم باستنشاق الأكسجين. ولا أحد يبالي به، باستثناء عدد قليل من أنصاره ومرافقيه الشخصيين الذين سيتضررون بشكل طبيعي من وفاته.

ما كان با حماد يتمتع بشعبية أبدًا. ولقد أشعلت الثروة الهائلة التي جمعها والقصر العظيم الذي بناه نار غيرة الآخرين الذين لديهم نفس الرغبات ولكن ما كانت لديهم نفس الفرص. كان مهابا بالتأكيد لأن إرادته كانت لا تقهر وكان قاسياً. وكان نوع من الخوف الخرافي يحيط بحياته، لكنه اختفى عندما أسقطه المرض. ولما زفر أنفاسه الأخيرة اندلعت مشاعر الناس المكبوتة فانتفضوا وشتموه.

وفاة شخصية عظيمة في المغرب أمر مروع. لعدة أيام مع انتهاء صلاحية الوزير تم نشر الحراس خارج قصره في صمت في انتظار النهاية. وذات صباح، أعلن نحيب النساء داخل القصر أن الموت قد حل. فتم الاستيلاء على جميع أبواب المبنى الكبير، ولم يُسمح لأحد بالدخول أو المغادرة. بينما كان هناك هرج ومرج في الداخل. عبيده نهبوا كل ما وقع تحت أيديهم. واقتتلت زوجاته وسرقن المجوهرات. وكسرت الخزائن واستخرجت الوثائق ومستندات الملكية، كما انتزعت الأحجار الكريمة من إطاراتها لتسهيل إخفاءها. بل وقعت حتى عمليات قتل.

وبينما كان كل هذا يحدث داخل الجدران الخاضعة لحراسة مشددة، تم إخراج جثة با حماد ودفنها. كان السلطان يبكي ويتبع محمل الرجل الذي وضعه على عرشه وأبقاه هناك خلال تلك السنوات الصعبة من شبابه. في الواقع، كان يشعر بالوحدة وهو يقف إلى جانب قبر وزيره ، الذي كان مخلصًا في كل الظروف، مهما كانت عيوبه ومهما كانت ابتزازاته.

عندما عاد مولاي عبد العزيز إلى قصره وهو لا يزال يبكي، كان أول ما فعله هو التوقيع على مرسوم مصادرة جميع ممتلكات با حماد التي أصبحت الآن غنيمة جاهزة. وتم تسريح جميع المسؤولين والعبيد لتنفيذ الأوامر الملكية. ولعدة أيام كانت الدواب المحملة بالأمتعة تنقل ممتلكات با حماد إلى قصر السلطان. وأجبرت نساؤه وعبيده على التخلي عن غنائمهم. وبقي القصر خاليًا وأصحابه مفلسين. وصارت عائلته عرضة للمجاعة والهلاك. وأخذ السلطان عبيده ليحتفظ بهم أو يبيعهم. وتحولت عقارات عائلة با حماد الشاسعة إلى ملكية للدولة. تلك كانت من تقاليد البلاد. تنتقل ممتلكات جميع مسؤولي الدولة بموتهم إلى سيدهم السلطان. كنت أرى أبناء با حماد من وقت لآخر. إنهم يعيشون في فقر مدقع، ويقبلون ما يمن به البعض عليهم من هدايا أو صدقات تافهة مثل تلك المبالغ الصغيرة التي قد يحتقرها خادم كبير في إنكلترا.

كان السلطان الآن في العشرين من عمره. ويمكنه في أي وقت أن يفرض نفسه. بيد أن إصرار الملوك الشبان الذين يتمتعون بسلطة مطلقة وبدون خبرة أمر خطير. لذلك أدرك الوزراء على الأرجح أن اختفاء يد با حماد القوية سيغري السلطان الشاب ليصبح أكثر استقلالا. فكان من الضروري التوصل إلى تفاهم حول حمله على كيفية التفكير والتصرف. بالطبع لا ينبغي أن يكون ذلك في اتجاه شؤون الدولة التي أراد الوزراء الاحتفاظ بها لأنفسهم. يجب إيجاد شغل للعاهل عديم الخبرة والمعزول حتى الآن. كان ذلك بالضبط عكس كل تقاليد المغرب. لكن الوضع كان غير عادي، لأنه لم يسبق أن كان هناك سلطان في وضع مماثل.

شعر الوزراء أنه إذا ما تمت ممارسة الضغط عليه لإبقائه في قصره فيمكنه التمرد على هذه العزلة القسرية، ومن تم التخلص، وربما من دون لطف، من الرجال الذين همشوه تماما؛ من الواضح أنه ينبغي أن يكون السلطان لاهيا، ويجب أن تكون مسلياته عديدة ومتنوعة بحيث تصرف كل انتباهه عن شؤون الدولة. ولا يستطيع المغرب وحده توفير مستجدات التسلية الضرورية. كانت الملذات والكماليات التي يمكن أن توفرها له البلاد هي نساؤه وخيوله ومجوهراته وجميع المسليات التي تشكل بيئة الحاكم الشرقي. بالنسبة لغيرها من الإلهاءات وجب الاتصال بأوروبا. ولم يتم القيام بذلك سدى. لقد كانت تلك هي بداية الكارثة الكبرى المتمثلة في الإسراف الطائش والحماقات والديون التي أدت إلى القروض الخارجية ثم خطوة بعد خطوة انتهت إلى فقدان استقلال البلاد.

في الأشهر العديدة التي أمضيتها في البلاط المغربي كنت أعتقد دائمًا أن الكارثة ستحل في النهاية. من الواضح أن السلطان قد تم اقتياده إلى طريق الخراب. وبجانبه بذلت، كما كنت دائما، كل جهودي لإقناعه بالحقيقة، لكنها ذهبت سدى. في أكثر من مناسبة، خاصة، قرب نهاية عام 1902، ناشدته حتى يستيقظ في الوقت المناسب، بلهجة، قال عنها بابتسامة "لم يجرؤ أحد على التحدث إلي بها من قبل". لقد كان لطيفًا، وشكرني لكوني صريحًا للغاية. واستمر في ميوله المؤيدة لأوروبا وفي بذخه. لو أنه فصل معظم موظفيه الأوروبيين بحلول هذا الوقت، ولم يتبق منهم سوى طبيبه ومهندس أو اثنين وأي شخص كان يعمل لدى والده لتوقف عن إنفاق أمواله، ولكان من الممكن تغيير مستقبل المغرب بأكمله.

9. ظهور المتمرد بو حمارة

بحلول نهاية عام 1902، عاد مولاي عبد العزيز إلى فاس حريصًا على إجراء إصلاحات. كانت نواياه صادقة. ولكن إذا كان هناك شيء واحد لم يرغب الوزراء في رؤيته، فهو الإصلاح، لأن سبل عيشهم وثرواتهم كانت تعتمد على الحفاظ على حالة الفساد التي كانوا حريصين على استمرارها. لذلك غضوا الطرف عن إسراف السلطان الشاب. وبينما كانوا يراقبونه وهو يهدر أمواله وأموال بلاده في جميع أنواع التفاهات، استمروا هم يتقاسمون الأرباح.

انتشرت كل أنواع الشائعات والقصص بين القبائل حول ما يحدث في القصر. على سبيل المثال، وجد السلطان لمعان بياض الجدران لإحدى الساحات الداخلية مزعجا لعينيه. فأمر بطلاء الجدران باللون الأزرق وكانت مرئية من التلال فوق فاس. فسرعان ما جذبت انتباه رجال القبائل الذين يحضرون إلى الأسواق المحلية. بالنسبة لهم، بما أن اللون مخالف للتقاليد الإسلامية، فهذا يعني أن مصدره لا بد أن يكون من أصل مسيحي. وهكذا انتشرت شائعة مولاي عبد العزيز الذي فقد ثروته في لعب الورق مع أصدقائه المسيحيين. ففقد معها حتى البلاط نفسه الذي استولى عليه المسيحيون وصبغوا جدرانه باللون الأزرق. في حين كان لعب الورق غير معروف داخل القصر. ومع كل إسرافه، لم يظهر أبدًا على مولاي عبد العزيز أي ميل للمقامرة. كل لعب من أجل المال حرمته الديانة الإسلامية. وكان السلطان الشاب صارمًا في مراعاة عقيدته.

هكذا انتشرت شائعات النفوذ المسيحي بسرعة، والتي سرعان ما استُخدمت بشكل جيد. فالمغاربة في الغالب انتهازيون. وكان أحدهم، وهو عمر الزرهوني[1]، أكثر انتهازية من غيره. كان رجلاً متعلما كان كاتبًا في البلاط. لكن اتهامه بالتزوير وضع حدًا لمسيرته المهنية في القصر. ثم صار لفترة من الوقت يعمل كسكرتير لحمو الحسن، قائد قبيلة بني مطير الأمازيغية، لما عرفته. وفي عام 1901 ترك القايد واختفى.

وبفضل عدة مهارات مبهرة استطاع أن يكسب رزقه بتنقله من قبيلة إلى أخرى على ظهر أتان[2]. وصار معروفًا على طول الريف باسم "أبو حمارة". بدءا من مجرد كسب لقمة العيش، سرعان ما رأى إمكانيات الحياة المهنية على نطاق أوسع. وبفضل خفة يده وبلسانه الساحر أحاطت بشخصه نوع من الهيبة الدينية. وفي أحد الأيام أعلن نفسه فجأة مولاي امحمد[3]، الابن الأكبر للسلطان الراحل مولاي الحسن، وبالتالي الأخ الأكبر للحاكم آنذاك، مولاي عبد العزيز. لفترة من الوقت لم يفارق أتانه. وقد أضافت بساطة وسيلة تنقله هذه عامل جذب إلى هيبته الروحية في نظر المؤمنين به.

فتم إرسال جيش في اتجاه تازة لقمع التمرد. حينها كان اختيار القائد العام للجيش من أجل مثل هذه المهمة أمرًا معتادًا بالنسبة للمغرب. فسألت السلطان في ذلك الوقت عمن اختار قائداً أعلى للقوات المسلحة. من دهشتي قال: "أخي مولاي الكبير[4]". فأجبته: "لكنه لا يزال صبيًا، ولم يكن قط جنديًا". فأجاب السلطان: "هذا صحيح، لكن جميع إخوتي الآخرين تكلفوا بحملات عسكرية. وها قد حان دور مولاي الكبير. لم تتح له الفرصة أبدًا لكسب أي أموال". وكان كسب بعض المال، بالطبع، بالسطو على رواتب الجنود ومن خلال الابتزاز في كل مكان.

10. أحداث الهجوم على محلة السلطان.

تأخر رحيل مولاي عبد العزيز من فاس إلى الرباط بسبب هذا التمرد المتنامي لبو حمارة. ولكن يبدو أن الأمور قد هدأت. في نهاية خريف 1902 بدأت الرحلة الملكية التي رافقت فيها السلطان عندما غادر فاس. وتوجهت المحلة بكل بهائها

---

[1] يتعلق الأمر بعمر بن إدريس الجيلالي بن ادريس محمد اليوسفي الزرهوني (1860- 1909). لقَّبه خصومه بالروگي وبوحمارة. فهو معارض مغربي ثائر. نازع مولاي عبد العزيز على الحكم المغرب. وادعى أنه مولاي امحمد، المقصي من ولاية العهد. فسيطر على المغرب الشرقي وأصبح يهدد السلطة المركزية نتيجة المساعدات الفرنسية والإسبانية التي حصل عليها مقابل استغلال الدولتين لمناجم المنطقة. وأقام مملكته المزعومة التي جعل عاصمتها مدينة تازة، وتوج نفسه سلطاناً بها وحكم فيها لمدة سبع سنوات متتالية.

[2] أو حمارة باللغة الدارجة المغربية

[3] مولاي امْحمد والمعروف كذلك بمولاي الأعور (1869م - 1946) هو الابن البكر للسلطان المغربي الحسن الأول، تولى منصب خليفة السلطان على مراكش في عهد والده. ولعب الحاجب ابّا احماد دورا أساسيا في تنحيته من ولاية العهد وتولية المولى عبد العزيز، أصغر أبناء الحسن الأول، العرش سنة 1894م، ليصبح باحماد الصدر الأعظم خلال العصر العزيزي الأول والحاكم الفعلي للمغرب إلى حين وفاته عام 1900م. تعرض مولاي امْحمد للحبس حين تولى المولى عبد العزيز العرش، وهو ما تكرر أيضا في عهد المولى عبد الحفيظ. لكن السلطانين المتعاقبين سيضطران معا إلى إخراجه من الحبس في بعض المناسبات ليراه الناس ويتأكدوا أنه ليس بوحمارة، الرجل الذي تمرد على المخزن وطالب بالعرش زاعما أنه الابن البكر للحسن الأول.

[4] هو مولاي عبد الرحمان بن الحسن الملقب بمولاي الكبير

وجلالها إلى مكناس حيث مكثنا بضعة أيام، ثم إلى أرض زمور حيث كان التمرد مستعرا. ومن المستحيل تحديد عدد الرعاع الذين رافقوا السلطان. لكن ربما كان هناك 18000 أو 20000 منهم في المحلة وغير صالحين تمامًا للحرب. رافق السلطان عدد من التجار من فاس الذين تعودوا اتباعه من عاصمة إلى أخرى، وكان برفقة كل منهم عائلته وخدمه. وكان من بين المجموعات الغريبة الأخرى مئات المتسولين، ومعظمهم من المكفوفين، والذين هاجروا أيضًا مع المحلة.

كان هناك قتال في أرض زمور. ولكن كان هناك قتال أكثر في معسكر السلطان. الأحداث التي وقعت كانت عادية في ذلك الوقت في البلد. قرر أفراد قبيلة زمور مقاومة تقدم السلطان في واد عميق عبر السهول بشكل متعامد مع خط مسيرتنا. وأطلق المتمردون بضع طلقات على الجيش. تم إحضار مدفعية السلطان ورشاشاته إلى حافة الوادي وبدأت في إطلاق النار على الأحراش.

أمرت كتيبة الدكالة بالتقدم. وأطلقت عليهم عدة أعيرة نارية أثناء نزولهم. وسرعان ما وصلوا إلى قرية صغيرة مهجورة. هنا كان الإغراء قوياً للغاية. بدأوا في النهب. وكان القرويون قد أخذوا معهم جميع ممتلكاتهم المنقولة. لكنهم تركوا من ورائهم مخزون الحبوب. والحبوب ثمينة في معسكر السلطان. فكان السؤال هو كيفية نقلها إليه. ولا يمكن التغلب على الجندي المغربي بسهولة. فقررت كتيبة دكالة الشجاعة رفع التحدي. بحضور السلطان والجيش كله، وضعوا بنادقهم وخلعوا ملابسهم الرسمية وحتى سراويلهم. وربطوا ثقوب السراويل التي تخرج منها الأرجل بالخيط، وملأوها بالقمح. هكذا حملوا غنائمهم على ظهورهم والتقطوا أسلحتهم وعادوا إلى الجيش.

ولا شيء يمكن أن يدفع الكتيبة إلى الاستمرار في القتال. بالرغم من كل الأوامر شعر دكالة أن يوم عملهم قد انتهى وساروا إلى خيامهم بانتظام. فتم إرسال كتيبة عبدة لإقناعهم بالعودة في اتجاه العدو والتخلي عن غنائمهم. لكنهم وجدوا أنفسهم في مواجهة مع دكالة تحت ثقل أحمالهم. فكان الاصطدام لا مفر منه وهاجموهم.

قضيت أياما كثيرة غريبة ومضطربة في المغرب. لكن ربما كان هذا اليوم فريدا، حيث تقاتل الفريقان على اقتسام الغنيمة. وكان الرصاص يتطاير في جميع الاتجاهات. وكان ينبغي الاستلقاء في أدنى مستوى ممكن من الأرض لتفاديه. وفي النهاية هدأت الأمور. ووقف إطلاق النار كان يعني تسوية. فالتأم الطرفان متآخيين، وتخلى دكالة مؤقتا عن أحمال سراويلهم وعادوا مع عبدة حفاة إلى قرية زمور. وبمجرد وصولهم جاء دور عبدة للخروج من سراويلهم، وساعدهم دكالة على ملئها بالحبوب المتبقية. فعاد الفريقان سويًا باستثناء عدد قليل من القتلى والجرحى، يحمل كل منهما على ظهورهم السراويل المليئة بالقمح والشعير. لن أنسى أبدًا ذلك المشهد والسلطان الغاضب وبلاطه وبقية الجيش عاجزون عن تغيير مجرى الأحداث. ثم جاء أحد خدامي وأخبرني أن كل شيء على ما يرام وأن الجيش يُجلد الآن. وهذه حقيقة، لأن وزير الحرب النشيط قد تمكن من إيقاف الناجين من كليهما. وأمر بجلدهم بشكل فردي واحدًا تلو الآخر من طرف جنود من القبائل الأخرى والعبيد والمتطوعين.

وصلت أنباء إلى السلطان أن الجيش الذي يقوده أخوه قد هُزم على يد بو حمارة بالقرب من تازة. على عجل، استدرنا وعدنا إلى فاس. وسلطت رحلة العودة الضوء على الكثير من الأشياء التي لم يكن هناك شيء معروف عنها، أو على الأقل يهتم بها في المعسكر. كانت الطريق مليئة بالقتلى من جيش السلطان الذين تخلفوا عن الركب وقطعهم المتمردون من زمور. وجدنا في محيط مسجد ريفي عشرات الجثث مقطوعة الرأس ومشوهة. وجدنا حتى المتسولين المكفوفين والماشين على الأقدام الذين جعل تعبهم شبه مستحيل متابعة سير الجيش فوقعوا فريسة لأبناء القبيلة المتمردة. وعُثر على العديد منهم مجردين من ممتلكاتهم القليلة ومذبوحين.

والويل للجرحى. يتركون ليموتوا حيث سقطوا. ليس في جيش السلطان لا مستشفى من أي نوع ولا مركبات إسعاف. كل الجهود التي بذلها الأطباء القلائل الذين كانوا يعملون من وقت لآخر في البلاط المغربي كانت بلا جدوى. يقدمون المساعدة الطبية بكل إخلاص لكن من دون أي تشجيع أو اهتمام من طرف المخزن. حتى عندما تعرض الجيش بأكمله لوباء الملاريا كان الطبيب هو الذي يزود من جيبه بكل الكمية اللازمة من الكينين. يبدو أن فكرة قيمة حياة الرجال لم تدخل أبدًا في أذهان السلطات. فلا ينجو الجندي الجريح من الموت في ساحة المعركة إلا إذا اختار رفيق نقله إلى المعسكر. هكذا كانت مسألة نقله ورعايته متروكة بالكامل لرفاقه. ولم يكن رفاق الجندي المغربي مستعدين دائمًا لتقديم تضحيات من أجل رفيق جريح. بل كانوا في كثير من الأحيان ينتظرون موته لأخذ ملابسه. ومن بين الجرحى من سلبت منهم ملابسهم وتركوا ليهلكوا في انتظار موتهم.

خلال صيف عام 1903، بعد أن عدت إلى طنجة تم القبض عليّ من طرف أفراد قبيلة الريسوني. وقضيت ثلاثة أسابيع في الأسر في منطقة الزينات وجبال أنجرا. كان الريسوني[1] طوال هذا الوقت على اتصال مع بو حمارة الذي ظل في منطقتي تازة ووجدة. عندما كنت سجينًا عنده تمكنت من استخراج عدد من الوثائق ذات الأهمية الكبيرة من خزانة سرية في الغرفة التي تم حبسي فيها. وكان أحدها عبارة عن ظهير من المدعي المتمرد عين بموجبه الريسوني واليا على قبائل الجبال شمال غرب المغرب. هذا الظهير مختوم بخاتم المدعي تحت اسم امحمد بن الحسن. لا شك أن الريسوني ، الذي كان حينها واليًا لمولاي عبد العزيز في نفس المقاطعات، قد أبقى في جعبته على هذا الترشيح البديل في حالة الحاجة وقت إعلان المدعي سلطانًا.

11. أحداث الدار البيضاء سنة 1907.

في عام 1907 قصف الفرنسيون الدار البيضاء بعد اغتيال العديد من العمال الأوروبيين على يد السكان المحليين. كان هؤلاء العمال من الإيطاليين والفرنسيين يعملون في استخراج ونقل الأحجار لبناء الميناء. وكانت السكة الحديدية الصغيرة المستخدمة لهذا الغرض تمر عبر مقبرة المسلمين أو بالقرب منها. فتم تحريض السكان من قبل رجال الدين على كسر كل كوابح ضبط النفس وهاجم المغاربة القطار. فقُتل ركابه من العمال العائدين من الشغل.

حينها وصلت سفينة حربية فرنسية إلى مكان الحادث ونزلت منها مجموعة مسلحة لحماية سكان المدينة الأوروبيين. وتم في الوقت نفسه قصف الحصون وأحياء السكان المحليين. ولم تكن المدينة تتعرض لإطلاق نار من السفينة الحربية فحسب بل استغلت القبائل المحيطة حالة الذعر لغزو المكان ونهبه. وكانت القوات الأوروبية كافية لحماية القنصليات ونجا معظم المسيحيين من القتل.

عندما تمت استعادة النظام قدمت المدينة مظهرًا مثيرًا للشفقة. رأيت ذلك بعد أيام قليلة من القصف. وكان المشهد لا يوصف. لم يكان النهب مكتملا. فبدا أن محتويات جميع المنازل تقريبا قد ألقيت في الشوارع ودمرت. لا تزال فيها أكوام من القطن وصناديق من المواد الغذائية والبضائع المتناثرة. وقد أضرمت النيران التي دمرت العديد من المنازل في أفقر جزء من المدينة حيث كانت معظم البيوت مغطاة بالقش.

خرج المسلمون واليهود من الأقبية المظلمة حيث كانوا مختبئين منذ اليوم الأول للقصف. وكثير منهم جرحى. كانوا يزحفون شاحبين ومذعورين. البعض منهم انتشلوا من تحت أنقاض منازلهم. وانتشرالدم في كل مكان. قابلت امرأة ذات شعر أشعث في حالة جنون وهي تصيح: "عائشة حفيدتي، حفيدي أحمد، أين أنتما: أنا هنا. لم تروا أطفالي الصغار، أليس كذلك؟ فتاة صغيرة وصبي صغير رضيع تقريبًا". ولا تنتظر الرد. وظلت تنادي "عائشة!.. أحمد!.." حتى توفيت.

12. الجشع والابتزاز بدار المخزن

إحدى العائلات المسلمة التي عانت من تقلبات كثيرة هي عائلة الحاكم السابق لأولاد سفيان في الغرب. كان الحاج بوسلهام الرموش ذات يوم رجلاً عظيماً. كان مدينًا بتعيينه في منصبه للأصدقاء والفساد في البلاط. وسرعان ما أصبح شخصية مؤثرة وثرية. في الواقع، لم يكن كغيره حاكمًا سيئًا. كان يمارس الابتزاز بشكل عادي وكانت سجونه ممتلئة، لكن القبيلة التي حكمها لم تشتك منه بشكل مفرط. مما يعني أنه كانت لديه مزايا جيدة. مزاياه لم يكن بالتأكيد من جملتها أبناؤه، إذ أن أكبرهم الذي كان نائب الحاكم كان وغدا حقيقيًا.

كان فارسا جيدا ويرتدي دائمًا ملابس أنيقة. هكذا كان يبدو شخصية جذابة. لكنه كان يعاقر الخمر بغزارة، ولم تكن أي امرأة أو فتاة جذابة في ولايته محصنة من شهواته. وكان لا يزال شابًا تقريبًا عندما وقع الحادث المؤسف. كانت هناك شكاوى للسلطان بشأن تسيبه. الأمر الذي سرعان ما جعل والده عرضة لابتزازات البلاط الشديدة. وكل ثروته لم تستطع تحملها.

عندما سلب منه الوزراء كل ما كان عليه أن يقدمه لهم، وصلت مجموعة من القوات واعتقلت جميع أفراد أسرته من الذكور. وأرسلت القايد وأبناءه الكبار مقيدين بالسلاسل إلى مراكش. ثم مرت إلى حريمه في اليوم التالي. وهدم منزله حجرة حجرة

---

[1] أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله الريسوني (1871- 1925)، وهو مولاي أحمد الريسوني، أو برّيسون. ويدعوه رجاله بالشريف الريسوني. ويسميه الإنجليز البريسولي. وهو ثائر وزعيم مغربي، من مناوئي الاحتلال الفرنسي في المغرب العربي في مطلع القرن العشرين.

بحثًا عن كنز محتمل. فأصبح منزله خرابا. وحتى اليوم يمكن رؤية أطلال ما كان في السابق مكانًا رائعا للإقامة، في وسط مجموعة متشابكة من أشجار التين الهندي.

هكذا سرعان ما استسلم الحاج بوسلهام لأهوال سجن مراكش، وهو رجل مسن ومعتاد على كل كماليات الثروة. توفي ابنه الأكبر بعد فترة وجيزة. والثالث، وهو صبي، تم إطلاق سراحه. بعد بضع سنوات التقيت به على صهوة جواد بالقمم قريبا من وزان، و قد صار راعياً لقطيع من الماعز. وقال لي: "ألا تتذكرني؟ أنا هو محمد ابن الحاج بوسلهام الرموش". فطلبت منه أن يروي لي قصته.

بعد أن أطلق سراحه من السجن، مفلسًا بالطبع، لجأ إلى أهل والدته الذين عانوا أيضًا من المصادرة العامة التي أعقبت سقوط والده. وهو حينها راعي ماعز. وقبل بضع سنوات فقط، كم مرة رأيته يمتطي حصانًا أو أكثر من جملة خيوله الجميلة، على سرج مطرز بالذهب وهو محاط بعبيده.

بعد بضع سنوات، التقيت به مرة أخرى. لقد تحسن وضعه. تمت استعادة بعض ممتلكاته المصادرة مرة أخرى، وصار من جديد شابًا ميسورًا ومترفا. اليوم، في ظل حكم أفضل، هو أحد كبار مالكي الأراضي والمزارعين، وقد عاد مرة أخرى ليركب الخيول الجميلة.

كقاعدة عامة، تبقى العائلات متماسكة في السراء والضراء. يعتمد أمنهم على تلاحمهم وعددهم. عندما يصبح أحدهم قائد يجمع جميع إخوته وأعمامه وأبناء عمومته، ويقيمهم من حوله ويعفيهم من دفع الضرائب ويتركهم يرتقون. العائلة المتماسكة تشكل القوة العددية التي تخدمه بقدر ما تحافظ على هيبته وتبقيه في مأمن من القتل والتمرد. لكن، في بعض الأحيان تكون تلك العائلات مشتتة، فويل لها من التشتت.

وقبل حوالي ثلاثين عامًا، عند وفاة أحد أعظم قواد الجنوب، هرع ابنه الأكبر إلى بلاط السلطان، ومعه بغال محملة بالمال لشراء الخلافة في منصب والده. وكان هناك الابن الأصغر الذي كان لا يزال يُقبل في غرف النساء، وكانت والدته الزوجة المفضلة للقايد العجوز التي ظلت أمينة سره حتى وفاته. كانت تعرف جيدًا ما سيكون مصيرها إذا أفلح الابن الأكبر في شراء منصب أبيه: سيطردها هي وابنها ليموتا من التشرد ومن الجوع. وحتى في حال لم يقتل صغيرها، فمجرد اشتداد الخلاف بين أفراد الأسرة سيكون أمرا مميتا.

لكن، هي من دون غيرها كانت تمتلك الورقة الرابحة. كانت تعرف سر المكان الذي قد تم فيه إخفاء ثروة القايد الراحل. وبفضل علاقاتها أرسلت ابنها إلى البلاط. ولما وصل وجد أن أخاه غير الشقيق قد تم تعيينه بالفعل في منصب القيادة مكان والده وغادر مراكش للعودة إلى قبيلته في ذلك الصباح بالذات. فلم تكن هناك لحظة للتضييع.

بحث الشاب ومستشاروه عن الصدر الأعظم وسألوه عن المبلغ الذي دفعه الأخ لشراء المنصب الشاغر. فتم الإفصاح عن المبلغ. ومن تم عرض الأخ الأصغر مبلغًا أكبر مقابل رسالة من السلطان يعينه بموجبها في المنصب مدعوما بالقوات الإمبراطورية لاتخاذ أي إجراء يراه ضروريًا من أجل تجريد أخيه. فتم إبرام الصفقة بسرعة مع وجود مجموعة قوية من سلاح الفرسان تحت تصرفه من قبل السلطان وانطلق في المطاردة. فالتقى الطرفان خارج أسوار القصبة، وتغلبت القوات السلطانية، وتم أسر الابن الأكبر وإلقاؤه في زنزانة بالقلعة. وغني عن القول أنه لم يخرج حيا قط. بقي الجنود بضعة أيام، وعادوا إلى البلاط حاملين ثمن شراء المنصب الموعود، من بعد ما استخرج الولد الصغير كنز أبيه الذي كان سرا من تحت نافورة كبيرة في باحة القصبة.

لم يكن هناك من محظور لا يرتكبه المخزن من أجل المال. كان القصر كله غارقًا في الابتزاز. كانت مجرد زيارته باهظة الثمن. اعتقد الكثيرون أن القلة المحظوظة التي فتحت لها أبوابه المغلقة بإحكام قد حققت ثروة. ذاك صحيح بالنسبة لمن لديهم سلع للبيع. لكن أولئك الذين كانوا مثلي زوارًا عرضيين كانوا يدفعون مبالغ كبيرة مقابل امتياز الدخول.

عندما كنت أصل إلى بوابات القصر كان العبيد السود يمسكون بحصاني. وعند مغادرته في وقت لاحق كان العبيد هناك لكن الحصان غير موجود. فلا الاحتجاجات ولا التهديدات تجدي نفعا لاستعادته، فكان لا بد لأجل ذلك من دفع إتاوة، غالبًا ما تكون ثقيلة. في وقت من الأوقات، كانت زياراتي لمولاي حفيظ، الذي كان في ذلك الوقت في فاس، تكاد تكون يومية. وكان هذا النوع من الابتزاز مكلفًا للغاية. في إحدى المرات فقدت أعصابي ولعنت العبيد. ومن بعد أن لم أحصل على أي فائدة، عدت باندفاع مبرر

في حالة من الغضب إلى الصدر الأعظم، وقدمت له شكواي. فسمعني السلطان واستدعاني. وتحدثت معه بنفس الاندفاع. وأخبرته أن الناس في أوروبا يدفعون المال للذهاب لمشاهدة الفظائع في عروض النساء البدينات والرجال الموشومين. وقلت له إنني أتعرض للابتزاز بهذه الطريقة غير المبررة والوقحة في كل مرة أتي فيها لرؤيته. وأضفت أنه هو من يتصل بي ويطلبني. بالنسبة لي، كنت غير مبال بنتيجة المحادثات. وكنت على استعداد جيد لعدم العودة إذا لم تتم تسوية الأمور.

فهدأ السلطان أعصاب نفسي الجريحة وحدثني قليلاً عن الرفق والإحسان، وانتهى بالقول: "لا ينبغي أن تحكم عليهم بقسوة. كما ترى، هم لا يحصل أي منهم على راتب، ويعيشون مما يفعلونه. ومع ذلك سوف أعاقبهم حتى لا يقلقوك بعد الآن". "وأمر الصدر الأعظم بجلدهم. بالطبع، تدخلت، وأنا أعلم ما هي عمليات الجلد هذه في كثير من الأحيان. لكن لا داعي للقلق. لقد تم جلدهم، لكن بما يشبه نصف دزينة من الضربات التي لا تؤذي طفلًا صغيرًا. وعند وصولي إلى بوابة القصر بعد بضع دقائق، اختفى حصاني مرة أخرى! أخفاه العبيد الذين كانوا يطالبونني الآن بدفع ثمن تنفيذ العقاب الذي أنزلوه بزملائهم المذنبين، وارتكاب جريمة مماثلة تمامًا.

13. أحوال سجون وسجناء المخزن

ربما تكون أكثر أعمال التعذيب المأساوية التي ارتكبت في عهد مولاي حفيظ هي التي تعرضت لها عائلة باشا فاس الحاج بن عيسى. لم تكن سمعة الرجل بالتأكيد أسوأ من سمعة غالبية المسؤولين، بل كانت أفضل بكثير من سمعة الكثيرين. اعتقادًا منه أنه غني جدًا، قام مولاي حفيظ باعتقال الوالي وإلقاء القبض عليه في السجن مع العديد من أفراد عائلته. فتعرض لعمليات الجلد والحرمان المعتادة. فسلم الحاج بن عيسى جميع ممتلكاته إلى السلطان. لكن مولاي حفيظ لم يكن راضيا. كان يؤمن بأنه يخفي ثروة كبيرة من المال. في الواقع، كان باشا فاس شغوفا بالفلاحة فاستثمر في الأرض الزراعية كل مكاسبه الشرعية وغير الشرعية. لكن لا شيء يمكن أن يقنع السلطان بأن هذه هي الحقيقة. فأعطى الأمر بإيجاد الثروة المخبأة. وهكذا تلا ذلك مزيد من الحرمان والجلد، ولكن دون جدوى.

ثم تم القبض على نساء الرجل، ومن بينهن زوجته الأرستقراطية، وهي امرأة من أسرة جليلة وذات مقام رفيع. كان يعتقد أنها تعرف مكان الكنز المخفي وأنها ستكشف عنه. فتعرضت للتعذيب لكنها لم تفصح عن أي شيء، لأنه لم يكن هناك ما تفصح عنه.

وصلت هذه القصة كاملة إلى علمي. لذلك قررت أن أجعل العالم يعرف ما يجري. فتحت "التايمز" أعمدتها بكل إخلاص على هذه الأخطاء. لأن هذه الصحيفة العظيمة لم تفشل أبدًا في القيام بواجبها كلما كان هناك خطأ يجب إصلاحه. لم يكن المزعج هو فقط التعذيب الرهيب الذي تعرضت له زوجة باشا فاس، بل حقيقة أن هذه الأشياء كانت لا تزال تحدث في المغرب ويجب أن تتوقف.

وكانت الأدلة التي كنت أملكها ضعيفة من الناحية القانونية. لكنني قررت اعتمادها حتى النهاية. السلطان نفى وهدد ونفى مرة أخرى. لكن الجهود المتكررة التي بذلتها التايمز كانت كافية لتحريك وزارة الخارجية البريطانية التي قررت اتخاذ ما يلزم من إجراءات. فساعدني تشجيع الوزير البريطاني في حملتي. لفترة طويلة، قررت الحكومة البريطانية أن تطلب من السلطان إظهار السيدة، لأنه ليس لديه دليل آخر كاف لإقناعها بعدم ارتكاب أعمال وحشية كبيرة.

ووقفت الحكومة الفرنسية إلى جانب حكومتنا من أجل المصلحة الإنسانية. فقبل السلطان بما طلب منه عن طيب خاطر، لكنه لم يكشف عن السيدة. وكانت جهود القنصل البريطاني في فاس لا تعرف الكلل. كان مصمما على معالجة الأمر. وأخيرًا، وبسبب الظروف، سمح السلطان لاثنين من المبشرين الطبيين الإنجليز برفقة زوجة طبيب فرنسي بزيارة زوجة الباشا. رأوها في إحدى زوايا القصر. ورغم احتجاجات وتهديدات العبيد أصروا على فحصها. جسدها المصاب بالشلل وندوبه المروعة بسبب الجروح الأخيرة كانت أكثر من كافية لتبرير عمل التايمز. لقد كذب السلطان في كل مكان. المرأة تعرضت لتعذيب شديد.

بروحه الإنسانية التي أظهرها طوال حياته، قام السيد الحاج محمد المقري، الذي كان آنذاك الوزير الأعظم والذي يشغل اليوم نفس المنصب بأخذ زوجة الباشا الجريحة إلى منزله، حيث حظيت بأقصى قدر من المساعدة الطبية التي تحتاجها وبكل عطف زوجات الوزير.

. بعد عامين، عندما جمعتني الظروف بمولاي عبد الحفيظ، طلبت منه أن يبرر لي ما فعله. فقال أنه كان يعلم أن المرأة قد تعرضت للتعذيب، وأنها لم تكن الوحيدة. لكنه شخصياً لم يكن يريد ذلك. قال إنه لما علم بعدم العثور على ثروة الحاج بن عيسى، أمر بالقبض على زوجاته. وبعد ذلك بقليل، قيل له إن النساء لن يتكلمن. واعترف أنه قد أجاب بأنه ينبغي إجبارهن على الكلام. ومثل هذه الكلمات من مثل هذا المصدر تعني شيئًا واحدًا، إنه التعذيب. وتعرضن للتعذيب. منذ نهاية بوحمارة، كتبت في مكان آخر عن حبسه الطويل في قفص صغير وعن حقيقة رميه للأسود في حضرة زوجات السلطان وأخيراً عن ذبحه من بعد أن قتلته الوحوش وأذرعه ممزقة. تلك كانت الأيام الخوالي!

ولم تكن هناك قسوة في القصر فقط. في قصبة كل حاكم، في أعماق الأبراج المحصنة والرطبة، في حفر الأرض لتخزين الحبوب كان يرقد أولئك الذين ارتكبوا أو لم يرتكبوا جريمة، بحسب مقتضى الحال. ومن بينهم في كثير من الأحيان، أولئك الذين كانوا أغنياء بما يكفي لنهبهم.

في مثل هذه المعاناة وهذه الظلمات، يحصل السجناء فقط على ما يكفي من الطعام للبقاء على قيد الحياة. هناك سجناء عاشوا في تلك الظلمات لسنوات ثم عادوا فجأة للظهور من بعد أن فقدت معارفهم أي أمل في رؤيتهم أحياء مرة أخرى. ولكن كان هناك دائمًا احتمال أن يموت الحاكم أو يفقد سعده. ثم تفتح الأبراج المحصنة في قلعته ويتم تسريح ما تبقى من أنقاض سجنائه.

ويا لها من سجون! ويا لها من أهوال تلك السجون! بما فيها تلك الموجودة فوق سطح الأرض المخصصة لفئة المجرمين العاديين. كانوا مقيدين فيها بالسلاسل من عنق إلى عنق، مع الأرجل المصفدة في أغلال أخرى ثقيلة. يجلسون أو يرقدون في القذارة. وغالبًا ما لا يتم فك تلك القيود الحديدية القاسية سوى من الجثة الهامدة. كانت السجون في المدن سيئة بما فيه الكفاية. لكن تلك الموجودة في القصبات كانت أسوأ بكثير.

مولاي عبد العزيز، الذي حكم من 1894 إلى 1908، والذي لا يزال يعيش الآن في طنجة، يستحق على الأقل بعض الثناء، لأنه في إحدى فترات حكمه فرض النظام في سجون فاس. لقد تم ترميمها إلى حد كبير. وتم تزويدها بالمياه. وأصبحت أقل بشاعة مما كانت عليه من قبل. ولكن شيئًا فشيئًا عاد النظام القديم إلى الواجهة، وما استمرت التحسينات سوى لفترة قصيرة. مع كل النوايا الحسنة في العالم، لم يستطع سلطان ذاك العصر كسر تقاليد وفساد بيئته.

كانت الحياة أكثر صعوبة بين كبار زعماء أمازيغ الأطلس. لكن على أي حال، لم يكن هناك نفس الاضطهاد ونفس الضغط كما في السهول والمناطق الأكثر ثراءً. لقد حرّر الأمازيغ شبه استقلالهم عن المخزن من ابتزازاته الدائمة، ولكن ليس من ابتزازات قادتهم.

ومع ذلك، فإن المناخ ذاته وتجارب الحياة في هذه القمم القاسية والحروب المستمرة بين القبائل بعضها ضد بعض جعلت منهم رجالًا أقوياء. فكانت كل تقاليدهم ديمقراطية. لكن إذا لم يكن هناك نفس القمع لابتزاز الأموال، فإن معاملتهم لأسرى الحرب الذين لم تُصادر أرواحهم، أو الذين احتُجزوا كرهائن، كانت قاسية للغاية. هم أيضًا لديهم قلاعهم وأبراجهم المحصنة. ونادراً ما كانت فارغة. كانت الحياة في قصبات الأطلس العظيمة هذه مليئة بالحرب والكآبة. كان لكل قبيلة أعداء ولكل عائلة نزاعات دموية. وكل رجل منهم قاتله المحتمل.

14. إرهاصات نهاية استقلال البلاد.

في عام 1904، تم إبرام اتفاقية بين فرنسا وإنكْلترا بشأن المغرب. سمحت هذه الاتفاقية لفرنسا بالتدخل بشرط عدم تغيير الوضع السياسي للبلاد. ولها حرية الحفاظ على النظام ومنح المساعدة لإدخال بعض الإصلاحات التي قد تكون ضرورية. ووافقت فرنسا في نفس الوقت على التوصل إلى تفاهم مع إسبانيا. وذلك مع الحفاظ على جميع الحقوق والامتيازات التجارية البريطانية كما هي.

وكان من الطبيعي أن تتسبب هذه الاتفاقية الأنكْلو-فرنسية في إثارة اضطراب عام في البلاد. أصبح الوضع في الداخل مزريًا لدرجة أن جميع الأوروبيين صاروا يتراجعون إلى الساحل، بل صار أمنهم مهددا حتى في طنجة. في مايو 1904 اختطف الريسوني أمريكيا وصهره. وتم الإفراج عنهما بعد سبعة أسابيع مقابل فدية ومزايا سياسية تتمثل في حصوله من السلطان مولاي عبد العزيز على ترشيحه كحاكم للقبائل الشمالية الغربية كواحدة من ولاياته.

وفي ديسمبر تعرض منزلي بالبادية للهجوم طوال الليل من طرف قطاع الطرق بقيادة القائد الشاب ولد بقاشة وفشلوا في دخوله بالقوة. فنجوت بصعوبة من أسر ثان. تم القبض على الجنود الذين يحرسونه ونزع سلاحهم. وانقطع سلك الهاتف. لكن قبل ذلك كان لدي ما يكفي من الوقت لتوصيل رسالة. وبعد بضع ساعات وصلت القوات. وبلغت خسائرنا الإجمالية مقتل جندي وجرح آخر. فاضطررت إلى التخلي عن الفيلا الخاصة بي في البادية والعودة والعيش بالقرب من المدينة.

وبعد أسابيع قليلة قُتل ولد بقاشة زعيم هذه العصابة الجديدة. كان شابًا ذا مظهر جذاب. فمن الواضح أنه أراد أن يصبح ريسوني آخر. لكن القدر كان ضده. خلال مداهمة قام بها هو ورجاله على قرية، قُتل بالرصاص. كان يشق طريقه إلى منزل كان صاحبه يمسك الباب من الداخل وغير قادر على تركه لأخذه السلاح والدفاع عن نفسه. فنادى على ابنه، وهو صبي صغير، ليحضر له بندقيته التي كانت معلقة على الحائط. وهرع الصبي مسرعًا إلى والده فتعثر وسقطت من يده البندقية التي انطلقت منها رصاصة اخترقت الباب المغلق وأصابت وقتلت ولد بقاشة الذي كان يحاول الدخول بالقوة من الخارج. وهربت العصابة، تاركة جثة زعيمها على العتبة.

ومن تداعيات الاتفاق الفرنسي البريطاني أيضا شهد عام 1905 الزيارة الشهيرة لقيصر ألمانيا إلى طنجة. يوم 31 مارس. في اللحظة الأخيرة، كان قد تردد في النزول لأنه قدّر الآثار العميقة لهذه الخطوة المعادية لفرنسا ولإنكْلترا ولأنه كان يخشى الاغتيال على يد الفوضويين. فبدا الإمبراطور متوتراً وهو يسير إلى المفوضية الألمانية في الشوارع المزينة. تجمعت حشود ضخمة من السكان المحليين، الذين قيل لهم أن هذه الزيارة تعني حماية استقلال بلادهم. كنت في الغرفة حيث تم تقديم أعضاء السلك الدبلوماسي والمسؤولين المحليين إلى القيصر وسمعت كلماته إلى القائم بالأعمال الفرنسي والسلطات المغربية. وأعلن لكليهما عن نيته اعتبار المغرب دولة مستقلة ومعاملة سلطانه كصاحب سيادة مستقل.

فأصبحت فاس بعد أشهر قليلة مسرحًا لنشاط ثلاث بعثات خاصة، البريطانية والفرنسية والألمانية. أصرت الحكومة الفرنسية على أن يقبل السلطان المقترحات الإصلاحية والمساعدة البريطانية لتحقيق النتيجة المرجوة. لكن النفوذ الألماني كان قويا جدا حتى أن السلطان مولاي عبد العزيز رفض نهائيا المقترحات الفرنسية. وأدى ذلك بشكل غير مباشر إلى الاتفاق على عقد مؤتمر دولي حول موضوع المغرب.

وفي غضون ذلك لم يطرأ أي تحسن على الوضع الداخلي في المغرب. حافظ بو حمارة على تمرده في شرق المغرب والريسوني على حكمه بين القبائل الشمالية الشرقية. وساد انعدام الأمن في كل مكان. فتم اختطاف ضابطين بريطانيين. ولحسن الحظ تم الإفراج عنهما دون صعوبة كبيرة. ففقدت حكومة السطان سلطتها. وكذلك فقد السلطان نفسه هيبته.

وامتلأت قصور السلطان بصناديق التعبئة التي وصفتها الصحافة البريطانية جديا بأنها "دليل على غزو الحضارة المسيحية لمدينة فاس". ومن ماذا تتكون "براهين الحضارة المسيحية" هذه؟ آلات البيانو الكبيرة وأفران الطبخ والسيارات وعلب ضخمة من صدريات النسوة وحيوانات وحشية في أقفاص وأزياء المسرح الغريبة وآلة أورگ يدوية ومصعد من أجل الارتفاع المذهل لقصر من طابق واحد وباروكات الرأس وآلات تصوير ذهبية وفضية بأزرار مرصعة بالجواهر وأسود منحوتة من الرخام والببغاوات الحية ومجوهرات حقيقية ومقلدة وقاذفات البخار وشهب صناعية والملابس الداخلية للسيدات من باريس والسروج من المكسيك وأشجار الحدائق التي لم تغرس بعد أو غرست لكن ما رويت أبدًا، والمطابع والبالونات النارية وعدد لا حصر له من الأشياء التافهة وغير الضرورية فضلا عن كونها متنافية مع الذوق السليم.

عندما يفتح كل صندوق يتم فحص محتواه وربما يتم اللعب به، وفي معظم الأوقات يتم إرساله بسرعة إلى المخازن والأقبية الرطبة حيث ينتهي به المطاف الى التصدؤ والتفسخ. لقد كانت حقًا فترة عظيمة لصالح مندوبي المبيعات المتنقلين لكنها كانت بمثابة فترة احتضار للمغرب.

كل حدث في أوروبا كان مناسبة لعرض بضائعها. كمناسبة تتويج الملك إدوارد السابع الذي تم وضع تاجه في الصدارة. فقيل للسلطان إنه ينبغي أن يكون لديه تاج. لكنه اعترض، لأن وضع الذهب أو الحلي على رأسه مخالف لتعاليم دينه. إلا أن هروبه من ذلك العرض كان مستحيلا. فوُضعت أمامه صورة ملونة للملك إدوارد في رداء التتويج واقفًا بالقرب من طاولة صغيرة فوقها التاج الإمبراطوري وهو يضع إصبع السبابة برفق على قمته. بهذا الشكل يمكن أن يكون للسلطان تاج من دون انتهاك مبادئ الإسلام. وبهذه الطريقة جاء التاج.

قيل إن التاج جاء من باريس. لكن سيارة الدولة كانت بريطانية، وكانت من نوعية جيدة والأفضل في لندن كلها. تم تصنيعها من قبل صانع سيارات مشهور. وصلت، وتم نقلها في صناديق على منصات معلقة بين الجمال. كانت سيارة رائعة بطلاء قرمزي وزخارف ذهبية. كان الجزء الداخلي مبطنًا بحرير الديباج الأخضر الرفيع. وكانت المطرقة قرمزية وذهبية، وتحمل ما يُعتقد أنه شعار النبالة الملكي للمغرب والذي هو في الواقع غير موجود. مثل السيارة نفسها كان الحزام الأرجواني بزخارفه الذهبية هو الأفضل. شكلوا معًا كلًا كان باهظ الثمن بقدر ما كان عديم الفائدة، لأنه لم تكن هناك طرق في المغرب.

وكان السلطان حينها يلعب كرة البولو بالدراجات مع جزء من حاشيته الأوروبية. حاشية تضم في ذلك الوقت مهندسًا معماريًا وصاحب ألعاب سحرية وصانع ساعات ورسام بورتريه أمريكي واثنين من المصورين ومروّض أسود ألماني ومصنع فرنسي للمياه الفوارة وسائق وخبير الألعاب النارية ولاعب المزمار الأسكتلندي. الجميع يتمتع بالصداقة الشخصية مع صاحب الجلالة الذي، باستثناء لاما التيبت الكبير، كان ينبغي أن يكون أكثر الملوك خصوصية وأكثرهم انفرادا. فلا عجب من أن أفراد القبيلة كانوا ينظرون بارتياب إلى ذلك الحشد من فوق الجدران العالية للقصر.

لم يكن لدى السلطان أي شخص مستقيم. لم يتم نصحه بصدق. عندما كان ينفق أمواله في طلب سلع غير ضرورية من دول أوروبية مختلفة قيل له أن التسوّق من أسواقها يرضي حكومات تلك البلدان. فكانت هذه هي المرحلة الأخيرة من تاريخ المغرب المستقل التي قد بدأت، ثم انتهت في السنوات الأولى من هذا القرن [1]. وهي الفترة التي يمكن للمرء أن يسميها بحق سنوات مندوبي المبيعات المتنقلين. لقد كان وقتًا مثيرًا للشفقة والذي من الأفضل نسيانه. كان هذا هو الانحطاط الأخير للحكومة المغربية المنحلة. فسرعان ما تضخمت القروض الخارجية وأفرغت الخزينة بسبب إهدار إيراداتها.

في العام الذي انعقد فيه مؤتمر الجزيرة الخضراء[2] (1906) عدت إلى فاس بعد غياب دام ثلاث سنوات. كل شيء تغير. انتهت أيام الرخاء ودخل المخزن في أوقات عصيبة. تخلت القبائل الواحدة تلو الأخرى عن ولائها. السرقة والنهب والفساد صاروا أسوأ مما كان عليه الوضع في أي وقت مضى. سادت المجاعة في المدن. والحملة التي خضتها كمراسل لصحيفة "التايمز" خلال العام أو العامين الماضيين جعلتني مني شخصية غير مرغوب فيها عند السلطان وبلاطه. بوابات القصر صارت مغلقة في وجهي بإحكام.

مكثت بضعة أشهر في فاس ولمست مدى حسن تقدير سكانها. كانوا يعرفون كل ما حدث. كانوا يعلمون أن "التايمز" قد لفتت انتباه العالم إلى محنة إخوانهم في الدين وأبناء وطنهم في المغرب، فضلاً عن معاناتهم وبؤسهم. كانوا يعلمون أن السلطان رفض استقبالي وأن أبواب قصور الوزراء كانت مغلقة في وجهي. وكانوا يعرفون أيضًا أنه بفضل تمثيلي لصحيفة كبيرة، كانت أعمدتها مفتوحة دائمًا على صرخات ضائقة الشعوب المستغلة والمهملة، وأن شكواهم وصلت بالفعل إلى الجمهور البريطاني والعالم بهذه الوسيلة. فلن أنسى أبدًا التعاطف واللطف الذي أبدته لي جماهير فاس في هذا الوقت. وكم كان هذا التغيير واضحًا جدًا.

كانت مجاعة. وهذا كل شئ ! بعض الوزراء والمسؤولين استغلوا قلة محاصيل العام الماضي لاحتكار القمح بشرائه قبل دخوله المدينة وبيعه بأي ثمن يريدون. نفس الزمرة الصغيرة كانت تحدد السعر الذي يمكن به حتى بيع اللحوم. فنهبت الفقراء والجزارين. كل ما هو ضروري للحياة يجب أن يمر بين أيديهم قبل أن يصل إلى الجمهور. حتى الفحم الخشبي الذي بدونه لا يمكن الطبخ كان محتكرا. وقوافل الجمال التي كان ينبغي أن تجلب الحبوب من الساحل لإطعام الجياع تمت مصادرتها لنقل الرخام لأرضيات قصور الوزراء التي بنيت من عائدات القروض الخارجية والمجاعة. الجنود الجائعون يطوفون في الشوارع في خِرَق بالطبع، ويبيعون أنفسهم للدعي[3]، الذي كان يُطعم رجاله، أو يبيعون بنادقهم لأقرب مشتر ويذهبون لنشر الفتنة بين القبائل. ولا يمكن لأحد أن يلومهم حقًا.

في السابق، كان الناس يتحملون معاناتهم بما فيه الكفاية مع ابتزازات المخزن. لكنهم كانوا يواسون أنفسهم بقولهم: "سيدنا السلطان لا يعلم". الآن الأمر مختلف. لقد جعلتهم المجاعة أكثر شجاعة. فيقولون: "سيدنا السلطان لا يأبه". بين الأمس واليوم الاختلاف في كلمة واحدة فقط. في الريف يذهبون إلى أبعد من ذلك فيقولون: "ليس هناك سلطان". لم يكن هذا صحيحًا بالطبع، لأنه من وراء أسوار القصر، كان مولاي عبد العزيز يشعر بالملل من كل شيء. ولكنه ظل متفائلا دائما وهو يتنقل من

---

[1] القرن العشرين. الكتاب منشور سنة 1921. والأمر يتعلق باتفاقية مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1905.

[2] مؤتمر الجزيرة الخضراء هو مؤتمر عقد في 1906 لتقرير مصير المغرب كمستعمرة أوروبية بين فرنسا و اسبانيا. بدأ المؤتمر في 16 يناير 1906 بمشاركة اثنى عشر دولة أوروبية وشارك الرئيس الأمريكي روزفلت كوسيط فيه. في 7 أبريل من نفس السنة تم الإفصاح عن الوثيقة النهائية للمؤتمر.

[3] بوحمارة

فناء إلى فناء ومن حديقة إلى حديقة، كي يعطي أوامر كان يعلم أنه لن يتم تنفيذها أبدًا. لقد سئم من عدم جدوى محاولة القيام بعمل أفضل. وكان في انتظار تغير الظروف مع الثقة في الله وعدم الثقة في أوروبا.

15. يهود المغرب قبل الاحتلال

يتشكل يهود المغرب من فرعين متميزين. أولهما من أحفاد اليهود الأمازيغ الأوائل في البلاد. وثانيهما من أحفاد اليهود الذين هاجروا من إسبانيا، وخاصة خلال القرن الخامس عشر. وقد احتفظ هؤلاء بالإسبانية كلغة أم. أما الباقون فيتحدثون بالشلحة أو بالعربية بحسب المنطقة التي يعيشون فيها.

يهود المغرب مختلفون. لكن غالبًا ما يكون من الصعب، وأحيانًا من المستحيل، التمييز بين بني إسرائيل في الأطلس وبين يهود القبيلة البربرية المسلمة المجاورة. حتى أنهم يرتدون نفس الزي، باستثناء القبعة السوداء الصغيرة الشائعة لدى القبائل اليهودية.

أصل اليهود الأمازيغ غير معروف. لكن وجودهم في المغرب قديم للغاية. هناك تقليد مفاده أنهم طردوا من فلسطين على يد يوشع بن نون. ولكن يبدو أنهم من البربر الوثنيين الذين تهودوا في فترة مبكرة جدًا. يسكن اليهود الأصليون المناطق الداخلية من البلاد، وخاصة في المدن، على الرغم من أن الكثيرين منهم منتشرون بين القبائل. يعيشون حيث ما وجدوا مجتمعين فيما بينهم، ويعتبرون اليهود من أصل إسباني، وهم الأكثر تعليمًا منهم، أقل التزاما بتقاليد الدين بل غير ملتزمين كلية. وظروف عيشهم بين القبائل المسلمة الفخورة والمتعصبة لم تمنحهم بطبيعة الحال أي تسهيلات أو حوافز للارتقاء.

أما اليهود من أصل إسباني فقد عرفوا حركة تقدم ملحوظة على مدى الخمسين عامًا الماضية. لقد استخدموا جميع أشكال وأنواع التعليم للزيادة في رخائهم ورفاهيتهم الاجتماعية. بنوا المدارس وأشركوا المعلمين الأوروبيين في تعليم أبنائهم وبناتهم. وقد تم تمويل كل ذلك تقريبًا بالاكتتاب فيما بينهم محليًا. أما الاتحاد الإسرائيلي[1] فقد وفر لهم إلى حد كبير طواقم العمل في المدارس، لكن الطفرة التعليمية كانت من صنيع اليهود المتعلمين أنفسهم. لم يكلفهم ذلك تضحيات وجهودا كبيرة جدًا، بحيث لا يكاد يوجد يهودي اليوم في المدن الساحلية المغربية إلا ويتكلم ويقرأ ويكتب لغتين على الأقل ، بينما يتحدث الغالبية ثلاث لغات.

هؤلاء اليهود من أصل إسباني يشتركون مع إخوانهم في الدين الشرقي في لقب السفارديم[2]. عندما تم نفيهم من إسبانيا، بعد فترة الاضطهاد القاسي، لجأوا إلى المغرب. لقد كانوا بالفعل متعلمين ومتحضرين ومتقدمين في الفنون بفارق كبير عن غالبية الإسبان، الذين لم يعد مسموحًا لهم بالعيش بينهم.

عند وصولهم إلى المغرب، وجدوا يهودًا من أصل بربري يعيشون في وضع أدنى. فكان من المستحيل عليهم القبول به. ولذلك تفاوضوا مع السلطان على مرسوم بشأن الوضع الذي ينبغي أن يحتفظوا به في البلاد، والذي وضع في نفس الوقت قواعد معينة لتوجيه سلوكهم، خشية من أن تتسبب الحياة بين أكثر أتباع دينهم الأصليين الجهلاء في التخلي عن بعض أو معظم مبادئ التمدن والحضارة. ويتم دائما احترام مبادئ هذا المرسوم المعروف تحت اسم «*Décanot*». وهو يحتوي، من بين العديد من البنود الأخرى، على القواعد المتعلقة بعقود الزواج ومسألة وراثة الممتلكات.

يهود المغرب قدموا خدمات جليلة للبلاد. لقد تقدموا في الحضارة والتعليم والثروة بطريقة جديرة بالثناء للغاية. وذلك بفضل رجال الأعمال من بينهم المجتهدين والأذكياء والمتحمسين والمنظمين والأكفاء. لكن قبل فترة طويلة من هذه النهضة الحديثة كانوا على الرغم من الصعوبات والمضايقات الكبيرة التي عاشوها قد اكتسبوا مكانة في المغرب. لقد أصبحوا، كمصرفيين هم المقرضين الذين لا غنى للبلاد عنهم. بينما كانوا يمارسون أيضًا العديد من المهن الأخرى. الخياطون والصاغة وصناع الخيام وعمال المعادن كانوا جميعهم تقريبًا يهودًا. كان الملاح، كما يُدعى حيهم، مركزا للتجارة. لم يكن في متاجرهم شيء صغير جدًا

---

[1] الاتحاد الإسرائيلي العالمي، بالفرنسية: *Alliance israélite universelle*، هو منظمة يهودية دولية مقرها في باريس. أنشأه السياسي الفرنسي أدولف كغاميو *Adolphe Crémieux* عام 1860 لحماية حقوق اليهود حول العالم. تدعم المنظمة مبادئ الدفاع عن النفس والاكتفاء الذاتي في التعليم والتطوير المهني. يشتهر الاتحاد بتأسيس عدة مدارس لتعليم اللغة الفرنسية للأطفال اليهود من حول حوض البحر المتوسط في القرنين التاسع عشر والعشرين.

[2] اليهود السفارديم هم الذين تعود أصولهم الأولى ليهود إسبانيا والبرتغال الذين طردوا منها في القرن الخامس عشر، وتفرقوا في شمال أفريقيا وآسيا الصغرى والشام. وكثير منهم كانوا من رعايا الدولة العثمانية في المناطق التي تخضع لسيطرتها. وكانت لهم لغة خاصة هي لادينو. وكانت اللغة مزيجًا من اللغة اللاتينية وتحوي كلمات عبرية، ولكنهم يتحدثون لغات البلاد التي استوطنوها، كالعربية والتركية والإيطالية.

للشراء. رأيت صناديق من أعواد الثقاب الشمعية مقسمة ويتم بيعها نصف دزينة، بينما نفس التاجر، أو ربما أخوه، يأخذك إلى منزله وإلى غرفة علوية فيه ويعرض عليك من وراء الباب المغلق عقدا من اللؤلؤ أو قبعة زمرد كبيرة أو ماسة بحجم شلين[1].

من نواح كثيرة، وضعهم المضطهد كعرق كان أفضل من وضع المسلمين[2]. كانت لديهم قوانينهم الخاصة يديرها حاخاماتهم. وكان يتم تحصيل ضرائبهم بشكل منفصل من قبل شعبهم ودفعها كهدية للسلطان. كانوا مغبونين بالطبع، وكان حيهم يتعرض من وقت لآخر للنهب. ولكن لم يكن أبدا من خطر عليهم كأفراد كما كان عليه حال المسلم في جميع الأوقات. كانوا يتمكنون في أي وقت تقريبًا من الوصول إلى السلطات وحتى إلى السلاطين الذين كانوا في اتصال مع العديد من اليهود ولا سيما أولئك الذين كانوا يعملون في صناعة الخيام وفي الخياطة وغيرها بالقصر. وكان السلاطين أكثر حميمية وألفة في علاقتهم الخاصة بهم. فكان لكل من مولاي عبد العزيز ومولاي حفيظ أصدقاء شخصيون بين يهود فاس ومراكش والذين تمتعوا بعلاقة حميمة كبيرة معهم.

وكانت النتيجة أن يهود المغرب كعرق كانوا في كثير من الأحيان قادرين من خلال صداقاتهم في البلاط ومع الوزراء على تحقيق العدالة بخصوص خطاياهم أكثر من جيرانهم المسلمين. وحتى في الريف كان يُخشى من التاجر اليهودي. قد يُسخر منه أو يتعرض للتنمر قليلاً في بعض الأحيان، ولكن نادرًا ما كانت تُساء معاملته حقًا.

وأسرد هنا أحد الأمثلة على الخوف من اليهود جاء إلى معرفتي الشخصية أثناء رحلاتي قبل سنوات عديدة. قُتل يهودي كان يسافر بمفرده من سوق ريفي إلى آخر، وسرقت بضاعته الصغير ودولاراته القليلة. وقعت الجريمة بمنطقة الغرب في حي مكتظ بالسكان، بين سوقين من أهم الأسواق، في الساعات الأولى من الليل. كنت أعرف هذا الرجل جيدًا وكان يتردد دائمًا على تلك الأسواق. لمدة يوم أو يومين، لم نكن نعرف شيئًا عنه سوى أننا لم نعد نراه فيها. صحيح أنه كان بإمكانه العودة إلى مسقط رأسه لتجديد مخزونه من البضائع، لكن بدا من المؤكد أنه قُتل. ومع ذلك، لم يتم العثور على جثته، على الرغم من أنه اختفى في هذه السهول المنبسطة حيث تنتشر قرى من الخيام والأكواخ حيث سيكون من الصعب إخفاؤها. كل ما يمكن قوله على وجه اليقين هو أنه رحل.

والآن ما حدث كان كالآتي. بعد أن سرق القتلة الجثة، ألقوا بها ليلا خارج قرية مجاورة. وعند الفجر وجدها القرويون خائفين من اتهامهم بقتل يهودي. فأخفوا الجثة بدورهم حتى حلول الليل. ثم حملوها خلسة بعيدًا ووضعوها في ضواحي قرية أخرى. وهكذا ظلت تتم ممارسة نفس المناورة من قرية إلى أخرى. ولا يهم أنه مع مرور الوقت أظهرت حالة تفسخ الجثة بوضوح أن القتل قد حدث بالفعل منذ بعض الوقت. كان في مجرد العثور عليها بالقرب من القرية مدعاة كافية للشعور بالذنب، مهما كانت متدهورة. وكانت العقوبة الحتمية هي السجن ومصادرة القرويين الأبرياء. ولو كان المقتول مسلمًا، لما تم إيلاؤه مثل هذا الاهتمام الكبير. لأن قتل اليهودي كان أكثر خطورة.

ووصلت هذه الحالة إلى أذني، لما أخبرني سكان القرية أنهم عثروا على الجثة في ذلك الصباح، وأنه بسبب الوفاة التي حدثت قبل أسابيع قليلة، كان نقلها إلى قرية أخرى مسألة صعبة للغاية. فتدخلت وأبلغت السلطات بالأمر، ولم يتأذى منه سكان القرية الأبرياء.

إن روح المبادرة أمر طبيعي بشكل قوي للغاية بين اليهود المغاربة. لطالما كان وجودهم في الماضي يكتسي طابعا صراعيًا وكانت الحياة صعبة. روى أحد أصدقائي منهم بروح المرح والفكاهة حكاية من طفولته المبكرة. كان قد بدأ للتو في دراسة تعاليم دينه بالعبرية، وصارت نفسه تتعجل مجيء المسيح الموعود في أي وقت. ذات يوم تمنى لوالديه وعائلته ليلة سعيدة، وهمس في أذن جدته العجوز، وهي سيدة ذات تأثير كبير في العائلة: "هل تعتقدين أن المسيح سيأتي الليلة؟". فطبطبت على رأسه برفق وقالت له: "لا تقلق يا عزيزي بشأن ذلك. سيأتي في وقته. وتعلم كيف تجمع[3]؛ ثم تعلم كيف تجمع". كانت السيدة العجوز واقعية. وكان حفيدها يتبع نصيحتها. إنه اليوم رئيس الجالية اليهودية في واحدة من أهم مدن المغرب. رجل شريف وغني، وصاحب كرم كبير وتفان لا ينضب لصالح شعبه. يتقيد اليهود بنص الشريعة بصرامة شديدة.

على الرغم من أنني أحترم كل الاحترام الواجب للورع الديني، إلا أنني شعرت ذات مرة بالانزعاج الشديد من التزام إسرائيلي مسن الصارم بتعاليم دينه. كنت في مخيم بمنطقة الغرب في فصل الشتاء. وكان المطر الغزير قد ملأ الأرض بالوحل.

[1] عملة معدنية إنكْليزية
[2] يتكلم عن يهود المغرب بصيغة الماضي أيام استقلال البلاد وهو يكتب كتابه هذا سنة 1920 في عهد الحماية.
[3] تقصد حساب عملية الجمع.

وأثناء العشاء، وصل شاب يهودي واقتحم خيمتي وهو يبكي. وأخبرني أن والده الذي كان يخيم في قرية مجاورة كان مريضًا جدًا. كان قد سمع عن وصول مسيحي وتوسل إلي أن أذهب لرؤيته. ذهبت إلى هناك ورجالي يرافقونني بالفوانيس. كانت مسيرة طويلة وكانت السماء تمطر قططًا وكلابًا.

لكننا وصلنا أخيرًا إلى حيث تم نصب المخيم اليهودي من خيمتين أو ثلاث خيمات كبيرة، مثل ما يفعل التجار اليهود المتجولون دائمًا. كان كل شيء في الظلام. وجدنا على ضوء فوانيسنا والد الصبي محاطًا بحزم بضائعه من الأقمشة والقطن. فسألته عما يمكنني فعله. كانت الليلة ليلة الجمعة. وكان اليهود قد دخلوا سبتهم. مع اعتذارات كثيرة، أخبرني التاجر أن الريح قد أطفأت فوانيسهم. وبما أنه يوم السبت فلا يُسمح لهم باستعمال أعواد الثقاب. فلم يتمكنوا من إعادة إشعالها. المسلمون رفضوا مساعدتهم.

هكذا كان على هذا اليهودي أن يزعجني! وقد مشيت بضع كيلومترات في الوحل العميق، وفي وقت متأخر من الليل وتحت السيول من الأمطار لمجرد إشعال عود ثقاب! لقد أشعلته، وأنا فخور بأنه كان الشيء الوحيد الذي وجب علي فعله. فتركته ومصابيحه مضيئة. لكنني من بعد شكوت له بلطف مدى مشقة مشي رجالي الطويل والمرهق، لدرجة أنه ربما سيكون من الأفضل له مستقبلا قضاء أسابيع في الظلام بدلاً من المخاطرة بإزعاج شخص مسيحي آخر.

16. نهاية عهد الاستقلال

شهد عام 1912 نهاية استقلال المغرب. وإذا كان يجب أن يكون هناك أسف على فقدان شيء قديم جدًا ورائع، فقد شكل عام نهاية استقلاله مناسبة تهنئة. بُني هذا الصرح القديم على أساس المكانة الدينية لحكامه لأن سلاطين المغرب كانوا من نسل النبي. لكن فساده لسنوات عديدة جعله في قبضة مرض قاتل وفي حالة انهيار وشيك. وما أبقاه يظهر بشكل من أشكال الحياة وعطل تفككه سوى عزلته وكبرياء شعبه.

كانت الحرب بين السلطانين[1] مملة وغير ذات أهمية. بدا أن التركيز الرئيسي للاثنين هو كيفية تجنب الالتقاء بينهما. واكتفوا بإصدار مراسيم التكفير المتبادلة. كان لكل من السلطانين جنود بقدر ما كان يتوفر على موال. وللحصول على المال كان لا بد من ابتزاز القبائل مهما كانت آراؤهم السياسية. وفي الواقع، كل منهما كان يعتمد على الجنود الفارين من قوات الآخر. ومع غياب الموارد المالية ظل الجيشان يتضاءلان حتى اختفيا.

بعد بضعة أشهر، تنازل مولاي عبد العزيز عن العرش لصالح أخيه مولاي الحفيظ[2]، الذي وصل في هذه الأثناء إلى فاس مع القليل من الأتباع، لأن جيشه قد تخلى عنه أيضًا، ومعه ما يزيد قليلاً عن نصف التاج في جيبه. قبلته فاس كسلطان بشرط أن تكون المدينة معفاة من جميع الضرائب. لقد وعد جلالة الملك بذلك رسميًا، وحافظ على وعده لبضعة أسابيع، إلى أن أصبح في الحقيقة قوياً بما يكفي لكسرها، ثم أمر بجمع الضرائب الشرعية وغير الشرعية، وبحماس لم يسبق له مثيل من قبل. كانت قدرته على القيام بذلك بسبب حقيقة أنه قام في هذه الأثناء بتجميع جيش صغير. فلم يكن مولاي عبد الحفيظ الرجل الذي بإمكانه إعادة العافية للمغرب المحتضر. تمردت القبائل. وتبنى بنفسه الأساليب الوحشية، وأصبح الوضع في البلاد أسوأ من ذي قبل.

في الأشهر الأولى من عام 1912، حاصرت قبائل فاس السلطان. فاستنجد بالفرنسيين الذين كانوا مستقرين بالفعل في الدار البيضاء على ساحل المحيط الأطلسي[3]. فتم إرسال كتيبة عسكرية على عجل إلى العاصمة وتم إنقاذها. وبعد أسابيع قليلة تم توقيع معاهدة الحماية الفرنسية، التي تبعتها على الفور مذبحة ضد ضباط ومدنيين فرنسيين في فاس. فأصبح وضع مولاي الحفيظ مستحيلًا، سواء في نظر فرنسا أو في نظر شعبه فقرر التنازل عن العرش. حينها تم نقل الديوان الملكي إلى الرباط على الساحل. فكان ذلك آخر مشاهد استقلال المغرب.

17. ما تغير منذ بداية عهد الحماية

---

[1] مولاي عبد العزيز بفاس ومولاي عبد الحفيظ بمراكش.

[2] هو السلطان عبد الحفيظ بن الحسن العلوي ويعرف شعبيا في المغرب باسم مولاي عبد الحفيظ (1876-1937) كان سلطان المغرب من 1908 حتى 1912. بموجب معاهدة فاس تنازل عن الحكم لأخيه يوسف بن الحسن.

[3] بل في كل الشاوية منذ 1907

ليس هناك من شك في أنه من السهل إدخال الحداثة ولو كانت بدائية بين القبائل المتوحشة في وسط إفريقيا بدلاً من محاولة التكيف مع ما كان موجودًا من قبل وتدميره. لكن لطالما ظلت حالة الحضارة في المغرب عالية مقارنة بمعظم دول إفريقيا. صحيح أنها دخلت في مرحلة انحطاط منذ فترة طويلة. لكنها ظلت مع ذلك تمتلك بعض السمات الرائعة في مؤسسات الدولة والهندسة المعمارية وفي الفنون وفي بقايا المعرفة التي تظهر في نمط إمدادات المياه في فاس ومراكش وفي عادات الناس ونوعية التجار والمزارعين. أمور تشهد جميعها على اكتساب المغرب لحضارة لم تتأثر لقرون عديدة بالحداثة في أوروبا بالرغم من تقدم ضئيل. ولا يمكن إلا أن يعتبر كل هذا مثيرًا للإعجاب. عاش المغاربة على الصدى البسيط للماضي. لكنهم كانوا فخورين به وبالروح التي ورثوها عنه، وهي روح إغلاق باب بلدهم في وجه أي عدوان وإغلاق باب قلوبهم أمام أي تأثير خارجي.

عندما يبدأ التغيير الكبير، كما حدث في المغرب، من المتوقع أن يتم استقبال النظام الجديد بالريبة والنفور الشعبي. لكن مع مرور الوقت سيتم الاعتراف بفوائده وحتى مع بعض الامتنان. وقد يستغرق الأمر وقتًا طويلاً جدًا. وقلة من الناس في العالم يحبذون حقًا تغييرًا جذريًا، خاصةً إذا تم فرضه عليهم من قبل الغرباء المختلفين معهم في العرق واللغة والدين. لكنهم يشعرون الآن ولأول مرة بالأمن على الحياة وعلى الممتلكات. إنهم لا يحبون كل الغرباء، إلا أنهم يدركون التحسن الحاصل في وضعهم. صاروا أكثر رخاء وهناء مما كانوا عليه. وينسبون كل هذا إلى عناية الرحمة الربانية. لكن في المقابل صار يتعين عليهم دفع ضرائب بانتظام. وهو الأمر الذي لا يحبونه بشكل خاص، وينسبونه إلى تدخل الفرنسيين. ويريحون ضميرهم باستغلال الوضع القائم.

وبالرغم من أن التغيير كان تدريجيًا، فقد تم بالفعل إنجاز الكثير. فقط أولئك الذين عرفوا البلد من قبل والذين يعرفونه الآن يمكنهم تقدير حجم ما تم إنجازه. عندما قصف الفرنسيون الدار البيضاء[1] وبالتالي فتحوا الطريق أمام احتلالهم لمعظم المغرب، فإنهم قد دخلوا إلى بلد مغلق، وعاقهم فيه التعصب والريبة. وكانت البلاد تعتبر منيعة، وسكانها ويعتبرون المسيحيين جنسًا حقيرا ومدانين بسبب دينهم وغير محاربين بطبيعتهم ومظهرهم سخيف. ويتصور المغاربة أن جيشا مسلما صغيرا يمكنه بمساعدة ربانية أن يهزم بسهولة كل القوات المسيحية في العالم. فيقولون لهم: "قذائفكم ورصاصاتكم ستتحول إلى ماء. والأولياء الذين يحموننا لن يسمحوا أبدًا للكفار بغزو أراضينا. وستدمر العواصف سفنهم. وحتى لو نزل جنودهم فإن حفنة من فرساننا ستكون كافية لدفعهم إلى البحر. وكانوا يؤمنون بذلك حقًا.

ما هو التغيير الذي حصل منذ أن حدث قصف الدار البيضاء[2]؟ بين الحين والآخر كنت أرافق الحملة التي غزت سهول الشاوية والهضاب المرتفعة من ورائها عندما استسلمت القبائل واحدة تلو الأخرى وأدركت أن هذين الطابورين الفرنسيين يتقدمان باستمرار فكانا أقوى من جميع الأولياء في قبورهم والأحياء منهم الذين وعدوهم بالنصر.

فكان على المغربي أن يعترف بحقيقة الواقع. كان الأمر صعبًا عليه جدًا في البداية. لكن تغيرت كل جوانب حياته وعقليته. بضعة آلاف من المسيحيين يحتلون بلاده. هكذا هي حقيقة الطابورين المنتصرين فلم يعد بإمكانه تجاهلها. فلجأ إلى العزاء الكبير في دينه وهو يصرخ: "تلك مشيئة الله". ووضع بندقيته جانبا ثم عاد إلى الحقل أو التحق بالجيش الفرنسي.

خلف استعراض القوة، كان هناك عامل آخر أكبر يقوم بمفعوله. باحتلال منطقة تلو الأخرى ومرور القوات، كان ينشأ ترتيب جديد وإدارة جديدة تحمي مصالح الناس وحياتهم وممتلكاتهم. هكذا عرف المغاربة الأمن لأول مرة منذ قرون. لقد اختفى الخوف الدائم من الموت والمصادرة والسجن، الذي أمضوا في ظله حياتهم بأكملها مثل آبائهم وأجدادهم من قبلهم. توقف ابتزاز القواد أو تم التقليل منه بشكل كبير، وتم تحقيق العدالة.

لقد أظهر الفرنسيون براعة رائعة في إدخال الحداثة إلى المغرب. لقد تأثرت كل من أفعالهم وأفكارهم بالرغبة في تحسين حالة الناس وجعلهم يزدهرون. لقد بنوا طرقا لا نهاية لها. وفتحوا مستشفيات ومستوصفات وتجنبوا كل شيء يمكن أن يضر بمشاعر الناس الدينية. كانت لديهم تجربة في الجزائر[3] وفي تونس[4]. ولقد درسوا عملنا[5] في مصر. كانوا يعرفون ما الذي يجب تبنيه وما يجب تجنبه.

---

[1] سنة 1907.
[2] سنة 1907.
[3] التي تم احتلالها منذ 1830.
[4] التي تم احتلالها منذ 1881.
[5] يقصد "عملنا نحن الإنكْليز".

في لسياسة: لقد أبقوا جالسا على العرش المغربي سليلًا من سلالة السلاطين القديمة وحكموا باسمه وكانوا قادرين على الحصول على مرونة الإدارة التي لم يكن من الممكن أن تمنحها القوانين الفرنسية المدونة لو تم تبني نظام الحكم المباشر. فواجهوا معارضة أقل بكثير مما قد يتوقعه المرء.

في الواقع، كان إدخال الحداثة في المغرب الذي حصل في وقت صعب للغاية أثناء الحرب مثالًا رائعًا على الروح الحقيقية للتهدئة والتقدم. أنا الذي أعرف المغرب منذ أكثر من ثلاثين عامًا أستطيع أن أشهد أنه في أجزاء من البلاد التي احتلتها فرنسا فإن التحسن في رخاء سكانها كان هائلا. لا يزال هناك الكثير للقيام به. يجب أن تمر العقود قبل اكتمال العمل. لكنني مقتنع بأن السياسة العظيمة التي أطلقها الجنرال ليوتي[1] في المغرب سيتم قبولها كأساس للحكم من أجل المنفعة المتبادلة بين الحماة والمحميين.

ومع ذلك، هناك من لا يزال يتأسف على الأيام الخوالي للمغرب قبل وصول الفرنسيين إلى البلاد! أن يندم الجميع على ذاك الزمان أمر مذهل. فقط أولئك الذين لم يروا ما تحت السطح، ومدى ضآلة السطح لإخفاء الحقائق، يمكنهم المقارنة بين الفترتين. أكثر ما يمكن قوله ضد النظام الفرنسي هو أن المواطن المغربي يعتبر وضع وتفعيل الإجراءات التنظيمية مملًا. إنه لا يحب الانضباط. عليه أن يدفع ضرائب منتظمة بدلاً من ابتزازه من قبل السلطات كما كان يفعل به في الماضي. ولربما يفضل بعض المغاربة احتمالات الربح بالمقامرة كما كان الحال في الماضي، على الازدهار من دون مغامرة في الحاضر.

صحيح أنه كان في تلك المقامرات خطر الموت والمصادرة والسجن. ولكن كان في المقابل احتمال الفرص المتاحة للنهب والسرقة وللحصول على مراكز النفوذ بالقوة أو بالفساد والقدرة، بأمان مقبول، على مصادرة ممتلكات الآخرين ووضعهم في السجن. وإن حصل أن مات هو في السجن، فتلك مشيئة الله.

المغربي مقامر[2]. لقد كان يراهن في ظل النظام القديم ليس فقط بثروته بل بحياته. وغالبًا ما كان يخسرهما معا. ولكن في بعض الأحيان كان يربح. وكانت أرواح الآخرين هي التي يضحى بها لمراكمة ممتلكاتهم حتى يتمكن من امتلاك عقارات واسعة وتشييد قصور في كل العواصم وشراء العديد من العبيد وامتلاك حريم مليء بالنساء اللائي ترن كأسراب النحل. ثم ذات يوم تحين النهاية. وإذا كان حظه جيداً يموت في وسط مقتنياته. لكنها تصادر يوم وفاته. إلا أنه غالبا ما كان يموت في السجن، بينما تبقى عائلته تتضور جوعا من ورائه. وفي الوقت نفسه لا يمكن تصور شيء أكثر إثارة للشفقة من مصير الفلاحين ضحايا الابتزاز بكل أنواعه. لأنه من السلطان الى شيخ القرية، كل المخزن ينهب ويعيش من الفقراء[3]. ولا أحد يستطيع أن يقول أنه يمتلك روحه. فالحمد لله أن تلك الأيام الخوالي قد ولت وانتهت.

أما اليوم فكل شيء مختلف في القصر. تتم فيه مراعاة الآداب والتقاليد التاريخية بصرامة في جميع المناسبات الرسمية، ولكن اليد المنظمة محسوسة. العبيد والجنود يرتدون ملابس جميلة. وموظفو البلاط في أزيائهم البيضاء الطويلة صاروا هم الأدب بعينه. أما في الباحات الخارجية فيصطف الحرس من السود بزيهم القرمزي والمذهب. والفرسان والمشاة، وفرقتهم الموسيقية في قفاطين بألوان قوس قزح. والممرات الطويلة مليئة بالخدم.

والاستقبال الرسمي من قبل السلطان الحالي في قصره يستحق المشاهدة. جالس على أريكة في قاعة العرش، يستقبل الضيوف بما يليق بهم من تقدير ولطف. صحيح أن المفاجآت قد ولت. لكن الباقي باق. حتى الأسود لا تزال تزأر في أقفاصها في ركن من أركان الحديقة الداخلية. والقصور لا تزال هي نفسها. لكن تم كنسها وتنظيفها وتأثيثها، لأنه في السابق ما كان يتم الاعتناء إلا بالجزء من المباني العظيمة التي يسكنها السلطان بالفعل.

زرت قصور فاس ومراكش بعد وقت قصير من تنازل مولاي حفيظ عن العرش[4]. ورأيت بالفعل أجزاء منها. لكن وجود مئات النساء من النظام القديم والعديد من الأرامل والعبيد وأحفاد السلاطين القتلى جعل من المستحيل عليّ زيارة العديد من الأفنية

---

[1] هو لوي هوبير غونزالف ليوطي *Louis Hubert Gonzalve Lyautey* (1854 - 1934)، جنرال فرنسي، وأول مقيم عام للمغرب بعد احتلاله من 1912 حتى 1925. وأصبح مارشال فرنسا منذ سنة 1921.

[2] The Moor is a gambler.

أخذ ذلك التعميم على إطلاقه فيه مبالغة كبيرة. والراجح أن الأمر يتعلق بما يعرف عند فقهاء الدين بـ "العموم الذي يراد به الخصوص". هكذا يكون المقصود بالمغاربة هنا هم رجال المخزن ومن يدور في فلكهم. فهم الذين كان المؤلف يخالطهم أكثر من غيرهم.

[3] from the Sultan to the village sheikh, the whole Makhzen pillaged and lived on the poor.

[4] سنة 1912.

والمباني. مع ظهور النظام الجديد تم إجراء ترتيبات أخرى لصالح كل هذه الفئة من أصحاب المعاشات في القصور، والتي كانت مفيدة جدًا في ذلك الوقت.

كما تم ترميم جميع القصور. لكن الأمر قد استغرق وقتًا طويلاً لإصلاح ساحة تلو الأخرى، ورأب كل مكان حيث سقطت أسقف غرف النوم وحيث كان المشي خطيرًا. الانطباع العام يشير إلى أنه، باستثناء بعض الأجزاء الأقدم والأكثر حداثة، كان البناة والرجال المسؤولون عن الصيانة يستخفون بالسلاطين بشكل رهيب. وليس من شك في أن ذلك الأمر ظل سائدا دائمًا. كان مسؤولو الديوان والوزراء يطالبون المقاولين والصناع ويحصلون منهم على عمولات، ويا لها من عمولات! على جميع الأعمال المنجزة في القصور. وكقاعدة عامة، زخرفتها ليست أفضل من تلك الموجودة في المساكن الخاصة الرائعة في فاس ومراكش. وغالبًا ما تكون فيها اللمسات الأخيرة أقل روعة.

قد تم بناء معظم القصور الموجودة من قبل مولاي الحسن، والد السلطان الحالي مولاي يوسف، والذي توفي عام 1894. من أجل بناء هذه الفدادين كان عليه أن يهدم جزءًا كبيرًا مما كان موجودًا من قبل. ومن بين قصور السلالات السابقة لم يتبق سوى قليل من الآثار. منها بعض الجدران من قصر المرينيين في فاس، ومنها في مراكش الأسوار العظيمة لما كان يجب أن يكون أجمل المباني المغربية على الإطلاق، وهو قصر سلاطين السعديين الذين انتهى حكم سلالتهم في القرن السابع عشر. ضريحهم الذي يعود تاريخه إلى القرن السادس عشر، وهو أجمل مبنى في المغرب، ولا يزال سليماً كما كان، وشاهدا على الفن المغربي المثالي. ومن أوصافه لا شك أن القصر المجاور والمتهدم كان يتميز بجمال وروعة لا مثيل لهما. ولا يزال من الممكن رؤية آثار رسم المخطط الأرضي بوضوح لباحته الكبيرة بخزانات المياه الهائلة ونوافيرها. ولا تزال جدرانه قائمة لكن السقف سقط منذ زمن طويل. وصْف هذا القصر في وقت مجده يُقرأ مثل صفحة من "ألف ليلة وليلة".

لكن ما استغرق بناؤه قرنًا من الزمن تم تدميره في يوم وليلة. لما سقطت سلالة السعديين، وهي من أعظم السلالات فكرا وحضارة التي تستحق أن يتباهى بها المغاربة أبدًا، تم تدمير هذا القصر الشهير فنهبه الجنود وبقية الجماهير. وهكذا تحتوي العديد من المنازل القديمة في مراكش اليوم على بعض مما سُلب من هذا القصر الرائع، من عتبات وأبواب ورخام نادر.

في الصحة: ربما كان التغيير الأبرز في المغرب هو الموقف من المساعدات الأوروبية الطبية والجراحية. في عهد مولاي الحسن ، قبل وصول طبيب مقيم إلى القصر، كان القايد ماكلين[1]، وهو حينها ضابط شاب، ينغمس في الطب. وكانت الثقة التي ألهمها في عيني السلطان كبيرة جدًا لدرجة أن جلالة الملك نفسه كان يسمح له بعلاجه. وقد اقتصرت معرفته على محتويات صيدليته وكتاب التوضيحات. في إحدى المرات عانت سيدات القصر، على الأرجح من عسر الهضم، وفي نفس الوقت كانت هناك حاجة إلى مطهر لجرح شخص في القصر أصيب به في حادث. فأرسل القايد ماكلين للأمرين دواءين مع تعليمات حول كيفية استخدامهما. ولكن السيدات ابتلعن الدواء الخطأ الذي تسبب لهن في نوبات عنيفة من المغص. وبسبب رعب السلطان والسيدات أنفسهن، بدأن في تقيؤ ما بدا أنه كميات غزيرة من الدم. وكلما زاد مرضهن زاد خوفهن. واستجابة لرسالة مقلقة من السلطان الغاضب من شدة الخوف هرع القايد ماكلين إلى القصر. ففسر ما وقع وتعافت السيدات.

وتجربة مولاي عبد العزيز الأولى مع استخدام الكلوروفورم[2]، كان من الممكن أن تؤدي بسهولة إلى نتائج أكثر جدية. كان طبيبه الإنجليزي قد أجرى عملية جراحية على أحد العبيد تحت التخدير بمادة الكلوروفورم. وكان السلطان موجودًا. انتهت العملية، ولما عاد جلالة الملك إلى القصر أخذ معه زجاجة المخدر الكبيرة. حاول الطبيب الحصول على الزجاجة، لكن من دون جدوى. وكل ما يمكنه فعله هو تحذير جلالته بتوخي الحذر الشديد حيال استعمال ذلك. ولا شك أن الأمر كان كذلك، لأنه على ما يبدو لم يمت أحد. لكن الشائعات تقول أن سيداته كن يرقدن ممددات في جميع أنحاء القصر مثل جذوع الأشجار لأنهن قضين أمسية رائعة من نفس الكلوروفورم.

مولاي حفيظ أيضًا كان مهتما باستخدام الكلوروفورم، وأصر على استخدامه مع أسد كان يعاني من أظافر متورمة. الأسد، الذي لم يكن مزاجه هو الأفضل، لم يكن لطيفا خلال العملية بأكملها، والتي تمت أخيرًا بنجاح بما يرضي جلالة الملك الشريف.

[1] الجنرال (القايد) السير هاري أوبري دي فير ماكلين (بالإنجليزية: Sir Harry Aubrey de Vere Maclean) - (1848 - 1920) هو عسكري اسكتلندي، كان مدربًا للجيش المغربي.
[2] الكلوروفورم chloroforme أو ثلاثي كلورو ميثان هو سائل عديم اللون، سهل التطاير له تأثير تخديري.

وغالبًا ما كان المغربي كذلك مستعدًا في الماضي لقبول المساعدة الطبية الأوروبية. وكانت لديه بعض الثقة في أدوية الأطباء الأوروبيين. لكن فرص العلاج كانت نادرة. وفي السابق، كان راضيا عن قوة العلاج التي يتمتع بها الشرفاء وعن تعاويذ "الطُّلبة" أو طلاب المدارس الدينية. ويزور بعض الأماكن المقدسة، وخاصة الأضرحة، حيث كانت تتلى بعض الأدعية. والأكثر تخلفا، يجلبون إلى جانب المريض الراقصين السود من طائفة عيساوة، المفترض في أن تكون شطحاتهم وأغانيهم كافية لطرد كل الجن في المغرب.

في الوقت نفسه، هناك بعض المعرفة بالأعشاب بين البدو، مع العديد من العلاجات التي يستخدمونها فيها والتي لا يستهان بها. كما يمارس جبر العظام المكسورة جيدا بجبائر من الخشب والقصب. ولطالما كان المغاربة على دراية بالقيمة الطبية لبعض العيون الساخنة، والتي تستخدم على نطاق واسع لعلاج الأمراض الجلدية والأمراض الأخرى الشائعة في البلاد. مثل الحمامات الساخنة لمولاي يعقوب، التي ليست بعيدة عن فاس، والمعروفة في المغرب بشكل خاص. والفوائد الناتجة عنها لا يمكن إنكارها. لقد عرفتُ مرضى بالكاد كانوا قادرين على الوصول إلى المكان وأجسادهم مغطاة بالنتوءات الجلدية، والذين عادوا بالشفاء بعد مكوثهم لمدة عشرين إلى ثلاثين يومًا في هذا المكان. وذلك علاوة على بائعي الأدوية الغريبة، والذين يمكن رؤيتهم في أي من الأسواق المغربية، مع مخزونهم من مختلف بقايا الحيوانات المجففة البشعة ومن جلود الطيور التي نخرتها الحشرات السائدة.

وهناك عدد من الأطباء المحليين. أشهرهم شرفاء دادس، وهي واحة تقع جنوب الأطلس الكبير. يدّعي هؤلاء الرجال أن لديهم معرفة ملهمة ووراثية. ولا شك في أنه لا تزال هناك آثار لتعلم الطب بينهم. وهم يعالجون إعتام عدسة العين[1]، ليس بإزاحتها وإنما بتمزيقها، ويتم استعادة البصر في كثير من الأحيان، ولكن من دون التأكد من أن الشفاء دائم.

كما أنهم بارعون في إزالة أجزاء من الجماجم المكسورة. لا يوجد جبر فعلي للعظم، لكن الجزء المكسور تتم إزالته واستبداله. يتم فتح فروة الرأس وسحبها للخلف بواسطة جزء من قشرة القرع الجافة، والتي تغطي كل من الجزء السليم من الجمجمة والفتحة وتحمي الدماغ. ويتم استبدال فروة الرأس وخياطتها.

ولعل أكثر الممارسات المتبعة عبقرية بين بربر الأطلس هي استخدام النملة الحمراء العظيمة لإغلاق الجروح الجلدية. فن خياطة الجروح معروف عندهم وممارس، لكن ليست لديهم وسيلة لتطهير الآليات المستعملة. وغالبًا ما تفتح الغرز أو تتسبب في تقرحات. لذلك يستخدمون الطريقة التالية. يتم المسك بطرفي جلد الجرح وضمهما، بحيث تُترك بعض الحافتين بارزة، وتوضع عليها نملة حمراء حية. فتغلق عليهما فكها السفلي القوي ويقطع رأسها بسرعة بمقص. هكذا يظل الفك السفلي مغلقًا ممسكا بحافتي جلد الجرح معًا. يتم تطبيق ما يصل إلى أربعة أو خمسة من هذه الغرز على جرح يبلغ طوله بضع بوصات. ولما تسقط رؤوس النملات يكون الجرح قد اندمل. هذا العلاج شائع الاستخدام في الأطلس، وقد أخبرني حاكم مراكش الحاج التهامي الكْلاوي أنه يُصر على أن يظل رجاله يفضلون ذلك على الخياطة، ما لم يكن من الممكن القيام بها من قبل طبيب أوروبي بمعدات مطهرة.

أما اليوم فقد استقطبت البعثات الطبية الأوروبية بفاس ومراكش الكثير من المرضى وقدمت لهم خدمات رائعة. كذلك كان لدى الأطباء الأوروبيين الملحقين ببلاط السلطان زبائن معروفون. لكن عادة، ما كانت ثقة المواطن فيها خجولة. إلا أنها كانت ثقة كافية لقبول الدواء المقدم له من دون مقابل. أما إذا كان مدفوع الثمن فنادرًا ما كان يقبل به. وفي كثير من الأحيان لا يتناول المريض الدواء الموصوف له. في أعماق قلبه وسرًا كانت ثقته في المفعول الذي قد ينجم عن حضور الطبيب أكبر من الثقة في العلاجات التي يصفها له.

لم يمض وقت طويل حتى عرفت مثالا حيا. كان أحد جيراني مريضًا جدًا بالتيفويد[2]. وبناءً على نصيحتي، دعت زوجاته طبيباً ممتازاً للعناية به. ولطالما رافقت الطبيب أثناء زياراته. كان الرجل مريضا للغاية. شرحت أنا والطبيب بعناية للنساء كيفية تناوله الدواء ويبدو أنهن اتبعن نصيحتنا حرفياً. وذات يوم، عندما وصلت إلى المنزل بشكل غير متوقع في الوقت الذي كان يجب أن يتناول فيه المريض دوائه، رأيت زوجته تقيس الجرعة بعناية في كوب ثم ترميها عمداً. بقيت مختبئا لبضع لحظات، ثم أعلنت عن تواجدي. سألتها إذا كان الرجل قد تناول أدويته. ممسكة بالزجاجة ومشيرة إلى نقص محتوياتها، أجابت المرأة: "نعم، لقد

---

[1] السَّادُّ أو الكاتاراكت Cataract أو السَّدّ أو الماء الأبيض أو عتامة العين أو إعتام عدسة العين، وهو مرض يصيب عدسة العين الطبيعية القائمة خلف الحدقة فيعتمها ويفقدها شفافيتها مما يسبب ضعفاً في البصر دون وجع أو ألم. ويعاني المصاب بالساد من تحسسه للإنارة المبهرة والقوية مع ضعف في النظر ليلاً. وقد يصيب عيناً واحدةً أو كلا العينين سويةً.

[2] هو مرض معدي ينتج من أكل أو شرب المواد الملوثة بأنواع معينة من السلمونيلا.

أخذها للتو". ثم أخبرت المرأة أنني رأيتها ترميها جانبا. لم تظهر أي ارتباك وقالت: "يكفيه حضور الطبيب بدون أدويته. وفقط علمه مفيد. ومن يدري ما تحتويه أدويته؟"

لقد مرت معي العديد من الحالات المماثلة. ومنها الحالة التالية التي كانت سخيفة جدًا وتستحق أن تذكر. عندما قابلت مواطنًا عجوزًا مصابًا بجرح شديد في ربلة إحدى ساقيه. سألته عما إذا كان سيذهب إلى المستشفى لتلقي العلاج. وافق بكل سرور وكتبت من أجله على بطاقة عمل رسالة إلى الطبيب المسؤول. أخذها الرجل وغادر. بعد يوم أو يومين التقيت به، وكانت ساقه ملفوفة بخرقة متسخة. سألته إذا كان قد ذهب إلى المستشفى. فأجاب: "لا ، لم تكن هناك حاجة لذلك. ساقي أفضل حالا بالفعل". حينها أصررت على رؤية الجرح. تحت الضمادة ذات الرائحة الكريهة، والمربوطة من فوق الجرح المفتوح، وجدت بطاقة الاتصال الخاصة بي! فسألت الرجل لماذا وضعها هناك. فقال: "لطفك ومجرد معرفة الطبيب الذي تم توجيهها إليه من شأنهما أن يشفيا جرحي بما فيه الكفاية. لذلك قمت بوضع البطاقة على الجرح. إنه بالفعل أمر أفضل". لكنه لم يكن بطبيعة الحال كذلك. فأخذت الرجل العجوز بقوة ونقلته إلى المستشفى بنفسي حيث تم علاجه. وبعد أن وجد راحة فورية تقريبًا من الألم، اتبع نصيحة الطبيب واستمر في زياراته حتى شُفيت ساقه. حاولت أن أظهر له الجنون بشأن فكرته عن الشفاء، لكنه رد فقط قائلا: "كانت بطاقتك كافية. كانت ستشفي جرحي لو سمحت لي بتركها هناك".

كانت المرأة ولا تزال هي الأصعب. ولكن حتى بخصوصهن حدث تغيير كبير. البعثة الطبية الأوروبية إلى النساء في فاس والتي تديرها بشكل مثير للإعجاب سيدتان إنجليزيتان مرموقتان أو بالأحرى أيرلنديتان، قد قدمت خدمات هائلة. ومن الغريب أنه في فاس، أكثر المدن المغربية تعصبًا، تم إحراز أكبر تقدم في هذا العمل الطبي الأنثوي. في أماكن أخرى، كان هناك نجاح كبير. لكن، على ما أعتقد، ما كانت في أي مكان آخر غير العاصمة الشمالية، هكذا صارت منازل وقلوب النساء منفتحة على المسيحيين.

ويتدفق الناس اليوم بالآلاف إلى المستشفيات والمستوصفات التي افتتحها الفرنسيون على طول واتساع محميتهم. ولا يزال هناك مجال لمزيد من العمل الطبي، حيث أن المرض منتشر. لكن ما تم إنجازه بالفعل مثير للإعجاب.

المغربي الذي لم يكن يحلم أبدًا بقبول مساعدة الطبيب في الماضي، يهرع الآن إلى أقرب مستوصف حالما يشعر بالمرض. وأي رجل يواجه حادثًا يتم نقله على الفور من قبل رفاقه الذين يعملون معه إلى المستشفى المحلي. وتنتظر الحشود بصبر دورها في الحدائق والممرات. وأيام النساء مزدحمة مثل الرجال تقريبًا. مهما كانت مشاعر الناس الحقيقية تجاه الأوروبيين، فإن ثقتهم في الأطباء المسيحيين لا شك فيها.

ومع ذلك، فإن الأشخاص الذين يتدفقون على القطاع للحصول على المساعدة الطبية من المحتمل أنهم لا يدركون حدوث تغيير في عقليتهم. قد لا يدركون أنه قبل عشر سنوات فقط، وحتى لو كانت الاحتمالات موجودة، ما كانوا يجرؤوا أبدًا على إظهار هذا الاحترام الخارجي والثقة بمهارة الكافر. لكن التغيير حدث بشكل تدريجي ولم يلاحظه من يستحقه.

في التسامح: يُلاحظ تغير نفس العقلية من نواحٍ عديدة أخرى. مدارس وجامعات فاس ومراكش التي ظلت مغلقة منذ قرون في وجه الأوروبيين صارت مفتوحة مرة أخرى للزائر المسيحي الذي يُسمح له بالدخول والاستمتاع بهذه الجواهر المعمارية المغاربية. لم تعد السلطات الدينية قادرة على الإصرار على بقائها مغلقة عندما أدركت أن الطلبة المسيحيين قبل بضعة قرون كانوا في الواقع يتلقون فيها تعليمهم. لذلك من بعد قليل من التردد قرروا السماح بزيارتها.

فشرعت إدارة الفنون الجميلة[1] على الفور في ترميم هذه التحف المعمارية. في البداية، صُدم الطلاب من وجود المسيحي بداخلها. وخلال إحدى زياراتي لمدرسة ابن يوسف الجميلة في مراكش، اشتكوا بمرارة من أن المهندسين المعماريين الفرنسيين كانوا يرممون العمل القديم متحررين مع بنيته. وقالوا إنهم يفضلون تركها وشأنها في حالة خراب على أن يعبث بها الكفار.

بعد عام عدت إلى نفس المدرسة. وجدت فيها نفس العلماء، أو العديد منهم. وقد قامت إدارة الفنون الجميلة بترميم جانب واحد من الفناء الكبير. لكنها كانت تنتظر أموالاً إضافية قبل البدء في الباقي. ومرة أخرى اشتكى العلماء. لكن شكواهم كانت مختلفة لما تخلى المهندسون المعماريون الفرنسيون عن إتمام عملهم. فقالوا "بأي حق يتركون الأمر غير مكتمل؟ وهل ستستخدم

[1] الفرنسية في عهد الحماية

نفوذك من أجل الحفاظ على استمرار عمليات الترميم وإنهائها؟". فذكّرتهم بشكواهم قبل عام تقريبًا، وباعتراضهم على نفس الترميم في بدايته. فضحكوا وقالوا: "حسنًا، انظر، أمس كان هو الأمس واليوم هو اليوم".

18. الأخوان الكَلاوي قبل وبعد الاحتلال.

منذ سنواتي الأولى في المغرب زرت تلك القلاع البعيدة برفقة العديد من الزعماء البربر. وأقدر اليوم صداقتهم التي استمرت لسنوات عديدة. منذ أن عرفتهم لأول مرة كنت على علاقة وثيقة ولفترة طويلة مع عائلة الكَلاوي. كان سيد المدني[1] هو القايد الوحيد لقبيلة كَلاوة. أما شقيقه الأصغر الشاب سيد التهامي[2] لم يكن يشغل أي منصب رسمي في ذلك الوقت. ونظرًا لمهاراتهم في الحرب واستعدادهم للدبلوماسية القبلية، فنادرًا ما كان يغادر أفراد عائلتهما قمم الجبال العالية، باستثناء السفر بشكل دوري إلى مراكش في رحلة تستغرق ثلاثة أيام في المنزل.

قصبتهم في تلويت، وهي أكبر قلاع الأطلس، تقع على ارتفاع سبعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر. كان هذان الأخوان يتمتعان بنفوذ لم يكن من الصعب معه التنبؤ بأنهما سيضطلعان بدور في تاريخ المغرب. بدءا بتوطيد سلطتهم في الأطلس، سواء من خلال الدبلوماسية أو من خلال سلسلة من الحروب الصغيرة التي كانا يتفوقان فيها أحدهما على الآخر، والتي أصيب فيها كلاهما بشكل متكرر.

كان المدني أكبرهما قد عمل لمولاي عبد العزيز في حروبه ضد قبائل الريف. في هذه الأثناء، صار فصيل كَلاوة في الجنوب يتمتع بقوة تامة. وعندما رفع مولاي حفيظ راية الثورة ضد أخيه عام 1908، أيده. بدونه، كانت قضيته آيلة للفشل. وأصبح المدني وزيراً للحرب ولاحقاً صار هو الصدر الأعظم. وتم تعيين شقيقه الحاج التهامي واليا لمراكش والقبائل المجاورة. كانا مقتدرين في الحكم بقدر ما كانا مقتدرين في تدبير شؤونهما الخاصة. كانت عقاراتهما هي الأكثر اتساعًا على الإطلاق بالمغرب باستثناء عقارات المخزن. وكانت تعمل وتُدار بشكل رائع، وتدفق عليهما عائدات هائلة.

في وقت إعلان الحماية الفرنسية، ألقى هذان الرجلان القديران بمصيرهما في يد فرنسا وخدماها بإخلاص. بذكائهما كانا منذ سنوات يدركان أنه يمكن تجنب نهاية استقلال المغرب لفترة قصيرة، لكن حصولها كان حتميا. ولم يخفيا أبدًا تفضيلهم للإصلاح ورغبتهم في انفتاح ثروات المغرب.

البربر لا يتمتعون فقط بالفطنة العالية بل يمتلكون أيضًا نشاطًا يفتقر إليه باقي سكان المغرب الآخرون. راقتهم الطرق والسكك الحديدية ومختلف الآليات التي كانوا متشوقين لاستقدامها. عقليتهم أوروبية وليست إفريقية.

خلال إحدى زياراتي لقصبة الكَلاوي في تلويت، أعتقد أن ذلك كان في عام 1901، تم إقناعي بالبقاء إلى أجل غير مسمى لما كان يجب أن أكون بالفعل في طريقي إلى الساحل. كان القايد المدني هو الذي طلب مني البقاء يومًا آخر ثم واحد أو آخر من إخوته أو من أبناء عمومته وهكذا دواليك. كل صباح كنت أستعد للرحيل، وفي كل مرة كن يطلب مني البقاء. وأخيرًا توقعت حقًا أنني سأتمكن من المغادرة لكن تم اقتيادي إلى فناء كبير تهيمن عليه جدران القصبة المجمعة. على أسطح المدرجات تجمعت العديد من النساء المحجبات. فطلب مني مضيفي النظر للأعلى وقال: "اليوم نساؤنا تتوسل إليك كي تبقى". وهتفن بصيحة مدوية مرحبات بي.

البربر أقل تشددًا تجاه النساء. فقد تحدثت كثيرًا مع النساء المسنات من عائلة الكَلاوي. سألت إحداهن كانت قريبة جدًا من سيد المدني "لماذا طلبت مني نساء القصبة تمديد إقامتي". فأجابت: "لأنه منذ أن كنتم هنا كانت هناك هدنة للحرب والشجار.

---

[1] هو المدني الكَلاوي المزواري المتوفي سنة 1918م هو قائد مخزني مغربي، عينه السلطان الحسن الأول خليفة له في عدة ولايات بالجنوب المغربي. قاد المدني الكَلاوي في صيف سنة 1907 انقلاب المولى عبد الحفيظ بمراكش ضد مولاي عبد العزيز. وفي سنة 1909 رقي إلى منصب الصدر الأعظم والعلاف الكبير أي وزير الحرب في الجهاز المخزني الحفيظي. فعمد إلى تعيين عدد من أقربائه في مناصب مخزنية كقواد وخلفاء بجهات الجنوب. بعد فرض الحماية الفرنسية على المغرب، وانهزام أحمد الهيبة في معركة سيدي بوعثمان، دخل الفرنسيون إلى مراكش وعينوا المدني الكَلاوي باشا عليها. عند وفاته سنة 1918 خلفه شقيقه القائد التهامي الكَلاوي.

[2] هو التهامي المزواري الكَلاوي (1878–1956 م). كان باشا مراكش وزعيم قبيلة كَلاوة بجبال الأطلس الكبير. انتقل من خدمة العرش العلوي والمخزن، إلى أبرز المتمردين عليهما زمن الحماية الفرنسية. شارك في مؤامرة 20 أغسطس 1953، عندما خُلع السلطان محمد الخامس عن العرش ونفي بمعية عائلته الملكية وأخذ مكانه محمد بن عرفة. استمد قوته من زعامته القبلية التي جعلته يكتسب قوة التعاون التام مع الفرنسيين. وقد حكم مباشرة مدة خمس وثلاثين سنة أو من خلال أبنائه طيلة أربع وأرعين سنة. وخضع له عدد كبير من السكان فاق المليون نسمة. وذلك إلى غاية سنة 1955.

أبناؤنا وأبناء أبنائنا في أمان. قبل وصولكم لم يكن أحد يضحك في القصبة. فالرجال لا يفكرون إلا في الحرب. ونحن النساء لا نفكر سوى في الخوف عليهم من الموت. ولكن في الأسبوعين الماضيين ضحكنا وغنينا بلا خوف. وعندما ستغادرنا ستنتهي الهدنة وستتوقف كل ضحكاتنا". الأمر الذي يجعلنا ندرك طبيعة الحياة في قصبة تلويت.

عندما كان سيد مدني الكْلاوي في فاس كوزير أعظم في عهد مولاي حفيظ لم يكن معه سوى عدد قليل من أبنائه الكثيرين. وكان من بين هؤلاء الابن المفضل من أم زنجية. كان يبلغ من العمر اثني عشر عامًا تقريبًا، كان ذا بشرة مظلمة جدًا. لكنه كان مفعمًا بالحيوية والذكاء بشكل ملحوظ، وأكثر إيناسا. لسوء الحظ، كان لهذا المزاج عيوبه، وكان سلوكه بالنسبة لسنه مخزيًا. لقد انغمس بالفعل في الحياة الأكثر جنونًا. كان والده قد أرسله إلى المدرسة الفرنسية. لكنه لم يذهب إلى هناك إلا في حالات نادرة. بغض النظر عن عدد أتباع الوزير الذين أخذوه إلى البوابة، فقد كان دائمًا يهرب بطريقة أو بأخرى، ويقضي أيامه في مجتمع أقل تأهيلًا في مكان آخر.

في النهاية، ساءت الأمور لدرجة أن المعلم أصر على تقديم شكوى شخصية إلى والده. تم استدعاء الصبي إلى حضوره وسأله عن سبب تغيبه عن المدرسة. نفى ذلك وأصر على أنه كان يذهب إليها بانتظام وأن هذا الاتهام لم يوجه إليه إلا لأن المعلم لا يحبه. وكان من الطبيعي أن يستمر مدير المدرسة في جدل مع الصبي الذي قال أخيرًا، "حسنًا، يمكنني إثبات ذلك. إذا كنت لا أذهب إلى المدرسة فلن أستطيع التحدث بالفرنسية. فاختبروني". تم حينها استدعاء أحد أعضاء الجناح الجزائري للوزير على عجل وطلب منه مخاطبة الصبي بالفرنسية. لقد فعل، وأجاب العفريت الأسود بسهولة باريسية تقريبًا، لكن لم يكن على تلاميذ المدارس تعلم تلك اللغة الفرنسية. التعبيرات والكلمات التي استخدمها جعلت شعر مدير المدرسة يقف في رأسه. لم يتعلمها في مدرسة أبناء الأعيان، ولا في مدرسة بنات السيدات أيضًا. ولكن في مقهى غناء فرنسي، كما سماه هو نفسه، والذي فتح مؤخرا بحي اليهود في المدينة.

توفي المدني الكْلاوي منذ عامين[1]. وهو الرجل المأسوف على فقدانه حقًا، ليس فقط من قبل الفرنسيين الذين قدم لهم خدمة جليلة ولكن أيضًا من قبل الأهالي المحليين. وقد كان من أعظم وأغنى وأكرم رؤساء الأمازيغ. كان رجلا ذا أخلاق طيبة والكثير من المعرفة. شقيقه الحاج التهامي الذي لا يزال شاباً نسبياً هو اليوم باشا مراكش. إنه يعيش حياة بسيطة وسط ترف عظيم. كل ساعة يمكنه اقتناصها من واجباته الرسمية يقضيها في زيارة عقاراته أو في الاطلاع على مجموعته الرائعة من المخطوطات العربية وقراءتها.

[1] سنة 1918

ملحق البحوث الأكاديمية

1. تخلف وانحطاط من بعد تقدم وازدهار

بقلم د. طالب عبد السلام الطالب[1]
من كتابه باللغة الفرنسية : "التنظيم المالي بالإمبراطورية المغربية"
Emile Larose, libraire-éditeur, Paris، باريس 1911.

المغرب هو واحدة من آخر القوى المسلمة التي لا تزال تحتفظ نسبيا باستقلالها[2]. لكن الفوضى التي تعم البلاد لم تمكنها من المحافظة على كونها دولة. مفهوم الدولة يفترض، في الواقع، تنظيمًا كاملًا إلى حد ما ومتكيفا بشكل ما مع حسن إدارة العدالة والجيش والمالية إلخ... إلا أن مظهر التنظيم الموجود حاليًا في المغرب لا يمكن أن يشكل دولة بالمعنى الحديث للكلمة.

إلى أي شيء يمكن أن ننسب هذا الوضع المؤسف بالإمبراطورية المغربية؟ إنه سؤال معقد للغاية وتتباين الآراء بشدة حوله. ولكن بشكل عام، يُعزى الوضع الحالي إلى الدين، أي مبادئ الإسلام. يقال إن ديانة محمد هي السبب الرئيسي في انحطاط جميع البلدان التي دخلت إليها.

ليس من اختصاصنا في موضوع هذا الكتاب الخاص التعامل مع مثل هذا السؤال المهم. لكن على الرغم من خصوصية موضوعنا، نعتقد أنه ينبغي أن نعرض هنا الخطوط الرئيسية للآراء التي أعرب عنها بعض الكتاب. ثم نسمح لأنفسنا بعرض رأينا الخاص بكل إخلاص.

بالنسبة للبعض، فإن الركود الحالي للمجتمع المسلم ينبع بشكل أساسي من الفكرة التي جمدت في أذهان المسلمين بأن حق التفكير الحر قد توقف عند الفقهاء الأوائل... والمسلم الذي يُنظر إليه على أنه من أتباع محمد المخلصين ملزم بمطابقة رأيه مع تفاسير الرجال الذين عاشوا في القرن التاسع للميلاد (السلف الصالح)، ولا يمكن أن يكون لديه تفاسير غيرها صالحة للقرن العشرين. بالنسبة للآخرين، فإن الجمع بين السلطتين الروحية والزمنية في يد الخليفة، وجمود دين النبي كان دائمًا عقبة أمام تطور الشعوب المسلمة التي لم تشكل دولة أبدًا، بالمعنى الحديث للكلمة، ولم تتصور فكرة القومية القطرية.

في مؤتمر بجامعة السوربون، أثار أرنست رينان[3]، ضجة كبيرة، على الرغم من أنه قد أظهر حتى الآن فكرا محايدا ومتغلغلا للغاية في شؤون الإسلام. وأعلن ضد الدين الإسلامي إدانة في غاية الصرامة، بالعبارات التالية: "منذ نشأته الدينية، الطفل المسلم الذي يكون حتى ذلك الحين أحيانًا متيقظًا، يصبح فجأة متعصبًا وممتلئًا بالاعتزاز السخيف بكونه يمتلك ما يعتقد أنه الحقيقة المطلقة، وسعيدًا بالامتياز المُتوهم الذي يشكل دونيته. فهذا الكبرياء الأخرق هو الرذيلة الراديكالية للمسلم".

هكذا فإن رينان، المتشبث بشجب رذائل الفكر الديني كخصم للفكر العلمي، يتهم بوضوح دين المسلمين بالعجز وبالتخريب. ومتوقعًا للاعتراض الذي سيُقدم إليه من خلال استحضار هارون الرشيد ببغداد، أشار إلى أن الإسلام اقتصر على وراثة الحضارة من الفرس الساسانيين، الذين هم أنفسهم وريث اليونان. وبالتالي لم تكن حضارة المسلمين تحت حكم العباسيين

---

[1] طالب عبد السلام هو ابن قاضي بتلمسان في الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي. حصل عام 1911 على الدكتوراه في القانون من فرنسا بدفاعه عن أطروحة بعنوان "التنظيم المالي للإمبراطورية المغربية". يتعلق الأمر بمحاولة من جهته لتقدير إجمالي إيرادات ونفقات الميزانية المغربية قبل الحماية. وفي الختام، أكد أن سياسة المخزن الجبائية المضرة بالسكان من دون تزويدهم بأي شيء في المقابل، من شأنها أن تدفع البلاد إلى خراب مؤكد. وللخروج من الأزمة، اقترح إصلاح الإدارة المالية وكذلك الجيش. وبما أن مثل هذا الإصلاح يتطلب تعليم وتدريب النخب الحاكمة فإنه يحتاج إلى دعم أمة أكثر تقدمًا. وفقط فرنسا هي التي، في نظره، يمكنها أن تقدم ذلك الدعم لانقاد المغرب. حصل الدكتور طالب على الجنسية الفرنسية وأصبح محاميا. وفي عهد الحماية عمل كمحامي بالدار البيضاء. في عام 1919 أثار في كتيبه الدعائي بعنوان "طموحات الجزائر" مسألة البرلمان الجزائري واقترح حكمًا ذاتيًا في الجزائر.

[2] (سنة 1911، عشية بداية عهد الحماية سنة 1912)

[3] إرنست رينان *Ernest Renan* (1823 - 1892). مؤرخ و مستشرق و باحث و ناقد فرنسي يعتبر من أعظم رواد حركة الاستشراق ، ورمزا من رموز فرنسا السيكولاريه. ألف سنة 1852 " رسالة عن " ابن رشد و الرشدية " *Averroès* et *l'averroïsme* أكد فيها على ان العرب ليس لديهم شيء اسمه فلسفه و ان معارفهم فيها استوردوها جاهزة من اليونان و كتبوها بحروف لغتهم، وانهم يفتقدون روح الابداع كعنصر بشري غير متطور ويسودهم التعصب و اللاعقلانية و الغوغائية. اهتم بالدين من الناحية التاريخية وليس من الناحية اللاهوتية. وطالب بنقد المصادر الدينية نقدا تاريخيا وعلميا مع التمييز بين العناصر التاريخية الحقيقية والعناصر الأسطورية الخرافية الموجودة فى الكتاب المقدس فانقلبت الكنيسه عليه. من أشهر كتبه " تاريخ نشأة المسيحية " *Histoire des origines du Christianisme* الذي يتكون من 8 اجزاء نشرها ما بين 1863 و 1883.

سوى انبعاثا لحضارة بلاد فارس. لكن هذا في حد ذاته يفترض أن الإسلام يمكن أن يشجع تنمية الحضارات الأصلية ويعززها، الأمر الذي يبعد عنه تهمة التخريب.

وقد أعطى المستعرب البارز السيد رينيه باسيت[4] رأيه في الإسلام من خلال هذه العبارات: "في عز الخلافة المكتملة ببغداد وفي زمن التطور الكامل لحضارة متفوقة على الحضارة الأوروبية في ذلك الوقت، انتصرت العقيدة الضيقة، وبالتالي الأكثر تعصبًا، ليس فقط على الفكر الحر ولكن حتى على الفكر الحر المتهافت جدا كفكر المعتزلة، الذي لم يجادل في أي من النقاط الأساسية للعقيدة، ولكنه أعطى جزءًا معينًا لممارسة الفكر. فكان ذلك اليوم مؤشرا على الانحطاط القاتل للإسلام." هذه بإيجاز، أهم التظلمات الموجهة للإسلام والمسلمين.

أما نحن فلا نعتقد أن الدين المحمدي ببساطته، أي الخالِي من كل الخرافات التي يحب الجهلاء أن يحيطوه بها، هو السبب في الوضع الحالي ببلاد المسلمين. بل في الواقع، يعلمنا التاريخ أنه خلال القرون الأولى التي أعقبت ولادة الإسلام، شهدت البلدان التي خضعت لحكامه ازدهارًا لم تعرفه من قبل. نجح في وقت قصير في توحيد العديد من الشعوب من أعراق مختلفة في أمة واحدة، من بعد ما مزقتها الصراعات الداخلية التي دامت قرونًا.

من ناحية أخرى، لا يمكن إنكار التقدم الكبير الذي حققته في ذلك الوقت مختلف طوائف شعوب الإسلام في ثقافة الفنون والعلوم والآداب. والآثار والقصور وبقايا الأدب الغني والواسع التي لا تزال موضع إعجاب عالمي في الشرق وفي إسبانيا وفي شمال إفريقيا تشكل أدلة لا تقبل الجدل على حضارة رائعة لم تمت وبالتالي يمكن أن تنبعث من جديد وبتألق[5].

يدرك رينان نفسه أن العالم المسلم كان متفوقًا على العالم المسيحي، بالنسبة للثقافة الفكرية، مدة خمسمائة عام تقريبًا، من 775 إلى 1250. ولا يمكننا أن نكون أكثر دقة، للتذكير بالإنجازات العظيمة للحضارة المسلمة، إلا من خلال استنساخ هذه المقتطفات القليلة عن السادة البارزين، ڤوستاف لوبون[6] ولو شاتيليه[7].

قال ڤوستاف لوبون: "بمجرد أن أكمل العرب فتوحاتهم، بدأوا إنجازاتهم الحضارية. في أقل من قرن قاموا بتهيئة أراضي الريف غير المزروعة، وعمروا المدن المهجورة، وشيدوا بنايات رائعة، وأقاموا علاقات تجارية مع جميع الشعوب الأخرى، ثم كرّسوا أنفسهم لتنمية الثقافة والعلوم والآداب، وقاموا بترجمة مؤلفات اليونانيين واللاتينيين وأسسوا جامعات كانت لفترة طويلة المراكز الفكرية الوحيدة في أوروبا". وتحدث المؤلف نفسه عن تأثير حضارة المسلمين على العالم المسيحي، فأضاف قائلا: "لا يمكن فهم أهمية الدور الذي مارسه العرب في الغرب إلا من خلال استحضار حالة أوروبا في ذلك الوقت الذي أدخلوا فيه الحضارة. إذا ما عُدنا إلى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، عندما تألقت الحضارة المسلمة مشرقة ببهائها في إسبانيا، فإننا نرى أن المراكز الفكرية الوحيدة لبقية الغرب كانت عبارة عن قلاع ضخمة يسكنها اللوردات شبه المتوحشين، والفخورون بعدم معرفة القراءة. كانت الشخصيات الأكثر تعليما في العالم المسيحي هم رهبان فقراء جهلة يقضون وقتهم في خدش أسفل أديرتهم، نسخًا من روائع العصور القديمة للحصول على المخطوطات اللازمة لنسخ كتب التقوى".

وأضاف قائلا "كانت وحشية أوروبا لفترة طويلة أكبر من أن تشعر بها. بالكاد ظهرت بعض التطلعات العلمية في القرن الحادي عشر وخاصة القرن الثاني عشر. عندما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلاً بالحاجة إلى التخلص من كفن الجهل الوازن الذي كان يثقل كاهلها، فإنها لجأت إلى العرب، وهم السادة الوحيدون آنذاك".

واسترسل يقول "لم يدخل العلم إلى أوروبا من خلال الحروب الصليبية، كما يردّد ذلك بشكل عام، ولكن من خلال إسبانيا وصقلية وإيطاليا. منذ 1130 نشأت جماعة المترجمين في توليدو برعاية رئيس الأساقفة ريموند، وشرعت في ترجمة

---

[4] رينيه باسِّيه René Basset 1855 - 1924 م) هو مستشرق فرنسي. من أعضاء المجمع العلمي العربي. من آثاره: «الشعر العربي قبل الإسلام» (باريس 1880 م). كما اشترك في اللجنة الأولى التي أصدرت دائرة المعارف الإسلامية

[5] نحن اليوم في نهاية العشرية الثانية من القرن الواحد والعشرين ولم يحن بعد ذلك الوقت المنشود.

[6] ڤوستاف لوبون Gustave Le Bon (1841 - 1931) طبيب ومؤرخ فرنسي. عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا. كتب في علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا وعني بالحضارة الشرقية. من أشهر آثاره:"حضارة العرب وحضارات الهند" و"الحضارة المصرية" و"حضارة العرب في الأندلس" و"سر تقدم الأمم" و"روح الاجتماع" الذي كان انجازه الأول. هو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين امتدحوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية. لم يسر ڤوستاف لوبون على نهج معظم مؤرخي أوروبا، حيث اعتقد بوجود فضلٍ للحضارة الإسلامية على العالم الغربي.

[7] ألفريد لو شاتيليه Alfred Le Chatelie، (1855 - 1929)، ضابط فرنسي وأول من شغل منصب رئيس قسم علم الاجتماع الإسلامي في Collège de France..

كتب أشهر المؤلفين العرب للغة اللاتينية. وكان نجاح هذه الترجمات كبيرًا، اكتشف الغرب بفضلها عالما جديدا. ولم تتباطأ خلال القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر. لم يُترجم إلى اللاتينية فقط المؤلفون العرب، مثل الرازي وأبو القاسم الزهراوي وابن سينا وابن رشد إلخ... بل ترجمت أيضًا كتب مؤلفين يونانيين، مثل جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وإقليدس وأرخميدس وبطليموس، من بعد ما ترجمها المسلمون إلى لغتهم الخاصة".

ثم قال "في كتابه عن تاريخ الطب العربي، أحصى الدكتور لوكلير أكثر من ثلاثمائة عمل عربي تمت ترجمته إلى اللاتينية. العصور الوسطى بأوروبا لم تعرف العصور العتيقة اليونانية إلا من بعد ما مرت لأول مرة بلغة أتباع محمد. وبفضل هذه الترجمات، تم الاحتفاظ بالمؤلفين القدامى الذين فُقدت أعمالهم الأصلية. ومن بين آخرين، من مثل ذلك المقاطع المخروطية لأبولونيوس وتعليقات جالينوس على الأوبئة وأطروحة حول الحجارة لأرسطو ، إلخ ... للعرب وحدهم يعود الفضل في معرفة العصور القديمة وليس لرهبان العصور الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى وجود اليونانيين. والعالم مدين للعرب بالامتنان الأبدي في إنقاذهم لهذه الوديعة الثمينة". "امحوا العرب من التاريخ، كما كتب السيد لبري، وسيتأخر عصر النهضة في أوروبا عدة قرون"

وأخيرًا أنهى كُوستاف لوبون كتابه بهذه العبارات: "من وجهة النظر الحضارية، قلة قليلة من الشعوب قد تجاوزت العرب. ولم توجد من بينها من أحرزت مثل ذلك التقدم الكبير في مثل تلك المدة القصيرة. من وجهة النظر الدينية، أسسوا واحدة من أقوى الديانات التي سادت في العالم، بل واحدة من تلك الديانات التي لا يزال تأثيرها قائما. من وجهة النظر السياسية أنشأوا واحدة من أكبر الإمبراطوريات المعروفة في التاريخ. ومن جهة النظر الفكرية والأخلاقية لقد أدخلوا الحضارة إلى أوروبا!".

أجناس قليلة صعدت إلى أعلى مما وصل إليه العرب. لكن القليل منها التي انحدرت إلى أسفل مما تقهقروا إليه. ولم يوجد من بينها من قدمت مثالًا أكثر وضوحًا، كالذي قدمته حضارة العرب على تأثير العوامل المتحكمة في ولادة الإمبراطوريات وعظمتها وفي انحطاطها.

وفي المجلة الاقتصادية الدولية علق لو شاتيليه على حضارة المسلمين بقوله: "كانت حقبة من العظمة التي لا تُضاهى لما المسلمون المشبعون بالأفكار الجديدة كرسوا أنفسهم بحماس لأعمال السلام. ورثة العلم اليوناني، واصلوا البحث فيه وأنتجوا أفضل منه. مؤسسات غنية ضاعفت من عدد المكتبات والمدارس. وجد في بغداد مجمع للمترجمين وجامعة حيث يتلقى ستة آلاف طالب من كل الفئات الاجتماعية تعليما مجانيا. توفرت لعلم الفلك مراصد مجهزة بآليات كبيرة. وازدهرت الرياضيات ونشأ علم الكيمياء. وشيدت المستشفيات. وتم الجمع بين أعمال فن العمارة والسيراميك. وتأكد إتقان الفنون الميكانيكية من خلال روائع صناعة الساعات كما تأكدت فنون النسيج من خلال إنتاج الأقمشة الثمينة. شركات التعدين والري والطرق والقنوات والمدن الجديدة، كل شيء يشهد على نشاط حيوي رائع في القرون الأولى لهذا العالم المسلم".

هذا هو إنجاز الإسلام في القرون الأولى بعد ولادته. لذلك من غير الصحيح الادعاء بأن دين محمد قد شكل دائمًا حاجزًا أمام التقدم والتحرر الحضاري. بالإضافة إلى ذلك، تجدر الإشارة إلى أن العقيدة الإسلامية في حد ذاتها لا تحتوي، من حيث المبدأ، على أي شيء يتعارض مع التقدم. تمكن الشباب الأتراك والشباب المصريون والشباب التونسيون، المتعلمون في المدارس الفرنسية، من التوفيق التام بين معتقداتهم وضرورات الحياة العصرية.

من ناحية أخرى، ينبغي أن نضيف أن الدول المتحضرة التي تحتل اليوم المرتبة الأولى والتي حققت الفصل بين السلطتين الروحية والزمنية لم تُفتقد فيها بأي حال ممارسة شعائرها الدينية. على العكس من ذلك، فإن عدد الممارسين في بيوتهم أكبر بكثير من عددهم بأي بلد مسلم.

في لندن، على سبيل المثال، في أيام الأحد، تنقطع الحياة تمامًا؛ الجميع، رجال ونساء، في الكنيسة. في فرنسا نفسها، حيث خسر الدين الكثير من أتباعه ويفقد منهم باستمرار، لم تكن عامة الجماهير أقل ارتباطًا به. في يونيو 1908 وجدت نفسي في مدينة مونبلييه يوم الاحتفال بالمباركة السيدة جان دارك. بكلفة كبيرة تمكنت من العثور على مكان صغير في الكاتدرائية. على حد علمي، لم يتم الاحتفال أبدًا بزاوية من تلمسان، مسقط رأسي، بكل هذا القدر من الجدية والحماس. مع كون تلمسان مدينة دينية بامتياز، إنها القدس الجزائرية.

إذا كانت الصراعات الدينية أو تضارب المصالح تحت غطاء الدين قد ساهمت إلى حد ما في تفكك الإمبراطورية العربية، فإن هذا الخراب كانت له أسباب أخرى أكثر خطورة. تبقى الحقيقة أنه بعد أن ألقى توهّجًا قويًا في العلوم والفنون

والأدب من القرن الثامن إلى القرن الثالث عشر، توقف إشعاع الحضارة المسلمة، فتحجرت ثم تراجعت منذ سقوط هيمنة المسلمين على إسبانيا.

حصل تراجعها، في رأينا، بسبب افتقارها إلى الطاقة في تنظيم الإمبراطورية الهائلة التي كان غزوها سريعًا للغاية، وبسبب اللامركزية المفرطة، وبسبب الافتقار إلى التنظيم الدقيق لانتقال سلطة الخلافة التي لطالما أدت إلى نشوب حروب داخلية بين العديد من المتنافسين عليها وجماعاتهم. هكذا عرفت الإمبراطورية العربية نفس تقلبات الإمبراطورية الرومانية.

2. ضغط ضريبي من دون مقابل

بقلم د. طالب عبد السلام السالف الذكر

بالفعل، توجد بالمغرب منظومة مالية. لكن لها بعض الخصائص المعينة. في المقام الأول، يبدو أن الاستفادة من وجودها خاصة بفئة من الناس. ليس هناك من يستفيد من كل خيرات البلاد سوى السلطان وخدامه النهمون. همهم الوحيد هو نهب الشعب بأكبر قدر ممكن وبكل الوسائل. بدءًا من السلطان ووزرائه، فإن دهاءهم وتكتيكاتهم تميل فقط إلى اقتلاع أكبر قدر ممكن من المال من مرؤوسيهم قواد الأقاليم والأمناء، ومن دون اعتبار للوسائل التي يستخدمها هؤلاء في استخلاصها من السكان.

بداية يسعى القواد بدورهم إلى استرداد الأموال التي كان عليهم دفعها مقابل الحصول على مهامهم مع جني الأرباح. ومن أجل ذلك، فهم يتبعون نفس النظام الذي يستخدمه رؤساؤهم في حقهم. فيقومون بنهب مواطنيهم بلا رحمة. المخزن، بطريقة ما، ليس سوى تسلسل هرمي للسرقة والفساد والمراوغة. وفي كل مستوى من مستويات هذا التسلسل الهرمي الغريب، هناك نوع من المزايدة.

ولذلك فإن جميع الوسائل جيدة لاستخراج أكبر قدر ممكن من المال من الرعايا المدنيين. وليث تلك الضرائب المدفوعة تعمل على الأقل على التخفيف عنهم بعض الشيء! لكن ليس الأمر كذلك. يكاد المخزن لا يعيد منها شيئًا للسكان. الخزينة التي تتلقى عائدات الضرائب بعد الاختلاس الممارس على كل مستوى من مستويات التسلسل الهرمي للمخزن، لا تنفق منها مليما على دافعي الضرائب التعساء. لا تقدم لهم أي خدمة عمومية بهذه الموارد، ولا تنجز أي منشأة ذات مصلحة عامة، ولا تقوم بأي عمل مفيد للبلد. وبالتالي، فإن الأموال العامة تُهدر ببساطة وبشكل خاص لصالح فئة معينة من الناس الذين يسعون إلى إثراء أنفسهم وضمان حياتهم الراقية في أبهة ومتعة[8].

ومع ذلك، لضمان تحصيل الضرائب ولتحقيق الهيبة في أعين رعاياه، فإن السلطان يضطر إلى تقديم تضحيات مالية معينة من خلال الحفاظ على جيش، وأي جيش ؟ ولكن، لا يزال من الضروري القول إن الأموال المرصودة لتغطية نفقاته، على هزالتها، يتم تحويلها أيضًا عن وجهتها من قبل أولئك المكلفين بتدبيرها. ونتيجة لذلك، القليل جدًا منها يصل إلى الجنود المساكين الذين كثيرا ما ينتظرون عبثًا الرواتب المتأخرة عدة أشهر. لكن، كما قلنا للتو، يتم الحفاظ على هذا الجيش فقط من أجل الهدف الأناني المتمثل في الدفاع عن المخزن في أوقات الثورات القبلية أو تنظيم حرْكة ضد قبيلة ترفض دفع الضرائب.

هناك أيضاً أنواع أخرى من الإنفاق التي يقوم بها بيت المال. الشرفاء الذين هم أيضاً من نسل مباشر إلى حد ما للنبي يُعتبرون خطيرين للغاية في المغرب بسبب التأثير الديني الكبير الذي يمارسونه على الأهالي من دون تمييز طبقي. وغالبًا ما يكون هذا التأثير مساويًا لتأثير السلطان أمير المؤمنين إن لم يكن أكبر. عندما تهتز سلطة الملك إلى حد ما بفعل تحالف القبائل، يلجأ إلى الشرفاء لإعادتها من جديد أو تثبيتها. فغالبًا ما يشركهم لإضفاء الهدوء على القبيلة المتمردة. لكن من أجل كسب الصداقة والدعم الفعال من هذه الشخصيات الدينية التي تضع نفوذها تحت تصرف سياسته المؤسفة، يوزع السلطان عليهم عدة مرات في السنة بعض المنح الخفية من المال العام.

3. قضاء عتيق

مقتطفات من مقال بالفرنسة تحت عوان: "إصلاح العدالة في المغرب قانون التوحيد"
بقلم ساوفيل جان في دليل مجلدات شمال أفريقيا 1962-2003

[8] بل يكنزون قدر الإمكان من القيم المنقولة الآمنة، من المعادن والمجوهرات النفيسة، تحسّبا لغد غير مضمون على الدوام في مثل هذا البلد.

قبيْل الحماية كانت هناك خمسة أنواع من المحاكم القضائية، وهي المحاكم الشرعية ومحاكم المخزن والمحاكم العرفية والمحاكم الحاخامية والمحاكم القنصلية. كان القضاء الشرعي يفصل في قضايا الشرع وفق أحكام الفقه (المالكي). وكان مختصا في العقارات والميراث والأحوال الشخصية. لم يكن للأحكام الصادرة عن قضاته قوة الأمر المقضي به[9]. ولم تكن هناك إمكانية لاستئناف أحكامه. ولم يكن قضاته مستقلين لكونهم في الواقع خاضعين للولاة الذين يعينونهم. فكانوا يتلقون هدايا في غياب تسلم رواتب منتظمة. لهذه الأسباب، وعلاوة على غموض تحديد دائرة الاختصاص الترابية لكل قاضي، لم تكن تلك العدالة مكتملة.

أما الذين كانوا يفصلون في قضايا محاكم المخزن فهم الممثلون المحليون للسلطة التنفيذية، من "قيّاد" أو قواد في البوادي وباشوات في المدن. وكانوا ينظرون في القضايا الجنحية والجنائية وفي جميع الأمور المدنية والتجارية التي لا تدخل في اختصاص قاضي الشرع. لم تكن هناك قوانين يُستند إليها في إصدار الأحكام. القواد والباشوات كانوا يحكمون وفق ما يرونه عدلا. ونظرًا لأنهم كانوا أصحاب مهام تنفيذية سبق أن اشتروها أحيانًا بمبالغ باهظة، ولا يتقاضون رواتب، فغالبًا ما كانوا يحكمون على المذنبين، بالإضافة إلى العقوبات الجسدية، بغرامات مالية مستحقة لهم. قد كانت عدالة اعتباطية بسبب الجمع فيها بين السلطتين التنفيذية والقضائية.

والعدالة العرفية هي تلك التي كانت خاصة بالقبائل البربرية. كانت تمارسها الجماعة بالقبيلة أو جزء من القبيلة أو الدوار، ورئيسها هو **أمغار.** لم يكن لها تنظيم خاص بها. كانت لا تزال في مرحلتها البدائية.

كانت العدالة الحاخامية هي عدالة المجتمعات الإسرائيلية العديدة والقديمة في المغرب. كان يمارسها الحاخامات. كانت مختصة في الأحوال الشخصية والميراث. في القضايا الجنائية، كان الإسرائيليون خاضعين لمحاكم المخزن. أدت هذه العدالة، بسبب عدم وجود إجراءات منتظمة وإلزامية وقوة الأمر المقضي به، إلى حدوث تجاوزات.

أما العدالة القنصلية فيعود أصلها إلى نظام التنازلات[10]. لم يستفد منها المواطنون الأجانب فقط، ولكن أيضًا الرعايا المغاربة المرتبطين بالدول الأجنبية ومواطنيها من خلال المصالح المشتركة، كالمصالح التجارية على سبيل المثال. وقد كان هناك أيضا مغاربة يستوردون الأقمشة من بريطانيا العظمى وكانوا يتمتعون بالحماية البريطانية. كان القضاة فيها هم القناصلة بمعية خبراء أجانب. كانوا ينظرون في القضايا التي يكون فيها المدعى عليه أجنبيًا أو مغربيا محميًا، باستثناء القضايا العقارية التي كانت تقع ضمن اختصاص المحكمة الشرعية الأهلية. لذلك كانت عدالة غير مكتملة، وكانت غريبة تمامًا عن البلاد.

قبل الحماية، كانت الأنظمة القضائية القائمة توفر القليل من الضمانات للمتقاضين بسبب الارتباك أو الترابط بين السلطتين القضائية والتنفيذية، وفساد القضاة، وغياب تحديد الدائرة القضائية الترابية مع غياب قوة الأمر المقضي به وسبل الاستئناف. وهكذا نفهم المقصود من العبارة القدحية التي تقول: "ستكون عودة إلى عدالة الباشا"، لما يتم الحديث عن مشروع إصلاح العدالة.

4. مسالك وطرق برية بدائية

بقلم فريديريك أبيكاسيس[11]
من مقاله باللغة الفرنسية المنشور من طرف
مركز جاك بيرك بالرباط .2009 تحت عنزان "إنشاء شبكة الطرق المغربية".

كانت بلا شك شبكة مسالك التنقل العتيقة هي أحد مظاهر المغرب التي صدمت الرحالة الأوروبيين في القرن التاسع عشر. يشير شارل دوفوكو في الصفحات الأولى من مذكرات سفره إلى أنه: "لا توجد شبكة طرقية بالمغرب. لا توجد فيه سوى شبكة كبيرة جدًا من المسالك المتشابكة بعضها ببعض وتشكل متاهات حيث سرعان ما يضيع المسافر، اللهم إذا كانت لديه معرفة

---

[9] قوةالأمر المقضي به هي النتيجة القانونية لحكم دخل حيز التنفيذ، ولم يعد قابلاً للاستئناف، ويُلزم الأطراف وجميع المحاكم ويمنعهم من اتخاذ أي قرار آخر بشأن نفس موضوع النزاع.

[10] كانت **تنازلات** الإمبراطورية الشريفية عبارة عن سلسلة من الاتفاقيات بينها وبين القوى الأوروبية. اتفاقيات تخول حقوقا وامتيازات لمواطنيها المقيمين في الإمبراطورية وللمحتمين بها من المغاربة. وكان من بينها حق التقاضي بالقنصليات بدلا من المحاكم المحلية، اللهم في حال ما كان المشتكي من الأهالي غير المحميين، حيث يحظى المواطن الأجنبي أو المغربي المحمي بمؤازرة قنصلية البلاد الحامية.

[11] فريديريك أبيكاسيس هو طالب فرنسي سابق بالمدرسة العليا للأساتذة في فونتيناي سان كلاود وأستاذ مبرز في التاريخ. درس في مصر من 1989 إلى 1996 ثم في جامعات كليرمون فيران بفرنسا، وأخيراً في المدرسة العليا للأساتذة حيث كان محاضرًا في التاريخ المعاصر منذ عام 2000.

عميقة بجغرافية البلد. تتشكل من مسالك هينة في السهول، لكنها غالبا ما تكون صعبة وخطيرة للغاية عبر الجبال. ومع ذلك فإنها تربط بين كل المناطق وفي جميع الاتجاهات. وتكشف شيئًا فشيئًا، وبطريقة لا تصدق، عن تواصل عام بين الناس وعن سريان للأخبار والسلع والمال"[12].

إذا كانت المسالك المغربية في القرن التاسع عشر لا تشبه الطرق الأوروبية على الإطلاق، فقد تشكلت منذ فترة طويلة بفعل مرور الإنسان ودوابه المحملة بالبضائع في عرض يسمح له بتتبعها. وهي نوعان: المسالك العامة التي كانت تسمى طرق السلطان، والتي كان المخزن يضمن سلامتها. ثم المسالك الثانوية التي كانت تسمى أحيانًا "طْريق البغال" أو "طْريق لحْمارة". وكانت تلبي الاحتياجات المحلية. لكن ما كان يمكن للمسافر السير بها من دون دفع تكلفة المرافق المسمى "الزّطّاط"[13] لحمايته.

كانت "الزّطاطة" حرفة رسمية، شرعها العلماء من باب الضرورة، لضمان سلامة المسالك، ولا سيما لعبور أراضي القبائل المتمردة على المخزن. كان يتم تجنيد المرافق "الزّطاط" من "نْزالة". كانت "النْزالات" محطات للتوقف والاستراحة والمبيت على طول طُرق السلطان. ومنها كان يتم استئجار خدمات الزّطّاطة لعبور المسلك الثانوية. وكان السفر في قافلة يمكّن من تخفيف التكلفة بتوزيعها على المجموعة.

كان التنقل بالمغرب بطيئا. متوسط سرعة القافلة سبع كلومترات في الساعة. وكانت المسافة بين محطات الاستراحة بالضرورة أقل من خمسين كلومتر. هكذا كانت الرحلة بين طنجة وفاس تستغرق سبعة أو عشرة أيام خلال فصل الصيف. وتستغرق أكثر من شهر خلال موسم الأمطار لما تصير المسارات موحلة وغير سالكة.

العجلة المعروفة منذ العصور العتيقة، نادراً ما كانت تستخدم في المغرب خارج المدن، حيث العربات التي أدخلها الأوروبيون في بداية القرن العشرين كانت لا تزال قليلة. وذلك بسبب تعداد حُفر المسالك التي تصبح موحلة مع هطول الأمطار، فتنغمس فيها العجلة بسرعة وتبقى فيها عالقة. هكذا كان النقل بواسطة الدواب أيسر.

كان يتم نقل البضائع في "تلّيس" وهو عبارة عن حصائر مخيطة، توضع على ظهر الجمال. أقصى حمولة البغال كانت تبلغ 200 كجم، وحمولة الإبل كانت تزن قنطارا إضافيا.

غالبًا ما كان المسافرون يسيرون على الأقدام. ونادرًا ما كانوا يسافرون على الكراسي المحمولة أو على ظهر الدواب. الجسور لعبور الأنهار كانت نادرة. هناك حوالي عشرون منها، يُنسب إنشاؤها إلى الاحتلال البرتغالي. أما عبور الأنهار فغالبا ما كان يتم على الأقدام من الجهات الضحلة. وفي بعض الأماكن كان بالإمكان عبورها مع أصحاب المراكب، مثل ما كان عليه الحال بين الرباط وسلا لعبور نهر أبي رقراق.

...قال لويس جنتي: "لما اختفى الرومان من المغرب، لم يبق فيه الكثير من شبكة الطرق الخاصة بهم. وعندما وصلنا تم تتبع المسالك الوحيدة المشكلة ببطانة أرجل الإبل الناعمة وحوافر الخيول والحمير والخراف"[14]. وكل تصورات الشبكة الطرقية التي أنشأتها الحماية لإضفاء الشرعية على نفسها كانت تجعل حداثة وسائل النقل الجديدة تتعارض تماما مع ما وجدته أمامها من وسائل النقل العتيقة التي عفا عليها الزمن، في بلاد تعتبر عذراء.

5. معوقات نشأة برجوازية رأسمالية

مقتطف من مقال باللغة الفرنسية تحت عنوان

"المعوقات المؤسساتية لتطور البرجوازية الرأسمالية في المغرب قبل الاستعمار، وسبل التغلب عليها"

بقلم ذ. أ. شاكر، جامعة فاس

في *Cahiers de la Méditerranée*، عدد 45 / 1، 1992.

---

[12] شارل دو فوكو ، الاعتراف بالمغرب: 1883-1884 ، باريس ، شركة النشر الجغرافي ، البحري والاستعماري ، 1888 ، ص. 3.

[13] انظر عبد الأحد السبتي، "بين الزطاط وقاطع الطريق : أمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار"، دار توبقال للنشر، 2009

[14] لويس جنتيل ، "طرق الاتصال في المغرب" ، في La Revue générale des Sciences، 15 أبريل 1914 ، عدد خاص عن المغرب ، ص. 341

يشير المؤرخ عبد الله العروي في أحد أعماله إلى أن الدولة في البلدان العربية المسلمة كانت منذ قرون سلطانية، في خدمة السلطان، ظل الله في الأرض. الجيش؟ هو يد السلطان. حروبها في الداخل أكثر من مواجهة الخارج. تحصيل الضرائب؟ هو تحصيل للأموال بمقدار حاجة الأمير وليس بحسب قدرات أداء الرعايا[15].

في الواقع بالمغرب، من أجل تعزيز سلطة المخزن، كان السلطان في حاجة إلى المال. إلا أن الأموال تأتي بشكل أساسي من الرسوم المفروضة على الفلاحين ومن الضرائب على النشاط التجاري والحرفي. هكذا يتولد الاستياء وتليه الثورات التي تستدعي القمع من قبل جيش تتطلب نفقاته المزيد من المال. وهكذا يجد المجتمع نفسه في مواجهة مع عنف مؤسساتي من قبل جهاز الدولة[16]. وهدف المخزن هو إعادة السكان إلى احترام النظام، وسحقهم إذا استمروا في العصيان[17].

فيما يتعلق، في هذه الحالة، بمصير البرجوازية المغربية في القرن التاسع عشر، يمكن للمرء أن يتساءل عن طبيعة هذه الطبقة. ما الذي يميزها عن شقيقتها الأوروبية التي، بكونها السبب في الثورة الصناعية، كانت في طليعة التطور التاريخي؟ نؤكد على ثلاثة عوامل على وجه الخصوص، نعتبرها قد شكلت عقبات أمام تطور هذه البرجوازية، وبشكل أعم أمام ظهور نظام رأسمالي محلي.

أولاها، ضغط الضرائب والرسوم المختلفة. في الريف، الفلاحون ضحايا استغلال وكلاء المخزن، كانوا غير قادرين على إنتاج وتوفير الفائض الزراعي الذي من شأنه أن يزيد من قوتهم الشرائية ويوسع السوق ويسهم بالتالي في انطلاق الأنشطة الصناعية الحضرية. لم يقتصر تحصيل الضرائب الشرعية (الزكاة) بشكل عام على عدم مراعاة الإمكانيات الحقيقية لدافعي الضرائب فحسب، بل تفاقم بسبب العديد من الرسوم غير الشرعية، والتي غالبًا ما تكون اعتباطية، مثل الصخرة والغرامة والمونة والحرْكة والهدية والدعيرة.

في الحاضرة، بالإضافة إلى الضرائب الشرعية، تم تقسيم الموكوس (الضرائب غير المباشرة) إلى "مكوس الباب" التي يتم تحصيلها عند دخول وخروج البضائع المعدة للبيع، و"مكوس السوق" المفروضة على المنتجات الغذائية والمواد الخام والمنتجات المستوردة أو المصنعة محليا. وهكذا أثقلت الموكوس أسعار المنتجات المصنعة في جميع المراحل. هذه الضرائب المضاعفة لا يمكن إلا أن تعيق الحرفيين وأن تثير التمرد الحضري، بالإضافة إلى معارضة العلماء للطبيعة غير الشرعية لهذه الضرائب.

العائق الثاني كان هو القيادة الاقتصادية العليا للدولة. في المغرب التقليدي، وحتى منتصف القرن التاسع عشر، سعى المخزن دائمًا وبنجاح إلى حد ما، إلى الهيمنة على وسائل الإنتاج الرئيسية من جهة، وعلى الأنشطة التجارية من جهة آخر. دعونا نتذكر أنه من خلال الاستيلاء على مناجم الفضة وعلى طرق التجارة الرئيسية، من خلال غزو القبائل والأراضي، الذي كان يتكرر من دون انقطاع، تمكنت الدولة من تثبيت وتطوير نفسها. لذلك كان المخزن منذ البداية هو المسيطر على حركة المرور. وكان يسهر دائمًا على أن يظل هو رائد الأعمال الرئيسي والتاجر الأول في البلاد[18]. فهذا التواجد المطلق وهذه القوة المطلقة للدولة المغربية، لم يسمح في كثير من الأحيان، بتطور بورجوازية مستقلة أو طبقة إقطاعية، كما كان الحال في أوروبا الغربية. بالرغم من وجودهما، لم تتمكنا من النمو إلا في ظل السلطة (المخزنية)، بحسب التعبير الخلدوني.

كانت التجارة في القرن التاسع عشر استغلالا إمبراطوريا. تابع السلاطين المتعاقبون عن كثب التبادلات التجارية الدولية، التي كانت مصدر أرباح كبيرة. فقط فئة محدودة من التجار تمتعت بالاحتكارات التجارية والامتيازات المالية. وحصل بعضهم على لقب تاجر السلطان. ومع ذلك، لم تكن أحوالهم مستقرة دائمًا. غالبا ما كانوا عرضة لمخاطر المضاربات والانتكاسات. أما بالنسبة للإنتاج الصناعي الصغير، فقد كان نظام الاحتكار عاملاً آخر في إفقاره.

أخيرًا، فقد شكلت التجمعات الحرفية ومؤسسة الحسبة العامل الثالث في إعاقة نشأة ونمو طبقة برجوازية رأسمالية. في أوروبا الغربية، لم يتطور الإنتاج ألرأسمالي وازدهار الطبقات البرجوازية إلا من بعد اكتساح التجمعات الحرفية (قانون توركُو

[15] عبد الله العروي "مفهوم الدولة" المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1981. ص. 129

[16] انظر دراسة M. MORSI ، "كيف نصف تاريخ المغرب" بالفرنسية، ص. 137 ، في بحث حديث عن المغرب الحديث، Actes de Durham, Publ. B.E.S.M.، الرباط ، 1979

[17] انظر جاك بيرك، داخل المغرب العربي بين القرن الخامس عشر والقرن التاسع عشر، بالفرنسية، دار النشر Gallimard، 1978. ص. 483

[18] انظر جورج عياش، أصول حرب الريف ، ص. 41، SMER، Publc. السوربون ، 1981

في فرنسا سنة 1776). لم يكن استمرار نظام التجمعات الحرفية في المغرب في القرن التاسع عشر قادرًا على الحد من المطالب المفرطة للمخزن ومن ابتزازات وكلائه (من أمناء، ومحتسبين). كما أنها لم تسمح بظهور فئات من رجال الأعمال من النوع الرأسمالي، خالية من كل عقبات فئوية. والأسوأ من ذلك، أن انفتاح البلاد على أوروبا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، سمح أيضًا بانتزاع المزيد من ثمار جهود المنتجين الصناعيين لصالح فئة التجار المفضلة عند السلطة المخزنية.

وأخيرًا، من المفيد إضافة ما لاحظه جميع المؤرخين في المغرب من أن الصناعات الأكثر تقدمًا لم تعرف أي تطور داخلي، لا عن طريق المكننة ولا عن طريق ترشيد عملية الإنتاج[19]. الضغط الضريبي وثقل القوانين والسيطرة المفرطة على وسائل الإنتاج وعلى آليات الاقتصاد وانعدام الثقة وهشاشة حرمة الأموال وعدم وجود حوافز للتراكم الرأسمالي، شكلت كلها عوامل إعاقة ورادعا قويا لانطلاق الاقتصاد ولتطور الفئة البرجوازية. من الواضح أنه بالإمكان تسليط الضوء بشكل أفضل على مثل هذا النظام الاجتماعي والاقتصادي إذا ما تم وضعه في السياق الثقافي والأيديولوجي والسياسي للمجتمع المغربي التقليدي.

وفي كل الأحوال، نجد أن البرجوازية المغربية الناشئة في القرن التاسع عشر، تبنت ثلاثة أنواع من المواقف من أجل التغلب على المكابح المؤسساتية بجميع أنواعها التي أعاقت نشاطها. بادئ ذي بدء، الاغتراب: مئات التجار، وأحيانًا عائلات بأكملها، من الطبقات العليا، لجأوا أكثر فأكثر إلى الاغتراب ببلدان الشرق وإفريقيا وحتى أوروبا. هناك طوروا نشاطهم الاقتصادي بحرية وأنشأوا مكاتب تجارية للاستيراد والتصدير مع المغرب. ذكر السيد بوشعرة في كتابه[20] أنه في عام 1860 تم تسجيل خروج حوالي 3000 مغربي إلى الخارج. 400 إلى 500 منهم ذهبوا إلى أوروبا الغربية.

يجب أن نتذكر هنا أنه في بداية القرن التاسع عشر، حظر السلطان مولاي سليمان (1822-1792) هجرة المغاربة باستثناء اليهود منهم. فحرم المسلمين من التجارة في أراضي العدو[21]. من ناحية أخرى، مولاي عبد الرحمن (1859-1822)، سوف يشرع في انفتاح تدريجي ومنضبط. كتب في رسالة إلى أحد وكلاء الموانئ: "لقد أصبحت المغادرة إلى الخارج الآن لعبة. مهمتك هي السماح بذلك فقط للرجال الشرفاء من أهل الدين وأصحاب المال[22]. وعاد العديد من هؤلاء التجار الأثرياء إلى البلاد في نهاية القرن لشغل مناصب مهمة في المخزن المعدّل.

الموقف الثاني للتغلب على المكابح المؤسساتية بجميع أنواعها التي أعاقت عمل برجوازية الأعمال المغربية هو اللجوء إلى الحماية الأجنبية[23]. نشأة هذه المؤسسة وتعميمها التي فجّرت الدائرة التقليدية المجمدة للرأسمالية والمتسببة في هشاشة حرمة الأموال[24] يعود أصلها إلى معاهدة 1767 المبرمة بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1790-1757) والملك لويس الخامس عشر. ومع المزيد من إبرام مثل تلك المعاهدات بين المغرب والقوى الأجنبية، فإنها لم تتوقف عن إضعاف سلطات المخزن وعن تهميش تطبيق الشريعة الإسلامية.

الموقف الثالث والأخير للتغلب على نفس المكابح المؤسساتية هو اندماج الطبقات البرجوازية العليا في المخزن المعدّل. مع مجيء السلطان مولاي الحسن (1894-1873)، وتحت ضغط خارجي في كثير من الأحيان، ولا سيما من إنگلترا، سيخضع المخزن التقليدي لإصلاحات مهمة. سيصبح جهازه المالي معقدًا وعقلانيًا بشكل لم يسبق له مثيل من قبل. وتتجه الإدارة نحو إتقان التخصصات وتنسيق مختلف آلياتها. هكذا تم اختراق هيئة أمناء المخزن والهيمنة عليها من قبل وجهاء أثرياء من رجال الأعمال الذين صاروا خبراء في المعاملات المالية. فتعززت ثرواتهم مع ثروات أسرهم المترامية الأطراف.

6. تهافت المغاربة على الحمايات القنصلية

بقلم آلان المسعودي تعليقا على كتاب
محمد كنبيب باللغة الفرنسية "المحميون. مساهمة في تاريخ المغرب المعاصر"

---

[19] انظر فالنسي، "المغرب العربي قبل احتلال الجزائر العاصمة" بالفرنسية، فلاماريون ، 1969. ص. 57

[20] محمد بوشعرة، "الهجرة والحماية"، المطبعة الملكية الرباط 1984، ج 1ص. 61

[21] الناصري، الاستقصا، ج 8 ، ص. 169 ، نقلاً عن استشهاد.بوشعرة، المرجع السابق. ص. 61-62.

[22] م. داود، تاريخ تطوان ، نقلاً عن محمد بوشعرة، المرجع السابق. ص. 62.

[23] من شطط المخزن

[24] م. كنبيب ، حماية الأفراد وعهد الحماية والقومية (1904-1938) بالفرنسية، Hespéris-Tamuda ، المجلد. XVm-78-79 ، ص. 173-197.

الحق في نظام الحماية، الذي كان مخصصًا في البداية لأعضاء الهيئات الدبلوماسية[25] وتجار القوى المسيحية، امتد تدريجياً من الدائرة المحدودة من حول القناصل ليشمل دائرة المرتفقين الموسعة من جميع المغاربة الذين لديهم علاقة تجارية مع التجار الأوروبيين. هكذا صار المغاربة المحميون[26] يتمتعون بحصانة القوى الأجنبية. فصاروا معفيين من دفع أية ضريبة للمخزن ومن المساهمة في أية خدمة عسكرية لصالحه. وصاروا خارج نفوذ محاكم السلطان، ويعرفون في حالة حدوث نزاع، كيف يحصلون على المساعدة والمساندة من الهيئات الدبلوماسية للقوى الخارجية التي تحميهم.

ينقسم المحميون المغاربة إلى أربع فئات. في أول الأمر نشأت منهم فئتان بشكل رئيسي في المدن الساحلية. أولها فئة الموظفين بالقنصليات كخدم وكتاب ومترجمين. وتتشكل الفئة الثانية من الممثلين التجاريين للشركات الأوروبية الذين كان معظمهم من اليهود. الفئتان الباقيتان هما فئة المخالطين وفئة المحميين السياسيين. المخالطون هم الشركاء الزراعيون للتجار الأوروبيين الذين يسلمونهم الصوف والحبوب مقابل البذور أو المنتجات المصنعة أو السلفات النقدية. وهم أصل تشكل الضيعات الكبيرة الخارجة عن سيطرة المخزن. في بعض الأحيان، وبشكل تصاعدي، صار المخالطون يتبادلون منتجاتهم مع التجار الأوروبيين في مقابل مجرد الحصول منهم على بطاقة الحماية القنصلية، التي كانت تضمن لهم كل الإعفاءات من الالتزامات الواجبة للمخزن مع امتياز الإفلات من العقاب.

أما المحميون السياسيون فقد كانوا يدينون في الواقع بهذا الامتياز لخدماتهم الاستثنائية، وللنفوذ الذي كان يُتصور عندهم. فكان يتم تجنيدهم حتى من بين الخدام التقليديين للسلطان. التجار المميزون السابقون (تجّار السلطان) وشريف زاوية وزان[27] صاروا من بين الداعمين الرئيسيين للقوى الأوروبية. وصار المخزن في الواقع عالقا في حبال نفس الحماية التي مست القضاة وجباة الضرائب وفي نهاية المطاف حتى الوزراء[28].

في عام 1860، هزمت إسبانيا المغرب. فصار السلطان مجبرا على دفع تعويضات حرب كبيرة إلى المنتصر، بالإضافة إلى النفقات التي تحملها لتحديث جيشه، وإلى سداد القروض التي تم التعاقد عليها مع إنكلترا. الأمور التي أسفرت مجتمعة عن زيادة في الضرائب وعن تغيير في قاعدتها فأفقدتها مشروعيتها الدينية. وذلك لما أعاد السلطان العمل باستخلاص رسوم المِكس، وهي ضريبة تُفرض على البضائع عند أبواب المدن ومخالفة لطبيعة الزكاة. لم يعد العَشر، كما كان الحال شرعا، يُفرض فقط على المنتجات، بل على وسائل الإنتاج (زوج دواب الحرث، والقطعان). وذلك بصرف النظر عن كميات المحاصيل الزراعية.

هذه التعديلات، التي تقوض العقد الاجتماعي الذي يربط السلطان ورعاياه، شجعت عددًا متزايدًا منهم على الفرار من الضغط الضريبي بوضع أنفسهم تحت حماية السلطات القنصلية. هذه الحركة صارت لا رجعة فيها. مؤتمر مدريد سنة 1880، الذي انتظر منه السلطان إلغاء الحماية على العكس من ذلك، عززها باتفاقية دولية.

من ناحية، محميون متدينون ظلوا يؤدون فريضة الحج. ومن ناحية أخرى شكل المحميون والمتجنسون لاحقا في عهد الحماية أرضًا خصبة للنشطاء الوطنيين. الجنسية الأجنبية والحماية القنصلية التي تخلت عنها لندن فقط عام 1938 وواشنطن فقط عام 1956! كانت تضمن حرية التصرف التي كانت تشجع النشاط السياسي. والمحميون الذين اعتادوا على امتلاك حقوق ظلوا يطمحون إلى الحفاظ عليها أو استعادتها. الأمر الذي جعلهم يصطدمون مع سلطات الحماية الفرنسية، فاتخذ عنده شكلاً قومياً.

7. تهافت القوى الغربية على احتلال البلاد

بقلم د. طالب عبد السلام السلف الذكر

---

[25] نقرأ مقلا في من المعاهدة الأنجلو-مغربية ، 9 نوفمبر 1865أن : " القائم بالأعمال البريطاني أو أي وكيل سياسي آخر معتمد من قبل ملكة بريطانيا العظمى لدى سلطان المغرب وكذلك القناصل البريطانيين الذين سيقيمون في ولايات سلطان المغرب. سيتم احترامهم وتكريمهم بطريقة تليق برتبتهم. وستكون بيوتهم وأسرهم معفاة من كل التزامات محلية ومحمية.... ويكون للقائم بالأعمال الحرية في اختيار مترجميه وخدمه من بين المسلمين أو غيرهم، ولن يُجبر أي من المترجمين والخدم على دفع أي ضريبة أو رسوم أخرى مماثلة.

[26] كان هناك طلب كبير على الحماية القنصلية من طرف المغاربة، بل وحتى على شرائها ليحموا أنفسهم من تجاوزات المخزن وجبايته ومن اعتباطية قضائه.

[27] وهو شيخ الزاوية الوزانية مولاي عبد السلام شريف وزان الذي تزوج من فتاة انكْليزية تدعى إميلي كايين بمدينة طنجة.

[28] بمنح الحماية لوزير الحرب المنبهي بعد سقوطه، كانت تلمح المفوضية الإنكليزية لأعوان المخزن النافذون ما تمثله حمايتها كضمان أكيد ضد مخاطر تقلبات السياسة المستقبلية.

سياسة المخزن الجائرة التي تتمثل في المزيد من الضغط الضريبي على السكان قدر الإمكان، من دون ضمان أي شيء في المقابل، تميل إلى أن تقود البلاد إلى خراب مؤكد. مع هذا النظام المجحف، فإن الانتعاش الاقتصادي مستحيل. وطالما كان المغرب منعزلاً من دون علاقات مع أي دولة أخرى أكثر تقدمًا منه، فقد ظال قائما ككيان مستقل، على الرغم من وضعه غير المستقر. ولكن منذ اليوم الذي فُتحت فيه الأبواب أمام القوى الأوروبية[29]، فقد انتهى الأمر. وبالفعل فإن الاتصال العنيف بين موارده المالية، بما يتناسب مع احتياجاته المحدودة نسبيًا ومع حياته الخاصة، في مقابل الموارد المالية الأوروبية القائمة على ظروف اجتماعية مختلفة تمامًا، قد أضر بالمغرب بشكل خطير وفاقم من اضطرابه.

يقال عندما يُعرف الداء من السهل إيجاد الدواء. لكن هذه المقولة ليست دائما صحيحة. المرض الذي يعاني منه المغرب مزمن وعلاجه يتطلب عدة شروط يكاد يكون من المستحيل تحقيقها لفترة طويلة جدًا. لكن ليس من المستحيل أن يستعيد عافيته بالكامل. لا تزال هناك أمامه حلول قد تسمح له بالانتعاش من جديد ودون معاناة كبيرة[30]. في رأينا، العلاج الأول لهذا الوضع المؤسف للإمبراطورية المغربية، سيكون تكوين نخبة مثقفة من بين حكام الغد، قادرة على التفاعل بشكل مفيد. ولا يمكن أن تنجح هذه المحاولة إلا من خلال إعدادها الجاد بمؤسسات التعليم الثانوي والعالي الفرنسية. حينها فقط سيفهم الشباب المغربي الحاصل على تعليم متين أن توفير المال العام ليس من أجل الإنفاق على أهواء المسئولين[31].

من ناحية أخرى، ينبغي أن يأتي هذا الإصلاح من أولئك الموجودين على رأس الدولة، والذين يمكنهم وحدهم أن يكونوا قدوة لمرؤوسيهم باستخدام موارد الدولة في المصلحة العامة للسكان. ومن أجل ذلك، لا ينبغي قلب كل المؤسسات وكل الآليات الموجودة رأسا على عقب. بل ينبغي المضي قدما في الإصلاحات بالتدرج[32]. أما بالنسبة للمسئولين الحاليين، فسيكون من الضروري استبدالهم شيئًا فشيئًا، بآخرين أمناء ومتعلمين ومدركين لواجباتهم.

من ناحية أخرى، وأخيرًا، بما أنه لا شيء يتم من دون نظام وأمن، سيكون من اللازم تنظيم الجيش الذي بفضله ستكون السلطة المركزية قادرة على فرض قرارات مستوحاة من العدل والإنصاف من أجل خدمة الصالح العام بالبلاد. هكذا من خلال التقليل التدريجي من تجاوزات المخزن الفاضحة، سيكون من الممكن استخدام الإيرادات المتزايدة في التنمية الاجتماعية والاقتصادية للبلد وفي رفاهيته وتعليمه وازدهاره.

لكن من المؤكد تمامًا أنه لا يمكن الحصول على هذه النتائج إذا بقي المغرب متروكا لنفسه. بقاؤه مهملا هكذا سيؤدي به إلى الإفلاس بلا شك وبشكل سريع وكامل. لذا فهو ملزم، إذا رغب في تجنب ذلك الخراب شبه المؤكد، أن يطلب دعم وتعاون دولة أخرى أكثر تقدمًا. وهناك أربع قوى أوروبية تتقدم له بالفعل، وتعرض عليه تلقائيًا مساعيها الحميدة في حالة موافقته على الاستماع إلى مقترحاتها. إحدى هذه القوى هي إنكلترا ولكنها تنحّت بالفعل. لظهورها مهتمة فقط بمصير الإمبراطورية المغربية، مُنحت (بموجب الاتفاقية الفرنسية الإنجليزية لعام 1901) الامتيازات التي أعلنت أنها راضية عنها. وينبغي التنويه بتنحيها لأن أول اتصال بهذه القوة الأنانية هو الذي أدى إلى تفاقم الوضع في المغرب وإلى تحويل هذا البلد إلى الحالة المحزنة التي يجد نفسه فيها الآن.

وفي المرتبة الثانية هناك ألمانيا التي، على الرغم من التعاطف المنافق الذي تظهره للمسلمين، فإنها لا تحلم سوى بوضع يدها على الإمبراطورية المغربية كي ترمي فيها بعشرة ملايين من رجالها الذين يثقلون كاهلها ثم بسلعها الكاسدة. تواجد هذه القوة بالمغرب لن يكون أقل ضررا للمغاربة مما تصير عليه الأرض الخصبة لما تغزوها أسراب الجراد التي تنهم وتدمر كل ما تجده في طريقها.

القوة الأوروبية الثالثة التي تطمع في المغرب هي إسبانيا. يجب أن تكون الإمبراطورية المغربية ضعيفة للغاية حتى تطمع قوة مثل إسبانيا في الاستقرار بها. في الواقع الإسبان هم في حاجة ماسة إلى إعادة تنظيمهم الداخلي قبل التفكير في الذهاب لإنعاش دول أخرى. مواردهم المالية، على وجه الخصوص، ليست أفضل من تلك الخاصة بجيرانهم المغاربة. من ناحية أخرى، فإن الإسبان معروفون جدًا بتعصبهم وعدم تسامحهم. ولا تزال ذكرى محاكم التفتيش عالقة بأذهان الجميع. وأخيراً، فإن قسوتهم

---

[29] بالرغم من مقاومته الشرسة والطويلة جدا

[30] ما كان بإمكان المؤلف هنا في عام 1911 أن يشك في أن الحل سيكون هو الحماية في عام 1912.

[31] لم يكن بإمكان المؤلف في عام 1911 أن يشك في أن الحل الذي اقترحه هنا سيكون إحدى ثمار الحماية من عام 1912 إلى عام 1956 مع جيل السلطان محمد الخامس الذي أصبح ملكًا عند استقلال البلاد.

[32] وتلك كانت بالضبط سياسة المقيم العام الفرنسي المارشال ليوطي منذ بداية الحماية سنة 1912

واستبدادهم واستغلالهم المخزي للأهالي الأصليين جعلتهم يفقدون كل إمبراطوريتهم الاستعمارية الهائلة. فليفكروا في الاعتناء بأنفسهم قبل التفكير في تنوير غيرهم الذين يعتقدون أنهم أدنى منهم[33].

وأخيرًا، كانت فرنسا هي آخر قوة أوروبية عرضت تعاونها على سلطان المغرب. لقد وعدنا أن نعطي رأينا بصراحة وإخلاص. فلا تتهموننا بالتحيز، بسبب جنسيتنا الفرنسية، لأننا نعلن بصوت عالٍ أن فرنسا وحدها هي التي يمكنها تجديد المغرب. إن سياستها معروفة جيداً بحيث لا تحتاج إلى الدفاع عنها. ومن المسلّم به أننا لا ننكر أنه في بداية غزو الجزائر ارتكبت فرنسا أخطاء جسيمة. أولاً وقبل كل شيء تركت العديد من المالطيين والإسبان والإيطاليين يستغلون الأهالي الأصليين من دون خجل. لقد نهبوا أراضيهم بشكل فظيع. ثم من دون وجه حق، منحتهم ومنحت اليهود الجزائريين الجنسية الفرنسية مع كل ما يتعلق بها من امتيازات. بينما لا تزال هذه المنحة مرفوضة في حق المسلمين وهم الأهالي الأصليون في البلد.

ولكن بغض النظر عن هذين التظلمين، كانت سياسة فرنسا دائمًا، مقارنة بسياسات القوى الأوروبية الأخرى، أكثر تسامحًا وأكثر إنسانية وأكثر ليبرالية. المسلمون الستة ملايين تحميهم الآن بفضل ما توفره لهم من أمن لم يعرفوه من قبل. وبفضل التعليم الذي تغدق عليهم بسخاء فقد خطوا خطوة كبيرة نحو التقدم[34]. إذا أراد المغاربة أن يدركوا حيث توجد مصالحهم بالكامل، فإنهم سيرحّبون بتعاون فرنسا الصادق والمخلص بأذرع مفتوحة[35]. علاوة على ذلك، نحن مقتنعون بأن الجزء الأكبر من سكان المغرب سيكونون سعداء بالتخلص نهائياً من نيْر استبداد المخزن المزاجي والمتهور. الاستغلاليون وحدهم سيُظهرون مقاومة شديدة ضد تدخل قوة أوروبية في شؤونهم المشبوهة والمظلمة.

[33] ومع ذلك ، كان المغرب ضعيفًا للغاية، لدرجة أنه بعد عام واحد فقط من نشر هذا الكتاب للدكتور طالب عبد السلام ، صار شمال وجنوب البلاد من نصيب إسبانيا بموجب معاهدة الحماية المؤرخة بـ 30 مارس 1912.

[34] لماذا بسخاء، من حيث أن كل الخدمات العامة مدفوعة الأجر مسبقًا من الأموال العامة التي يدفعها دافعو الضرائب الجزائريون الأصليون ؟

[35] أولاً، هل كان لديهم خيار أفضل؟ ثم هل كانوا يسألون عن رأيهم ؟

المصادر والمراجع

- **Louis Chénier**, *Recherches_historiques_sur_les_Maures*, Bailly, Royer & Polytype, Paris, 1787.
- **William Lemprière**, *Voyage dans l'empire de Maroc et le royaume de Fez*, TAVERNIER, LEGRAS & CORDIER, Paris, 1801
- **James Grey Jackson**, *An Account of Morocco and the District of Suse,* FRANCIS NICHOLS, Philadelphia, 1810.
- **Domingo Francisco Jordi Badía y Leblich**, *Voyages d'Ali Bey el Abbassi en Afrique et en Asie pendant les années 1803, 1804, 1805, 1806 et 1807*, P. Didot l'aîné ,Paris, 1814.
- **René Caillié**, *Journal d'un voyage à Tombouctou et a Jenné dans l'Afrique centrale*, imprimerie royale, Paris 1830.
- **Oskar Lenz**, *Timbouctou : voyage au Maroc, au Sahara et au Soudan*, **HACHETTE** & C^IE^, Paris, 1886.
- **Charles de Foucauld**, *Reconnaissance au Maroc*, *1883-1884*, CHALLAMEL & C^IE^, Paris, 1888.
- **François Fernand Jean Léon Linarès**, *Voyage au tafilalet avec s. m. le sultan Moulay hassan en 1893,* in Bulletin de L'Institut d'Hygiéne du Maroc » (No Ill et IV 1932)
- **Gabriel Antoine Veyre**, *Dans l'intimité du Sultan,* LIBRAIRIE UNIVERSELLE, Paris
- **Walter Burton Harris**, *Morocco that was,* William Blackwood and Sons, Edinburgh and London 1921

هذا الكتاب يتشكل من نصوص مختارة لمؤلفين أجانب زاروا وأقاموا بالمغرب اتباعا ما بين منتصف القرن الثامن عشر وبداية القرن العشرين. وتعد مؤلفاتهم شهادات من تاريخ البلاد أرضا وشعبا وحكْما، بآذان وأعين وأقلام أجنبية.

كلهم كانوا بشكل أو آخر جواسيس. فكان يتم استخدام شهاداتهم كوثائق استخباراتية من طرف حكومات القوى الأوروبية. ومع ذلك، إذا ما تنبهنا لخلفياتهم السياسية واستحضرنا أفكارهم المسبقة، سيمكننا أن نطل من خلال مؤلفاتهم ولو على القليل من حقيقة أحوال ماضي أرض بلدنا وأجيال شعبها ونمط حكمها، ولا سيما بالمقارنة حينها مع أحوال بلدانهم المتطورة والمتقدمة.

الأمور والأحداث التي كان من شأنها إثارة فضول الأجنبي بالمقارنة مع ما يجري في بلاده الأصلية ما كان ليُلقي لها بال المغربي. لقد كانت عنده أمورا عادية فما كانت تستحق منه تدوينها.

وبالنظر لما يعرفه عموم المغاربة عن ماضي بلدهم عبر المقررات المدرسية ومختلف وسائل الإعلام فلن يسعُهم إلا أن يندهشوا ويستغربوا ويستمتعوا ويستفيدوا في الآن نفسه بالاطلاع على مضامين تلك المؤلفات الاستكشافية. وسيدركون وسيتأكدون من أن حاضر المغرب أفضل بكثير من ماضيه، وأن ما لا يزال فيه من سوء الأحوال هو أقل سوءا وبكثير من أحوال أسلافنا. فيسعون للمزيد من التقدم بالوطن إلى الأمام، بدلا من أن يوجد من بينهم من يهدد أمنه وأمن شعبه من أجل إعادة إنتاج أمجاد مُتوهّمة. وقد صدق من قال "إن الأمة التي لا تعرف حقيقة ماضيها قد لا تُحسن صياغة وبناء مستقبلها".

هكذا، هذا الكتاب هو بالأساس ثقافي وتربوي. يجمع بين التشويق والمتعة والفائدة. كتاب يستحق أن يتوفر كل بيت مغربي على نسخة منه حتى يطلع على مضمونه الصغير قبل الكبير .

ذ. المصطفى حميمو



ذ. المصطفى حميمو

———

حاصل على الإجازة في الاقتصاد والماستر في إدارة الأعمال

من جامعة لييج ببلجيكا

وعلى دبلوم الدراسات الجامعية العامة مسلك الدراسات الإسلامية

من كلية الآداب والعلوم الإنسانية

بعين الشق بالدار البيضاء

من تأليفه:

مقترح حل أزمة التعليم بالمغرب بتحديث هندسته التنظيمية

—

صفحات من تاريخ المغرب عن شهود عيان أجانب

GSM : 0666263932